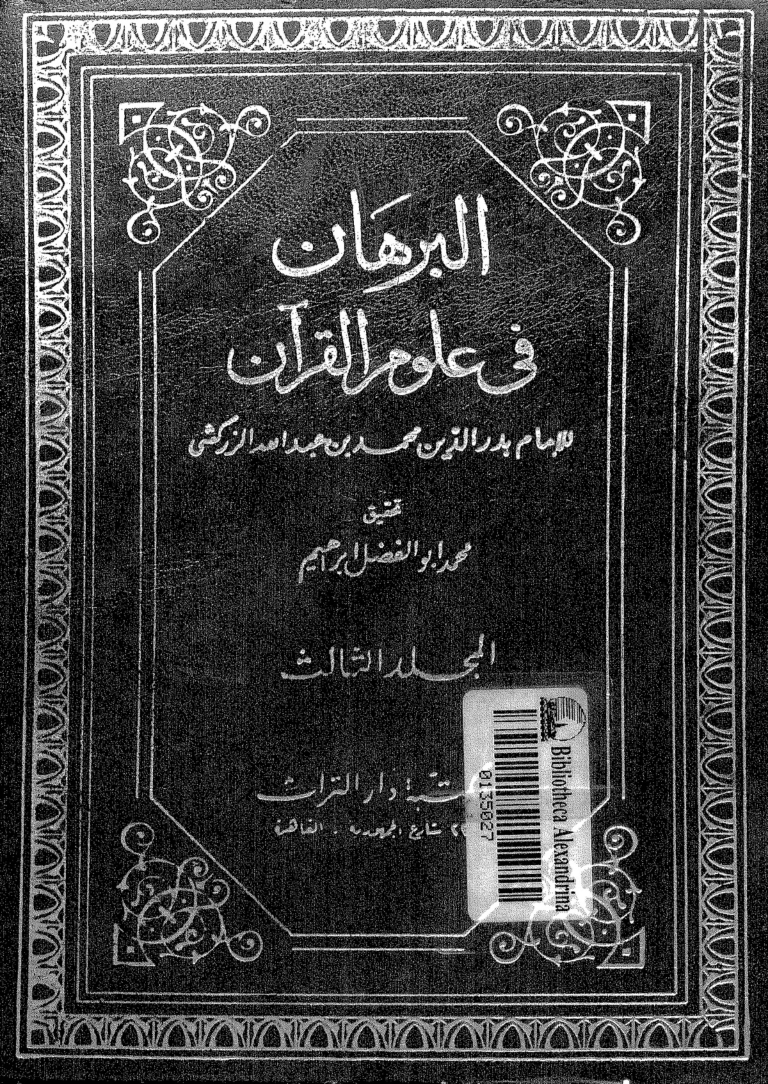

البرهان
في علوم القرآن
للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي
تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم
المجلد الثالث
...تبة دار التراث
...٢ شارع الجمهورية . القاهرة
Bibliotheca Alexandrina
0135027



للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثالث

الطبعة الثانية
[منقحة محررة]

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الحادى عشر

المثنى وإرادة الواحد(*)

كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾[1] ؛ وإنما يخرج من أحدهما .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[2]، وإنما تخرج الحلية من « المِلْح »[3] ، وقد غلط فى هذا المعنى أبو ذؤيب الهذلى حيث، قال يذكر الدُّرة :

فجاء بها ما شئتَ من لَطَمِيّةٍ   يَدُومُ القرات فوقها ويموج[4]

والقرات لا يدوم فوقها ؛ وإنما يدوم الأجاج .

وقال أبو علىٍّ فى قوله تعالى : ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[5] : إن ظاهرَ اللفظ يقتضى أن يكون من مكة والطائف جميعاً ؛ ولما لم يمكن أن يكون منهما، دلّ المعنى على تقدير : « رجل من إحدى القريتين » .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾[6] أى فى إحداهنّ .

---

* تابع أقسام التوكيد ؛ وهو الأسلوب الأول من أساليب القرآن ، المندرجة تحت النوع السادس والأربعين ؛ وأوله فى الجزء الثانى ص ٢٨٢

(١) سورة الرحمن ٢٢   (٢) سورة فاطر ١٢

(٣) وهو المذكور فى أول الآية من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . . ﴾

(٤) ديوان الهذليين ١ : ٥٧ . واللطمية : الدرة المنسوبة إلى اللطيمة ؛ وهى السوق التى تباع فيها العطريات . ويدوم القرات ؛ من دام الماء بمعنى سكن وركد . وروى بعضهم : « تدوم البحار » مكان « القرات » ؛ وبهذا يسلم البيت من النقد . وانظر ديوان الهذليين وحواشيه .

(٥) سورة الزخرف ٣١   (٦) سورة نوح ١٦

وقوله تعالى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾[1]، والناسي كان يوشع، بدليل قوله لموسى : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾[1] ؛ ولكن أضيف النسيان لهما جميعا لسكوت موسى عنه .

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾[2] والتعجيل يكون فى اليوم الثانى ، وقوله : ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ،قيل : إنه من هذا أيضاً ، وإن موضع الإثم والتعجيل يجمل للتأخر الذى لم يقصّر مثل ما جعل للمقصّر . ويحتمل أن يراد : لايقولنّ أحدُهما لصاحبه: أنت مقصّر؛ فيكون المعنى : لا يؤثّم أحدُهما صاحبه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾[4] ، أى أحدهما ، على أحد القولين.

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[5] فالجناح على الزّوج لأنه أخذ ما أعطى ؛ قال أبو بكر الصيرفىّ : المعنى : فإن خِيف من ذلك جازت الفِدْية ، وليس الشرط أن يجتمعا على عدم الإقامة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾[6]، قيل هو خطاب للملك . وقال المبرد : ثنّاه على « ألق » ، والمعنى : ألق ألق[7] ، وكذلك القول فى « قِفا »[8] وخالفه أبو إسحاق ، وقال : بل هو مخاطبة للملَكين .

---

(١) سورة الكهف ٦١ ، ٦٣

(٢) سورة البقرة ٢٠٣

(٣) سورة النساء ١١

(٤) سورة الأعراف ١٩٠

(٥) سورة البقرة ٢٢٩

(٦) سورة ق ٢٤

(٧) نقله صاحب الكشاف : ٤ : ٣٠٧ ؛ والعبارة فيه: «إن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل؛ لاتحادهما كأنه قيل : ألق ، ألق» .

(٨) يشير الى ما نقله صاحب الكشاف أن العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ؛ فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليلىّ وصاحبىّ ، وقفا وأسعدا ؛ حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين » .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] قال : يخاطب الإنسانُ مخاطبه بالتثنية .

وجعل منه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[2] : وقوله تعالى : ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾[3] فقيل : جنة واحدة بدليل قوله تعالى[4] آخر الآية : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾[5] فأفرد بعد ماثنى .

وقوله : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾[6] فإنه ما ثنى هنا إلا للإشعار بأن لها وجهين ، وأنك إذا نظرت عن يمينك ويسارك رأيت في كلتا الناحيتين ما علأ عينك قرة ، وصدرك مسرة .

وقوله تعالى: ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[7] وإنما المتخذُ إلٰها عيسى دون مريم ؛ فهو من باب « والنجوم الطوالع »[8] قاله أبو الحسن ، وحكاه عنه ابن جني في كتاب « القد » وعليه حمل ابنُ جني وغيرُه قولَ امرئ القيس :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *[9]

---

(١) سورة الرحمن ١٣ (٢) سورة الرحمن ٤٦

(٣) سورة الكهف ٣٢ ؛ والآية : ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ . . . ﴾

(٤) كذا في الأصل ؛ ولعل صواب العبارة : « بعد هذه الآية » .

(٥) سورة الكهف ٣٥ (٦) سورة الكهف ٣٣

(٧) سورة المائدة ١١٦ (٨) إشارة إلى بيت الفرزدق :

أخذنا بآفاقِ السَّماءِ عليكمُ لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

ديوانه ٥١٩ ، و « لنا قمراها » يريد الشمس والقمر ، وانظر جنى الجنتين ١٢٧

(٩) ديوانه ٨ وبقيته :

* بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ *

ويؤيده قوله بعده :

* أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ *[١]

وقول الفرزدق :

عَشِيَّةَ سَالَ المِرْبَدَانِ كلاهُما سَحابة موت بالسيوف الصوارم[٢]

وإنما هو مرْبد البصرة فقط .

وقوله : « ودار لها بالرقمتين »[٣]

وقوله : « ببطن المكتين »[٤] .

وقول جرير :

لمـــا مررتُ بالدَّيْرَيْن أرّقني صَوْتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنَّواقِيس[٥]

قالوا : أراد « دير الوليد »[٦]؛ فثناه باعتبار ما حَوْله .

القسم الثانى عشر

إطلاق الجمع وإرادة الواحد

كقوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلرسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ ﴾[٧] ، إلى قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ

---

(١) ديوانه ٢٤ وبقيته :

* كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ *

(٢) ديوانه ٨٦١ ؛ وروايته : « عجاجة موت » . (٣) من قول زهير :

ودارٌ لهـا بالرَّقْمَتَيْن كأنَّهَا مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

ديوانه ٥ .. والرقمتان : روضتان بناحية الصمان؛ وهو هنا من المثنى الحقيقى؛ فلا يكون موضعا للشاهد.

(٤) أورد المرتضى منه قول الشاعر :

فَقُولَا لأَهْلِ المَكَّتَيْنِ تَحَاشَدُوا وَسِيرُوا إِلَى آطَامِ يَثْرِبَ والنَّخْلِ

الأمالى ٢ : ١٨٤ (٥) ديوانه ٣١١

(٦) دير الوليد ؛ بالشام ، قاله ياقوت . (٧) سورة « المؤمنون » ٥١

﴿ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾[1] ، قال أبو بكر الصيرفى : فهذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وحده ؛ إذ لا نبىّ معه ولا بعده .

ومثله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . ﴾[2] الآية ، وهذا مما لا شريك فيه ، والحكمة فى التعبير بصيغة الجمع أنه لما كانت تصاريف أقضيته سبحانه وتعالى تجرى على أيدى خلقه نزّلت أفعالهم منزلة قبول القول بمورد الجمع .

وجعل منه ابن فارس قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[3] ، والرسول كان واحدا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾[4] .

وفيه نظر ؛ من جهة أنه يحتمل مخاطبة رئيسهم ، فإنّ العادة جارية ـ لاسيّما من الملوك ـ ألّا يرسلوا واحدا .

ومنه : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾[5] وغير ذلك ؛ وقد تقدم فى وجوه المخاطبات[6] .

ومنه : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾[7] ، والمراد جبريل .

وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[8]؛ والمراد محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾[9] ؛ والمراد بهم ابن مسعود الثقفى[10] ؛ وإنما

---

(١) سورة « المؤمنون » ٥٤
(٢) سورة الزخرف ٣٢
(٣) سورة النمل ٣٥
(٤) سورة النمل ٣٧
(٥) سورة الشعراء ٢١
(٦) الجزء الثانى ص ٢١٧ وما بعدها
(٧) سورة النحل ٢
(٨) سورة النساء ٥٤
(٩) سورة آل عمران ١٧٣

(١٠) روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد : يامحمد، موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله ؛ فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران ؛ فألقى الله الرعب فى قلبه ؛ فبدا له أن يرجع ، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى ـ وقد قدم معتمرا ـ فقال : يانعيم؛ إنى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب، ولا يصلحنا =

جاز إطلاق لفظ « الناس » على الواحد؛ لأنه إذا قال الواحد قولا وله أتباع يقولون مثل قوله ، حَسُنَ إضافةُ ذلك الفعل إلى الكل؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾[1] ، ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾[2] والقائل ذلك رءوسهم . وقيل: المراد بالناس ركبٌ من عبد القيس[3] دَسَّهُمْ أبو سفيان إلى المسلمين وضَمِن لهم عليه جعلا ، قاله ابن عباس وابن إسحاق وغيرهما[4] .

القسم الثالث عشر

إطلاق لفظ التثنية والمراد الجمع

كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾[5] فإنّه وإن كان لفظه لفظ التثنية فهو جمع ، والمعنى « كرات » لأنّ البصر لا يحسُر إلا بالجمع .

وجعل منه بعضهم قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ﴾[6]

القسم الرابع عشر

التكرار على وجه التأكيد

وهو مصدر كرر إذا ردّد وأعاد ؛ هو « تَفْعال » بفتح التاء ؛ وليس بقياس، بخلاف التفعيل .

= إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى ، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جراءة ، فالحق بالمدينة وثبطهم ولك عندى عشر من الإبل . فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم: ماهذا بالرأى ، أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريدا ؛ فتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم ؛ فوالله لايفلت منكم أحد» . الكشاف ١ : ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(١) سورة البقرة ٧٢ (٢) سورة البقرة ٥٥

(٣) قيل : مر بأبى سفيان ركب من عبد القيس ؛ يريدون المدينة للميرة؛ فجعل لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوهم ؛ فكره المسلمون الخروج ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد ؛ فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل» . الكشاف ١ : ٣٤٠

(٤) تفسير الطبرى ٧ : ٤٠٩ (٥) سورة الملك ٤

(٦) سورة البقرة ٢٢٩

وقال الكوفيون : هو مصدر « فَعَّل » والألف عوض من الياء فى التفعيل .

والأول مذهب سيبويه .

وقد غلطَ مَنْ أنكر كونَه من أساليب الفصاحة، ظنا أنه لافائدة له ؛ وليس كذلك بل هو من محاسنها ، لاسيما إذا تعلّق بعضهُ ببعض ؛ وذلك أنّ عادة العرب فى خطاباتها إذ أبهمت بشىء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كرّرته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه ، أو الاجتهاد فى الدعاء عليه ، حيث تقصد الدعاء ؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم ، وكانت مخاطباتُه جارِيةً فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المَسْلَك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة . وعلى ذلك يحتمل ماورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد ، لأنّ الإنسانَ مجبول من الطبائع المختلفة ، وكُلُّها داعيةٌ إلى الشهوات ، ولا يقمع ذلك إلا تكرارُ المواعظ والقوارع ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾[1] قال فى « الكشاف »[2] : أى سهّلناه للادّكار والاتعاظ بأن نسجناه[3] بالمواعظ الشافية وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد .

ثم تارة يكون التكرار مرتين ؛ كقوله : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى . ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾[5] .

وقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[6] .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾[7] .

---

(١) سورة القمر ١٧
(٢) الكشاف ٤ : ٣٤٦
(٣) الكشاف : « شحناه » .
(٤) سورة المدثر ١٩ ، ٢٠
(٥) سورة القيامة ٣٤ ، ٣٥
(٦) سورة التكاثر ٦ ، ٧
(٧) سورة النبأ ٤ ، ٥

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾(١) .

وقوله : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾(٢) .

وفائدته العظمى(٣) التقرير ، وقد قيل : الكلام إذا تكرّر تقرر .

وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذى لأجله كرّر الأقاصيص والأخبار فى القرآن(٤) فقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٥) .

وقال : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾(٦) .

وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنًى ؛ خشية تناسى الأول ، لطول العهد به .

فإنْ أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾(٧) .

فأعاد قوله : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾(٧) بعد قوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ، لا لتقرير الأول ؛ بل لغرض آخر ؛ لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها ، ومعنى الثانى أنه يخصّ الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص ؛ ولذلك قدّم(٨) المفعول على فعل العبادة فى الثانى ،

---

(١) سورة آل عمران ٧٨
(٢) سورة التوبة ٦٩
(٣) ا : « ومن الفوائد العظمى التقرير » .
(٤) ت : « فيه » .
(٥) سورة القصص ٥١
(٦) سورة طه ١١٣
(٧) سورة الزمر ١١ – ١٥
(٨) ت : « تقدم » .

وأخّر في الأول ؛ لأن الكلام أولا في الفعل ؛ وثانيا فيمن فُعِل لأجله الفعل .

واعلم أنّه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل ، أما إذا وافق الأصل فلا ؛ ولهذا لا يتجه سؤالهم : لِمَ كرر « إياك » في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(١) .

فقيل : إنما كررت للتأكيد ، كما تقول : « بين زيد وبين عمرو مالٌ » .

وقيل : إنما كررت لارتفاع أن يتوهم — إذا حذفت — أنّ مفعول « نستعين » ضمير متصل واقع بعد الفعل ، فتفوت إذ ذاك الدلالة على المعنى المقصود ، بتقديم المعمول على عامله .

والتحقيق أنّ السؤال غير متجه ؛ لأنّ هنا عاملين متغايرين ، كلٌّ منهما يقتضي معمولا ، فإذا ذكر معمول كلّ واحد منهما بعده فقد جاء الكلام على أصله ، والحذفُ خلاف الأصل ، فلا وجهَ للسؤال عن سبب ذِكْرِ ما الأصلُ ذكره ، ولا حاجة إلى تكلّف الجواب عنه ، وقسْ بذلك نظائره .

[فوائد التكرير]

وله فوائد :

أحدها : التأكيد ؛ واعلمْ أنّ التكريرَ أبلغُ من التأكيد ، لأنه وقع في تكرار التأسيس ؛ وهو أبلغُ من التأكيد، فإنّ التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز ، فلهذا قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢) : إنّ الثانية تأسيس لا تأكيد ؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء فقال: وفي ﴿ ثُمَّ ﴾ تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول .

---

(١) فاتحة الكتاب ٣ (٢) سورة التكاثر ٣ ، ٤

وكذا قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾(٢)، يحتمل أن يكون منه، وأن يكون من المتماثلين .

والحاصل أنه : هل هو إنذار تأكيد(٣) ، أو إنذاران ؟ فإن قلت : « سوف تعلم ، ثم سوف تعلم » كان أجودَ منه بغير عطف ؛ لتجريه على غالب استعمال التأكيد ، ولعدم احتماله لتعدد المُخبَر به .

وأطلق بدر الدين بن مالك فى شرح « الخلاصة(٤) » أن الجملة التأكيدية قد تُوصل بعاطف ، ولم تختص بثم ، وإن كان ظاهر كلام والده التخصيص ؛ وليس كذلك؛ فقد قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾(٥)، فإن المأمور فيهما واحد، كما قاله النّحاس والزمخشرى والإمام فخر الدين والشيخ عزّ الدين ، ورجّحوا ذلك على احتمال أن تكون « التقوى » الأولى مصروفةً لشىء غير « التقوى » الثانية ، مع شأن إرادته .

وقولهم : إنه تأكيد ، فمرادهم تأكيد المأمور به بتكرير الإنشاء ، لا أنه تأكيد لفظىّ ، ولو كان تأكيدا لفظيا لما فصل بالعطف ، ولما فَصل بينه وبين غيره : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ﴾(٥) .

فإن قلت : « اتقوا » الثانية معطوفة على « ولتنظر » .

---

(١) سورة الانفطار ١٧ ، ١٨ (٢) سورة المدثر ١٩ ، ٢٠

(٣) ت : « مؤكد » .

(٤) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن مالك المتوفى سنة ٦٨٠ : شرح الألفية المعروفة بالخلاصة فى النحو ؛ وهو شرح منقح اشتهر بشرح ابن المصنف ؛ خطأ والده فى بعض المواضع . كشف الظنون ١٥١

(٥) سورة الحشر ١٨

أجيب بأنهم قد اتفقوا على أنَّ : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾(١) ، معطوف على ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾(١) ، لا على قوله : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾(١) ؛ وهو نظير ما نحن فيه .

وقوله تعـالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾(٣) ويحتمل أن يكون « اصطفاءين » و « ذكرين »، وهو الأقرب في الذكر، لأنّه محل طلب فيه تكرار الذكر .

وكقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾(٥) ، كرر « أولئك » .

وكذلك قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٦) .

وكذا قوله : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي . . . . ﴾(٧) إلى قوله : ﴿ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾(٧) ، كررت « أن » في أربع مواضع تأكيدا .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٨) .

* * *

الثاني : زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ، ليكمل تلقّي الكلام بالقبول ، ومنه قوله

---

(١) سورة البقرة ٨٣
(٢) سورة آل عمران ٤٢
(٣) سورة البقرة ١٩٨
(٤) سورة طه ٣٣ ، ٣٤
(٥) سورة الرعد ٥
(٦) سورة البقرة ٥
(٧) سورة القصص ١٩
(٨) سورة الزمر ١١ ، ١٢

تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾(١)، فإنه كرر فيه النداء لذلك .

* * *

الثالث : إذا طال الكلام وخُشِىَ تناسى الأول أعيد ثانيا تطرية له ، وتجديداً لعهده ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ(٢) وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ... ﴾(٣) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾(٤) ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾(٤) فهذا تكرار للأول ، ألا ترى أن لما لا تجيء بالفاء !

ومثله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ﴾(٥) ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾(٦) ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾(٦) .

ومنه قوله : ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾(٧)

وقوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾(٨) فقوله : ﴿ أنكم ﴾ الثانى بناء على الأول ، إذكاراً به خشية تناسيه .

وقوله : ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾(٩) .

---

(١) سورة المؤمن ٣٨ ، ٣٩ — (٢) سورة النحل ١١٩
(٣) سورة النحل ١١٠ — (٤) سورة البقرة ٨٩
(٥) سورة آل عمران ١٨٨ — (٦) سورة البقرة ٢٥٣
(٧) سورة يوسف ٥ — (٨) سورة المؤمنون ٣٥
(٩) سورة الروم ٧

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

بغير ﴿ إنا ﴾ وفى غيره من مواضع ذكر ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ ، لأنه يبنى على ما سبقه فى هذه القصة من قوله ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ ؛ فكأنه طوح فيما اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانياً . ولأن التأكيد بالنسبة ، فاعتبر اللفظ من حيث هو دون توكيده .

ويحتمل أن يكون من باب الاكتفاء ؛ وهذا أسلوب غريب، وقلّ فى القرآن وجوده، وأكثر ما يكون عند تقدم مقتضيات الألفاظ ، كالمبتدأ ، وحروف الشرطين الواقعين فى الماضى والمضارع . ويستغنى عنه عند أمر محذور التناسى .

وقد يرد منه شيء يكون بناؤه بطريق الإجمال والتفصيل بأن تتقدم التفاصيل والجزئيات فى القرآن ، فإذا خشى عليها التناسى لطول العهد بها بنى على ما سبق بها بالذكر الجلىّ ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ﴾[2] إلى قوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2] فقوله « فبظلم » بيان لذكر الجلىّ على ما سبق فى القول من التفصيل ، وذلك أن الظلم جلىّ على ما سبق من التفاصيل من النقض والكفر وقتل الأنبياء ، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[2] والقول على مريم بالبهتان ، ودعوى قتل المسيح عليه السلام ، إلى ما تخلل ذلك من أسلوب الاعتراض بها موضعين . وهما قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾[2] إلى قوله : ﴿ شَهِيدًا ﴾[2] ، وأنه لما ذكر بالبناء جلىّ الظلم من قوله « فبظلم » لأنه يعم على كل ما تقدم وينطوى عليه ، ذكر حينئذ متعلق الجلى من قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾[2] عقب الباء لأن العامل فى الأصل حقه أن يلىَ معموله ، فقال : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ

---

(١) سورة الصافات ١٠٥ ـ ١٠٧ (٢) سورة النساء ١٥٥ ـ ١٦١

الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا ﴾[١]؛ هو متعلق بقوله : ﴿ فَبِظُلْمٍ ﴾[٢]، وقد اشتمل الظلمُ على كلِّ ماتقدم قبله ، كما أنه أيضاً اشتمل على كل ما تأخر من المحرّمات الأُخَر التى عددت بعد ما اشتملت على ذكر الشىء بالعموم والخصوص ؛ فذكرت الجزئياتُ الأولى بخصوص كلٍّ واحد ، ثم ذكر العام المنطوى عليها ؛ فهذا تعميم بعد تخصيص . ثم ذكرت جزئيات أُخَر بخصوصها ، فتركيب الأساليب من وجوه كثيرة فى الآية ؛ وهو التعميم بعد التخصيص ، ثم التخصيص بعد التعميم ، ثم البناء بعد الاعتراض .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾[٢] إلى قوله : ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٢]، فقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ ﴾[٢] إلى قوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٢] هو المقتضِى الأول المتقدم ، وقوله ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾[٢] هو المقتضِى الثانى وهو البناء ، لأنه المذكّر بالمقتضِى الأول الذى هو « لولا » خشية تناسيه ، فهو مبنى على الأول ، ثم أورد مقتضاها من الجواب بقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾[٢] وروداً واحدا من حيث أخذا معا ، كأنهما مقتضى منفرد، من حيث هما واحد بالنوع ؛ وهو الشرط الماضى . فقوله: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾[٢] بناء على قوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ ﴾[٢] نظر فى المضارعة . وأما قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٣] فيجوز أن يكون تكريرا، ويجوز أن يكون الكلام عند قوله: ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ويكون الثانى بياناً لمجمل لا تكريرا .

وقد جعل ابن المنيّر[٤] من هذا القسم قوله تعالى . ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾[٥] ثم قال : ﴿ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[٥] .

(١) سورة النساء ١٦٠ (٢) سورة الفتح ٢٥
(٣) سورة النحل ١١٩
(٤) هو الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندرى ؛ صاحب كتاب الانتصاف بين فيه ماتضمنه كتاب الكشاف من الاعتزال ؛ وناقشه فى أعاريب وأحسن فيها الجدال؛ توفى سنة ٦٨٣ . كشف الظنون ١٤٧٧ (٥) سورة النحل ١٠٦

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ . . . ﴾(١) ثم قال : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾(١) ونازعه العراق(٢) لأن المُعاد فيهما أخصّ من الأول ؛ وهذا يجيء فى كثير مما ذكرنا، ولا بد أن يكون وراء التكرير شيء أخصّ منه كما بيّنا .

* * *

الرابع: فى مقام التعظيم والتهويل؛ كقوله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾(٣). ﴿ الْقَارِعَةُ ما الْقَارِعَةُ ﴾(٤) . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ وأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾(٧) .

وقوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ﴾(٨) .

* * *

الخامس: فى مقام الوعيد والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٩) وذكر «ثم» فى المكرر دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، وفيه تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر دائماً .

* * *

(١) سورة الفتح ٢٥

(٢) هو الإمام علم الدين عبد الكريم بن على العراقى، صاحب كتاب الإنصاف، جعله حكما بين الكشاف والانتصاف ، توفى سنة ٧٠٤ . كشف الظنون ١٤٧٧

(٣) سورة الحاقة ١، ٢

(٤) سورة القارعة ١

(٥) سورة القدر ١ ، ٢

(٦) سورة الواقعة ٢٧

(٧) سورة الواقعة ٨ ، ٩

(٩) سورة المدثر ٣١

(٩) سورة التكاثر ٦ ، ٧

السادس : التعجّب ، كقوله تعالى :﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ،(١) فأعيد تعجّباً من تقديره وإصابته الغرض ، على حدّ : قاتله الله ما أشجعه !

* * *

السابع : لتعدد المتعلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٢) ، فإنها وإن تعدّدت ؛ فكلّ واحد منها متعلق بما قبله ، وإنّ الله تعالى خاطب بها الثّقلَيْن من الإنس والجن ، وعدّد عليهم نعمه التى خلقها لهم ، فكلّما ذكر فصلا من فصول النّعم طلب إقرارَهم واقتضاهم الشكرَ عليه ، وهى أنواعٌ مختلفة ، وصور شتى .

فإن قيل : فإذا كان المعنىّ فى تكريرها عدَّ النعم واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾(٣) ؟ وأىّ نعمة هنا ! وإنما هو وعيد .

قيل : إن نعَم الله فيما أنذر به وحذّر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها، نظير أنعمه على ما وعده ، وبشر من ثوابه على طاعته ؛ ليرغبوا فيها ، ويحرصوا عليها؛ وإنما تتحقق معرفةُ الشىْ بأن تعتبره بضدّه ، والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذواتهما ، فإنهما متقاربان فى موضع النعم بالتوقيت على مِلاك الأمر منها، وعليه قول بعض حكماء الشعراء :

والحادثاتُ وإن أصابك بُؤسها فهو الذى أنباك كيف نعيمها

وإنما ذكرنا هذا ، لتُعلم الحكمةُ فى كونها زادت على ثلاثة ،ولو كان عائداً للشىْ واحد لما زاد على ثلاثة ؛ لأن التأكيد لا يقع به أكثر من ثلاثة .

فإن قيل : فإذا كان المراد بكلٍّ ماقبله ، فليس ذلك بإطناب ، بل هى ألفاظ أُريد بها غير ما أُريد بالآخر .

---

(١) سورة المدثر ١٩ ، ٢٠
(٢) سورة الرحمن ١٣ وما بعدها
(٣) سورة الرحمن ٣٥

قلت : إن قلنا : العبرة بعموم اللفظ ؛ فكل واحد أريد به غير ما أريد بالآخر .

وقد تكلف لتوجيه العدّة التى جاءت عليها هذه الآية مكررة ، قال الكرمانىّ : جاءت آية واحدة فى هذه السورة كُررت نيفا وثلاثين مرة ، لأن ست عشرة راجعة إلى الجنان ؛ لأن لها ثمانية أبواب ، وأربعة عشر منها راجعة إلى النعم والنقم ، فأعظم النقم جهنم ، ولها سبعة أبواب . وجاءت سبعة فى مقابلة تلك الأبواب ، وسبعة عقب كل نعمة ذكرها للثقلين .

وقال غيره : نبّه فى سبع منها على ما خلقهَ الله للعباد من نعم الدنيا المختلفة على عدّة أمهات النعم ، وأفرد سبعا منها للتخويف ، وإنذاراً على عدة أبواب المخوف منه ، وفُصِل بين الأول والسبع الثوانى بواحدة سوّى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء، حيث اتصلت بقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[1] ، فكانت خمس عشرة ، أتبعت بثمانية فى وصف الجنان وأهلها على عدة أبوابها ، ثم بثمانية أُخَر فى وصف الجنتين اللتين من دون الأوليين لذلك أيضا فاستكملت إحدى وثلاثين .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾[2]، فى سورة المرسلات عشر مرات ، لأنه سبحانه ذكر قصصا مختلفة ، وأتبع كلّ قصة بهذا القول ، فصار كأنه قال عقب كل قصة : ويل للمكذبين بهذه القصة ! وكل قصة مخالفة لصاحبتها ، فأثبت الويلَ لمن كذّب بها .

ويحتمل أنه لما كان جزاء الحسنة بعشر أمثالها ، وجعلَ للكفّار فى مقابلة كلّ مثل من الثواب ويل .

ومنها فى سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.

---

(١) سورة الرحمن ٢٦ (٢) سورة المرسلات .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] فى ثمانيـة مواضع ؛ لأجل الوعظ ، فإنه قد يتأثر بالتـكرار مَنْ لا يتأثر بالمرة الواحدة .

وأما قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ ، فذلك لظهور آيات الأنبياء عليهم السلام ، والعجبُ من تخلُّف من لا يتأملها مع ظهورها .

وأما مناسبة قوله : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإنه تعالى نفَى الإيمانَ عن الأكثر ؛ فدلَّ بالمفهوم على إيمان الأقلّ ، فكانت العزة على من لم يؤمن ، والرحمة لمن آمن ، وهما مرتبتان كترتب الفريقين . ويحتمل أن يكون من هذا النوع قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ... ﴾[2] الآية ، لأنّ علمهم يقع أولا وثانيا على نوعين مختلفين بحسب المقام ؛ وهذا أقربُ للحقيقة الوضعية وحال المعبر عنه ؛ فإن المعاملات الإلٰهيّـة للطائع والعاصى متغيّرة الأنواع الدنيوية البرزخية ، ثم الحشرية ، كما أن أحوال الاستقرار بعد الجميع فى الغاية ؛ بل كل مقام منْ هذه أنواع مختلفة ، وفى « ثم » دلالة على الترقى ، إن لم يجعل الزمان مرتبا فى الإنذار على التـكرار ، وفى المنذَر به على التنويع .

ومنـه تكرار : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[3] ، قال الزمخشرى[4] : كُرِّر ليجدوا عند سماع كل نبإٍ منها اتعاظا وتنبيها ، وأن كلا من تلك الأنباء مستحق باعتبار يختص به ، وأن يتنبهوا كيلا يغلبَهم السرور والغفلة .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ... ﴾[5] إلى آخرها

---

(١) سورة الشعراء ٨ ، ٩ (٢) سورة التـكاثر ٦ ، ٧ (٣) سورة القمر ٣٩

(٤) الـكشاف ٤ : ٣٤٩ ؛ والعبارة فيه : « فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظا ؛ إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث، وأن يقرع لهم العصا مرات ويقعقع لهم الشن تارات ؛ لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة .. »

(٥) سورة الـكافرون ١ ، ٢

يحكى أن بعض الزنادقة سأل الحسنَ بن عليّ رضى الله عنه عن هذه الآية فقال : إنى أجد فى القرآن تكرارا وذكر له ذلك ، فأجابه الحسن بما حاصله: إن الكفار قالوا: نعبد إلٰهك شهرا وتعبد آلهتنا شهرا ، فجاء النفىُ متوجهاً إلى ذلك . والمقصود أن هذه ليست من التكرار فى شىء ، بل هى بالحذف والاختصار أليق ؛ وذلك لأن قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ[1] ﴾ ؛ أى لا أعبد فى المستقبل ما تعبدون فى المستقبل ، وقوله : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ، أى ولا أنا عابدٌ فى الحال ما عبدتم فى المستقبل ، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾، فى الحال مَا أَعْبُدُ فى المستقبل .

والحاصل أن القصدَ نفىُ عبادتِه لآلهتهم فى الأزمنة الثلاثة : الحال ، والماضى ، والاستقبال ؛ والمذكور فى الآية النفى فى الحال والاستقبال ، وحذف الماضى من جهته ومن جهتهم ؛ ولا بد من نفيه ، لكنه حُذِف لدلالة الأولين عليه .

وفيه تقدير آخر ؛ وهو أن الجملة الأولى فعلية ، والثانية اسمية ، وقولك : «لا أفعله» و « لا أنا فاعله » أحسن من قولك : « لا أفعله » ، « ولا أفعله » ؛ فالجملة الفعلية نفى لإمكانه ، والاسمية نفى لاتصافه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾[2] ، ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[3] . والمعنى أنه تبرّأ من فعله ومن الاتّصاف به ، وهو أبلغ فى النفى ؛ وأما المشركون فلم ينتف عنهم إلا بصيغة واحدة؛ وهى قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فى الموضعين .

وفرق آخر، وهو أنه قال فى نفيه الجملة الاسمية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، وقال فى النفى عنهم : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ عائد فى حقه بين الجملتين ، وقال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بالمضارع، وفى الثانى : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ بالماضى، فإن المضارع يدل على الدوام ، بخلاف الماضى، فأفاد ذلك أنّ ما عبدتموه ولو مرّة ما أنا عابد له البتّة، ففيه كمال

(١) سورة الكافرين ٢ (٢) سورة الروم ٥٣ (٣) سورة فاطر ٢٢

براءته ودوامها مما عبدوه ولو مرة ؛ بخلاف قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ، فإن النفى من جنس الإثبات ، وكلاهما مضارع يظهران جملة ومنفردا .

ومنه تكرير الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام فى ثلاث آيات من سورة البقرة[1]؛ لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود ؛ لأنهم لا يقولون بالنسخ فى أصل مذهبهم . وأهل النفاق أشد إنكاراً له ، لأنه كان أول نسخ نزل. وكفار قريش قالوا : ندم محمد على فراق ديننا فيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل ؛ وقد فارق قبلتهما وآثر عليها قبلة اليهود ؛ وقال الله تعالى حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾[2] والاستثناء منقطع ، أى لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون . وقال سبحانه : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[3] أى الذين أشركوا فلا تمتر فى ذلك ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[4] ، أى يكتمون ما علموا أن الكعبة هى قبلة الأنبياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾[5] .
وقال صاحب « الينبوع »[6] : لم يبلغنى عن المفسرين فيه شىء .

---

(١) وهو قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ آية ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠

(٢) سورة البقرة ١٥٠ (٣) سورة البقرة ١٤٧

(٤) سورة البقرة ١٤٦

(٥) سورة الصافات ١٧٤، ١٧٥، وكرر هاتين الآيتين فى قوله تعالى بعد ذلك فى السورة ١٧٨، ١٧٩: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ .

(٦) هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكى الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ ؛ صاحب كتاب ينبوع الحياة فى التفسير ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ؛ منه أجزاء متفرقة مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم ٣١٠ تفسير .

وقال المفسرون فى غريب القرآن : هما فى المعنى كالآيتين المتقدمتين ، فكرّر للتأكيد وتشديد الوعيد .

ويحتمل أن يكون « الحين » فى الأوليين[1] يوم بدر ، و « الحين » فى هاتين[2] يوم فتح مكة .

ومن فوائد قوله تعالى فى الأوليين : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ وفى هاتين : ﴿ فَأَبْصِرْ ﴾ أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلا وأسرا وهزيمة ورعْبا ، فما تضمنت التشفِّىَ بهم قيل له : ﴿ أَبْصِرْهُمْ ﴾ ، وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعامُ بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم فلم يكن وفقا للتشفى بهم ، بل كان فى استسلامهم ، وإسلامهم لعينه قرّة ، ولقلبه مسرّة ، فقيل له : ﴿ أَبْصِرْ ﴾ .

ويحتمل على هذا — إن شاء الله — أن يكون من فوائد قوله تعالى فى هذه : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أى يبصرون منك عليهم بالأمان ، ومنّنا عليهم بالإيمان .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[3] .

وللتكرار [هنا] فائدتان :

إحداهما : أنّ التحريمَ قد يكون فى الطرفين ؛ ولكن يكون المانع من إحداهما ؛ كما لو ارتدّت الزوجة قبل الدخول ؛ يحرم النكاح من الطرفين ؛ والمانع من جهتها ، فذكر الله سبحانه الثانية ؛ ليدل على أن التحريم كما هو ثابت فى الطرفين كذلك المانع منهما .

والثانية : أنّ الأولى دلّت على ثبوت التحريم فى الماضى ؛ ولهذا أتى فيها بالاسم الدّال على الثبوت ؛ والثانية فى المستقبل ، ولهذا أتى فيها بالفعل المستقبل .

(١) آيتا ١٧٤ ، ١٧٥ — (٢) آيتا ١٧٨ ، ١٧٩

(٣) سورة الممتحنة ١٠

* * *

ومنه تكرار الإضراب .

واعلم أن « بل » إذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناها الإضراب .

وهو إما أن يقع فى كلام الخلق ؛ ومعناه إبطال ماسبق على طريق الغلط من المتكلم؛ أو أنّ الثانى أولى .

وإما أن يقع فى كلام الله تعالى ، وهو ضربان :

أحدهما : أن يكون ما فيها من الردّ راجعا إلى العباد ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾(١) .

والثانى : أن يكون إبطالا ؛ ولكنه على أنه قد انقضى وقته ؛ وأن الذى بعده أولى بالذكر ، كقوله تعالى : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾(٢) .

وزعم ابن مالك فى شرح « الكافية » أن « بل » حيث وقعت فى القرآن النرآن فإنها للاستئناف لغرض آخر لا لإبطال الأول ؛ وهو مردود بما سبق ، وبقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(٣) ؛ فأضرب بها عن قولهم ، وأبطل كذبهم .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾(٤) ، أضرب بها عن حقيقة إتيانهم الذكور وترك الأزواج .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾(٥) ،

---

(١) سورة الأنبياء ٢٢ — (٢) سورة ص ٨

(٣) سورة الأنبياء ٢٦ — (٤) سورة الشعراء ١٠٦

(٥) سورة الطلاق ٢

فالأول للمطلقين والثانى للشهود ؛ نحو : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[١] ، أولها للأزواج ، وآخرها للأولياء .

ومنه تكرار الأمثال ، كقوله تعالى: ﴿وما يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ . وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ . وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ ﴾[٢] .

وكذلك ضَرْب مثل المنافقين أول البقرة[٣] ثناه الله تعالى .

قال الزمخشرى : « والثانى أبلغ[٤] من الأول لأنه أدلُّ على فَرْط الحيرة ، وشدّة الأمر وفظاعته » ، قال : « ولذلك أُخِّر ، وهم يتدرّجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ » .

ومنه تكرار القصص فى القرآن ؛ كقصة إبليس فى السجود لآدم ، وقصة موسى وغيره من الأنبياء ، قال بعضهم : ذكر الله موسى فى مائة وعشرين موضعا من كتابه ، قال ابن العربى[٥] فى « القواصم » : ذكر الله قصة نوح فى خمسة وعشرين آية ، وقصة موسى فى سبعين آية . انتهى .

وإنما كررها لفائدة خلت عنه فى الموضع الآخر وهى أمور :

---

(١) سورة البقرة ٢٣٢ (٢) سورة فاطر ١٩ — ٢٢

(٣) يشير إلى قوله تعالى فى الآية السابعة عشرة من سورة البقرة : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . مع قوله فى الآية التاسعة عشر : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾

(٤) الكشاف ١ : ٦١ (٥) هو الإمام أبو بكر بن العربى صاحب كتاب العواصم من القواصم .

أحدها : أنه إذا كرّر القصة زاد فيها شيئا ، ألا ترى أنه ذكر الحية[1] فى عصا موسى عليه السلام ، وذكرها فى موضع آخر ثعبانا ، ففائدته أن ليس كل حية ثعبانا[2] ، وهذه عادة البلغاء ، أن يكرر أحدهم فى آخر خطبته أو قصيدته كلمة ، لصفة زائدة .

الثانية : أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين ؛ وكان أكثر من آمن به مهاجريا ؛ فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى آخرين ،وكذلك سائر القصص ، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراكَ الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة القوم ، وزيادة [تأكيد وتبصرة][3] ، لآخرين وهم الحاضرون ، وعبّر عن هذا ابن الجوزى وغيرُه .

الثالثة : تسليته لقلب النبيّ صلى الله عليه وسلم مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم[4] قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[5] .

الرابعة : أن إبراز الكلام الواحد فى فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

الخامسة : أن الدّواعى لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام ، فلهذا كررت القصص دون الأحكام .

---

(١) فى قوله تعالى فى سورة طه ٢٠ : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ .

(٢) من قوله تعالى فى سورة الأعراف ١٠٧ : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ . وقوله فى سورة الشعراء ٣٢ : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ .

(٣) تكملة من م .

(٤) ت « اسمهم » ، صوابه من م .

(٥) سورة هود ١٢٠

السادسة : أن الله تعالى أنزل هذا القرآن ، وعَجَز القوم عن الإتيان بمثل آية، لصحّة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين وأوضح الأمر فى عجزهم ؛ بأن كرر ذكر القصة فى مواضع ، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأىّ نظم جاءوا ، بأى عبارة عبّروا ، قال ابن فارس[١] : وهذا هو الصحيح .

السابعة : أنه لما سَخِر العرب بالقرآن قال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[٢] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾[٣] ، فلو ذكر قصة آدم مثلا فى موضع واحد واكتفى بها لقال العربىّ بما قال الله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ، « إيتونا أنتم بسورة من مثله » ، فأنزلها سبحانه فى تعداد السور ، دفعاً لحجّتهم من كل وجه.

الثامنة : أنّ القصة الواحدة من هذه القصص ؛ كقصة موسى مع فرعون – وإن ظُنّ أنها لا تغاير الأخرى – فقد يُوجد فى ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وتلك حال المعانى الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فإن كلّ واحدة لا بدّ وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه ، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها ؛ فكأنّ الله تعالى فرّق ذكرَ مادار بينهما وجعله أجزاء ، ثم قسّم تلك الأجزاء على تاراتِ[٤] التكرار لتوجد متفرقة فيها ؛ ولو جمعت تلك القصص فى موضع واحد لأشبهت ما وُجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع ؛ كما وقع فى القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصّة ، فاجتمعت فى هذه الخاصية ؛ من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة :

منها : أن التكرار[٥] فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع فى اللفظ هجْنة ، ولا أحدثَ مَلَلا ، فباين بذلك كلام المخلوقين .

ومنهـــا : أنه ألبسها زيادة ونقصانا وتقديما وتأخيرا؛ ليخرُج بذلك الكلام أن

(١) فقه اللغة ١٧٨
(٢) سورة البقرة ٢٣
(٣) سورة هود ١٣
(٤) م : « منارات » .
(٥) م : « منها » .

تكون ألفاظه واحدة بأعيانها ، فيكون شيئاً معاداً ؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات .

ومنها : أن المعانيَ التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ ـ لما فيها من التغيير ـ ميلا إلى سماعها ، لما جُبلت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم يَعْجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرّفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد ؛ لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِى ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ . . . ﴾[2] الآية .

* * *

وقال القفّال[3] في تفسيره : ذكر الله في أقاصيص بني إسرائيل وجوها من المقاصد: أحدها : الدلالة على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عنها مِنْ غير تعلّم؛ وذلك لا يمكن إلا بالوحي .

الثاني : تعديد النعم على بني إسرائيل، وما من الله على أسلافهم من الكرامة والفضل؛ كالنجاة من آل فرعون ، وفَرْق البحر لهم ، وما أنزل عليه في التيه من المنّ والسلوى ، وتفجّر الحجَر ، وتظليل الغمام .

(١) سورة الكهف ١٠٩ (٢) سورة لقمان ٢٧

(٣) هو محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال ؛ رئيس الشافعية في عصره . توفي سنة ٥٠٧ (ابن خلكان) : ٤٦٤

الثالث : إخبار الله نبيه بتقديم كفرهم وخلافهم وشقاوتهم وتعنتهم على الأنبياء ، فكأنه تعالى يقول : إذا كانت هذه معاملتهم مع نبيهم الذى أعزهم الله به ، وأنقذهم من العذاب بسببه ؛ فغير بِدْع ما يعامله به أخلافهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

الرابع : تحذير أهل الكتاب الموجودين فى زمَن النبىّ صلى الله عليه وسلم من نزول العذاب بهم ؛ كما نزل بأسلافهم .

* * *

وهنا سؤالان :

أحدهما : ما الحكمةُ فى عدم تكرر قصة يوسف عليه السلام ، وسوقها مساقاً واحداً فى موضع واحد ، دون غيرها من القصص ؟ .

والجواب من وجوه :

الأول : فيها من تشبيب النسوة به ، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوةٍ افتتنّ بأبدع الناس جمالا ، وأرفعهم مثالاً ، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك . وقد صحح الحاكم فى مستدركه حديثا مرفوعا : النهىُ عن تعليم النساء سورة يوسف .

الثانى : أنها اختصت بحصول الفرَج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص ، فإنّ مآلها إلى الوبال ، كقصة إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ؛ وغيرهم ، فلما اختصّت هذه القصة فى سائرِ القصص: بذلك اتفقت الدّواعى على نقلها لخروجها عن سمت القصص .

الثالث: قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسفراينى إنما كرر الله قصص الأنبياء، وساق قصة يوسف مساقاً واحداً ، إشارةً إلى عجز العرب ، كأنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم :

إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة ، فافعلوا فى قصة يوسف ما فعلت فى قصص سائر الأنبياء .

السؤال الثانى : أنّه سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ، فى سورة الأعراف وهود والشعراء ، ولم يذكر معهم قصة إبراهيم ، وإنّما ذكرها فى سورة الأنبياء ، ومريم ، والعنكبوت ، والصافات .

والسرّ فى ذلك أن تلك السّوَرَ الأُول ذكر الله فيها نَصْر رسله بإهلاك قومهم ، ونجاء الرسل وأتباعهم ، وهذه السور لم يقتصر فيها على ذكرٍ من أهلك من الأمم ؛ بل كان المقصود ذكر الأنبياء وإن لم يذكر قومهم ؛ ولهذا سميت سورة الأنبياء ؛ فذكر فيها إكرامه للأنبياء ؛ وبدأ بقصة إبراهيم ، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل محمد ، وإبراهيم أكرمُهم على الله ، وهو خير البرية ، وهو أبُ أكثرهم ، وليس هو أب نوح ولوط ؛ لكنْ لوط من أتباعه ، وأيوب من ذريته ، بدليل قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ﴾(١) .

وأما سورة العنكبوت ؛ فإنه سبحانه وتعالى ذكَر فيها امتحانه للمؤمنين ، ونصرَه لهم ، وحاجتهم إلى الجهاد ؛ وذكر فيها حسنَ العاقبة لمن صبر ، وعاقبةَ مَنْ كذب الرسل ؛ فذكر قصة إبراهيم ؛ لأنها من النمَط الأول .

وكذلك فى سورة الصافات قال فيها : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾(٢) ؛ وهذا يقتضى أنها عاقبة رديئة ؛ إمّا بكونهم غلبوا وذلّوا ؛ وإما بكونهم أُهلكوا ؛ ولهذا ذكر قصة إلياس دون غيرها ولم يذكر إهلاك قومه ، بل قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾(٣)

---

(١) سورة الأنعام ٨٤

(٢) سورة الصافات ٧١ ، ٧٣

(٣) سورة الصافات ١٢٧

وقد رُوِى أن الله رفع إلياس ؛ وهذا يقتضى عذابَهم فى الآخرة ؛ فإن إلياس لم يقمْ بينهم، وإلياسُ المعروف بعد موسى من بنى إسرائيل ، وبعد موسى لم يُهلك المكذبين بعذاب الاستئصال ؛ وبعد نوح لم يُهلك جميعَ النوع ، وقد بعث الله فى كلّ أمة نذيراً، والله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا ، كما ذكر ذلك عن غيرهم ؛ بل ذكر أنَّهم ألقوه فى النار، فجعلها برداً وسلاماً، وفى هذا ظهور بُرهانه وآياته ؛ حيث أذَلَّهم ونصره؛ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[١] وهذا من جنس المجاهد [الذى يعرض عدوّه ، والقصص الأول من جنس المجاهد الذى][٢] قتل عدوه ، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم بل هاجر وتركهم ؛ وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتى هلكوا ، ولم يوجد فى حق إبراهيم سبب الهلاك؛ وهو إقامته فيهم، وانتظار العذاب النازل ؛ وهكذا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، لم يقم فيهم ، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك ؛ ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل ؛ فإنهم إذا علموا حصل المقصود، وقد يتوب منهم من تاب، كما جرى لقوم يونس ؛ فهذا ـ والله أعلم ـ هو السرّ فى أنّه سبحانه لم يذكر قصة إبراهيم مع هؤلاء؛ لأنها ليست من جنس واقعتهم .

فإن قيل : فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟

فالجواب : أمّا حالة إبراهيم فكانت إلى الرحمة أميل ؛ فلم يسعَ فى هلاك قومه لا بالدعاء ولا بالمقام ودوام إقامة الحجة عليهم ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[٣] ، وكان كلُّ قوم يطالبون هلاكَ نبيّهم فعوقبوا ؛ وقوم إبراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب؛ لكن جعله الله عليه بردا وسلاما،

---

(١) سورة الصافات ٩٨ (٢) تكملة من ت .

(٣) سورة إبراهيم ١٣ ، ١٤

ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام ؛ وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة ؛ كما فى العقوبات الشرعية ، فمن أرادوا عداوة [أحدٍ] من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة فى حقه؛ ولم يُهلِكْ أعداءه بل أخزاهم ونصره ؛ فهو أشبه بإبراهيم عليه السلام ؛ إذ عصمه الله من كيدهم ، وأظهره حتى صارت الحرب بينهم وبينه سجالا ، ثم كانت له العاقبة فهو أشبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمدا سيد الجميع ، وهو خليل الله ، كما أن إبراهيمَ عليه السلام خليله ، والخليلان هما أفضل الجميع ، وفى طريقهما من الرأفة والرحمة ماليس فى طريق غيرهما ، ولم يَذكُر الله عن قوم إبراهيم ذنباً غير الشرك، وكذلك عن قوم نوح، وأما عاد فذكر عنهم التجبّر ، وعمارة الدنيا ، وقوم صالح ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الأنبياء، وأهل مدين الظلم فى الأموال مع الشرك ، وقوم لوط استحلال الفاحشة ، ولم يذكر أنهم أقروا بالتوحيد ، بخلاف سائر الأمم ، وهذا يدلّ على أنهم لم يكونوا مشركين ، وإنما كان دينهم استحلالَ الفاحشة وتوابع ذلك ، وكانت عقوبتُهم أشدَّ .

وهذه الأمور تدل على حكمة الرب وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم ؛ ولما لم يكن فى قوم نوح خيرٌ يرجى غَرق الجميع . والله المستعان .

* * *

فتأمل هذا الفصلَ وعظَم فوائده وتدبر حكمته ، فإنه سر عظيم من أسرار القرآن العظيم ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[1]، فأعاد ذكر « الأنهار » مع كل صنف ؛ وكان يكفى أن يقال فيها : « أنهار من ماء، ومن لبن ، ومن خمر، ومن

(١) سورة محمد ١٥

عسل » ؛ لكن لما كانت الأنهار من الماء حقيقة ؛ وفيما عدا[1] الماء مجازا للتشبيه ؛ فلو اقتصر على ذكرها مع الماء وعطف الباقى عليه لجمع بين الحقيقة والمجاز .

فإن قلت : فهلّا أفرد ذكر الماء وجمع الباقى صيغة واحدة ؟ قيل : لو فعل ذلك لجمع بين محاملَ من المجاز مختلفة فى صيغة واحدة ، وهو قريب فى المنع من الذى قبله .

فائدة

[فى صنيعهم عند استثقال تكرار اللفظ]

قد يستثقلون تكرار اللفظ فيعدلون لمعناه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾[1] ؛ فإنه لما أعيد اللفظ غيّر « فعّل » إلى « أفعل » فلما ثلّث ترك اللفظ أصلا ، فقال : « رويدا » .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴾[2] ، ثم قال : ﴿ إِمْراً ﴾[2] .

قال الكسائىّ : معناه شيئاً منكراً كثير الدهاء من جهة الإنكار ؛ من قولهم : أمِرَ القوم إذا كثروا .

قال الفارسىّ : وأنا أستحسن قوله هذا .

وقوله تعالى : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾[4] ، قال الفارسى: ﴿وَراءكم﴾ فى موضع فعل الأمر أى تأخروا ؛ والمعنى ارجعوا تأخروا ؛ فهو تأكيد وليس ظرفا ؛ لأن الظروف لا يؤكَّد بها.

وإذا تكرر اللفظ بمرادفه جازت الإضافة ؛ كقوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

---

(١) ت : « وبما »
(١) سورة الطارق ١٧
(٢) سورة الكهف : ٧٢ ، ٧٥
(٤) سورة الحديد ١٣

أَلِيمٌ ﴾(١) ، والقصد المبالغة ، أى عذاب مضاعف ، وبالعطف كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾(٣) .

القسم الخامس عشر
الزيادة فى بنية الكلمة

واعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه؛ فلا بدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ؛ لأن الألفاظ أدلّة على المعانى ؛ فإذا زيدت فى الألفاظ وجب زيادة المعانى ضرورة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾(٤) ؛ فهو أبلغ من « قادر » لدلالته على أنه قادر متمكّن القدرة ؛ لا يُردّ شيء عن اقتضاء قدرته؛ ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى .

وكقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ فإنّه أبلغ من الأمر بالصبر من « اصبر » .

وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(٥) لأنه لما كانت السيئة ثقيلة وفيها تكلُّف زيد فى لفظ فعلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾(٦) ؛ فإنّه أبلغ من « يتصارخون » .

وقوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا ﴾(٧) ولم يقل « وكبوا » قال الزمخشرى(٨): والكبكبة تكرير الكبّ ، جُعِل التكرير فى اللفظُ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى

(١) سورة سبأ ٥
(٢) سورة يوسف ٨٦
(٣) سورة البقرة ١٠٩
(٤) سورة القمر ٤٢
(٥) سورة البقرة ٢٨٦
(٦) سورة فاطر ٣٧
(٧) سورة الشعراء ٩٤
(٨) الكشاف ٣ : ٢٥٣

فى جهنم [ينكَبّ][1] كبة مرة بعد أخرى حتى يستقرّ فى قعرها ، اللّهم أجرنا منها خير مستجار !

وقريب من هذا قول الخليل فى قول العرب : صَرَّ الْجُندب ، وصرصر البازى ، كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ، فقالوا : صرّ صريرا ، فمدوا وتوهموا فى صوت البازى تقطيعاً ، فقالوا : « صرصر » .

ومنه الزيادة بالتشديد أيضا ؛ فإنّ « ستّاراً » و « غفّاراً » أبلغ من « ساتر » و « غافر » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾[2] ؛ ومن هذا رجّح بعضُهم معنى « الرحمن » على معنى « الرحيم » ؛ لما فيه من زيادة البنـاء ، وهو الألف والنون ، وقد سبق فى السادس .

ويقرب منه التضعيف ـ ويقال التكثير ـ وهو أن يؤتَى بالصيغة دالّة على وقوع الفعل مرة بعد مرة . وشرطه أن يكون فى الأفعال المتعدّية قبل التضعيف ؛ وإنّما جعله متعديا تضعيفه ؛ ولهذا رُدّ على الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾[3] ؛ حيث جعل ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ ؛ هنا للتضعيف .

وقد جاء التضعيف دالّا على الكثرة فى اللازم قليلا ، نحو موّت المالُ .

وجاء حيث لا يمكن فيه التكثير ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾[4] ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا ﴾[5] .

فإن قلت : ﴿ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾[6] مشكل على هذه القاعدة ، لأنه إذا كان « فعّل » للتكثير ، فكيف جاء « قليلا » نعتا لمصدر « متّع » وهذا وصف كثير بقليل ، وإنه ممنوع .

---

(١) تكملة من الكشاف
(٢) سورة نوح ١٠
(٣) سورة البقرة ٢٣
(٤) سورة الرعد ٧
(٥) سورة الإسراء ٩٥
(٦) سورة البقرة ١٢٦

قلت : وصف بالقلة من حيث صيرورته إلى نفاد ونقص وفناء .

واعلم أن زيادة المعنى فى هذا القسم مقيد بنقل صيغة الرباعىّ غير موضوعة لمعنى ؛ فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثى إلى مثل تلك الصيغة ؛ فقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾(١) ؛ لا يدلّ على كثرة صدور الكلام منه؛ لأنه غير منقول عن ثلاثىّ.

وكذا قوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾(٢) يدلّ على كثرة القراءة على هيئة التأنى والتدبّر .

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾(٣) ، ليس النفى للمبالغة؛ بل نفى أصل الفعل.

القسم السادس عشر

التفسير

وتفعله العرب فى مواضع التعظيم ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٤) ، قال البيهقى فى شرح الأسماء الحسنى : قرأت فى تفسير الجنيدى أن قوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾(٤) ، تفسير للقيّوم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٦) فإن هذا تفسير للوعد .

---

(١) سورة النساء ١٦٤ — (٢) سورة المزمل ٣

(٣) سورة يس ٦٩ — (٤) سورة البقرة ٢٥٥

(٥) سورة المعارج ١٩ ، ٢١ — (٦) سورة المائدة ٩ .

وقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾(١) تفسير للوعد وتبيين له ، لا مفعول ثان ؛ فلم يتعدّ الفعل منها إلا إلى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾(٢) و « خلقه » تفسير للمثل .

وقوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ ﴾(٣) ، و « يُذَبِّحُونَ » وما بعده تفسير للسَّوْم ، وهو فى القرآن كثير .

قال أبو الفتح بن جنى : ومتى كانت الجملة تفسيرا لم يحسن الوقف على ما قبلها دونها لأن تفسير الشىء لاحقٌ به، ومتمّ له ، وجارٍ مجرى بعض أجزائه ؛ كالصلة من الموصول، والصفة من الموصوف .

وقد يجىء لبيان العلّة والسبب ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٤) ؛ وليس هذا من قولهم ، وإلّا لما حزن الرسول ؛ وإنما يجىء به لبيان السبب فى أنه لا يحزنه قولهم .

وكذلك قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(٥) .

ولو جاءت الآيتان على حــــد ما جاء قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(٦) ، لكانت « أن » مفتوحة ، لكنها جاءت على حد قوله . . . (٧)

---

(١) سورة النور ٥٥
(٢) سورة آل عمران ٥٩
(٣) سورة البقرة ٤٩
(٤) سورة يس ٧٦
(٥) سورة يونس ٦٥
(٦) سورة المائدة ٩
(٧) كذا ورد الكلام ناقصا فى الأصلين ت ، م

فائدة

قيل : الجملة التفسيرية لا موضع لها من الإعراب . وقيل : يكون لها موضع إذا كان للمفسَّر موضع ؛ ويقرب منها ذكره تفصيلا ، كما سبق فى قوله: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[١] .

ومثل : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾[٢] .

القسم السابع عشر

خروج اللفظ مخرج الغالب

كقوله تعالى : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ ﴾[٣] ، فإن الحِجْر ليس بقيد عند العلماء ؛ لكنّ فائدة التقييد تأكيدُ الحكم فى هذه الصورة مع ثبوته عند عدمها ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾[٣] ولم يقل : « ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ ولم يكنّ فى حجوركم » فدلّ على أن الحِجْر خرج مخرج العادة .

واعتُرض بأن الحرمة إذا كانت بالمجموع فالحلّ يثبت بانتفاء المجموع ، والمجموع ينتفى بانتفاء جزئه ، كما ينتفى بانتفاء كل فرد من المجموع .

وأجيب بأنه إذا نُفِيَ أحدُ شطرى العلّة كان جزء العلة ثابتا ؛ فيعمل عملها .

فإن قيل : لما قال : ﴿ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾[٣] ، قال فى الآية بعدها:

---

(١) سورة الأعراف ١٤٢

(٢) سورة البقرة ٩٦

(٣) سورة النساء ٢٣

﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴾[١] عُلم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يُدخل بأمّها ؛ فما فائدة قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾[٢] ؟

قيل : فائدته ألّا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج الغالب لا مخرج الشرط ؛ كما فى الحجْر المفهوم إذا خرج مخرج الغالب، فلا تقييد فيه عند الجمهور، خلافا لإمام الحرمين والشيخ عز الدين بن عبد السلام والعراقى ، حيث قالوا : إنّه ينبغى أن يكون حجة بلا خلاف إذا لم تغلب ؛ لأن الصفة إذا كانت غالبة دلّت العادة عليها ؛ فاستغنى المتكلم بالعادة عن ذكرها ، فلما ذكرها مع استغنائه عنها دلّ ذلك على أنه لم يُرِد الإخبار بوقوعها للحقيقة؛ بل ليترتب عليها نفيُ الحكم من المسكوت ؛ أما إذا لم تكن غالبة أمكن أن يقال : إنما ذكرها ليعرف السامع أن هذه الصفة تعرض لهذه الحقيقة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾[٤] ، وجوّزوا أنّ الرهنَ لا يختصُّ بالسفر ، لكن ذُكِر لأن فقدَ الكاتب يكون فيه غالبا ، فلما كان السفر مظنة إعواز الكاتب والشاهد الموثوق بهما، أُمِر على سبيل الإرشاد بحفظ مال المسافرين بأخذ الوثيقة الأخرى ؛ وهى الرهن .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ ﴾[٥] ، والقصر جائز مع أمْن السفر ، لأن ذلك خرج مخرج الغالب لا الشرط ، وغالب أسفار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم تخلُ من خوف العدوّ .

ومنهم من جعل الخوف هنا شرطا إن حمل القصر على ترك الركوع والسجود والنزول

---

(١) سورة النساء ٢٤
(٢) سورة النساء ٢٣
(٣) الاسراء ١١
(٤) سورة البقرة ٢٨٣
(٥) سورة النساء ١٠١

عن الدابّة والاستقبال ونحوه ؛ لا فى عدد الركعات ، لكن ذلك شدة خوف لا خوف ، وسبب النزول لا يساعده .

وكقوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾[١] .

القسم الثامن عشر

القَسَم

وهو عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر ، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[٢] قَسَماً وإن كان فيه إخبار ، إلا أنه لما جاء توكيداً للخبر سُمّى قسما .

ولا يكون إلا باسم معظم ، كقوله : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٧] .

وقوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٨] .

وقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ ﴾[٩] .

فهذه سبعة مواضع أقسم الله فيها بنفسه والباقى كله أقسم بمخلوقاته .

---

(١) سورة النور ٣٣

(٢) سورة المنافقين ١

(٣) سورة الذاريات ٢٣

(٤) سورة يونس ٥٣

(٥) سورة التغابن ٧

(٦) سورة مريم ٦٨

(٧) سورة الحجر ٩٢

(٨) سورة مريم ٦٨

(٧) سورة المعارج ٤٠ .

كقوله : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾(١) .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(٢) .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ . ٱلْجَوَارِي ٱلْكُنَّسِ ﴾(٣) .

وإنما يحسن فى مقام الإنكار .

فإن قيل : ما معنى القسم منه سبحانه ؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن ، فالمؤمن يصدّق مجرّد الإخبار ؛ وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده .

فالجواب : قال الأستاذ أبو القاسم القشيرىّ : إنّ اللهَ ذكر القَسَمَ لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يُفْصَل باثنين : إما بالشّهادة ، وإمّا بالقسم ، فذكر تعالى النوعين حتى لا يبقى لهم حُجة .

وقوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٤)

وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾(٥) صاح وقال : مَنِ الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ، ثم مات .

* * *

فإن قيل : كيف أقسم بمخلوقاته وقد ورد النهىُ علينا ألّا نقسم بمخلوق ؟

قيل : فيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنّه حذف مضاف ، أى «ورب الفجر» و «رب التين» ، وكذلك الباقى .

والثانى : أن العرب كانت تعظّم هذه الأشياء وتُقسم بها ؛ فنزلَ القرآن على مايعرفون .

---

(١) سورة التين ٩ — (٢) سورة الواقعة ٩٥

(٣) سورة التكوير ١٥ ، ١٦ — (٤) سورة الحجر ٧٢

(٥) سورة الذاريات ٢٢ ، ٢٣ .

والثالث : أن الأقسامَ إنما تجب بأن يُقسم الرجلُ بما يعظّمه ،أو بمن يجلّه؛ وهو فوقه والله تعالى ليس شيء فوقه ؛ فأقسم تارةً بنفسه ، وتارة بمصنوعاته ، لأنها تدلّ على بارئ وصانع ؛ واستحسنه ابن خالويه .

وقسَمُه بالنبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ ليعرّف الناس عظمته عندالله، ومكانته لديه ، قال الأستاذ أبو القاسم القشيرى فى « كنز اليواقيت » : والقَسَم بالشيء لا يخرج عن وجهين : إما لفضيلة أو لمنفعة ؛ فالفضيلة كقوله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[1] ، والمنفعة نحو : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[1] .

* * *

وأقسم سبحانه بثلاثة أشياء :

أحدها : بذاته ، كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[2]﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3] .

والثانى : بفعله ، نحو : ﴿ وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَٱلْأَرْضِ ومَا طَحَاهَا . ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾[4] .

والثالث : مفعوله ، نحو : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾[5] ، ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾[6] .

* * *

وهو ينقسم باعتبار آخر إلى مظهر ومضمر :

فالمظهر كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[7] ونحوه .

---

(١) سورة التين ٢ ، ٣
(٢) سورة الذاريات ٢٣
(٣) سورة الحجر ٩٢
(٤) سورة الشمس ٥ ، ٧
(٥) سورة النجم ١
(٦) سورة الطور ١
(٧) سورة الذاريات ٢٣

والمضمر على قسمين : قسم دلّت عليه لام القسم ، كقوله : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[١] وقسم دلّ عليه المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[٢] تقديره « والله » .

وقد أقسم تعالى بطوائف الملائكة فى أول سورة الصافات[٣] ، والمرسلات[٤] ، والنازعات[٥] .

***

فوائد

الأولى : أكثر الأقسام المحذوفة الفعل فى القرآن ؛ لا تكون إلا بالواو ، فإذا ذكرت الباء أتى بالفعل ؛ كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾[٦] ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾[٧] . ولا تجىء الباء والفعل محذوف إلا قليلا؛ وعليه حمل بعضهم قوله : ﴿ يَا بُنَيَّ

(١) سورة آل عمران ١٨٦ (٢) سورة مريم ٧١

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا . فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾
قال الزمخشرى فى الكشاف ٤ : ٢٥ : أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها فى الصلاة » .

(٤) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نُذْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾
قال الزمخشرى فى الكشاف ٤ : ٥٤١ : «أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن كما تعصف الرياح ؛ تخففا فى امتثال أمره »

(٥) وهو قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا . وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ قال الزمخشرى فى الكشاف ٤ : ٥٥٣ « أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد ؛ وبالطوائف التى تنشطها ، أى تخرجها . . . وبالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمرا من أمور العباد بما يصلحهم فى دينهم أو دنياهم » .

(٦) سورة النحل ٣٨ (٧) سورة التوبة ٦٢ .

لَا تُشْرِكْ بِاللهِ ﴾(١) وقال : الباء باء القسم؛ وليست متعلّقة بـ «تُشرِكْ» ، وكأنّه يقول: ﴿ يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ بِاللهِ ﴾ لا تشرك ؛ وحذف «لا تشرك» لدلالة الكلام عليه : وكذلك قوله : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾(٢) ؛ قيل : إن قوله : « بما عهد » قسم ؛ والأولى أن يقال : إنه سؤال لا قسم .

وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ ﴾(٣) فتقف على ﴿لى﴾ وتبتدئ ﴿بحق﴾ فتجعله قسما .

هذا مع قول النحويين : إن الواو فرع الباء ؛ لكنه قد يكثر الفرع فى الاستعمال ويقلّ الأصل .

* * *

الثانية : قد علمت أنّ القسم إنما جئ به لتوكيد المقسَم عليه؛ فتارة يزيدون فيه للمبالغة فى التوكيد ، وتارة يحذفون منه للاختصار وللعلم بالمحذوف .

فما زادوه لفظ « إى » بمعنى « نعم » ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّى ﴾(٤) .

ومما يحذفونه فعل القسم وحرف الجر ، ويكون الجواب مذكورا ، كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ ﴾(٥) أى « والله » .

وقوله : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾(٦) ، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾(٧) ، ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٨) .

وقد يحذفون الجواب ويبقون القسمَ للعلم به ، كقوله تعالى : ﴿ ص . وَالْقُرْآنِ

---

(١) سورة لقمان ١٣
(٢) سورة الزخرف ٤٩
(٣) سورة المائدة ١١٦
(٤) سورة يونس ٥٣
(٥) سورة الأحزاب ٢١
(٦) سورة الشعراء ٤٩
(٧) سورة العلق ١٥
(٨) سورة يوسف ٣٢

ذِي الذِّكْرِ ﴾[1] على أحد الأقوال ؛ أن الجوابَ حُذِف لطول الكلام ؛ وتقديره « لأعذبنهم على كفرهم » .

وقيل : الجواب : إن ذلك لحق .

ومما حذف فيه المقسم به قوله تعالى : ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ﴾[2]، أي نحلف إنك لرسول الله ؛ لأن الشهادة بمعنى اليمين ، بدليل قوله : ﴿ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾[3] .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾،[4] فالأول قسم بمنزلة ، « والحقِّ » وجوابه « لأملأنّ » ، وقوله : ﴿ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾[5] توكيد للقسم .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[6]، ثم قال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾[6]: قالوا : وهو جواب القَسَم ، وأصله « لقد قتل » ثم حذف اللام وقد .

* * *

الثالثة : قال الفارسي في الحجّة : الألفاظ الجارية مجرى القسم ضربان :

أحدها : ماتكون جارية كغيرها من الأخبار التي ليست بقَسَم ، فلا تجاب بجوابه ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[7] ، ﴿ وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾[8] ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾[9] ؛ فهذا ونحوه يجوز أن يكون قسماً وأن يكون حالًا لخلوّه من الجواب .

والثاني: مايتعلق بجواب القسم ، كقوله تعالى : ﴿ وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) سورة ص ١ ، ٢
(٢) سورة المنافقين ١
(٣) سورة المنافقين ٢
(٤) سورة ص ٨٤
(٥) سورة ص ٨٤
(٦) سورة البروج ١ ، ٤
(٧) سورة الحديد ٨
(٨) سورة البقرة ٦٣
(٩) سورة المجادلة ١٨

ٱلْـكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾(١) ، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾(٢) .

* * *

الرابعة : القسم والشرط ، يدخل كلٌّ منهما على الآخر ؛ فإن تقدم القسم ودخل الشرط بينه وبين الجواب كان الجواب للقسم ؛ وأغنى عن جواب الشرط ؛ وإن عكس فبالعكس ؛ وأيهما تصدّر كان الاعتماد عليه والجواب له .

ومن تقدُّم القسم قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾(٣) ، تقديره « والله لئن لم تنته » ، فاللام الداخلة على الشرط ليست بلام القسم ، ولكنها زائدة ، وتسمى الموطّئة للقسم ويعنون بذلك أنها مؤذنة بأن جواب القسم منتظر ؛ أى الشرط لا يصلح أن يكون جواباً ؛ لأن الجواب لا يكون إلا خبراً .

وليس دخولها على الشرط بواجب ، بدليل حذفها فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤) .

والذى يدلّ على الجواب للقسم لا للشرط دخول اللام فيه ؛ وأنه ليس بمجزوم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾(٥) ولو كان جواب الشرط لكان مجزوما .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٦) ؛ فاللام فى « ولئن » هى الموطّئة للقسم ، واللام فى ﴿ لَإِلَى اللهِ ﴾ هى لام القسم ؛ ولم تدخل نون التوكيد على الفعل للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور . والأصل « لئن متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله » فلما قدم معمول الفعل عليه حذف منه .

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧
(٢) سورة النحل ٣٨
(٣) سورة مريم ٤٦
(٤) سورة المائدة ٧٣
(٥) سورة الإسراء ٨٨
(٦) سورة آل عمران ١٥٨

القسم التاسع عشر

إبراز الكلام فى صورة المستحيل على طريق المبالغة ليدل على بقية جمله

كقول العرب : لا أكلك حتى يبيض القار ، وحتى يشيب الغراب، وكقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1]، يعنى والجمل لا يلج فى السّم، فهؤلاء لا يدخلون ، فهو فى المعنى متعلق بالحال ، فالمعنى أنهم لا يدخلون الجنة أصلًا ، وليس للغاية هنا مفهوم ، ووجه التأكيد فيه كدعوى الشىء ببينة ، لأنه جعلَ ولوج الجمل فى السّم غاية لنفى دخولهم الجنة ، وتلك غاية لا توجد ، فلا يزال دخولهم الجنة منتفيا .

وغالى بعض الشعراء فى وصف جسمه بالنحول ، فجاء بما يزيد على الآية ، فقال :

وَلَوْ أنّ ما بى مِنْ جوًى وصبابةٍ عَلَى جَمَلٍ لم يبقَ فى النار خالدُ

وهذا على طريقة الشعراء فى اعتبار المبالغة ، وإلا فمعارضات القرآن لا تجوز، كما سبق التنبيه عليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2] فإن المعنى : إن كان ماسلف فى الزمن السالف يمكن رجوعه فحلّه ثابت، لكن لا يمكن رجوعه أبدا ، ولا يثبت حلُّه أبدا ، وهو أبلغ فى النهى المجرد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ ﴾[3]، أى ولكن ليس له ولد ، فلا أعبد سواه .

---

(١) سورة الأعراف ٤٠

(٢) سورة النساء ٢٢

(٣) سورة الزخرف ٨١

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً ﴾(١) ، أى إن كان تسليم بعضهم على بعض ، أو تسليم الملائكة عليهم لغوا ، فلا يسمعون لغوا إلا ذلك؛ فهو من باب قوله

وَلَا عَيْبَ فيهم غــيرَ أنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قراعِ الـكتائبِ(٢)

ومنه قوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾(٣) ، فإن النـاس استشكلوا وجه الاستثناء ، مع أنهم لا يذوقون فيها الموت مطلقاً . ومقتضى استثنائها من النفى أنهم يَذُوقونها فى الجنة وليس كذلك .

ووجهه الزمخشرى(٤) بأنه من التوكيد فى الدلالة ، والموتة الأولى لا يذوقونها أصلا؛ إذ يستحيل عَوْد ما وقع ؛ فلا يذوقون فيها الموت أصلًا ، أى إن كانوا يذوقون فلا يكون ذلك إلا الموتة الأولى ، وإن كان إيقاع الموتة الأولى فى الجنة مستحيلا، فعرّض بالاستثناء إلى استحالة الموت فيها .

هذا إن جعلنا الاستثناء متصلا ؛ فإن كان منقطعا ، فالمعنى : « لـكن الموتة الأولى قد ذاقوها » .

ويحتمل على الاتصال أن يكون المنى فيها ، أى فى مقدّماتها ، لأن الذى يرى مقامه فى الجنة عند الجنة عند موته ينزّل منزلة من هو فيها، بتأويل الذوق على معنى المستحيل.

فهذه ثلاثة أوجه .

القسم الموفى العشرين

الاستثناء والاستدراك

ووجه التأكيد فيه أنه ثنى ذكره مرتين ، مرة فى الجملة ومرة فى التفصيل .

---

(١) سورة مريم ٦٢

(٢) البيت للنابغة الذبيانى ، ديوانه ٦

(٣) سورة الدخان ٥٦

(٤) انظر الكشاف ١ : ٢٢٣

فإذا قلت : قام القوم إلا زيدا ، فكأنه كان فى جملتهم ، ثم خرج منهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾(١) ؛ فإنّ فيه معنى زائدا على الاستثناء ، هو تعظيم أمر الكبيرة التى أتى بها إبليس ، من كونه خرق إجماع الملائكة ، وفارق جميع الملأ الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ؛ وهو بمثابة قولك : أمرَ الملك بكذا فأطاع أمرَه جميعُ الناس ؛ من أمير ووزير إلا فلانا ؛ فإنّ الإخبار عن معصية الملك بهذه الصيغة ، أبلغُ من قولك : أمَر الملك فعصاه فلان .

وفى ضمن ذلك وُصِف الله سبحانه بالعدل فيما ضرب به على إبليس من خزْى الدنيا ، وختَم عليه من عذاب الآخرة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾(٢) فإنّ فى الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلًا على السامع ؛ ليشهد عُذْرَ نوح عليه السلام فى الدعاء على قومه . وحكمةُ الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدّة ؛ ليكون أوّلَ ما يباشر السمع ذكر « الألف » واختصار اللفظ ؛ فإنّ لفظ القرآن أخصر من « تسعمائة وخمسين عاما » ؛ ولأن لفظ القرآن يفيد حَصْر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾(٣) فإنه سبحانه لما علم أن وصفَ الشقاء يعمّ المؤمن العاصىَ والكافر ، استثنى مَنْ حكم بخلوده فى النار بلفظ مطمِع ، حيث أثبت الاستثناء المطلق ، وأكده بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ؛ أى أنه لا اعتراض عليه فى إخراج أهل الشقاء من النار . ولما علم أنّ أهلَ السعادة لا خروج لهم من الجنة أكّد خلودَهم بعد الاستثناء بما يرفع أصل الاستثناء ، حيث قال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ

(١) سورة الحجر ٣٠ ، ٣١ (٢) سورة العنكبوت ١٤
(٣) سورة هود ١٠٦ ، ١٠٧

مَجْذُوذٍ ﴾[1] أى غير منقطع ؛ ليُعلم أن عطاءه لهم الجنة غير منقطع . وهـذه المعانى زائدة على الاستثناء اللغوىّ .

وقيل : وجه الاستثناء فيه الخروج من الجنة إلى منزلة أعلى كالرضوان والرؤية، ويؤيّده قولُ بعض[2] الصحابة :

* وإنا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرا *

وصوبه النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وجعل الزمخشرى الاستثناء الأول لخروج أهل النار إلى الزمهرير ، أو إلى نوع آخر من العذاب بناء على مذهبه من تخليد أهل الكبائر فى النار ، وجعل الاستثناء الثانى دالّا على نجاة أهل الكبائر من العذاب ، فكأنه تصوّر[3] أن الاستثناء الثانى لمّا لم يحمل على انقطاع النعيم ، لقوله تعالى : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ فكذا الاستثناء الأول لا يحمل على انقطاع عذاب الجحيم لتناسب أطراف الكلام . وقال : معنى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ عقب الاستثناء الأول فى مقابلة قوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ عقب الثانى ، أنّ الله تعالى يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى لأهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له[4] .

قيل : وما أصدق فى سياق الزمخشرى فى هذا الموضع قول القائل :

* حفظتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ *

وذلك لأن ظاهر الاستثناء ؛ هو الإخراج عن حكم ما قبله ، ولا موجبَ للعدول

---

(١) سورة هود ١٠٨

(٢) هو النابغة الجعدى ؛ أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأنشده قصيدته ؛ فلما بلغ إلى قوله :

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فوقَ ذلكَ مَظْهَرَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » ، فقال : إلى الجنة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن شاء الله » الشعر والشعراء ٢٤٧

(٣) م : « يتصور » .

(٤) راجع الكشاف ٢ : ٣٣٦

عن الظاهر فى الاستثناء الأول ، لحمل على النجاة . ولما كان إنجاء المستحق العذاب محلّ تعجب وإنكار ، عقّبه بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ؛ أى من العذاب والإنجاء منه ، بفضله ، ولا يتوجّه عليه اعتراض أحد ؛ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأما الاستثناء الثانى فلما لم يكن على ظاهره ، كان إخراج أهل الجنة المستحقين للثواب وقطع النعيم لا يناسب إنجاء أهل النار المستحقين للعذاب ، فلذا عقّب بقوله : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[1] بيانا للمقصود .

ورعايةُ هـذا الباب أولى من رعاية الباب الذى توهم الزمخشرى ؛ فإنّ حاصلَه يرجع إلى أن الاستثناء الثانى لمّا لم يكن على ما هو الظاهر فى باب الاستثناء ، ينبغى ألّا يكون الاستثناء الأول أيضاً على ما هو الظاهر . ولا يخفى على المنصف أنه تعسّف .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾[2] فالمعنى لا طعام لهم أصلا؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلا عن الإنس ؛ وذلك كقولك: ليس لفلان ظل إلا الشمس؛ تريد بذلك نَفْىَ الظلّ عنه على التوكيد ، والضريع نبت ذو شوك يسمى الشّبرق فى حال خضرته وطراوته ، فإذا يبس سُمِّىَ الضريع ، والإبل ترعاه طريًّا لا يابساً .

وقريب منه تأكيد المدح بما يشبه الذمّ ، بأن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشىء صفة مدح ، بتقدير دخولها فيها ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[3] التأكيد فيه من وجهين : على الاتصال فى الاستثناء والانقطاع .

القسم الحادى والعشرون له

المبالغة

وهى أن يكون للشىء صفة ثابتة ؛ فتزيد فى التعريف بمقدار شدته أو ضعفه ؛ فيدّعى

(١) سورة هود ١٠٨ (٢) سورة الغاشية ٦
(٣) سورة الواقعة ٢٥ ، ٢٦

له من الزيادة فى تلك الصفة ما يستبعد عند السماع ؛ أو[1] يحيلُ عقله ثبوته .

ومن أحسنها قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾[2]، وهى[3] ظلمة البحر وظلمة الموج فوقه، وظلمة السحاب فوق الموج .

وقوله تعالى : ﴿بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[4] ، أى كادت تبلغ ؛ لأن القلبَ إذا زال عن موضعه مات صاحبه .

وقيل : هو حقيقة ، وإن الخوف والروع يوجب للخائف أن تنتفخ رئته ، ولا يبعد أن ينهض بالقلب نحو الحنجرة . ذكره الفراء وغيره .

أو أنها لما اتصل وجيبها واضطرابها بلغت الحناجر .

وردّ ابن الأنبارى[5] تقدير « كادت » فإنّ « كاد » لا تضمر .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[7] .

ومنه المبالغة فى الوصف بطريق التشبيه ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ. كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾[8] .

---

(١) م « إذ » ؛ والصواب ما أثبته من ب . (٢) سورة النور ٤٠

(٣) : « فتى » ، والصواب ما أثبته من ت .

(٤) سورة الأحزاب ١٠ (٥) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ؛ ونقله أيضا الشريف المرتضى ؛ ورده . وانظر غرر الفوائد ٢ : ٣٣٤

(٦) سورة إبراهيم ٣٦ (٧) سورة مريم ٩٠

(٨) سورة المرسلات ٣٢ ، ٣٣

وقد يخرج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة وهو مجاز، كقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[١] ، فجعل مجيء جلائل آياته ، مجيئاً له سبحانه ، على المبالغة .

وكقوله سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾[٢] ؛ فجعل نقله بالهلكة من دار العمل إلى دار الجزاء وجدانا للمجازى .

ومنه ما جرى مجرى الحقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾[٣] ، فإن اقتران هذه بـ « يكاد » صرفها إلى الحقيقة ، فانقلب من الامتناع إلى الإمكان.

وقد تجيء المبالغة مدمجة ، كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾[٤] ، فإن المبالغةَ في هذه الآية مدمجة في المقابلة ، وهي بالنسبة إلى المخاطَب ، لا إلى المخاطِب ؛ معناه أن علمَ ذلك متعذّر عندك؛ وإلا فهو بالنسبة[٥] إليه سبحانه ليس بمبالغة .

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي... ﴾[٦] الآية ، فقيل[٧]: سببها أن اليهود جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : كيف عُنّفنا بهذا القول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٨] ، ونحن قد أوتينا التوراة ، وفيها كلام الله[٩] وأحكامه، ونور وهدى! فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية .

---

(١) سورة الفجر ٢٢ (٣) سورة النور ٣٩ (٣) سورة النور ٤٣
(٤) سورة الرعد ١٠ (٥) كذا في م ، وفي ت : « لله » .
(٦) سورة الكهف ١٠٩ (٧) نقله الواحدي في أسباب النزول ٢٢٥ ، عن ابن عباس .
(٨) سورة الإسراء ٨٥
(٩) عبارة أسباب النزول : « أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

وقيل : إنما نزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾[1] .

قال المفسرون : والغرض من ذلك الإعلام بكثرة كلماته؛ وهي في نفسها غير متناهية وإنما قرّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة .

وقال بعض المحققين : إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد ، ولم تقتض الآية أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور ؛ وكما قال الخضر عليه السلام : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها .

وعدّ بعضهم من هذا القبيل ما جاء من المبالغة في القرآن من الإغضاء عن العيوب ، والصفح عن الذنوب ،والتغافل عن الزلات ، والستر على أهل المروءات ، كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] .

وقيل في تفسيره : أن تصلَ مَنْ قطعكَ ، وتعطيَ من حرمك وتعفوَ عمن ظلمك .

وقوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾[3] الآية .

---

(١) سورة لقمان ٢٧ ، وفي أسباب النزول للواحدي ص ٢٦٠ أيضاً : «قال المفسرون : سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ؛ فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ أتاه أحبار اليهود فقالوا : يا محمد ، بلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أفتعنينا أم قومك؟ فقال : كلا عنيت ؛ قالوا : ألست تتلو فيما جاءك إنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي في علم الله سبحانه قليل ، ولقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم به » ، فقالوا : يا محمد ، كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وكيف يجتمع هذا ! علم قليل وخير كثير ! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ . . . ﴾

(٢) سورة الأعراف ١٩٩ (٣) فصلت ٣٤

تنبيه

(١) تحصّل مما سبق أن قصد المبالغة يستلزم فى الحال الإيجاز؛ إما بالحذف، وإما بجعل الشيء نفسى الشيء، أو بتكرر لفظ يتم بتكرره التهويل والتعظيم، ويقوم مقام أوصاف، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴾(٢) .

وقد نص سيبويه على هذا كله فى مواضع شتى من كتابه لافتراقها فى أحكام .

فائدة

[فى اختلاف الأقوال فى تقدير المبالغة فى الكلام]

اختلف فى المبالغة على أقوال :

أحدها : إنكار أن تكون من محاسن الكلام لاشتمالها على الاستحالة .

والثانى : أنها الغاية فى الحسن ؛ وأعذب الكلام ما بولغ فيه ؛ وقد قال النابغة :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ فى الضُّحى وأسيافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دما

والثالث : وهو الأصح ؛ أنها من محاسن الكلام ؛ ولا ينحصر الحسن فيها — فإن فضيلة الصدق لا تُنكر — ولو كانت معيبة لم ترد فى كلام الله تعالى ؛ ولها طريقان :

أحدهما : أن يستعمل اللفظ فى غير معناه لغة ، كما فى الكناية والتشبيه والاستعارة وغيرها ، من أنواع المجاز .

والثانى : أن يُشْفَع ما يُفهِم المعنى بالمعنى على وجه يقتضى زيادة ؛ فتترادف(٣) الصفات

---

(١) هذا التنبيه ساقط من ت .
(٢) سورة الحاقة ١
(٣) ق : « فتزداد » .

بقصد التهويل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾[1] .

القسم الثانى والعشرون

الاعتراض

وأسماه قدامة[2] : « التفاتا »[3] ، وهو أن يؤتى فى أثنـــــاء كلام أو كلامين متصلين معنى ، بشىء يتم الغرض الأصلى بدونه ، ولا يفوت بفواته ، فيـكون فاصلا بين الـكلام والـكلامين ، لنـكتة .

وقيل : هو إرادة وصف شيئين : الأول منهما قصْداً ، والثانى بطريق الانجرار ؛ وله تعليق بالأول بضرب من التأكيد .

وعند النحاة جملة صغرى تتخلل جملة كبرى على جهة التأكيد .

وقال الشيخ عز الدين فى أماليه : الجملة المعترضة تارة تـكون مؤكدة ، وتارة تـكون مشددة ؛ لأنها إمّا ألّا تدلّ على معنى زائد على ما دل عليـه الـكلام بل دلت عليه فقط ، فهى مؤكدة . وإمّا أن تدل عليه وعلى معنى زائد ، فهى مشدّدة . انتهى .

وذكر النحاة مما تتميز به الجملة الاعتراضية عن الحالية كونهـا طلبيّة ، كـقوله تعالى :

---

(١) سورة النور ٤٠

(٢) هو أبو الفرج قدامة بن جعفر ؛ صاحب كتاب نقد الشعر .

(٣) قال : « ومن نعوت المعانى الالتفات ؛ وهو أن يكون الشاعر آخذا فى معنى ؛ فـكأنه يعترضه ؛ إما شك فيه ، أو ظن أن رادا يرد عليه قوله ؛ أو سائلا يسأله عن سببه ؛ فيعود راجعا إلى ما قدمه فإما أن يذكر سببه ؛ أو يحل الشك فيه » وانظر نقد الشعر ٨٧ ، وبديع القرآن ٤٢

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1] ، فإنه معترض بين : ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[1]،
وبين : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾[1] .

وله أسباب :

منها تقرير الكلام ، كقولك : فلان أحسن بفلان ـ ونعم مافعل . ورأى من الرأى كذا ـ وكان صوابا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[2]،﴿لقدعلمتم﴾ اعتراض ؛ والمراد تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة .

وقوله : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[3] .

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[4]، واعترض بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[4] ، بين كلامها[5] .

وقوله : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ .[6]

ومنها قصد التنزيه ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[7] ، فاعتراض ﴿ سبحانه ﴾ لغرض التنزيه والتعظيم ، وفيه الشناعة عَلَى من جعل البنات لله .

ومنها قصد التبرك ، وكقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾[8] .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٥ (٢) سورة يوسف ٧٣
(٣) سورة القتال ٢ (٤) سورة النمل ٣٤
(٥) أى من كلام بلقيس ؛ وبقية كلامها : ﴿ إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ... ﴾ .
(٦) سورة البقرة ٢٥ (٧) سورة النحل ٥٧
(٨) سورة الفتح ٢٧

ومنها قصد التأكيد: كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(١) .

وفيها اعتراضان ؛ فإنه اعترض بقوله ؛ ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾(١) بين القسم وجوابه، واعترض بقوله : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾(١) بين الصفة والموصوف ؛ والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم ، وتأكيد إجلاله فى النفوس ، لا سيما بقوله : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾(١) .

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾(٢) ف « أولئك » الخبر و« إنّا لا نضيع » اعتراض .

ومنها كون الثانى بياناً للأول ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٣) ؛ فإنه اعتراض وقع بين قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ(٣)﴾ ، وبين قوله : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾(٤) ، وهما متصلان معنى ؛ لأنّ الثانىَ بيان للأول ؛ كأنه قيل : فأتوهنّ من حيث يحصل منه الحرث . وفيه اعتراض بأكثر من جملة .

ومنها تخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد على أمر علق بهما ، كقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(٥) ، فاعترض بقوله : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(٥) بين « ووصّينا » وبين الموصّى به ، وفائدة ذلك إذكار الولد بما كابدته أمه من المشقة فى حمله وفصاله ، فذكرُ الحمل والفصال يفيد زيادة التوصية بالأم ، لتحمّلها من المشاق والمتاعب فى حمل الولد ما لا يتكلفه الوالد ، ولهذا جاء فى الحديث التوصية بالأم ثلاثاً ، وبالأب مرة .

---

(١) سورة الواقعة ٧٥ ، ٧٦

(٢) سورة الكهف ٣٠ ، ٣١

(٣) سورة البقرة ٢٢٢

(٤) سورة البقرة ٢٢٣

(٥) سورة لقمان ١٤ .

ومنها زيادة الردّ على الخصم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا... ﴾[١] الآية فقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾[١] اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه . وفائدته أن يقرّر فى أنفس المخاطبين أن تدارؤ بنى إسرائيل فى قتل تلك الأنفس لم يكن نافعاً لهم فى إخفائه وكتمانه ، لأن الله تعالى مظهرٌ لذلك[٢] ومخرجه ، ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾[١] ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾[٤] ، فاعترض بين « إذ » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾[٢] ، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم فجعل الجواب اعتراضاً .

قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾[٥] إلى قوله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٣] إلى قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ اعتراض فى أثناء الكلام . وهو قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾ الآية ، وذلك لأن قوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ سببٌ عن قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ ﴾ على معنى أنهم يشمئزّون من توحيد الله تعالى ، ويستبشرون بالشرك الذى هو ذكر الآلهة ؛ فإذا مسّ أحدَهم ضُرّ أو أصابته شدّة تناقض فى دعواه ، فدعا من اشمأز من ذكره وانقبض من توحيده ولجأ إليه دون الآلهة ، فهو اعتراض بين السبب والمسبب ، فقيّد القول بما فيه من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم بأمره بذلك ، وبقوله ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ ، ثم عقبه من الوعيد العظيم أشدَّ التأكيد وأعظمه وأبلغه ؛

---

(١) سورة البقرة ٧٢
(٢) م : « ذلك » .
(٣) سورة البقرة ٧٣
(٤) سورة النحل ١٠١
(٥) سورة الزمر ٤٥ — ٤٩

ولذلك كان اتصال قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾[١] للسبب الواقع فيها، وخلوّ الأول، منه من الأمر اشتراك جملة مع جملة ، ومناسبة أوجبت العطف بالواو الموضوعة لمطلق الجمع، كقولهم : قام زيد وعمرو . وتسبيب السبب مع ما فى ظاهر الآية من اشمئزازهم ليس يقتضى التجاءهم إلى الله تعالى ، وإنما يقتضى إعراضهم عنه من جهة أن سياق الآية يقتضى إثبات التناقض ؛ وذلك أنك تقول : زيد يؤمن بالله تعالى : فإذا مسه الضرُّ لجأ إليه فهذا سبب ظاهر مبنيّ على اطراد الأمر وتقول : زيد كافر بالله ، فإذ مسّه ضر لجأ إليه ، فتجىء بالفاء هنا كالأول لغرض التزام التناقض ، أو العكس ، حيث أنزل الكافر كفره منزلة الإيمان فى فصل سبب الالتجاء ؛ فأنت ؛ تلزمه العكس ؛ بأنك إنما تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله[٢] .

وقوله : ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣] بقوله : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣] اعتراض واقع فى أثناء كلام متصل ؛ وهو قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥] ، وهو على مهيع أسلوب القرآن؛ من ذكر الضدّ عقب الضد؛ كما قيل:

* وبضدها تتبين الأشياء *

ومنها الإدلاء بالحجة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[٦] ، فاعترض بقوله: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ بين قوله : ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وبين قوله : ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[٦] إظهاراً لقوة الحجة عليهم .

---

(١) سورة الزمر ٥٨
(٢) كذا وردت العبارة فى الأصول وفيها غموض.
(٣) سورة الزمر ٦٢
(٤) سورة الزمر ٦٣
(٥) سورة الزمر ٦٤
(٦) سورة النحل ٤٣ ، ٤٤

وبهذه الآية ردّ ابن مالك على أبي على الفارسيّ قوله : إنه لا يعترض بأكثر من جملة واحدة .

ورُدَّ بأن جملة الأمر دليل للجواب عند الأكثرين ونفسه عند آخرين ، فهو مع جملة الشرط ، كالجملة الواحدة . نعم جوّزوا فى قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[١] ، أن يكون حالا من قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[٢] ، فلزم الاعتراض بسبع جمل مستقلات ؛ إن كان : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾[٣] ، خبر مبتدأ محذوف ؛ وإلا فيكون بست جمل .

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ . . . ﴾[٤] الآية : إن فى هذه الآية الكريمة سبعَ جمل معترضة : جملة الشرط ، و « اتقوا » و « فتحنا » و « كذّبوا » و « أخذناهم » و « بما كانوا يكسبون » . وزعم أن ﴿ أفأمن ﴾[٥] معطوف على ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾[٦] ، وكذا نقله ابن مالك عن الزمخشرى وتبعه أبو حيان ، ولم يوجد ذلك فى كلام الزمخشريّ .

قال ابن مالك : ورد عليه مَنْ ظن أن الجملة والكلام مترادفان ، قال : وإنما اعترض بأربع جمل ؛ وزعم أنّ من عند ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾[٤] إلى ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾[٤] جملة ؛ لأن الفائدة إنما تتم بمجموعه .

وفى القولين نظر ؛ أما على قول ابن مالك فينبغى أن يكون بعدها ثمان جمل ؛ أحدها:

---

(١) سورة الرحمن ٥٤
(٢) سورة الرحمن ٤٦
(٣) سورة الرحمن ٤٨
(٤) سورة الأعراف ٩٦
(٥) سورة الأعراف ٩٧
(٦) سورة الأعراف ٩٥

﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وأربعة فى حيز « لوْ » وهى ﴿ آمنوا ﴾ و ﴿ اتقوا ﴾ و « فتحنا »، والمركبة مع أنّ وصلتها مع « ثبت » مقدراً على الخلاف فى أنها فعلية أو اسمية ، والسادسة ﴿ ولـكن كذبوا ﴾ والسابعة ﴿ فأخذناهم ﴾ والثامنة ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ .

وأما قول المعترض فلأنه كان من حقه أن يعدها ثلاث جمل ؛ أحدها ﴿وهمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ ؛ لأنها حال مرتبطة بعاملها وليست مستقلة برأسها ؛ والثانية «لو» ومافى حيزها ، جملة واحدة فعلية إن قدر : « ولو ثبت أن أهل القرى آمنوا واتقوا » ، أو اسميـة وفعلية إن قدر : إيمانهم، واتقوا ثابتان ، والثالثة ﴿وَلَـكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] كله جملة .

وينبغى على قواعد البيانيين أن يعدّوا الـكل جملة واحدة لارتباط بعضها ببعض ، وعلى رأى النحاة ينبغى أن يكون ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾[1] جملة واحدة لارتباط الشرط بالجزاء لفظاً ، ﴿ وَلـكن كذبوا ﴾ ثانية أو ثالثة ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ ثالثة أو رابعة ، و ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ متعلق بـ « أخذناهم » فلا يعدّ اعتراضا .

وقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾[2] ، فهذه ثلاث جُمل معترضة بين ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾[2] وبين ﴿ وَقِيلَ بُعْداً ﴾ .

وفيه اعتراض فى اعتراض ؛ فإن ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ معترض بين ﴿ غِيضَ المـاء ﴾ وبين ﴿ واستوت ﴾ .

ولا مانع من وقوع الاعتراض فى الاعتراض ، كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف ٩٦ (٢) سورة هود ٤٤
(٣) الواقعة ٧٦

ومنه قوله تعالى فى سورة العنكبوت ذاكراً عن إبراهيم قوله : ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾(١) ، ثم اعترض تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١) ، وذكر آيات، إلى أن قال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾(٢) يعنى قوم إبراهيم ، فرجع إلى الأول .

وجعل الزمخشرى قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾(٣) ، وفى آخر الصافات معطوفا على ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾(٣) فى أول السورة(٤) : وقال فى قول بعضهم فى : ﴿ نَذِيراً لِلْبَشَرِ ﴾(٥) : إنه حال من فاعل ﴿ قُمْ ﴾(٦) فى أول هذه السورة ، هذا من بِدَع التفاسير(٧) وهذا الذى ذكره فى الصافات منه .

ومن العجب دعوى بعضهم كسر همزة « إن » فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾(٨) على جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ ﴾(٨) ، حكاه الرمانى .

فإن قيل : أين خبر « إن » فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾(٩) قيل الخبر : ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾(١٠) .

---

(١) سورة العنكبوت ١٦ (٢) سورة العنكبوت ٢٤

(٣) سورة الصافات ١٤٩ ، والآية : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ .

(٤) سورة الصافات ١١ ، والآية : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ .

(٥) سورة المدثر ٣٦ (٦) سورة المدثر ٢٨ ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ .

(٧) الكشاف ٤ : ٤٨ ، وعبارته : «معطوف على مثله فى أول السورة وإن تباعدت بينهما المسافة» .

(٨) الكشاف ٤ : ٥٢٢ (٩) سورة فصلت ٤١

(١٠) سورة فصلت ٤٤

فوائد

قال ابن عمرون[1] : لا يجوز وقوع الاعتراض بين واو العطف وما دخلت عليه ؛ وقد أجازه قوم فى « ثم » و « أو » فتقول : « زيد قائم ثم والله عمرو » .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَو فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾[2] اعتراض بين الشرط وجوابه مع أن فيه فاء والجملة مسندة لـ « يَكُنْ » .

قال الطيبى : سئل الزمخشرى عن قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[3] : أهو اعتراض ؟ قال : لا ، لأن من شرط الاعتراض أن يكون بالواو ونحوها، وأما بالفاء فلا. وفهم صاحب « فرائد القلائد » من هذا اشتراط الواو ، فقال : وقد ذكر الزمخشرى : ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾[4] هذه الجملة اعتراض بين البدل وبين المبدل منه ، أعنى « إبراهيم » و « إذ » قال : هذا معترض لأنه اعتراض بدون الواو بعيد عن الطبع وعن الاستعمال ، وليس كما قال، فقد يأتى بالواو كما سبق فى الأمثلة ، وبدونها كقوله سبحانه : ﴿وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ﴾[5] . وقد اجتمعا فى قوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[6] .

القسم الثانى والعشرون

الاحتراس

وهو أن يكون الكلام محتملا لشىء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال ؛ كقوله

---

(١) هو محمد بن محمد بن أبى على بن أبى سعد عمرون ، النحوى؛ أخذ عن ابن يعيش؛ وله شرح على المفصل ؛ توفى سنة ٦٤٩ . بغية الوعاة ٩٩

(٢) سورة النساء ١٣٥

(٣) سورة المدثر ٥٥

(٤) سورة مريم ٤١ ، ٥٦

(٥) سورة النحل ٥٧

(٦) سورة الواقعة ٧٥ ــ ٧٧

تعالى : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾(١) ، فاحترس سبحانه بقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عن إمكان أن يدخلَ في ذلك البَهَق والبَرَص .

وقوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ﴾(٢) فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة وهو السهولة لتُوهّم أن ذلك لضعفهم ، فلما قيل: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ عُلم أنها منهم تواضع ؛ ولهذا عدّى « الذل » بعلى لتضمنه معنى العطف .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٤) فقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٤) احتراس بيّن أنّ من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنّهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألّا يشعروا بها .

وقد قيل : إنما كان تبسم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها ؛ ولذلك أكّد التبسم بالضحك ؛ لأنهم يقولون : تبسّم كتبسم الغضبان ؛ لينبه على أن تبسمه تبسم سرور .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٥) التفاتٌ إلى أنهم لا يقصدون ضَرَرَ مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٦)؛ فإنه سبحانه لما أخبر بهلاك مَنْ هلك بالطوفان، عقّبهم بالدعاء عليهم، ووصْفِهم بالظلم ، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب،

(١) سورة القصص ٣٢
(٢) سورة المائدة ٥٤
(٣) سورة الفتح ٢٩
(٤) سورة النمل ١٨
(٥) سورة الفتح ٢٥
(٦) سورة هود ٤٤

احتراس من ضعف يُوهِم أنّ الهلاكَ بعمومه ربما شمل مَنْ لا يستحق العذاب ؛ فلما دعا على الهالكين ، ووصفهم بالظلم علم استحقاقَهم لما نزل بهم وحل بساحتهم ، مع قوله أولا : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[1] .

وأعجبُ احتراس وقع فى القرآن قوله تعالى مخاطباً لنبيّه عليه السلام : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى ٱلْأَمْرَ . . . ﴾[2] الآية .

وقال حكاية عن موسى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾[3] ، فلما نَفَى سبحانه عن رسوله أن يكونَ بالمكان الذى قضى لموسى فيه الأمر عرّف المكان بالغربىّ ﴾[3] ولم يقل فى هذا الموضع ﴿ الأيمن ﴾ كما قال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾[3] أدباً مع النبى صلى الله عليه وسلم أن ينفىَ عنه كونه بالجانب الأيمن ، أو يسلب عنه لفظاً مشتقًّا من اليُمْن ، أو مشاركاً لمادته ، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذَكَرَ الجانب الأيمن تشريفاً لموسى ؛ فراعَى فى المقامين حسنَ الأدب معهما ، تعليماً للأمة ، وهو أصل عظيم فى الأدب فى الخطاب .

وقوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[4] فإنه لو اختصر لترك : ﴿ وَٱللهُ يَعْلَمُ ﴾ ؛ لأن سياق الآية لتكذيبهم فى دعوى الإخلاص فى الشهادة ، لكن حَسّن ذكره رفع توهم أن التكذيب للمشهود به فى نفس الأمر .

وقوله حاكياً عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾[5] ولم يذكر الجبّ مع أن النعمة فيه أعظم لوجهين :

---

(١) سورة هود ٣٧
(٢) سورة القصص ٤٤
(٣) سورة مريم ٥٢
(٤) سورة المنافقون ١
(٥) سورة يوسف ١٠٠

أحدهما: لئلا يستحييَ إخوته ، والكريم يغضى؛ ولاسيّما فى وقت الصفاء .

والثانى : لأن السجن كان باختياره ، فكان الخروج منه أعظم، بخلاف الجب .

وقوله : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾(١) ؛ وإنما ذكر الكهولة مع أنه لا إعجاز فيه ؛ لأنه كان فى العادة ، أنّ مَنْ يتكلم فى المهد أنه لا يعيش ولا يتمادى به العمر ، فجعل الاحتراس بقوله : ﴿ وَكَهْلًا ﴾ .

ومنه قوله : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾(٢) ، والسقف لا يكون إلا من فوق ؛ لأنه سبحانه رفع الاحتمال الذى يتوهم من أن السقف قد يكون من تحت بالنسبة؛ فإن كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم وسقفاً لآخرين ؛ فرفع تعالى هذا الاحتمال بشيئين وهما قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولفظة ﴿ خَرَّ ﴾ لأنها لا تستعمل إلا فيما هبط أو سقط من العلوّ إلى سفل .

وقيل : إنما أكد ليعلم أنهم كانوا حالّين تحته ، والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط ، فجاء بقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ، ليخرج هذا الشك الذى فى كلامهم ، فقال : ﴿ من فوقهم ﴾ ، أى عليهم وقع ؛ وكانوا تحته ، فهلكوا وما أفلتوا .

وقوله تعالى : ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾(٣) ؛ لأنه لمّا كان يحتمل معنى « كيف» و «أين» احترس بقوله : ﴿ حرثكم ﴾ ؛ لأن الحرث لا يكون إلا حيث تنبت البذور ، وينبت الزرع ، وهو المحل المخصوص .

وقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾(٤) ؛ وذلك لأن الاشتراك فى المصيبة يخفف منها ، ويسلى عنها ؛ فأعلم سبحانه أنه لا ينفعهم ذلك .

---

(١) سورة البقرة ٢٢٣ — (٢) سورة الزخرف ٣٩

(٣) سورة المائدة ١١٠ — (٤) سورة النحل ٢٦

فائدة

عاب قدامة على ذى الرُّمة قوله :

أَلَا يا اَسْلَمِى يادَارَ مَىٍّ على البِلى   وَلَا زَالَ منهلًا بجَرْعائكِ القَطْرُ(١)

فإنه لم يحترس ، وهلّا قال كما قال طرفة(٢) :

* فَسَقَى ديارَكِ غَيْرَ مُفْسِدها *

وأجيب بأنه قدّم الدعاء بالسلامة للدار .

وقيل : لم يرد بقوله : «ولا زَالَ مُنْهَلًا» اتصال الدوام بالسُّقيا من غير إقلاع ، وإنّما ذلك بمثابة من يقول : ما زال فلان يزورنى ، إذا كان متعاهداً له بالزيارة .

القسم الرابع والعشرون

التذييل

مصدر « ذيّل » للمبالغة ؛ وهى لغة ، جعلُ الشيء ذيلاللآخر . واصطلاحا أن يُؤْتَى بعد تمام الكلام بكلام مستقل فى معنى الأول ؛ تحقيقاً لدلالة منطوق الأول، أومفهومه؛ ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ؛ ويكمل عند من فهمه .

كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ﴾(٣) ، ثم قال عز من قائل : ﴿ وَهَلْ

---

(١) ديوانه ٢٠٦

(٢) ديوانه ٧٢ (من مجموعة العقد الثمين) ، وبقيته :

* صَوْبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمى *

(٣) سورة سبأ ١٧

﴿يُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[1] ، أي هل يجازى ذلك الجزاء الذى يستحقه الكفور إلا الكفور؛ فإن جعلنا الجزاء عاما كان الثانى مفيداً فائدة زائدة .

وقوله : ﴿وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2] .

وقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ﴾[3] .

وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[4] .

فقوله : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تذييل لاشتماله على . .[5]

وقوله : ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾[6] .

وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[7] .

وجعل القاضى أبو بكر فى كتابه « الإعجاز » منه قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[8] .

وقوله : ﴿فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[9] .

ويحتمل أن يكون من التعليل .

وقوله : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[10] ، فقوله:

---

(١) سورة سبأ ١٧
(٢) سورة الإسراء ٨١
(٣) سورة الأنبياء ٣٤
(٤) سورة فاطر ١٣ ، ١٤
(٥) بياض فى الأصلين .
(٦) سورة المؤمنين ٤٦
(٧) سورة الأعراف ١٣٣
(٨) سورة القصص ٤
(٩) سورة القصص ٩
(١٠) سورة الزخرف ٢٢

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾(١)، تذييل ، أى فذلك شأن الأمم مع الرسل ، وقوله:﴿مَاأَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾(١) ، جعل التذييل هنا من التفسير .

القسم الخامس والعشرون

التتميم

وهو أن يتم الكلام ، فيلحق به ما يكمله ، إما مبالغة ، أو احترازاً ، أو احتياطاً ؛

وقيل : هو أن يأخذ فى معنى فيذكره غير مشروح ؛ وربما كان السامع لا يتأمله ليعود المتكلم إليه شارحا ؛ كقوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾(٢) ، فالتتميم فى قوله : ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ ، جعل الهاء كناية عن الطعام مع اشتهائه .

وكذلك قوله : ﴿وَآتَىٰ الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾(٣) .

وكقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾(٤)، فقوله : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميم فى غاية الحسن .

القسم السادس العشرون

الزيادة

والأكثرون ينكرون إطلاق هذه العبارة فى كتاب الله ، ويسمونه التأكيد . ومنهم من يسميه بالصلة . ومنهم من يسميه المقحم .

---

(١) سورة الزخرف ٢٣

(٢) سورة الدهر ٨

(٣) سورة البقرة ١٧٧

(٤) سورة النساء ١٢٤

قال ابن جنى : كل حرف زيد فى كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى. وبابها الحروف والأفعال .

كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾[١] . ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[٣] قيل: ﴿ كان ﴾ هاهنا زائدة ؛ وإلا لم يكن فيه إعجاز ؛ لأن الرجال كلهم كانوا فى المهد ، وانتصب ﴿ صبيًّا ﴾ على الحال .

وقال ابن عصفور : هى فى كلامهم زيدت فى وسط الكلام للتأكيد ؛ وهى مؤكدة للماضى فى ﴿ قالوا ﴾ .

ومنه زيادة « أصبح » ، قال حازم : إن كان الأمر الذى ذكر أنه أصبح فيه [يكن أمسى فيه ، فليست زائدة ، وإلا فهى زائدة ؛ كقولك : أصبح العسل حلواً .

وأجاب الرمانى عن قوله : ﴿ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾[٤] ، فإن العادة أن مَنْ به علة تزاد عليه بالليل يرجو الفرج عند الصباح ، فاستعمل « أصبح » لأن الخسران جعل لهم فى الوقت الذى يرجون فيه الفرج ، فليست زائدة .

وهو معنى قول غيره : إنها تأتى للدوام واستمرار الصفة ، كقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾[٥] ، ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا بِالْأَمْسِ ﴾[٦] .

وأما قوله تعالى : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[٧] فهو على الأصل ، لظهور الصفة نهارا ، والمراد الدوام أيضاً ، أى استقرت له الصفة نهاره[٨] .

---

(١) سورة المائدة ١٣

(٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) سورة مريم ٢٩

(٤) سورة المائدة ٥٣

(٥) سورة الأحقاف ٢٥

(٦) سورة القصص ٨٢

(٧) سورة النحل ٥٨

(٨) كلمة : « نهاره » ، ساقطة من ت .

واعلم أن الزيادةَ واللغو من عبارة البصريين، والصلة والحشو من عبارة الكوفيين، قال[١] سيبويه عقب قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ﴾[٢] : إن « ما » لغو ، لأنها لم تُحْدِث شيئاً .

والأَوْلى اجتنابُ مثل هذه العبارة فى كتاب الله تعالى ، فإنّ مرادَ النحويين بالزائد من جهة الإعراب ، لا من جهة المعنى ، فإن قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾[٣] معناه : « ما لنتَ لهم إلا رحمة » ؛ وهذا قد جمع نفياً وإثباتاً، ثم اختصر على هذه الإرادة، وجُمِع فيه بين لفظى الإثبات وأداة النفى التى هى « ما » .

وكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[٤] فـ « إِنَّمَا » ها هنا حرف تحقيق وتمحيق ، إنّ هنا للتحقيق ، وما للتمحيق فاختصر ، والأصل : « ما الله اثنان فصاعدا ، وأنه إله واحد » .

* * *

وقد اختلف فى وقوع الزائد فى القرآن ؛ فمنهم من أنكره ، قال الطرطوسى فى « العُمْدَة »[٥] : زعم المبرّد وثعلب ألّا صلة فى القرآن ، والدّهماء من العلماء والفقهاء والمفسّرين على إثبات الصِّلاتِ فى القرآن ، وقد وجد ذلك على وجه لا يسعنا إنكاره فذكر كثيرا .

وقال ابن الخباز[٦] فى التوجيه[٧] : وعند ابن السراج أنه ليس فى كلام العرب زائد، لأنه تكلّم بغير فائدة ، وما جاء منه حَمَله على التوكيد .

---

(١) الكتاب ٢ : ٣٠٥ (٢) سورة النساء ١٥٥

(٣) سورة آل عمران ١٥٩ (٤) سورة النساء ١٧١

(٥) هو كتاب عمدة الحكام فيما لا ينفذ من الأحكام ؛ للقاضى نجم الدين إبراهيم بن على الطرطوسى الحنفى المتوفى سنة ٧٥٨ . كشف الظنون ١١٦٦ ـ ١١٦٧

(٦) هو أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالى، الإربلى الضرير ، المعروف بابن الخباز؛ توفى سنة ٦٣٩ نكت الهميان ٩٦ (٧) ذكره صاحب كشف الظنون .

ومنهم من جوّزه وجعل وجوده كالعدم ؛ وهو أفسد الطرق .

وقد رُدّ على فخر الدين الرازى قوله : إنّ المحققين على أن المهملَ لا يقع فى كلام الله سبحانه ؛ فأما فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ ﴾(١) فيمكن أن تكون استفهامية للتعجب ، والتقدير « فبأى رحمة » ؛ فجعل الزائد مهملا ، وليس كذلك ، لأن الزائد ما أُتِيَ به لغرض التقوية والتوكيد ، والمهمل مالم تضعه العرب ، وهو ضدّ المستعمل ، وليس المراد من الزيادة ـ حيث ذكرها النحويون ـ إهمال اللفظ ، ولا كونه لغوا فتحتاج إلى التنكّب عن التعبير بها إلى غيرها ؛ فإنّهم إنما سَمّوْا « ما » زائدة هنا لجواز تعدّى العامل قبلها إلى ما بعدها ، لا لأنها ليس لها معنى .

وأما ما قاله فى الآية : إنّها للاستفهام التعجبىّ ، فقد انتُقد عليه بأن قيل : تقديره « فبأى رحمة » دليل على أنه جعل «ما» مضافة للرحمة، وأسماءُ الاستفهام التعجبى لا يضاف منها غير « أىّ » ؛ وإذا لم تصح الإضافة كان مابعدها بدلًا منها، والمبدل من اسم الاستفهام يجب معه ذكر همزة الاستفهام ، وليست الهمزة مذكورة ، فدل على بطلان هذه الدعوى؛ وسنبين فى فصل زيادة الحروف الفائدة فى إدخال « ما » ها هنا ، فانظره هناك .

تنبيهات

الأول : أهل الصناعة يُطلقون الزائدَ على وجوه : منها ما يتعلق به هنا وهو ما أُقحم تأكيدا ، نحو : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾(٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً ﴾(٣) . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(٤) .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩
(٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) سورة البقرة ٢٦
(٤) سورة الشورى ١١

ومعنى كونه زائدا أنّ أصلَ المعنى حاصل بدونه دون التأكيد ؛ فبوجوده حصل فائدة التأكيد ، والواضع الحكيم لا يضع الشيء إلا لفائدة .

وسئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف، وما معناه ؛ إذ إسقاط الحرف لا يخلّ بالمعنى؟ فقال : هذا يعرفه أهل الطباع إذ يجدون أنفسَهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف ، قال : ومثال ذلك مثال العارف بوزن الشعر طبعاً ؛ فإذا تغير البيت بزيادة أو نقص أنكره وقال : أجد نفسى على خلاف ما أجده بإقامة الوزن ، فكذلك هذه الحروف تتغير نفس المطبوع عند نقصانها ، ويجد نفسَه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانه .

* * *

الثانى : حق الزيادة أن تكون فى الحرف وفى الأفعال كما سبق ؛ وأما الأسماء فنصّ أكثر النحويين على أنها لا تزاد . ووقع فى كلام كثير من المفسّرين الحكم عليها فى بعض المواضع بالزيادة ، كقول الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]: إن اسمَ الجلالة مقحم ، ولا يتصوَّر مخادعتهم لله تعالى[2] .

* * *

الثالث : حقها أن تكون آخرا وحشوا ؛ وأما وقوعها أوّلا فلا لما فيه من التناقض، إذ قضية الزيادة إمكان اطّراحها ، وقضية التصدير الاهتمام ، ومن ثم ضعّف قول بعضهم بزيادة « لا » فى قوله تعالى : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾[3] . وأبعدُ منه قول آخر : إنها بمعنى « إلّا » ، والظاهر أنها ردٌّ لكلامٍ تقدّم فى إنكارِ البعث ، أى ليس الأمرُ كما تقولون ، ثم قال بعده : ﴿أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾[3] ، وعليه فيجوز الوقف على «لا» وفيه بعد .

---

(١) سورة البقرة ٩
(٢) الكشاف ١ : ٤٤
(٣) سورة القيامة ١

فصل

[فى حروف الزيادة]

الزيادة إما أن تكون لتأكيد النفى ، كالباء فى خبر ليس وما ، أو لتأكيد الإيجاب كاللام الداخلة على المبتدأ .

وحروف الزيادة سبعة : إنْ ، وأنْ ، ولا ، وما ، ومن ، والباء ، واللام . بمعنى أنها تأتى فى بعض الموارد زائدة ؛ لا أنّها لازمة للزيادة . ثم ليس المراد حصر الزوائد فيها ، فقد زادوا الكاف وغيرها ؛ بل المراد أن الأكثر فى الزيادة أن تكون بها .

***

[زيادة « إن »]

فأما إنْ الخفيفة فتطّرد زيادتها مع ما النافية ، كقول امرئ القيس [1] :

حَلَفتُ لهـا باللهِ حَلْفَةَ فاجِرٍ لَنَاموا فما إنْ مِنْ حديثٍ وَلَا صَالِ

أى فما حديث . فزاد « إنْ » للتوكيد ، قال الفراء : إن الخفيفة زائدة ، فجمعوا بينها وبين ما النافية ، تأكيدا للنفى ، فهو بمنزلة تكرارها ، فهو عند الفراء من التأكيد اللفظى ، وعند سيبويه من التأكيد المعنوى .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ [2] ﴾ : أنها زائدة . وقيل نافية ؛ والأصل « فى الذى ما مكناكم فيه » بدليل : ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ [3] ؛ وكأنه إنما عدل عن « ما » لئلا تتكرر فيثقلُ اللفظ .

ووهم ابن الحاجب ؛ حيث زعم أنها تُزاد بعد « لما » الإيجابية ؛ وإنما تلك فى « أن » المفتوحة .

---

(١) ديوانه ٣٢
(٢) سورة الأحقاف ٢٦
(٣) سورة الأنعام ٦

[زيادة « أن »]

وأما أن المفتوحة فتزاد بعد لما الظرفية ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾(١) ، وإنما حكموا بزيادتها ؛ لأن « لما ظرف زمان ؛ ومعناها وجود الشيء لوجود غيره ؛ وظروف الزمان غير المتمكنة لا تضاف إلى المفرد ، « وأنْ » المفتوحة تجعل الفعل بعدها فى تأويل المفرد ؛ فلم تبق « لمّا » مضافة إلى الجمل ؛ فلذلك حكموا بزيادتها .

وجعل الأخفش من زيادتها قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللهِ ﴾(٢) ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾(٣) . وقيل : بل هى مصدرية ؛ والأصل « وما لنا فى ألّا نفعل كذا » ! فليست زائدة ؛ لأنها عملت النصب فى المضارع .

* * *

[زيادة « ما »]

وأما «ما» فتزاد بعد خمس كلمات من حروف الجر ؛ فتزاد بعد «من» و«عن» غير كافة لها عن العمل ، وتزاد بعد الكاف ، وربّ ، والباء ؛ كافة [تارة]وغير كافة أخرى.

والكافة إما أن تكفّ عن عمل النصب والرفع ؛ وهى المتصلة بإنّ وأخواتها ؛نحو: ﴿ إِنَّمَا ٱللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾(٤) . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾(٥) . وجعلوا منها : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾(٦) ؛ ويحتمل أن تكون موصولة بمعنى « الذى » و« العلماء » خبر ، والعائد مستتر فى « يخشى » ، وأطلقت « ما » على جماعة العقلاء ،

---

(١) سورة العنكبوت ٣٣
(٢) سورة إبراهيم ١٢
(٣) سورة البقرة ٢٤٦
(٤) سورة النساء ١٧١
(٥) سورة الأنفال ٦
(٦) سورة فاطر ٢٨

كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(١)

وإما أن تكف عن عمل الجر ، كقوله تعالى: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾(٢).
وقيل : بل موصولة ؛ أى « كالذى هو لهم آلهة » .

وغير الكافة تقع بعد الجازم ؛ نحو : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾(٣)، ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا ﴾(٤).
﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا ﴾(٥).

وبعد الخافض؛ حرفاً كان : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾(٦). ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾(٧) .
﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾(٨) . ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾(٩)، أو اسماً ، نحو : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾(١٠).

وتزاد بعد أداة الشرط ؛ جازمة كانت ، نحو : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾(١١) . أو غير جازمة ، نحو : ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾(١٢).

وبين المتبوع وتابعه ؛ نحو : ﴿ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً ﴾(١٣) ، قال الزجاج :ماحرف زائد للتوكيد عند جميع البصريين .

ويؤيده سقوطها فى قراءة ابن مسعود . و« بعوضة » بدل . وقيل « ما » اسم نكرة صفة لـ « مثلا » ، أو بدل و« بعوضة» عطف بيان .

وقيل فى قوله : ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾(١٤) بأنها زائدة لمجرد تقوية الكلام ؛ نحو:

---

(١) سورة النساء ٣
(٢) سورة الأعراف ١٢٨
(٣) سورة الأعراف ٢٠٠
(٤) سورة الإسراء ١١٠
(٥) سورة النساء ٧٨
(٦) سورة آل عمران ١٥٩
(٧) سورة المائدة ١٣
(٨) سورة « المؤمنون » ٤٠
(٩) سورة نوح ٢٥
(١٠) سورة القصص ٢٨
(١١) سورة النساء ٧٨
(١٢) سورة فصلت ٢٠
(١٣) سورة البقرة ٢٦
(١٤) سورة البقرة ٨٨

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾[1] و« قليلا » في معنى النفي ، أو لإفادة التقليل كما في نحو « أكلت أكلاً ما » ، وعلى هذا فيكون : « فقليلا بعد قليل[2] » .

* * *

[زيادة « لا »]

وأما « لا » فتزاد مع الواو بعد النفي ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾[3] ؛ لأن « استوى » من الأفعال التي تطلب اسمين أي لا تليق بفاعل واحد ؛ نحو «اختصم» ، فعُلِم أن «لا» زائدة . وقيل : دخلت في السيئة لتحقّق أنه لا تساوي الحسنة السيئة ، ولا السيئة الحسنة .

وتزاد بعد « أن » المصدرية ؛ كقوله : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[4] ؛ أي ليعلم ؛ ولولا تقدير الزيادة لانعكس المعنى ؛ فزيدت « لا » لتوكيد النفي . قاله ابن جنّي .

واعترضه ابن ملكون ؛ بأنه ليس هناك نفي حتى تكون هي مؤكدة له . ورد عليه الشّكوني بأن هنا ما معناه النفي ؛ وهو ما وقع عليه العلم من قوله : ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾[3] ؛ ويكون هذا من وقوع النفي على العلم ، والمراد ما وقع عليه العلم كقوله : « ما علمت أحداً يقول ذلك إلا زيداً » فأبدلت من الضمير الذي في « يقول » ما بعد « إلا » ؛ وإن كان البدل لا يكون إلا في النفي ؛ فكما كان النفي هنا واقعاً على العلم ، وحكم لما وقع عليه العلم بحكمه ، كذلك يكون تأكيد النفي أيضاً على ما وقع عليه العلم ، ويحكم للعلم بحكم النفي ، فيدخل على العلم توكيدُ النفي ، والمراد تأكيد نفي ما دخل عليه العلم .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩
(٢) في المغنى « تقليلا بعد تقليل » .
(٣) سورة فصلت ٣٤
(٤) سورة الحديد ٢٩

وإذا كانوا قد زادوا « لا » فى الموجب المعنى لما توجه عليه فعل منفىّ فى المعنى؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾[1] ، المعنى « أن تسجد » ، فزاد « لا » تأكيداً للنفى المنوى الذى تضمنه « منعك » ؛ فكذلك تُزاد « لا » فى العلم المُوجِب توكيداً للنفى الذى تضمنه الموجّه عليه .

قال الشَّلَوْبين : وأما زيادة « لا » فى قوله : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ ﴾؛[2] فشىء متفَق عليه ؛ وقد نصّ عليه سيبويه ، ولا يمكن أن تحمل الآية إلا على زيادة « لا » فيها ، لأن ما قبله من الكلام وما بعده يقتضيه .

ويدل عليه قراءة ابن عباس وعاصم والجحدرى : « لِيَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ » وقرأ ابن مسعود وابن جبير « لِكَىْ يَعْلَمَ » وهاتان القراءتان تفسير لزيادتها ؛ وسبب النزول يدل على ذلك أيضاً ؛ وهو أن المشركين كانوا يقولون : إن الأنبياء منّا ، وكفروا مع ذلك بهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ . . . ﴾[3] الآية .

ومنه : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ ﴾[4] ، بدليل الآية الأخرى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾[5] ؛ وليس المعنى : ما منعك من ترك السجود ؟ فإنه ترَكَ ؛ فلا يستقيم التوبيخ عليه .

وقيل : ليست بزائدة من وجهين :

أحدهما : أنّ التقدير ما دعاك إلى ألّا تسجد ؟ لأنّ الصارف عن الشىء داعٍ إلى تركه ، فيشتركان فى كونهما من أسباب عدم الفعل .

الثانى : أنّ التقدير ما منعك من ألّا تسجد .

---

(١) سورة الأعراف ١٢ (٢) سورة الحديد ٢٩

(٣) سورة الحديد ٢٩ (٣) سورة الأعراف ١٢

(٥) سورة ص ٧٥

وهذا أقربُ مما قبله ؛ لأن فيه إبقاء المنع على أصله ، وعدم زيادتها أَولى ؛ لأن حذف حرف الجر مع « أن » كثير كثرة لا تصل إلى المجاز ، والزيادة فى درجته .

قالوا : وفائدة زيادتها تأكيد الإثبات ؛ فإن وضع « لا » نفى ما دخلت عليه ، فهى معارضة للإثبات ؛ ولا يخفى أنَّ حصول الحكم مع المعارض أثبتُ مما إذا لم يعترضه المعارض، أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط .

ومنه : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾[1] .

وقيل : وقد تزاد قبل القسم ، نحو : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[2] ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾[3] . ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[4] ؛ أى أقسم بثبوتها .

وضُعِّف فى الأخيرة ، بأنهـــــا وقعت صدرا ، بخلاف ما قبلها ، لوقوعها بين الفاء ومعطوفها .

وقيل : زيدت توطئة لنفى الجواب ؛ أى لا أقسم بيوم القيامة ، فلا يتركون سُدًى . ورد بقوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . . . ﴾[5] الآيات ، فإن جوابه مثبت ، وهو : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[5].

وقيل غير زائدة .

وقيل : هى ردّ لكلام قد تقدّم من الكفّار ، فإنّ القرآن كلّه كالسورة الواحدة ؛ فيجوز أن يكون الادّعاء فى سورة ، والردُّ عليهم فى أخرى ؛ فيجوز الوقف على « لا » هذه .

---

(١) سورة طه ٩٢ ، ٩٣
(٢) سورة المعارج ٤٠
(٣) سورة الواقعة ٧٥
(٤) سورة القيامة ١
(٥) سورة البلد ١ ، ٤

واختلف فى قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾[١] .

فقيل : زائدة ليصحّ المعنى ؛ لأنّ المحرّم الشِّرْك .

وقيل : نافية أو ناهية .

وقيل : الكلام تمّ عند قوله : ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ، ثم ابتدأ : ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] ؛ فيمن فتح الهمزة[٣] ، فقيل «لا» زائدة ، وإلا لكان عذراً للكفار .

وردّه الزجاج بأنها نافية فى قراءة الكسر[٤] ، فيجب ذلك فى قراءة الفتح .

وقيل : نافية وحذف المعطوف ؛ أى وأنهم يؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[٥] .

وقيل : « لا » زائدة ، والمنع : ممتنع[٦] على أهل قرية قدّرنا إهلاكهم لكفرهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى قيام الساعة .

وعلى هذا فـ « حرام » خبر مقدم وجوبا لأن المخبر عنه « أنّ وصلتها » .

وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ

---

(١) سورة الأنعام ١٥١ (٢) سورة الأنعام ١٠٩

(٣) هى رواية العراقيين قاطبة عن أبى بكر من طريق يحيى ، قال صاحب إتحاف فضلاء البشر ٢١٥ « على أنها بمعنى لعل ؛ وهى فى مصحف أبى كذلك ، أو على تقدير لام العلة ؛ والتقدير : إنما الآيات التى يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون ، وما يشعركم اعتراض بين العلة والمعلول » .

(٤) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو وأبى بكر ويعقوب وخلف . الإتحاف ٢١٥

(٥) سورة الأنبياء ٩٥ (٦) ت « يمتنع » .

﴿ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ﴾[1] على قراءة مَنْ نصب ﴿ يَأْمُرَكُمْ ﴾[2] عطفاً على ﴿ يُؤْتِيَهُ ﴾ ف «لا» زائدة مؤكّدة لمعنى النفى السابق .

وقيل : عطف على ﴿ يَقُول ﴾ ، والمعنى : ما كان لبشر أن يَنْصِبَه الله للدعاء إلى عبادته وترك الأنداد ، ثم يأمر الناس بأن يكونوا عباداً له ، ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً .

وقيل : ليست زائدة لأنه عليه الصلاة والسلام كان يَنْهَى قريشاً عن عبادة الملائكة، وأهلَ الكتاب عن عبادة عُزَيْر وعيسى ؛ فلما قالوا له : أنتخذك ربًّا ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة ، ثم يأمر الناس بعبادته ، وينهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء .

***

[زيادة « مِن »]

وأما « مِن » فإنّها تزاد فى الكلام الوارد بعد نفى أو شبهه ؛ نحو : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾[3] ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾[4] ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾[5] .

(١) سورة آل عمران ٧٩ ، ٨٠

(٢) قال صاحب كتاب إتحاف فضلاء البشر ١٧٧ : « واختلف فى ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ ﴾ ، فابن عامر وعاصم وحمزة وكذا يعقوب وخلف بنصب الراء ؛ أى ولا له أن يأمركم ، فأن مضمرة ، أو منصوب بالعطف على ﴿ يُؤْتِيَه ﴾ ، والفاعل ضمير « بشر » ، ووافقهم الحسن واليزيدى والأعمش ؛ والباقون بالرفع على الاستئناف، وفاعله ضمير اسم الله تعالى أو بشر » .

(٣) سورة الأنعام ٥٩

(٤) سورة الملك ٣

(٥) سورة المؤمنون ٩١

وجوّز الأخفش زيادتها مطلقاً ؛ محتجًّا بنحو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١) . ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾(٢) . ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾(٣) . ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾(٤) .

وأما « ما » فى نحو قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾(٥)، وقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾(٦) فـ« ما » فى هذين الموضعين زائدة ؛ إلّا أن فيها فائدة جليلة ؛ وهى أنه لو قال : فبرحمة من الله لنت لهم ، وبنقضهم لعنّاهم ، جوّزنا أنّ اللين واللعن كانا للسببين المذكورين ولغير ذلك ، فلما أدخل « ما » فى الموضوعين قطعنا بأن اللين لم يكن إلّا للرحمة ، وأن اللعن لم يكن إلا لأجل نقض الميثاق .

***

[زيادة الباء]

وأما الباء فتزاد فى الفاعل ؛ نحو « كفى بالله » ، أى كفى الله ، ونحو « أحسِنْ بزيدٍ » ؛ إلا أنها فى التعجب لازمة . ويجوز حذفها فى فاعل ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ، ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٧) وإنما هو « كفى الله » و « كفانا » .

وقال الزجاج : دخلت لتضمّن « كفى » معنى اكتفى ؛ وهو حسن .

وفى المفعول ، نحو : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾(٨) ؛ لأنّ الفعل يتعدّى بنفسه ؛ بدليل قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾(٩) ، ونحو : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾(١٠) . ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾(١١) . ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾(١٢)

---

(١) سورة الأنعام ٣٤
(٢) سورة نوح ٤
(٣) سورة الحج ٢٣ ، والكهف ٣١
(٤) سورة البقرة ٢٧١
(٥) سورة آل عمران ١٥٩
(٦) سورة المائدة ١٤
(٧) سورة الأنبياء ٤٧
(٧) سورة البقرة ١٩٥
(٩) سورة الحجر ١٩
(١٠) سورة مريم ٢٥
(١١) سورة العلق ١٤
(١٢) سورة الحج ١٥

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[١]. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[٢]، أى يمسح السوق مَسْحاً .

وقيل فى الأول : ضمّن « تُلقوا » معنى « تُفضُوا » .

وقيل : المعنى لا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم ؛ كما يقال : لا تفسد أمرَكَ برأيك .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٣] : إن البـاء زائدة ؛ والمراد : « تنبت الدهن » .

وفى المبتدأ ؛ وهو قليل ؛ ومنه عند سيبويه : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾[٤] .

وقال أبو الحسن : ﴿بأيّكم﴾ متعلّق باستقرار محذوف مخـبَر عنه بالمفتون ؛ ثم اختلف فقيـل : « المفتون » مصدر بمعنى الفتنة ، وقيـل : الباء ظرفية ، أى فى أيّكم الجنون .

وفى خبر المبتدأ ؛ نحو : ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾[٥]. وقال أبو الحسن : الباء زائدة، بدليل قوله فى موضع آخر : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٦] .

وفى خبر ليس ؛ كقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[٧] . ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٨] .

وقال ابن عصفور فى « المقرّب »[٩] : وتزاد فى نادرِ كلامٍ لا يُقَاس عليه ، كقوله تعالى : ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[٧] . انتهى

---

(١) سورة الحج ٢٥
(٢) سورة ص ٣٣
(٣) سورة المؤمنون ٢٠
(٤) سورة ن ٦ والمفتون : المجنون
(٥) سورة يونس ٢٧
(٦) سورة الشورى ٤٠
(٧) سورة القيامة ٤٠
(٨) سورة الزمر ٣٦
(٩) المقرب فى النحو ؛ لابن عصفور على بن مؤمن الحضرمى؛ المتوفى سنة ٦٦٣؛ وعليه شرح له؛ ومنه نسخ خطية بدار الكتب المصرية . وانظر كشف الظنون .

ومراده الآية التي أولها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ ﴾[١] ، ولذا صرّح به ابن أبى الربيع[٢] فى القراءتين .

ويدلّ على الزيادة الآية التى فى [الإسراء] : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٣] .

وزعم[٤] ابن النحاس أنه أراد الآية الأولى ، أعنى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٥] ، فاعتذر عنه بأنه : إنما قال ذلك - وإن كان فى خبر ليس - لأن « ليس » هنا بدخول الهمزة عليها لم يبق معناها من النفى ، فصار الكلام تقريراً ويعنى بقوله : « فى نادر » فى القياس لا فى الاستعمال .

[زيادة اللام]

وأما اللام ، فتزاد معترضة بين الفعل ومفعوله ؛ كقوله :

وملكت ما بين العراق ويثرب   مُلْكاً أجار لمسلم ومعاهَدِ

وجعل منه المبرّد قوله تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾[٦] ، والأكثرون على أنه ضمّن ﴿ رَدِفَ ﴾ معنى : « اقترب » ؛ كقوله : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[٧] .

واختلف فى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾[٨] ، فقيل زائدة ، وقيل للتعليل والمفعول محذوف ، أى يريد الله التبيين وليبيّن لكم ويهديكم ، أى فيجمع لكم بين الأمرين .

---

(١) سورة الأحقاف ٣٣

(٢) هو أحمد بن سليمان الكنانى الأندلسى . مسند القراء بالأندلس . توفى سنة ٤٦٠ . طبقات القراء ١ : ٥٨

(٣) سورة الإسراء ٩٩

(٤) كذا فى م ، وفى ت : « وظن » .

(٥) سورة القيامة ٤٠

(٦) سورة النمل ٧٢

(٧) سورة الأنبياء ١

(٨) سورة النساء ٢٦

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١] ، فى سورة الزمر[٢] : لك أن تجعل اللام مزيدة مثلها فى « أردت لأن أفعل » ، ولا تزاد إلا مع «أن» خاصة دون الاسم الصريح ؛ كأنها زيدت عِوضاً من ترك الأصل إلى مايقوم مقامه ؛ كما أتت[٣] السين فى « أسطاع » يعنى بقطع الهمزة عِوَضا من ترك الأصل الذى هو « أطوع » والدليل على هذا مجيئة بغير لام؛ فى قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٤] . انتهى .

وزيادتها فى « أردت لأن أفعل » لم يذكره أكثر النحويين ؛ وإنما تعرّضوا لها فى إعراب : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ .[٥] .

وتزاد لتقوية العامل الضعيف إما لتأخره ، نحو : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[٦] ، ونحو ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[٧] .

أو لكونه فرعا فى العمل ، نحو : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾[٨] ، ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[٩] ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾[١٠] .

وقيل منه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾[١١] ، وقيل : بل يتعلق بمستقرّ محذوف صفة لعدوّ ؛ وهى للاختصاص .

وقد اجتمع[١٢] التأخر والفرعية ، فى نحو : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾[١٣] .

---

(١) سورة الزمر ١٢
(٢) الكشاف ٤ : ٦٣
(٣) عبارة الكشاف : « كما عوض السين » .
(٤) سورة الزمر ١٢
(٥) سورة النساء ٢٦
(٦) سورة الأعراف ١٥٤
(٧) سورة يوسف ٤٣
(٨) سورة البقرة ٩١
(٩) سورة البروج ١٦
(١٠) سورة المعارج ١٦
(١١) سورة طه ١١٧
(١٢) م : « يجتمع » .
(١٣) سورة الأنبياء ٧٨

وأما قوله تعالى ﴿ نَذِيراً لِلبَشَرِ ﴾(١) ، فإن كان « نذيرا »(٢) بمعنى المنذر ، فهو مثل : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(٣) ، وإن كان بمعنى الإنذار ، فاللام مثلها فى : « سقياً لزيد » .

وقد تجئ اللام للتوكيد بعد النفى ، وتسمَّى لام الجحود ، وتقع بعد « كان » مثل : ﴿ وَمَا كَانَ آللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾(٤) ، اللام لتأكيد النفى ، كالباء الداخلة فى خبر « ليس » ، ومعنى قولهم : « إنهـا للتأكيد » أنك إذا قلت : « ما كنت أضربك » بغير لام ، جاز أن يكون الضرب مما يجوز كونه ؛ فإذا قلت : «ما كنت لأضربك»، فاللام جعلته بمنزلة ما لا يكون أصلا .

* * *

وقد تأتى مؤكدة فى موضع ، وتحذف فى آخر لاقتضاء المقام ذلك .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾(٥) ، فإنه سبحانه أكَّد إثباتَ الموت الذى لا ريب فيه تأكيدين ، وأكَّد إثباتَ البعث الذى أنكروه تأكيداً واحداً ،وكان المتبادر العكس،لأن التأكيد إنما يكون حيث الإنكار ؛ لكن فى النَّظْم وجوه :

أحدها : أنّ البعث لما قامت البراهين القطعية عليه صار المنكِر له كالمنكر للبدَهيات؛ فلم يحتج إلى تأكيد؛ وأمّا الموت فإنه ـ وإن أقروا به ـ لكن لمّالم يعملوا لما بعده نُزِّلوا منزلةمن لم يُقِرّ به ؛ فاحتاج إلى تأكيد ذلك ؛ لأنه(٦) قد يُنزَّل المنكِر كغير المنكر إذا كان معه مالو تأمّله ارتدع من الإنكار(٧) . ولمّاظهر على المخاطبين من التمادى فى الغفلة والإعراض عن العمل

(١) سورة المدثر ٣٦
(٢) ت « النذير » .
(٣) سورة البروج ١٦
(٤) سورة الأنفال ٣٣
(٥) سورة المؤمنون ١٥ ، ١٦
(٦) ت : « وذلك أن قد ينزل المنكر » .
(٧) م : « عن إنكار » .

لما بعده والانهماك فى الدنيا ، وهى من أمارات إنكار الموت ، فلهذا قال : «ميتون» ولم يقل : تموتون ؛ وإنما أكّد إثباتَ البعث الذى أنكروه تأكيدا واحدا ، لظهور أدلته المزيلة للإنكار ، إذا تأملوا فيها ، ولهذا قيل : « تُبعثون » على الأصل ، وهو الاستقبال بخلاف « تموتون » .

الثانى : أنّ دخول اللام على « ميتون » أحق ؛ لأنه تعالى يردّ على الدّهرية القائلين ببقاء النوع الإنسانى ، خلَفاً عن سلف ، وقد أخبر تعالى عن البعث فى مواضع من القرآن، وأكّده وكذّب منكره ؛ كقوله : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[١] قاله الشيخ تاج الدين بن الفركاح[٢] .

الثالث : أنه لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استُغنى به عن إعادة لفظ اللّام ؛ وكأنه قيل : « لتبعثون » واستغنى بها فى الثانى لذكرها فى الأول .

الرابع : قال الزمخشرى : بولغ فى تأكيد الموت ؛ تنبيها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ، ولا يغفل عن ترقبه ؛ فإن مآله إليه ؛ فكأنه أُكِّدت جملته ثلاث مرات ؛ لهذا المعنى ، لأن الإنسان فى الدنيا يسعى فيها غاية السعى ؛ كأنه مخلّد ، ولم يؤكّد جملة البعث إلا بـ « إنّ » لأنه أبرز بصورة المقطوع به الذى لا يمكن فيه نزاع، ولا يقبل إنكاراً.

قلت : هـذه الأجوبة من جهة المعنى ؛ وأما الصناعة فتوجب ما جاءت الآية الشريفة عليه وهو حذف اللام فى « تبعثون » لأن اللام تخلِّص المضارعَ للحال ؛ فلا يجاء [به] مع يوم القيامة ، لأنه مستقبل ، ولأن « تبعثون » عامل فى الظرف المستقبل .

وأما قوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[٣] ؛ فيمكن تأويلها بتقدير عامل .

---

(١) سورة التغابن ٧ (٢) هو عبدالرحمن بن إبراهيم المتوفى سنة ٦٩٠ طبقات الشافعية ٥ : ٧٠
(٣) سورة النحل ١٢٤

ونظير هذا آية الواقعة؛ وهي قوله سبحانه: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[1]. وقال سبحانه في الماء: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾[1] بغير لام؛ والفرق بينهما من أربعة أوجه:

أحدها: أن صيرورة الماء ملحا أسهلُ وأكثر من جعل الحرث حطاماً، إذ الماء العذب يمرُّ بالأرض السبخة فيصير ملحا، فالتوعّد به لا يحتاج إلى تأكيد، وهذا كما أنّ الإنسان إذا توعد عبدَه بالضرب بعصا ونحوه لم يحتج إلى توكيد، وإذا توعّد بالقتل احتاج إلى تأكيد.

والثاني: إنّ جَعْل الحرث حطاماً – قلب للمادّة والصورة، وجَعْل الماء أجاجا قلب للكيفية فقط، وهو أسهل وأيسر.

الثالث: أن «لو»[2] لمّا كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعليق الجزاء [بالشرط][3] أتى باللام عَلَماً على ذلك، ثم حذف الثاني للعلم بهما، لأن الشيء إذا علم [وشهر موقعه، وصار مألوفاً ومأنوساً به][4] لم يُبَالَ بإسقاطه عن اللفظ [استغناء بمعرفة السامع][4] ويساوي لشهرته حذفَه وإثباته، مع ما في حذفه من خفّة اللفظ ورشاقته؛ لأن تقدّم ذكرها – والمسافة قصيرةٌ – يغني عن ذكرها ثانيا.

الرابع: أن اللام أدخِلتْ في آية المطعوم؛ للدّلالة على أنه يقدّم على أمر المشروب، وأن الوعيدَ بفقده أشدّ وأصعب، من قِبَل أنّ المشروب إنما يحتاج إليه تبَعاً للمطعوم؛ ولهذا قُدِّمت آية المطعوم على آية المشروب، ذكرها والذي قبله الزمخشري.

ومن ذلك حذف اللام في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ

(١) سورة الواقعة ٦٥، ٧٠

(٢) الكشاف ٤: ٢٧١؛ مع تصرف في العبارة.

(٣) تكملة من الكشاف.

(٤) تكملة من الكشاف.

وَٱلرَّسُولِ ﴾[1] وإثباتها بعد قوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾[2] الآية ، والجواب أنك إذا عطفت على مجرور[3]...

القسم السابع والعشرون

باب الاشتغال

فإنّ الشىء إذا أضمر ثم فسّر كان أفخم مما إذا لم يتقدم إضمار ؛ ألا ترى أنك تجد اهتزازًا فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾[4] .

وفى قوله : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى ﴾[5] .

وفى قوله : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[6] .

وفى قوله :﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَالَةُ﴾[7] ـ لا تجد مثله إذا قلت: وإن استجارك أحد من المشركين فأجره . وقولك : لو تملكون خزائن رحمة ربى . وقولك : ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَأَعَدَّ لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقولك : هَدَى فريقًا وأضلّ فريقًا ؛ إذ الفعل المفسّر فى تقدير المذكور مرتين .

وكذا قوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنْشَقَّتْ﴾[8] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنْفَطَرَتْ﴾[9] ، ونظائره ، فهذه فائدة اشتغال الفعل عن المفعول بضميره[10] .

---

(١) سورة الأنفال ١

(٢) سورة الأنفال ٤١

(٣) كذا ورد الكلام ناقصا فى الأصول .

(٤) سورة التوبة ٦

(٥) سورة الإسراء ١٠٠

(٦) سورة الدهر ٣١

(٧) سورة الأعراف ٣٠

(٨) سورة الانشقاق ١

(٩) سورة الانفطار ١

(١٠) هذا القسم جميعه ساقط من نسخة ت .

القسم الثامن والعشرون

التعليل

بأن يُذكر الشيء معلّلا ؛ فإنّه أبلغ من ذِكْره بلا علة ، لوجهين :

أحدهما : أن العلّة المنصوصة قاضية بعموم المعلول ؛ ولهذا اعترفت الظاهرية بالقياس في العلّة المنصوصة .

الثاني : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعلّلة ، بخلاف غيرها ؛ وغالب التعليل في القرآن، فهو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى ، وهو سؤال عن العلّة .

ومنه : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾(1) . ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾(2) . ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾(3) .

وتوضيح التعليلِ أن الفاء السببية لو وضعت مكان « إنّ » لَحَسُنَ .

* * *

والطرق الدالة على العلة أنواع :

الأول : التصريح بلفظ الحكم ، كقوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾(4) .

وقال : ﴿ وَأَنْزَلَ ٱللهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾(5) ، والحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح .

* * *

(1) سورة يوسف ٥٣
(2) سورة الحج ١
(3) سورة التوبة ١٠٣
(4) سورة القمر ٥
(5) سورة النساء ١١٣

الثانى : أنه فعل كذا لكذا ، أو أمر بكذا لكذا، كقوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا ﴾ .(٢) .

﴿ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾(١) .

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ ﴾(٣) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾(٤) .

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾(٥) .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾(٦) ، وهو كثير .

فإن قيل : اللام فيه للعاقبة ، كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(٧) ، وقوله : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾(٨) ، وإنما قلنا ذلك لأنّ أفعال الله تعالى لا تعلّل .

فالجواب أن معنى قولنا : إن أفعال الله تعالى لا تعلّل ، أى لا تجب ؛ ولكنها لا تخلو عن الحكمة ، وقد أجاب الملائكة عن قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾(٩) بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٩) .

ولو كان فعله(١٠) سبحانه مجرداً عن الحكم والغايات لم يسأل الملائكة عن حكمته ولم يصح الجواب بكونه يعلم مالا يعلمون من الحكمة والمصالح ، وفرق بين العلم والحكمة ؛

---

(١) سورة المائدة ٩٧
(٢) سورة الطلاق ١٢
(٣) سورة الحديد ٢٩
(٤) سورة البقرة ١٤٣
(٥) سورة الأنفال ١١
(٦) سورة آل عمران ١٢٦
(٧) سورة القصص ٨
(٨) سورة الحج ٥٣
(٩) سورة البقرة ٣٠
(١٠) م : « تعليمه » تصحيف .

ولأنّ لام العاقبة إنما تكون فى حق من يجهل العاقبة ، كقوله : ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١) ؛ وأما مَنْ هو بكل شىء عليم فمستحيلة فى حقه ؛ وإنما اللام الواردة فى أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة . ثم قوله : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هو تعليل لقضاء الله بالتقاطه وتقديره لهم ، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقَدَره ، وذكر فعلهم دون قضائه ؛ لأنه أبلغ فى كونه حَزَنًا لهم وحسرة عليهم .

قاعدة تفسيرية(٢) :

حيث دخلت واو العاطف على لام التعليل فله وجهان :

أحدهما : أن يكون تعليلا معلَّلُه محذوف ، كقوله تعالى : ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾(٣) ؛ فالمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فَعَلَ ذلك .

الثانى : أن يكون معطوفاً على علة أخرى مضمرة ، ليظهر صحة العطف، كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ﴾(٤)؛ التقدير: ليستدلّ بها المكلف على قدرته تعالى ولتجزى. وكقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾(٥) التقدير : ليتصرف فيها ولنعلمه .

والفرق بين الوجهين أنه فى الأول عطف جملة على جملة ، وفى الثانى عطف مفرد على مفرد.

وقد يحتملهما الكلام ، كقوله تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾(٦)، فالتقدير على الأول، ولنجعله آية فعلنا ذلك ، وعلى الثانى: ولنبين للناس قدرتنا ولنجعله آية. ويطّرد الوجهان فى نظائره، ويرجّح كل واحد بحسب المقام ، وحذف المعلّل هاهنا أرجح ، إذ لو فرض علة أخرى لم يكن بدّ مِنْ معلّل محذوف ، وليس قبلها مايصلح له .

(١) سورة القصص ٨
(٢) هذه القاعدة مما سقط من ت .
(٣) سورة الأنفال ١٧
(٤) سورة الجاثية ٢٢
(٥) سورة يوسف ٢١
(٦) سورة البقرة ٢٥٩

فإن قلت : لم قدّر للمعلّل مؤخرا ؟

قلت : فائدة هذا الأسلوب هو أن يجاء بالعلّة بالواو للاهتمام بشأن العلة المذكورة ؛ لأنه إمّا أن يقدّر علة أخرى ليعطف عليها ، فيكون اختصاص ذكرها لكونها أهمّ ، وإما أن يكون على تقدير معلّل ؛ فيجب أن يكون مؤخراً ليشعر تقديمه بالاهتمام .

* * *

الثالث : الإتيان بكيْ ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾(١) ، فعلّل سبحانه قسمةَ الفيْء بين هذه الأصناف كيْلا يتداوله الأغنياء دون الفقراء .

وقوله : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(٢) ، وأخبر سبحانه أنه قدّر ما يصيبهم من البلاء فى أنفسهم قبل أن تبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع ، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنه هين عليه، وحكمته البالغة التي منها ألّا يحزن عباده على ما فاتهم ، ولا يفرحوا بما آتاهم ، فإنهم إذا علموا أنَّ المصيبة فيه مقدّرة كائنة، ولا بدّ قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت ، فلم يأسَوْا عليه ولم يفرحوا .

* * *

الرابع : ذكر المفعول له وهو علة للفعل المعلّل به، كقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾(٣) .

(١) سورة الحشر ٧ (٢) سورة الحديد ٢٢
(٣) سورة النحل ٨٩

ونَصْب ذلك على المفعول له أحسن من غيره ، كما صرح به فى قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾[٣] ، أى لأجل الذكر ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾[٥] ، أى للإعذار والإنذار .

وقد يكون معلولا بعلّة أخرى ، كقوله تعالى ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾[٦] ، فـ «من الصواعق» يحتمل أن تكون فيه «من» لابتداء الغاية فتتعلّق بمحذوف ، أى خوفاً من الصواعق ، ويجوز أن تكون معلّلة بمعنى اللام كما فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ ﴾[٧] ، أى لغمٍّ .

وعلى كلا التقديرين فـ «من الصواعق» فى محل نصب ؛ على أنه مفعول له، والعامل فيه ﴿يجعلون﴾ . و ﴿حذر الموت﴾ مفعول له أيضاً فالعامل فيه ﴿من الصواعق﴾ ، فـ «من الصواعق» علة لـ « يجعلون » . معلول لحذر الموت ، لأن المفعول الأول الذى هو « من الصواعق » يصلح جواباً لقولنا: لم يجعلون أصابعهم فى آذانهم ؟ والمفعول الثانى الذى هو « حذر الموت». يصلح جواباً لقولنا : لم يخافون من الصواعق ؟ فقد ظهر ذلك .

***

الخامس : اللام فى المفعول له ، وتقوم مقامه الباء ، نحو : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾[٨] .

---

(١) سورة النحل ٤٤
(٢) سورة البقرة ١٥٠
(٣) سورة القمر ١٧
(٤) سورة الدخان ٥٨
(٥) سورة المرسلات ٤ ، ٥
(٦) سورة البقرة ١٩
(٧) سورة الحج ٢٢
(٨) سورة النساء ١٦٠

ومن ، نحو : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا ﴾[١] .

والكاف ، نحو : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾[٢]،وقال : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ ﴾[٢] ، أى لإرسالنا وتعليمنا .

* * *

السادس: الإتيان بإنّ ، كقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٣].

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾[٤] .

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[٥] .

﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾[٦] .

وكقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[٧]،وليس هذا من قولهم ، لأنه لو كان قولهم لما حَزِن الرسول ، وإنما جيء بالجملة لبيان العلة والسبب فى أنه لا يحزنه قولهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[٨] والوقف على القول فى هاتين الآيتين والابتداء بإنّ لازم .

وقد يكون علة كقوله :﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[٩] وفيها وجهان لأهل المعانى .

---

(١) سورة المائدة ٣٢
(٢) سورة البقرة ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٣٩
(٣) سورة المزمل ٢٠
(٤) سورة التوبة ١٠٣
(٥) سورة يوسف ٥٣
(٦) سورة طه ١٠
(٧) سورة يس ٧٦
(٨) سورة يونس ٦٥
(٩) سورة الفرقان ٦٥ ، ٦٦

أحدهما : أن سؤالهم لصرف العذاب معلّل بأنه غرام ، أي ملازم الغريم ، وبأنها ساءت مستقرا ومقاما .

الثاني : أنّ « ساءت » . تعليل لكونه غراما .

* * *

السابع : أنْ والفعل المستقبل بعدها ؛ تعليلًا لما قبله، كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾(٢) .

وقوله : ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(٣) كأنه قيل : لِمَ فاضتْ أعينُهم من الدمع ؟ قيل : للحزن ، فقيل(٤) : لم حزنوا ؟ فقيل: لئلا يجدوا .

وقوله : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾(٥) .

ونظائره كثيرة . وفي ذلك طريقان :

أحدهما للكوفيين ؛ أنّ المعنى لئلّا يقولوا ، ولئلّا تقول نفس .

الثاني للبصريين ؛ أنّ المفعول له محذوف ؛ أي كراهة أن يقولوا، أو حذار أن يقولوا.

فإن قيل : كيف يستقيم الطريقان في قوله : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾(٥) ؟ فإنك إذا قدرت : « لئلا تضِلّ إحداهما » لم يستقم عطف « فتذكّر » عليه ؛ وإن قدّرت « حذار أن تضل إحداهما » لم يستقم العطف أيضاً ؛ لأنه لا يصحّ أن تكون الضلالة علّة لشهادتهما .

(١) سورة الأنعام ١٥٦
(٢) سورة الزمر ٥٧
(٣) سورة التوبة ٩٢
(٤) ت : « فسئل » .
(٥) سورة البقرة ٢٨٢

قيل : بظهور المعنى يزول الإشكال ؛ فإن المقصود إذكار إحداهما الأخرى إذا ضلّت نسيت ؛ فلما كان الضلالُ سبباً للإذكار جُعل موضعَ العلة ، تقول : «أعددت هذه الخشبة أن تميل الحائط فأدْعِم بها » ؛ فإنما أعددتَها للدَّعْم لا للميل[1] ؛ وأعددت هذا الدواء أن أمرض فأداوى به ونحوه ، هذا قول سيبويه والبصريين .

وقال الكوفيون : تقديره فى «تُذَكِّر إحداهما الأخرى » إن ضلّت ، فلمّا تقدم الجزاء اتصل بما قبله ، ففتحت أنْ .

* * *

الثامن : « من أجل » فى قوله تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[2] فإنه لتعليل الكتب ، وعلى هذ فيجب الوقف على : ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2] . وظن قوم أنّه تعليل لقوله : ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾ ؛ أى من أجل قتله لأخيه ؛ وهو غلَط ، لأنه يشوّش صحّةَ النظم ، ويُخلّ بالفائدة .

فإن قلت : كيف يكون قَتْلُ أحد ابنىْ آدم للآخر علة للحكم على أمّة أخرى بذلك الحكم ؟ وإذا كان علّة فكيف كان قتل نفس واحدة بمنزلة قاتل الناس كلّهم ؟

قيل : إن الله ــ سبحانه ــ يجعل أقضيتَه وأقداره عِللا لأسبابه الشرعية وأمره ، فجعل حكمه الكونى القدرىّ علة لحكمة أمره الدينى ؛ لأن القتل لما كان من أعلى

---

(١) الكتاب لسيبويه ١ : ٤٣٣ ؛ وعبارته بعد أن أورد الآية : بنصب ﴿فتذَكِّرَ﴾ : « فانتصب لأنه أمر بالإشهاد لأن تذكر إحداهما الأخرى ، ومن أجل أن تذكر . فإن قال إنسان : كيف جاز أن تقول : أن تضل ولم يعد هذا للضلال والالتباس ، فإنما ذكر ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ ؛ لأنه سبب الإذكار ؛ كما يقول الرجل : أعددته أن يميل الحائط فأدعمه ؛ وهو لا يطلب بإعداد ذلك ميلان الحائط ؛ ولكنه أخبر بعلة الدعم وبسببه ، وقرأ أهل الكوفة : ﴿فتذكِّرُ﴾ رفعاً ، وانظر الكتاب أيضاً ١ : ٤٧٦

(٢) سورة المائدة ٣١ ، ٣٢

أنواع الظلم والفساد، فَخَّم أمره، وعظم شأنُه، وجُعِل إثمه أعظمَ من إثم غيره، ونزّل قاتلُ النّفسِ الواحدة منزلةَ قاتلِ الأنفسِ كلِّها في أصلِ العذاب ؛ لا في وصفه .

* * *

التاسع : التعليل بلعلّ ، كقوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(1) ، قيل : هو تعليل لقوله : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾(1) ، وقيل لقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(1) ؛ حيث لمح فيها معنى الرجاء رجعت إلى المخاطبين .

* * *

العاشر : ذِكْر الحكم الكونيّ أو الشرعيّ عقب الوصف المناسب له ، فتارة يذكر بأن ، وتارة بالفاء ، وتارة يجرّد .

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ ﴾(2) إلى قوله : ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾(3) .

والثاني : كقوله : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾(4). ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾(5) .

والثالث : كقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾(6). ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(1) سورة البقرة ٢١ ، ١٨٣
(2) سورة الأنبياء ٨٩
(3) سورة الذاريات ١٥ ، ١٦
(4) سورة المائدة ٣٨
(5) سورة النور ٢
(6) سورة الحجر ٤٥ ، ٤٦

آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١) .

* * *

الحادى عشر : تعليله سبحانه عدم الحكم بوجود المانع منه ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ . . . ﴾(٢) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٣) .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾(٤) ، أى آيات الاقتراح ، لا الآيات الدالّة على صدق الرسل التى تأتى منه سبحانه ابتداء .

وقوله : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾(٦) ، فأخبر سبحانه عمّا يمنع(٧) من إنزال الملك عيانا بحيث يشاهدونه ، وإنّ عنايته وحكمته بخلقه تقتضت منعَ ذلك ؛ بأنه لو أنزل عليه الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا به لعوجلوا بالعقوبة ، جعل الرسول بشراً ليمكنهم التّلقّى عنه والرجوع إليه . . ولو جعله ملكا ؛ فإمّا أن يدعه لى هيئته الملكية ، أو يجعله على هيئة البشر ؛ والأول يمنعهم من التلقّى عنه ، والثانى يحصل مقصوده ؛ إذا كانوا يقولون : هو بشر لا ملك .

* * *

الثانى عشر : إخباره عن الحِكَم والغايات التى جعلها فى خلقه وأمره ، كقوله :

---

(١) سورة البقرة ٢٧٧
(٢) سورة الزخرف ٣٣
(٣) سورة الشورى ٢٧
(٤) سورة الإسراء ٥٩
(٥) سورة فصلت ٤٤
(٦) سورة الأنعام ٨
(٧) م : « منع » .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . . ﴾[١] الآية.

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً . . . ﴾[٢] الآيات .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً . . . ﴾[٣] الآية .

* * *

وكما يقصِدون البسطَ والاستيفاء يقصِدون الإجمال والإيجاز ، كما قيل :

يَرْمُون بالخطبِ الطِّوال وتارةً وَحْيَ الملاحظِ خيفة الرُّقَباء[٤]

وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾[٥] .

---

(١) سورة البقرة ٢٢ (٢) سورة النبأ ٦

(٣) سورة النحل ٨٠

(٤) البيت لأبي دؤاد بن حريز الإيادي ؛ ذكره الجاحظ في البيان والتبيين ١ : ٤٤ ، ١٥٥

(٥) سورة الروم ٢١

الأسلوب الثاني

الحذف

وهو لغـة الإسقاط ؛ ومنه حذفْتُ الشعر إذا أخذتَ منه .

واصطلاحا إسقاطُ جزء الـكلام أو كله لدليـل . وأما قول النحويين : الحذف لغير دليل ، ويسمى اقتصاراً ؛ فلا تحريرَ فيـه ، لأنه لا حذفَ فيه بالـكلية كما سنبينه فيما يلتبس به الإضمارُ والإيجاز .

والفرق بينهما أن شرط الحذف والإيجاز أن يكون [في الحذف] ثَمّ مقدّر ؛ نحو : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[1] بخلاف الإيجاز ؛ فإنه عبارة عن اللفظ القليل الجامع للمعاني الجمة بنفسه.

والفرق بينه وبين الإضمار أنّ شرط المضمر بقاء أثر المقدّر في اللفظ ، نحو : ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2] . ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾[3] . ﴿ٱنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾[4] . أي ائتوا أمرا خيراً لـكم ؛ وهذا لا يشترط في الحذف .

ويدلّ على أنه لا بدّ في الإضمار من ملاحظة المقدّر بابُ الاشتقاق ؛ فإنه من أضمرت الشيء ، أخفيته ، قال :

* سيبقى لها في مُضْمَرِ القلب والحشا *[5]

---

(1) سورة يوسف ٨٢

(2) سورة الدهر ٣١

(3) سورة الأحزاب ٢٤

(4) سورة النساء ١٧١ وانظر الـكشاف ١ : ٤٦٠

(5) بقيته :

* سَرِيرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ *

من أبيات نسبها صاحب اللسان (٦ : ١٦٢) إلى الأحوص بن محمد الأنصاري .

وأما الحذف ؛ فمن حـذفت الشئ قطعته ؛ وهو يُشعر بالطرح ، بخلاف الإضمار ، ولهذا قالوا : « أنْ » تنصب ظاهرةً ومضمرة .

وردّ ابن ميمون قول النحاة : إن الفاعل[1] يحذف فى باب المصدر ، وقال : الصواب أن يقال : يضمر ولا يحذف ؛ لأنه عمدة فى الـكلام .

وقال ابن جنى فى « خاطرياته » : من اتصال الفاعل بالفعل أنك تضمره فى لفظ إذا عرفته نحو قم ؛ ولا تحذفه[2] كحذف المبتدأ ؛ ولهذا لم يجز عندنا ما ذهب إليه الـكسائىّ فى « ضربنى ، وضربت قومَك » .

فصل

[فى أن الحذف نوع من أنواع المجاز على المشهور]

المشهور أن الحذف مجاز ؛ وحكى إمام الحرمين[3] فى « التلخيص » عن بعضهم : أن الحذف ليس بمجاز ؛ إذ هو استعمال اللفظ فى غير موضعه ، والحذف ليس كذلك .

وقال ابن عطية فى تفسير سورة يوسف : وحَذْف المضاف هو عين المجاز أو معظمه ؛ وهذا مذهب سيبويه وغيره من أهل النظر ، وليس كلُّ حذف مجازاً . انتهى .

وقال الزنجانى فى « المعيار »[4] : إنما يكون مجازاً إذا تغيّر بسببه حكم[5] ؛

---

(١) كذا فى ت ، وفى م : « بأن » .   (٢) ساقطة من م .

(٣) هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى الشافعى المعروف بإمام الحرمين ؛ توفى سنة ٤٧٨ ؛ ولكتابه تلخيص التقريب ؛ ذكره ابن خلـكان ١ : ٤٨٧ .

(٤) هو كتاب معيار النظار فى علوم الأشعار لعز الدين أبى المعالى عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجانى ؛ منه نسخة مخطوطة بدار الـكتب المصرية برقم ١٣٦ م أدب .

(٥) م : « إذا تغير به حكمه » .

فأما إذا لم يتغير به حكم ، كقولك : زيد منطلق وعمرو ، بحذف الخبر ؛ فلا يكون مجازاً إذا لم يتغير حكمُ ما بقيَ من الكلام .

والتحقيق أنه إن أريد بالمجاز استعمال اللفظ فى غير موضعه فالمحذوف ليس كذلك ، لعدم استعماله ، وإن أريد بالمجاز إسناد الفعل إلى غيره ـ وهو المجاز العقلى ـ فالحذف كذلك.

فصل

[فى أن الحذف خلاف الأصل]

والحذف خلاف الأصل؛ وعليه ينبنى فرعان :

أحدهما : إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أوْلَى ، لأن لأصل عدم التغيير .

والثانى : إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته ؛ كان الحمل على قلّته أوْلى .

[أوجه الكلام على الحذف]

ويقع الكلام فى الحذف من خمسة أوجه : فى فائدته ، وفى أسبابه ، ثم فى أدلته، ثم فى شروطه ، ثم فى أقسامه .

[فوائد الحذف]

الوجه الأول فى فوائده :

فمنها التفخيم والإعظام ؛ لما فيه من الإبهام ، لذهاب الذهن فى كلّ مذهب، وتشوّفه إلى ما هو المراد ، فيرجع[1] قاصراً عن إدراكه ، فعند ذلك يعظم شأنُه ، ويعلو فى النفس مكانه . ألا ترى أن المحذوفَ إذا ظهر فى اللفظ زال ما كان يختلج فى الوهم من المراد ، وخَلَص للمذكور !

---

(١) م : « فرجع » ، وما أثبته عن ت .

ومنها : زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف ، وكلّما كان الشعور بالمحذوف أعسر ، كان الالتذاذ به أشدّ وأحسن .

ومنها : زيادة الأجر بسبب الاجتهاد فى ذلك ؛ بخلاف غير المحذوف ، كما تقول فى العلّة المستنبطة والمنصوصة .

ومنها : طلب الإيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير فى اللفظ القليل .

ومنها : التشجيع على الكلام ؛ ومن ثم سماه ابن جنى : « شجاعة العربية » .

ومنها : موقعه فى النفس فى موقعه على الذكر ؛ ولهذا قال شيخ الصناعتين عبد القاهر الجرجانى : ما مِن اسم حُذف فى الحالة التى ينبغى أن يحذَف فيها إلَّا وحذفه أحسن من ذكره . ولله در القائل :

إذا نطقتْ جاءت بكلِّ مَليحةٍ   وإن سكتَتْ جاءت بكل مليحِ

[أسباب الحذف]

الثانى فى أسبابه :

فمنها : مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، نحو : الهلال والله ، أى هذا ، فحذف المبتدأ استغناء عنه بقرينة شهادة الحال ، إذ لو ذكره مع ذلك لكان عبثاً من القول .

ومنها : التنبيه على أن الزمانَ يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف ، وأن الاشتغال بذكره يُفضى إلى تفويت المهمّ ، وهذه هى فائدة باب التحذير ؛ نحو : إياكَ والشرَّ ، والطريقَ الطريقَ ، الله الله . وباب الإغراء هو لزوم أمر يحمَد به ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾[1] على التحذير ؛ أى احذروا ناقة الله فلا تقربوها ، و « سقياها » إغراء بتقدير الزموا ناقة الله .

ومنها التفخيم والإعظام ؛ قال حازم فى « منهاج البلغاء » : إنما يحسُن الحذف ما لم

---

(١) سورة الشمس ١٣

يشكل به المعنى ، لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال عليه ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها على الحال . قال : وبهذا القصد يؤثر فى المواضع التى يراد بها التعجب والتهويل على النفوس ، ومنه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾(١) فحذف الجواب ؛ إذ كان وصف ما يجدونه ويلقونه عند ذلك لا يتناهى ، فجعل الحذف دليلًا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وتركت النفوس تقدّر ما شأنه ، ولا يبلغ مع ذلك كنه ما هنالك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

قلت : ومنه : ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(٢) مالا يعلم كنهه إلا الله ، قال الزمخشرى : وهذا من باب الاختصار ومن جوامع الكلم المتحملة مع قلّتها للمعانى الكثيرة .

ومنها : التخفيف ؛ لكثرة دورانه فى كلامهم ، كما حذف حرف النداء ، فى نحو : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾(٣) وغيره . قال سيبويه : العرب تقول لا أدر ؛ فيحذفون الياء ، والوجه « لا أدرى » ، لأنه رفع ، وتقول : « لم أبل » ، فيحذفون الألف ، والوجه « لم أبال » . ويقولون : « لم يك » ، فيحذفون النون ؛ كلّ ذلك يفعلونه استخفافًا لكثرته فى كلامهم .

ومنها : حذف نون التثنية والجمع وأثرها باق ، نحو « الضاربا زيدا » و « الضاربو زيدا » وقراءة من قرأ : ﴿وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةَ﴾(٤) كأن النون ثابتة ، فعلوا ذلك لاستطالة الموصول

---

(١) سورة الزمر ٧٣ (٢) سورة طه ٧٨
(٣) سورة يوسف ٢٩ (٤) سورة الحج ٣٥ ؛ بالنصب وهى قراءة أبى عمرو ؛ على توهم النون ؛ وأن حذفها للتخفيف لطول الاسم ؛ وأنشد سيبويه :

الحافظُو عورةَ العشيرةَ لا يأتيهُمُ مِنْ ورائنا نُطُفُ

وانظر الكتاب ١ : ٩٥ ، وتفسير القرطبى ١٢ : ٥٩

فى الصلة ، نحو : ﴿ وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[١] حذفت الياء للتخفيف .

ويحكى عن الأخفش أن المؤرّجَ السَّدوسيّ سأله : [عن ذلك] فقال : لا أجيبك حتى تنام على بابى ليلةً ، ففعل ، فقال له : إن عادةَ العرب إذا عدلت بالشىء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى، وإنما يُسْرَى فيه، نقص منه حرف، كما فى قوله: ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[٢] ، الأصل « بغيّة » فلما حوّل ونقل عن فاعل نقص منه حرف . انتهى .

ومنها: رعاية الفاصلة، نحو: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[٣]. ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[٤] ونحوه . وقال الرّمانى : إنما حذفت الياء فى الفواصل لأنها على نية الوقف ، وهى فى ذلك كالقوافى التى لا يوقف عليها بغير ياء .

ومنها : أن يُحذَف صيانة له ؛ كقوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[٥] إلى قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٥] ؛ حذف المبتدأ فى ثلاثة مواضع : قبل ذكر الرب، أى هو رب السموات . والله ربكم . والله رب المشرق ؛ لأن موسى عليه السلام استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال تهيُّباً وتفخيما ، فاقتصر على ما يستدلّ به من أفعاله الخاصة به ، ليعرّفه أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ومنها : صيانة اللسان عنه ، كقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[٦] ، أى هم .

---

(١) سورة الفجر ٤ (٢) سورة مريم ٢٨

(٣) سورة الضحا ٣ (٤) سورة الفجر ٤

(٥) سورة الشعراء ٢٣ ـ ٢٨ ؛ والآيات بتمامها : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

(٦) سورة البقرة ١٨

ومنها : كونه لا يصلح إلا له ، كقوله تعالى : ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾[١] . ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[٢] .

ومنها: شهرته حتى يكون ذكره وعدمه سواء ، قال الزمخشرىّ : وهو نوع من دلالة الحال التى لسانها أنطق من لسان المقال ، كقول رؤبة : خير ، جواب من قال : كيف أصبحت ؟ فحذف الجارّ ، وعليه حمل قراءة حمزة : ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامِ﴾[٣] لأن هذا مكان شُهِر بتكرير الجار ، فقامت الشهرة مقام الذكر .

وكذا قال الفارسىّ متخلصاً من عدم إعادة حرف الجر فى المعطوف على الضمير المجرور : إنه مجرور بالجار المقدّر، أى و « بالأرحام » وإنما حذفت استغناء به فى المضمر المجرور قبله .

فإن قلت : هذا المقدّر يحيل المسألة ؛ لأنه يصير من عطف الجار والمجرور على مثله ! قلت : إعادة الجارّ شرط لصحة العطف ؛ لا أنه مقصود لذاته .

[أدلّة الحذف]

الوجه الثالث فى أدلته :

ولما كان الحذف لا يجوز إلا لدليل احتيج إلى ذكر دليله .

والدليل تارة يدلّ على محذوف مطلق، وتارة على محذوف معيّن .

فمنها : أن يدلّ عليه العقل حيث تستحيل صحة الكلام عقلًا إلا بتقدير محذوف ، كقوله تعالى : ﴿وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[٤] ؛ فإنه يستحيل عقلًا تكلم الأمكنة إلا معجزة .

ومنها : أن تدلّ عليه العادة الشرعية ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾[٥]

---

(١) سورة المؤمنون ٩٢
(٢) سورة البروج ١٦
(٣) سورة النساء ١
(٤) سورة يوسف ٨٢
(٥) سورة النحل ١١٥

فإن الذات لا تتصف بالحل والحرمة شرعا ، إنما هما من صفات الأفعال الواقعة على الذوات ، فعلم أن المحذوف التناول ؛ ولكنه لما حذف وأقيمت الميتة مقامه أسند إليها الفعلُ ، وقطع النظر عنه ، فلذلك أُنث الفعل فى بعض الصور ، كقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾(١) ، وقول صاحب التلخيص(٢) : إن هذه الآية من باب دلالة العقل ممنوع ، لأن العقل لا يدرك محل الحل ولا الحرمة ، فلهذا جعلناه من دلالة العادة الشرعية .

ومنها : أن يدلّ العقل عليهما ، أى على الحذف والتعيين ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾(٣) ، أى أمره أو عذابه أو ملائكته ؛ لأن العقل دلّ على أصل الحذف ، ولا ستحالة مجىء البارئ عقلا ؛ لأن المجىء من سمات الحدوث . ودل العقل أيضاً على التعيين ، وهو الأمر ونحوه . وكلام الزمخشرىّ يقتضى أنه لا حذف البتة ؛ فإنه قال : هذه الآية(٤) الكريمة تمثيل ؛ مُثِّلتْ حاله سبحانه وتعالى فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه .

وكقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(٥) ؛ لأنه فى معرض التوحيد ، فعدم الفساد دليل على عدم تعدد الآلهة ، وإنما حذف لأن انتفاء اللازم يستلزم انتفاء الملزوم ضرورة ، ولذلك لم يذكر المقدمة الثانية عند استعمال الشرط بلوغاً لها .

ومنها : أن يدلّ العقل على أصل الحذف ، وتدلّ عادة الناس على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾(٦) ؛ فإن يوسف عليه السلام ليس ظرفا للَوْمِهِنّ ؛ فتعيّن أن يكون غيره ؛ فقد دلّ العقلُ على أصل الحذف . ثم يجوز أن يكون الظرف حبّه ، بدليل : ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾(٧) ، أو مراودته بدليل : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ﴾(٧) ، ولكن

---

(١) سورة المائدة ٣

(٢) تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى .

(٣) سورة الفجر ٢٢

(٤) الكشاف ٤ : ٦٠٠

(٥) سورة الأنبياء ٢٢

(٦) سورة يوسف ٣٢

(٧) سورة يوسف ٣٠

العقل لا يعيّن واحداً منها ؛ بل العادة دلّت على أن المحذوفَ هو الثانى ، فإن الحبّ لا يلام عليه صاحبه ؛ لأنه يقهره ويغلبه ، وإنما اللومُ فيما للنفس فيه اختيار ، وهو المراودة ، لقدرته على دفعها .

ومنها : أن تدلّ العادة على تعيين المحذوف ، كقوله تعالى: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا ﴾[١] ، أى مكان قتالٍ ، والمراد مكاناً صالحاً للقتال ، لأنهم كانوا أخبرَ الناس بالقتال ؛ والعادة تمنع أن يريدوا : لو نعلم حقيقة القتال ؛ فلذلك قدّره مجاهد : « مكان قتال » .

وقيل : إنّ تعيين المحذوف هنا من دلالة السياق لا العادة .

ومنها : أن يدلّ اللفظ على الحذف ، والشروعُ فى الفعل على تعيين المحذوف كقوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾[٢] فإن اللفظ يدل على أن فيه حذفاً ؛ لأنّ حرف الجر لا بدّ له من متعلق ودلّ الشروعُ على تعيينه ؛ وهو الفعل الذى جعلت التسمية فى مبدئه ؛ من قراءة، أو أكل أو شرب ونحوه ، ويقدر فى كل موضع ما يليق ، فى القراءة : أقرأ ، وفى الأكل : آكُلُ ؛ ونحوه .

وقد اختلف : هل يقدّر الفعل أو الاسم ؟ وعلى الأول، فهل يقدّر عام كالابتداء أو خاص كما ذكرنا ؟

ومنها اللغة كضربت ؛ فإن اللغة قاضية أن الفعل المتعدّىَ لا بدّ له من مفعول ؛ نعم هى تدلّ على أصل الحدث لا تعيينه . وكذلك حذف المبتدأ والخبر .

ومنها : تقدم ما يدلّ على المحذوف وما فى سياقه ، كقوله : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾[٣] ، وفى موضع آخر نحو : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾[٤] . وفى موضع :

---

(١) سورة آل عمران ١٦٧
(٢) سورة الفاتحة ١
(٣) سورة الصافات ١٧٩
(٤) سورة ص ٧٥

﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾[١] . وكقوله : ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ﴾[٢] أى هذا ، بدليل ظهوره فى سورة إبراهيم ، فقال تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾[٣] ، ونظائره .

ومنها اعتضاده [٤] بسبب النزول [٤] ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾[٥] ، فإنه لابدّ فيه من تقدير فقال زيد بن أسلم : أى قمتم من المضاجع ـ يعنى النوم ـ وقال غيره : إنما يعنى إذا قمتم محدِثين .

واحتُجَّ لزيد بأن هذه الآية إنما نزلت بسبب فقدان عائشة رضى الله عنها عِقدها ، فأخَّروا الرحيل إلى أن أضاء الصبح ، فطلبوا الماء عند قيامهم من نومهم فلم يجدوه ؛ فأنزل الله هذه الآية .

وبما رُجِّح من طريق النظر بأن الأحداث المذكورة بعد قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ ﴾ الأولى أن يحمل قوله ﴿ إذا قمتم ﴾ معنًى غير الحدَث ، لما فيه من زيادة الفائدة ، فتكون الآية جامعةً للحدث ولسبب الحدَث ؛ فإن النوم ليس بحدَث بل سبب للحدث .

[شروط الحذف]

الوجه الرابع فى شروطه :

فمنها : أن تكون فى المذكور دلالة على المحذوف ؛ إما مِنْ لفظه أو من سياقه ، وإلا لم يُتمكَّن من معرفته ، فيصير اللفظ مُخِلًّا بالفهم . ولئلا يصير الكلام لغزا فيهجَن[٦] فى الفصاحة ، وهو معنى قولهم : لابد أن يكون فيما أُبقِيَ دليل على ما أُلقِيَ .

وتلك الدلالة مقالية وحالية .

فالمقالية قد تحصل من إعراب اللفظ ، وذلك كما إذا كان منصوبا ، فيُعلم أنه لابدّ له

---

(١) سورة الأعراف ١٢
(٢) سورة الأحقاف ٣٥
(٣) سورة إبراهيم ٥٢
(٤ ـ ٤) ساقط من ت
(٥) سورة المائدة ٦
(٦) ت : « فيهجر »

من ناصب ، وإذا لم يكن ظاهرا لم يكن بُدّ من أن يكون مقدّرا ، نحو : أهلا وسهلا ومرحبا ، أى وجدت أهلا، وسلكت سهلا ، وصادفت رحبا . ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدَ لِلَّهِ ﴾[١] على قراءة النصب . وكذلك قوله : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[٢] والتقدير : احمدوا الحمد ، واحفظوا الأرحام ؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾[٣] . ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾[٤] .

والحالية قد تحصل من النظر إلى المعنى والنظر العلم ؛ فإنه لا يتمّ إلا بمحذوف، وهذا يكون أحسن حالا من النظم الأول لزيادة عمومه ، كما فى قولهم : فلان يحلّ ويربط ، أى يحلّ الأمور ويربطها ، أى ذو تصرّف .

وقد تدل الصناعة النحوية على التقدير ؛ كقولهم فى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[٥] : إن التقدير لأنا أقسم لأنّ فعل الحال لا يقسم عليه . وقوله تعالى : ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾[٦] ، التقدير : لا تفتأ ؛ لأنه لو كان الجواب مثبتا لدخلت اللام والنون، كقوله: ﴿ بَلَى ورَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾[٧] .

وهذا كلّه عند قيام دليل واحد ، وقد يكون هناك أدلة يتعدّد التقدير بحسبها ، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾[٨] ، فإنه يحتمل ثلاثة أمور : أحدها : كمن لم يزيّن له سوء عمله ، والمعنى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ

---

(١) سورة الفاتحة ٢ ؛ قال أبو عبد الله القرطبي : « وروى عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج ﴿ ٱلْحَمْدَ لِلَّهِ ﴾ ، بنصب الدال ، على إضمار فعل . وقراءة الرفع هى قراءة القراء السبعة وجمهور الناس . الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٣٥

(٢) سورة النساء ١
(٣) سورة البقرة ١٣٨
(٤) سورة الحج ٧٨
(٥) سورة القيامة ١
(٦) سورة يوسف ٨٥
(٧) سورة التغابن ٧
(٨) سورة فاطر ٨

حَسَناً[١]﴾ من الفريقين اللذيْن تقدم ذكرهما ، كمن لم يزين له ! ثم كأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قيل له ذلك ، قال : لا ، فقيل : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[١] .

ثانيها : تقدير : ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات فحذفَ الخبر لدلالة ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ .

ثالثها : تقدير : « كمن هداه الله » ، فحذف لدلالة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾[١] .

* * *

واعلم أنّ هذا الشرط إنما يُحتاج إليه إذا كان المحذوف الجملة بأسرها ؛ نحو : ﴿قَالُوا سَلَاماً ﴾[٢] ، أى سَلّمنا سلاما، أو أحد ركنيها نحو : ﴿ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُون ﴾[٣] أى « سلام عليكم أنتم قوم منكرون » ، فحذف خبر الأولى ومبتدأ الثانية .

وأمّا إذا كان المحذوف فَضْلة فلا يشترط لحذفه دليل ؛ ولكن يشترط ألّا يكون فى حذفه إخلال بالمعنى أو اللفظ ، كما فى حذف العائد المنصوب ونحوه .

وشَرَط ابن مالك فى حذف الجار أيضاً أَمْنَ اللبس ، ومَنَع الحذف فى نحو : رغبت أن تفعل ، أو عن أن تفعل ، لإشكال المراد بعد الحذف .

وأورد عليه ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾[٤] ، فحذف الحرف .

وجوابه أنّ النساء يشتملن على وصفين ، وصف الرغبة فيهنّ وعنهنّ، فحذف للتعميم.

---

(١) سورة فاطر ٨ — (٢) سورة هود ٦٩

(٣) سورة الذاريات ٢٥ — (٤) سورة النساء ١٢٧

وشرط بعضهم فى الدليل اللفظىّ أن يكون على وفق المحذوف . وأنكر قول الفرّاء فى قوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ﴾(١) أن التقدير : بلَى حسبنا قادرين ، والحساب المذكور بمعنى الظنّ ، والمحذوف بمعنى العلم ؛ إذ التردد فى الإعادة كفر ، فلا يكون مأمورا به .

ويجاب بأن الحساب المقدّر بمعنى الجزم والاعتقاد ؛ لا بمعنى الظنّ ، وتقديره بذلك أولى ، لموافقته الملفوظ .

وقد يدلّ على المحذوف ذكره فى مواضع أُخر :

منها ـ وهو أقواها ، كقوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾(٢) أى أمره ، بدليل قوله : ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾(٣) .

وقوله فى آل عمران : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(٤) ، أى كعرض ؛ بدليل التصريح به فى آية الحديد(٥) .

وفيه إيجاز بليغ ؛ فإنه إذا كان العرض كذلك، فما ظنك بالطول ! كقوله : ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾(٦) .

وقيل : إنما أراد التعظيم والسّعة لأحقّية العرض ، كقوله :

كأنّ بلادَ اللهِ وَهىَ عَرِيضَةٌ ... على الخائفِ المظْلُوم كِفّةُ حابِلِ

ومنها: ألا يكون الفعل طالباً له بنفسه(٧) ، فإن كان امتنع حذفه كالفاعل، ومفعول ما لم يسم فاعله ، واسم كان وأخواتها ، وإنما لم يحذف لما فى ذلك من نقض الغرض .

(١) سورة القيامة ٣، ٤ (٢) سورة الأنعام ١٥٨

(٣) سورة النحل ٣٣ (٤) سورة آل عمران ١٣٣

(٥) آية ٢١ ؛ وهو قوله تعالى ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

(٦) سورة الرحمن ٥٤ قال صاحب الكشاف : « إذا كانت البطائن من إستبرق ، فما ظنك بالظواهر ! » .

(٧) ت : « بينة » .

ومنها: قال أبو الفتح بن جني : ومن حق الحذف أن يكون في الأطراف لا في الوسط؛ لأن طَرَف الشيء أضعفُ من قلبه ووسطه ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[1]، وقال الطائي الكبير[2] :

كانَتْ هي الوسَطَ الممنوعَ فاستلبتْ   ما حولَها الخيلُ حتى أصبحتْ طَرَفا

فكأنّ الطرفين سياجٌ للوسط ومبذولان للعوارض دونه ، ولذلك تجد الإعلال عند التصريفيّين، بالحذف منها[3]، فحذفوا الفاء في المصادر من باب وعد، نحو العدة والزنة والهبة واللام في نحو اليد والدم والفم والأب والأخ ، وقلّما تجد الحذف في العين لما ذكرنا، وبهذا يظهر لطف هذه اللغة العربية .

تنبيهات

الأول: قد توجب صناعة النحوِ التقدير وإن كان المعنى غير متوقف عليه؛ كما في قوله: « لا إله إلا الله » فإن الخبر محذوف ، وقدّره النحاة : « موجود » أو « لنا » .

وأنكره الإمام فخر الدين ، وقال : هذا كلام لا يحتاج إلى تقدير ، وتقديرهم فاسد ، لأن نفيَ الحقيقة مطلقةً أعمّ من نفيها مقيَّدة، فإنها إذا انتفت مطلقةً كان ذلك دليلا على سلب الماهية مع القيد ، وإذا انتفت مقيدة بقيد مخصوص لم يلزم نفيُها مع قيد آخر .

ولا معنى لهذا الإنكار ؛ فإن تقدير «في الوجود» ، يستلزم نفيَ كلّ إله غير الله قطعًا فإنّ العدم لا كلام فيه ، فهو في الحقيقة نفي للحقيقة مطلقة لا مقيّدة . ثم لا بدّ من تقدير خبر لاستحالة مبتدأ بلا خبر ، ظاهراً أو مقدراً ؛ وإنما يقدِّر النحويّ القواعد حقها وإن كان المعنى مفهوما ، وتقديرهم هنا أو غيره ليروا صورةَ التركيب من حيث

---

(١) سورة الرعد ٤١

(٢) هو أبو تمام حبيب بن أوس ، ديوانه ٢ : ٣٧٤ .

(٣) أي من الأطراف .

اللفظ مثالا ، لا من حيث المعنى ، ولهم تقديران : إعرابىّ ، وهو الذى خفِىَ على المعترض، ومعنوىّ وهو الذى ألزمه، وهو غير لازم .

ومن المنكَر فى هذا أيضاً قول ابن الطّراوة : إن الخبر فى هذا « إلا الله »، وكيف يكون المبتدأ نكرة والخبر معرفة !

الثانى : اعتبر أبو الحسن فى الحذف التدريج حيث أمكن ؛ ولهذا قال فى قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾[1] : إن أصل الكلام :« يوم لا تجزِى فيه » فحذف حرف الجرّ ، فصار « تجزيه » ، ثم حذف الضمير فصار « تجزى » .

وهذا ملاطفة فى الصناعة ، ومذهب سيبويه أنه حذف فيه دفعة واحدة .

وقال أبو الفتح[2] فى « المحتسب » : وقول أبى الحسن أوثق فى النفس وآنس من أن يحذف الحرفان معا فى وقت واحد .

الثالث : المشهور فى قوله تعالى : ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ﴾[3] ، أنه معطوف على جملة محذوفة ، التقدير : « فضرب فانفجرت » ، ودنّ « انفجرت » على المحذوف ، لأنه يُعلَم من الانفجار أنه قد ضرَبَ .

وكذا : ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾[4]، إذ لا جائز أن يحصلَ الانفجار والانفلاق دون ضرب .

وابن عصفور يقول فى مثل هذا: إنّ حرف العطف المذكور مع المعطوف هو الذى كان مع المعطوف عليه ، وإنّ المحذوفَ هو المعطوف عليه، وحذف حرف العطف من المعطوف،

---

(١) سورة البقرة ٤٨ (٢) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ؛ وكتابه المحتسب فى إعراب الشواذ ؛ نشر بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ بمصر . (٣) سورة البقرة ٦٠
(٤) سورة الشعراء ٦٣

فالفاء فى « انفلق » هو فاء الفعل المحذوف وهو « ضرب » فذكرت فاؤه وحذف فعلها وذكر فعل « انفلق » وحذفت فاؤه ليدلّ المذكور على المحذوف ؛ وهو تحيّل غريب .

[أقسام الحذف]

الخامس فى أقسامه :

الأول : الاقتطاع ، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقى ، كقوله :

* دَرَسَ المَنا بِمتَالِعٍ فَأَبَانِ *

أى المنازل ، وأنكر صاحب « المثل السائر »(١) ورود هذا النوع فى القرآن العظيم ، وليس كما قال .

وقد جعل منه بعضهم فواتحَ السور ؛ لأن كل حرف منها يدلُّ على اسم من أسماء الله تعالى ، كما روى ابن عباس « الٓمٓ » معناه: «أنا الله أعلم وأرى » ، و « الٓمٓصٓ » أنا الله أعلم وأفصّل ؛ وكذا الباقى .

وقيل فى قوله : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾(٢) : إن الباء هنا أوّل كلمة « بعض » ثم حذف الباقى ، كقوله(٣) :

* قلت لها قِفِى لنا قالت قافْ *

أى وقفت ، وفى الحديث : « كفى بالسيف شا » أى شاهدا .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ٢ : ١١٣ ؛ قال: « واعلم أن العرب قد حذفت من أصل الألفاظ شيئا لا يجوز القياس عليه ، كقول بعضهم [علقمة بن عبدة] :

كأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُقَدَّم بسبَا الكتَّانِ ملثومُ

فقوله : « سبا الكتان » ، يريد : « سبائب الكتان » ، وكذلك قول الآخر :

يُذْرِينَ جَنْدَلَ حَائِرٍ لجنُوبِهَا ... فَكَأَنَّمَا تُذْكِى سنَابِكُهَا الحُبَا

فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن ؛ وإن كانت العرب استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله » .

(٢) سورة المائدة ٦

(٣) هو الوليد بن عقبة ، وبعده :

* لَا تَحْسَبِينَا قَدْ نَسِينَا الإِيجَافْ *

وانظر شواهد الشافية ٢٧١ ، والخصائص ١ : ٣٠

وقال الزمخشري في قوله : « من الله » في القسم : إنها « أيمن » التي تستعمل في القسم ، حذفت نونها(١) .

ومن هـذا الترخيم ، ومنه : قراءة بعضهم : ﴿ يَا مَالِ ﴾(٢) على لغة مَنْ يَنْتَظِرُ ، ولمّا سمعها بعضُ السلف قال: ما أشغل أهلَ النار عن الترخيم! وأجاب بعضهم بأنهم لشدة ما هم فيه عجزوا عن إتمام الكلمة .

* * *

الثاني : الاكتفاء وهو أن يقتضي المقام ذِكرَ شيئين بينهما تلازم وارتباط ؛ فيُكتفى بأحدهما عن الآخر ، ويخصّ بالارتباط العطفيّ غالباً ؛ فإن الارتباطَ خمسة أنواع: وجوديّ، ولزوميّ ، وخبريّ ، وجوابيّ ، وعطفيّ .

ثم ليس المراد الاكتفـــاء بأحـدهما كيف اتفق ؛ بل لأنّ فيـه نـكتة تقتضي الاقتصارَ عليه .

والمشهور في مثال هـذا النوع قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾(٣) أي والبرد ، هكذا قدّروه . وأوردوا عليه سؤالَ الحكمة من تخصيص الحرّ بالذِّكر . وأجابوا بأن الخطاب للعرب ، وبلادهم حارة ، والوقاية عنـدهم من الحرّ أهمّ ؛ لأنه أشـدّ من البرد عندهم .

والحقّ أن الآية ليست من هذا القسم ، فإنّ البرد ذُكِرَ الامتنانُ بوقايته قبل ذلك صريحاً في قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾(٤) وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ

---

(١) انظر المفصل ٣٤٤ ، وابن يعيش ٩ : ٩٢ (٢) هي قراءة ابن مسعود لآية ٧٧ الزخرف : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ؛ وانظر الكشاف ٤ : ٢٠٨

(٣) سورة النحل ٨١ (٤) سورة النحل ٨٠

ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾[١] ، وقوله فى صدر السورة : ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾[٢] .

فإن قيل : فما الحكمة فى ذكر الوقايتين بعد قوله : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾[١] ؛ فإن هذه وقاية الحرّ ، ثم قال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾[١] ، فهذه وقاية البرد على عادة العرب ؟

قيل : لأنّ ما تقدم بالنسبة إلى المساكن ، وهذه إلى الملابس ، وقوله : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾[١] لم يذكره[٣] السهيلىّ ، وفيه الجوابان السابقان .

وأمثلة هذا القسم كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٤] فإنّه قيل : المراد : « وما تحرك » ، وإنما آثر ذكر السكون لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد ، ولأن الساكن أكثرُ عدداً من المتحرك . أو لأنّ كل متحرك يصير إلى السكون ، ولأن السكون هو الأصل ، والحركة طارئة .

وقوله : ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[٥] تقديره « والشرّ » ، إذ مصادرُ الأمور كلها بيده جلّ جلاله ؛ وإنما آثر ذكرَ الخير ؛ لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم إليه ؛ أو لأنه أكثر وجوداً فى العالم من الشر ؛ ولأنه يجب فى باب الأدب ألّا يضاف إلى الله تعالى ، كما قال صلّى الله عليه وسلم : « والشرّ ليس إليك » .

وقيل : إن الكلام إنما ورد ردًّا على المشركين فيما أنكروه مما وعده الله به على لسان جبريل ، من فتح بلاد الروم وفارس ؛ ووعْد النبى صلى الله عليه وسلم أصحابَه بذلك ؛ فلما كان الكلام فى الخير خصّه بالذكر باعتبار الحال .

(١) سورة النحل ٨١
(٢) سورة النحل ٥
(٣) م : « ولم ينقله » .
(٤) سورة الأنعام ١٣
(٥) سورة آل عمران ٢٦

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[١] أى والشهادة ؛ لأن الإيمان بكلٍّ منهما واجب ، وآثر الغيب لأنه أبدع[٢] ، ولأنه يستلزم[٣] الإيمان بالشهادة من غير عكس .

ومثله : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً . عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾[٤] ، أى وَالشَّهادَةِ ، بدليل التصريح به فى موضع[٥] آخر .

وقوله : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾[٦] ؛ فإنه سبحانه ذكر أولاً الظلمات والرعد والبرق ، وطوى الباق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ﴾[٧] أى والبرّ، وإنما آثر ذكر البحر لأنّ ضرره أشدّ .

وقوله : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾[٨] ، أى والمغارب .

وقوله : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾[٩] ، أى ولا غير إلحاف .

وقوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾[١٠] ، أى وأخرى غير قائمة .

وقوله : ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١١] ، أى والمؤمنين .

وقوله : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١٢] ، أى والكافرين . قاله ابن الأنبارى ، ويؤيده قوله : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾[١٣] .

---

(١) سورة البقرة ٣
(٢) كذا فى ت ، وفى م : « أمدح » .
(٣) ت : « مستلزم » .
(٤) سورة الجن ٢٥ ، ٢٦
(٥) ذكر الغيب مع الشهادة فى القرآن فى أكثر من موضع ؛ منها قوله تعالى فى الأنعام ٧٣ : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، وفى التوبة ٩٤ : ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ؛ و ١٠٥ ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وغير هذا كثير.
(٦) سورة البقرة ٢٠
(٧) سورة الإسراء ٦٧
(٨) سورة الصافات ٥
(٩) سورة البقرة ٢٧٣
(١٠) آل عمران ١١٣
(١١) سورة الأنعام ٥٥
(١٢) سورة البقرة ٢
(١٣) سورة البقرة ١٨٥

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾[١] ، قيل . المعنى وآخر كافر به ، فحذف المعطوف لدلالة قوة الكلام ، من جهة أن أولَ الكفر وآخره سواء ، وخصّت الأولوية بالذكر لقبحها بالابتداء .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾[٢] ، أى ويبسطن ، قاله الفارسىّ .

وحكى فى « التذكرة »[٣] عن بعض أهل التأويل فى قوله تعالى: ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى ﴾[٤] أنّ المعنى : « أكاد أظهرها أخفيها لتجزى » ، فحذف « أظهرها » لدلالة « أخفيها » عليه .

قال : وعندى أن المعنى : « أزيل خفاءها » ، فلا حذف .

وقوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[٥] ، أى بين أحد وأحد[٦] .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾[٧]، أى ومن أنفق بعده وقاتل ، لأن الاستواء يطلب اثنين ؛ وحذف المعطوف لدلالة الكلام عليه ؛ ألا تراه قال بعده : ﴿ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾[٧] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[٨]، أى ومن لا يستنكف ولا يستكبر؛ بدليل التقسيم بعده بقوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٩] ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا ﴾[٩] .

---

(١) سورة البقرة ٤١ (٢) سورة الملك ١٩

(٣) كتاب التذكرة المعروف بتذكرة أبى على؛ ذكره صاحب كشف الظنون وقال: « وهو كبير فى مجلدات لخصه أبو الفتح عثمان بن جنى النحوى » .

(٤) سورة طه ١٥ (٥) سورة البقرة ٢٨٥

(٦) ت : « واحد وواحد » . (٧) سورة الحديد ١٠

(٨) سورة النساء ١٧٢ (٩) سورة النساء ١٧٣

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾(١) ، فاكتفى هنا بذكر الجهاتِ الأربع عن الجهتين .

وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾(٢)،الاكتفاء بجهتين عن سائرها .

وقوله : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣) ،أى ولم تعبدنى.

وقوله : ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾(٤) ، أى ولا والد ؛ بدليل أنه أوجب للأخت النصف ؛ وإنما يكون ذلك مع فقد الأب ؛ فإن الأب يُسْقِطها .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾(٥) ولم يذكر القسم الآخر الذى تقتضيه « أما » ؛ إذ وضعها لتفصيل كلام مجمل ؛ وأقل أقسامها قسمان ، ولا ينفكّ عنهما فى جميع القرآن إلا فى موضعين هذا أحدهما ؛ والتقدير: وأما من لم يتب ولا يؤمن ولم يعمل صالحاً فلا يكون من المفلحين . والثانى فى آل عمران: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾(٦) إلى قوله ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٦) هذا أحد القسمين ، والقسم الثانى ما بعده ، وتقديره : وأما الراسخون فِي الْعِلْمِ فيقولون .

وقوله : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾(٧) ، أى وفعلاً غير الذى أمروا به ؛ لأنهم أمروا بشيئين : بأن يدخلوا الباب سُجّدا ، و بأن يقولوا حطّة ، فبدّلوا القول فى « حنطة » « حطة » وبدّلوا الفعل بأن دخلوا يزحفون على أستاههم ؛ ولم يدخلوا ساجدين ؛ والمعنى : إرادتنا حطة ، أى حط عنّا ذنوبنا .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ

(١) سورة الأعراف ١٧
(٢) سورة فصلت ١٤
(٣) سورة الشعراء ٢٢
(٤) سورة النساء ١٧٦
(٥) سورة القصص ٦٧
(٦) سورة آل عمران ٧
(٧) سورة البقرة ٥٩

﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾[1] ، قال ابن عطية : دخول «لا» على نية التكرار كأنه قال: ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات ، واستغنى بذكر الأوائل عن الثوانى ؛ ودلّ بمذكور الكلام على متروكه .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[2].

فإن قيل : ليس للفجر خيط أسود ، إنما الأسود من الليل .

فأجيب : إن ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ متصل بقوله : ﴿الخيطُ الأبيَضُ﴾ والمعنى: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود من الليل ؛ لكن حذف « من الليل » لدلالة الكلام ثمّ عليه ولوقوع الفجر فى موضعه ؛ لأنه لا يصح أن يكون ﴿من الفجر﴾ متعلقاً بالخيط الأسود ؛ ولو وقع ﴿من الفجر﴾ فى موضعه متصلا بالخيط الأبيض لضعفت الدلالة على المحذوف ؛ وهو « من الليل » فحذف « من الليل » للاختصار ، وأخّر « من الفجر » للدلالة عليه .

* * *

الثالث : من هذا قسم يسمى الضمير والتمثيل ؛ وأعنى بالضمير أن يضمر من القول المجاور لبيان أحد جزأيه ؛ كقول الفقيه : النبيذ مسكر فهو حرام ، فإنّه أضمر « وكل مسكر حرام » .

ويكون فى القياس الاستثنائى ، كقوله : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3].

وقوله : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[4] ، وقد شهد الحسّ والعيان أنهم ما انفضوا من حوله ؛ وهى المضمرة ؛ وانتفى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فظّ غليظ القلب .

---

(١) سورة فاطر ١٩ ـ ٢١
(٢) سورة البقرة ١٨٧
(٣) سورة الأنبياء ٢٢
(٤) سورة آل عمران ١٥٩

وقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(١)؛ المعنى لو أفهمتهم لما أجدى فيهم التفهيم؛ فكيف وقد سُلبوا القوة الفاهمة! فعُلِم بذلك أنهم مع انتفاء الفهم أحقُّ بفقد القبول والهداية.

***

الرابع: أن يستدلّ بالفعل لشيئين وهو فى الحقيقة لأحدهما؛ فيضمر للآخر فعل يناسبه؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾(٢) أى واعتقدوا الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾(٣)، أى وشمّوا لها زفيرا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾(٤)، والصلوات لا تهدّم؛ فالتقدير: ولتركت صلوات.

وقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾(٥) فالفاكهة ولحم الطير والحور العين لا تطوف، وإنما يُطاف بها.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾(٦)، فنقل ابنُ فارس عن البصريين أن الواو بمعنى «مع» أى شركائكم، كما يقال: لو تركت الناقة وفصيلَها لرضعها؛ أى مع فصيلها.

وقال الآخرون: أجمعوا أمركم وادعوا شهداءكم، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾(٧).

واعلم أن تقدير فعل محذوف للثانى ليصحّ العطف هو قول الفارسى والفراء وجماعة من البصريين والكوفيين لتعذّر العطف. وذهب أبو عبيدة والأصمعى واليزيدىّ وغيرهم إلى أن ذلك من عطف المفردات، وتضمين العامل معنًى ينتظم المعطوف والمعطوف عليه جميعاً؛

---

(١) سورة الأنفال ٢٣
(٢) سورة الحشر ٩
(٣) سورة الفرقان ١٢
(٤) سورة الحج ٤٠
(٥) سورة الواقعة ١٧
(٦) سورة يونس ٧١
(٧) سورة هود ١٣

فيقدّر آثروا الدار والإيمان(١)، ويبقى النظر فى أنه: أيهما أولى؟ ترجيح الإضمار أو التضمين؟ واختار الشيخ أبو حيّان(٢) تفصيلًا حسنًا وهو : إن كان العامل الأول تصحّ نسبته إلى الاسم الذى يليه حقيقة كان الثانى محمولًا على الإضمار ؛ لأنه أكثر من التضمين ؛ نحو « يجدع الله أنفه وعينيه » ، أى ويفقأ عينيه ، فنسبةُ الجدْع إلى الأنف حقيقة ؛ وإن كان لا يصحّ فيه ذلك كان العامل مضمّنا معنى ما يصحّ نسبته إليه ؛ لأنه لا يمكن الإضمار ؛ كقولهم :

* علفتُها تبنًا وماء باردا(٣) *

وجعل ابن مالك من هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(٤) قال : لأنّ فعلَ أمر المخاطب لا يعمل فى الظاهر ؛ فهو على معنى « اسكن أنت ولتسكن زوجك » ، لأن شرط المعطوف أن يكون صالحًا لأن يعمل فيه ما عمل فى المعطوف عليه، وهذا متعذر هنا ؛ لأنه لا يقال : « اسكن زوجك » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ ﴾(٥) ولا يصحّ أن يكون « مولود » معطوفًا على « والدة » لأجل تاء المضارعة ، أو للأمر ؛ فالواجب فى ذلك أن نُقدّر مرفوعًا بمقدر من جنس المذكور ؛ أى ولا يضارّ مولود له .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلطَّيْرَ ﴾(٦) ، قال الفراء : التقدير : « وسخرنا له الطير » عطفًا على قوله : ﴿ فَضْلًا ﴾ وقيل : هو مفعول معه، ومن رفعه فقيل : على المضمر فى « آتى »،

---

(١) أى فى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ ﴾ .

(٢) فى التفسير الكبير المسمى : « البحر المحيط » ٨ : ٢٤٧ مع تصرف فى العبارة .

(٣) لذى الرمة وقبله :

* لما حَطَطْتُ الرَّحْلَ عَنْهَا واردا *

وانظر الخزانة ١ : ٤٩٩

(٤) سورة البقرة ٣٥ (٥) سورة البقرة ٢٣٣

(٦) من قوله تعالى فى سورة سبأ ١٠ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ .

وجاز ذلك لطول الكلام بقوله : ﴿معه﴾ ، وقيل : بإضمار فعل أى ولتؤوبَ معه الطير.

* * *

الخامس : أن يقتضيَ الكلامُ شيئين فيقتصر على أحدهما؛ لأنه المقصود ؛ كقوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾[1] ، ولم يقل : « وهارون » لأن موسى المقصودُ المتحمل أعباء الرسالة ، كذا قاله ابن عطية .

وغاص الزمخشرى فقال : أراد أن يتم الكلام فيقول : « وهٰرون »، ولكنه نَكَل عن خطاب هٰرون توقيا لفصاحته وحدّة جوابه ووقع خطابه ؛ إذ الفصاحة تنكِّل الخصم عن الخصم للجدل ، وتنكّبه عن معارضته .

* * *

السادس : أن يذكر شيئان ، ثم يعود الضمير إلى أحدهما دون الآخر ، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾[2] ،قال الزمخشرى: تقديره : إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهواً انفضوا إليه ؛ فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه .

ويبقى عليه سؤال ؛ وهو أنه : لم أُوثر ذكر التجارة ؟ وهلّا أوثر اللهو ؟

وجوابه ما قاله الراغب فى تفسير سورة البقرة : إن التجارة لما كانت سبب انفضاض الذين نزلت فيهم هذه الآية أعيد الضمير إليها . ولأنه قد تُشغل التجارة عن العبادة ما لا يشغله اللهو .

واختلف فى مواضع : منها قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[3] ، فإنه سبحانه ذكر الذهب والفضة ، وأعاد الضمير

---

(١) سورة طه ٤٩ (٢) سورة الجمعة ١١
(٣) سورة التوبة ٣٤ :

على الفضة وحدها ؛ لأنهـا أقربُ المذكورين ؛ ولأنّ الفضّةَ أكثر وجودا فى أيدى الناس ؛ والحاجة إليها أمسّ ، فيكون كنزها أكثر ، وقيل أعاد الضمير على المعنى ؛ لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال .

ونظيره : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا ﴾(١) ؛ لأنّ الطائفة جماعة . وقيل: من عادة العرب إذا ذكرتْ شيئين مشتركين فى المعنى تكتفى بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن الآخر اتكالا على فهم السامع ، كقول حسّان .

إن شَرْخَ الشَّبَابِ والشَّعَرَ الأسْـ ود مالَمْ يعاصَ كانَ جُنُونا(٢)

ولم يقل « يعاصا » .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾(٣) وقد جعل ابن الأنبارى فى كتاب « الهاءات »(٤) ضمير ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ راجعاً إلى الجنود .

ونقل عن قتادة قال : هم الملائكة . والأشبه أن يأتى هنا بما سبق .

ومنهـا قوله تعالى : ﴿ وَٱللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٥) فقيل : « أحقّ » خبر عنهما ، وسهل إفراد الضمير بعدم إفراد « أحقّ » وأنّ إرضاء الله سبحانه إرضاء لرسوله .

وقيل : «أحق» خبر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

وقيل : العكس ، وإنما أفرد الضمير لئلا يجمع بين اسم الله ورسوله فى ضمير واحد ، كما جاء فى الحديث: «قل ومن يعص الله ورسوله» قال الزمخشرى: قد يقصدون ذكر الشىء

(١) سورة الحجرات ٩ (٢) ديونه ٤١٣
(٣) سورة الأحزات ٩
(٤) كتاب الهاءات لأبى بكر محمد بن قاسم الأنبارى النحوى، ذكره صاحب كشف الظنون ١٤٧١
(٥) سورة التوبة ٦٢

فيذكرون قبله ما هو سبب منه ، ثم يعطفونه عليه مضافا إلى ضميره ، وليس لهم قصد إلى الأول كقوله : سرّنى زيد وحُسْن حاله ؛ والمراد حسن حاله . وفائدة هذا الدلالة على قوة الاختصاص بذكر المعنى ، ورسول الله أحق أن يُرضوه . ويدلُّ عليه ما تقدمه من قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾(١) ؛ ولهذا وحد الضمير ، ولم يثنّ .

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ ﴾(٢)

ومنها قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾(٣) ؛ فقيل : الضمير للصلاة لأنها أقرب المذكورين . وقيل : أعاده على المعنى ؛ وهو الاستعانة المفهومة من استعينوا. وقيل: المعنى على التثنية ؛ وحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾(٤) ؛ وهو نظير آية الجمعة كما سبق .

وفى هاتين الآيتين لطيفتان : وهما أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده فى آية الجمعة على التجارة ، وإن كانت أبعد ، ومؤنثة أيضاً ؛ لأنها أجذب للقلوب عن طاعة الله من اللهو ؛ لأن المشتغلين بالتجارة أكثر من المشتغلين باللهو ؛ أو لأنها أكثر نفعاً من اللهو ، أو لأنها كانت أصلا واللهو تبعاً ، لأنه ضرب بالطبل لقدومه ، كما جاء فى صحيح البخارى : «أقبلت عير يوم الجمعة» ، وأعاده فى قوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾(٥) على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير ؛ فتدبر ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾(٦) ، أى بذلك القول .

* * *

(١) سورة التوبة ٦١
(٢) سورة الأنفال ٢٠
(٣) سورة البقرة ٤٥
(٤) سورة النساء ١١٢
(٥) سورة النساء ١١٢
(٦) سورة يونس ٥٨

السابع الحذف المقابليّ : وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيُحذف من واحدمنهما مقابله ؛ لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾(١)،الأصل: فإن افتريتُه فعليّ إجرامي وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون، فنسبة قوله تعالى : « إجرامى » ، وهو الأوّل إلى قوله: « وعليكم إجرامكم » ـ وهو الثالث ـ كنسبةقوله: « وأنتم برآء منه » ـ وهو الثانى ـ إلى قوله: « وعليكم إجرامكم » ـ وهو الثالث ـ كنسبةقوله: « وأنتم برآء منه » ـ وهو الثانى ـ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾(١)، وهو الرابع ، واكتفى من كلّ متناسبين بأحدهما .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾(٢) ، تقديره : إن أرسل فليأتنا بآية كما أرسل الأولون فأتوا بآية .

وقوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(٣) ، تقديره كما قال المفسرون : « ويعذب المنافقين إن شاء فلا يتوب عليهم ، أو يتوب عليهم فلا يعذّبهم »، عند ذلك يكون مطلق قوله : فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم مقيّدا بمدة الحياة الدنيا .

وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾(٤) ؛ فتقديره : لا تقربوهنّ حتى يَطْهُرْنَ ويطَّهرن(٥)، فإذا طَهُرْن وتطَهَّرن فأتوهنّ ؛ وهو قول مركب من أربعة أجزاء ؛ نسبةالأول إلى الثالث كنسبة الثانى إلى الرابع ؛ ويحذف من أحدها لدلالة الآخر عليه .

واعلم أن دلالةَ السياق قاطعة بهذه المحذوفات ؛ وبهذا التقدير يعتضد القولُ بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطهر والتّطهر جميعا ؛ وهو مذهب الشافعيّ .

(١) سورة هود ٣٥ — (٢) سورة الأنبياء ٥
(٣) سورة الأحزاب ٢٤ — (٤) سورة البقرة ٢٢٢
(٥) يقال : طهرت المرأة ، إذا انقطع عنها الدم ؛ فإذا اغتسلت قيل : اطهرت بتشديد الطاء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾(١) ، تقديره : « أدخل يدك تدخل ، وأخرجها تخرج » ؛ إلا أنه قد عَرض فى هذه المادة تناسبٌ بالطباق ؛ فلذلك بقيَ القانون فيه، الذى هو نسبة الأول إلى الثالث، ونسبة الثانى إلى الرابع على حالة الأكثرية ؛ فلم يتغيَّر عن موضعه ؛ ولم يخل بالنسبة التى بين الأول والثانى ، وبين الثالث والرابع وهى نسبة النَّظير ، كقوله :

وَإِنِّى لتعرونى لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ كما انتفضَ العُصْفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ(٢)

أى هزة بعد انتفاضة ، كما انتفض العصفور بلله القطر ، ثم اهتز . كذا قاله جماعة .

وأنكره ابن الصائغ ، وقال : هذا التقدير لا يحتاج إليه ولو يكون لكان خُلْفا ؛ وإنما أحوجهم إليه أنهم رأوا أنه لا يلزم من إدخالها خروجها ؛ و« يخرج » مجزوم على الجواب، فاحتاج أن نقدّر جوابا لازما ، وشرطا ملزوما ؛ حذفا لأنهما نظير ما ثبت ؛ لكن وقع فى تقدير ما لا يفيد ؛ لأنه معلوم أنه إن أدخلها تدخل ، لكنّه قد يُقَدّره تقديراً بعيداً ؛ وهو : أدخِلْها تدخل كما هى ، وأخرجها تخرج بيضاء ؛ وهو بعد ذلك ضعيف ، فيقال له: لا يلزم فى الشرط وجوابه أن يكون اللزوم بينهما ضروريًّا بالفعل ؛ فإذا قيل : إن جاءنى زيد أكرمته ؛ فهذا اللازم بالوضع ؛ وليس بالضرورة ، والإكرام لازم للمجىء، بل لوضع المتكلم فالموضوع هنا أن الإدخال سبب فى خروجها بيضاء بقدرة الله تعالى ؛ ألا ترى أنه لا يلزم من إخراجها أن تخرج بيضاء لزوماً ضروريًّا إلا بضرورة صدق الوعد . فإن قال : لم أرد هذا ؛ وإنما أردت أنها لا تخرج إلا حتى تخرج . قيل : هذا من المعلوم الذى لا معنى للتنصيص عليه .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾(٣)،

---

(١) سورة النمل ١٢

(٢) البيت لأبى صخر الهذلى ؛ أمالى القالى ١ : ١٤٩

(٣) سورة التوبة ١٠٢

أصل الكلام : خلطوا عملا صالحا بسيئ ، وآخر سيئاً بصالح؛ لأن الخلط يستدعى مخلوطاً ومخلوطاً به ؛ أى تارة أطاعوا وخلطوا الطاعة بكبيرة،وتارة عصوْا وتداركوا المعصية بالتوبة.

وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ . . . . ﴾[١] الآية ، فإنّ مقتضى التقسيم اللفظىّ : من اتبع الهدى فلا خوف ولا حزن يلحقه ، وهو صاحب الجنة ، ومن كذب يلحقه الخوف والحزن وهو صاحب النار ؛ فحذف من كلٍّ ما أثبت نظيره فى الأخرى .

قيل : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾[٢] ، قال سيبويه[٣] فى « باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى » : لم يشبّهوا بالناعق ؛ وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به ؛ وإنما المعنى: ومثلكم[٤] ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع إلا دعاء ؛ ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى . انتهى .

والذى أحوجه إلى هذا التقدير ، أنه لمّا شبّه الذين كفروا بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، ـ وهذا بناه على أن الناعق بمعنى الداعى ؛ وليس بمتعين ؛ لجواز ألّا يراد به الداعى ؛ بل الناعق من الحيوان ـ شبّههم فى تألفهم وتأتيهم بما ينعق من الغنم بصاحبه ؛ من أنهم يدعُون مالا يسمع ولا يبصر ولا يفهم مايريده ، فيكون ثَمّ حذف .

وقيل : ليس من هذا النوع إلا الاكتفاء من الأول بالثالث؛ لنسبة بينهما ؛ وذلك أنه اكتفى بالذى ينعق ـ وهو الثالث المشبه به ـ عن المشبَّه ، وهو الكناية المضاف إليها فى قوله : ومثلك ، وهو الأول وأقرب إلى هذا التشبيه المركب والمقابلة ؛ وهو الذى غلط مَنْ وضعه فى هذا النوع ؛ وإنما هو من نوع الاكتفاء للارتباط العطفى ؛ على ما سلف .

---

(١) سورة طه ١٢٣ (٢) سورة البقرة ١٧١
(٣) الكتاب ١ : ١٠٨
(٤) م « وملك » ؛ وما أثبته عن ت والكتاب .

وقد قال الصفّار : هذا الذى صار إليه سيبويه ـ من أنه حذف من الأول المعطوف عليه ، ومن الثانى المعطوف ـ ضعيف لا ينبغى أن يصار إليه إلا عند الضرورة، لأنّ فيه حذفاً كثيراً مع إبقاء حرف العطف ؛ وهو الواو. ألا ترى أن ماقبلها مستأنف، والأصل مثلك ومثلهم؛ إلا أن يدّعى أنّ الأصل ومثلك ومثلهم ، ثم حذف «مثلك» والواو التى عطفت مابعدها، وبقيت الواو الأولى ؛ ويزعم أنّ الكلام ربط مع ما قبله بالواو ؛ وليس بينهما ارتباط. وفيه ما ترى.

وقال ابن الحجّاج : عندى أنه لا حذف فى الآية ، والقَصْد تشبيه الكفّار فى عبادتهم لأصنامَ بالذى ينعق بما لا يسمع ؛ فهو تمثيل داعٍ بداعٍ محقق لا حذف فيه ؛ والكفار على هذا داعون ؛ وعلى التأويل الأول مدعوّون .

ونظيرها قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(١)] فإن فيه جملتين ؛ حذف نصف كل واحدة منهما اكتفاء بنصف الأخرى. وأصل الكلام : أفمن يمشى مكبًّا على وجهه أهدى ممّن يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، أمَنْ يمشى سويًّا على صراط مستقيم أهدى ممن يمشى[(٢)] مكبًّا !

وإنما قلنا : إن أصله هكذا ؛ لأن أفعَل التفضيل لابدّ فى معناه من المفضّل عليه . وهاهنا وقع السؤال عمّن فى نفس الأمر : هل هذا أهدى من ذلك أم ذاك أهدى من هذا؟ فلا بد من ملاحظة أربعة أمور، وليس فى الآية إلا نصف إحدى الجملتين ونصف الأخرى، والذى حذف من هذه مذكور فى تلك ، والذى حذف من تلك مذكور فى هذه ، فحصل المقصودُ مع الإيجاز والفصاحة . ثم ترك أمر آخر لم يتعرّض له ؛ وهو الجواب الصحيح لهذين الاستفهامين ، وأيّهما هو الأهدى؟ لم يذكره فى الآية أصلا ، اعتمادا على أن العقل يقول : الذى يمشى على صراط مستقيم أهدى ممن يمشى مكبًّا على وجهه .

(١) سورة الملك ٢٢
(٢) ت : « مشى » .

وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾[١]. وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

* * *

فائدة

قد يحذف من الأول لدلالة الثانى عليه، وقد يعكس، وقد يحتمل اللفظُ الأمرين.

فالأول كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[٣] فى قراءة من رفع «ملائكته»، أى إن الله يصلى، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه، وليس عطفاً عليه.

والثانى كقوله: ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾[٤]، أى مايشاء.

وقوله: ﴿ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾[٥]، أى برىء أيضاً.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾[٦].

وقوله: ﴿ يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾[٧]، أى ثلاثة.

وجعل منه أبو الفتح قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾[٨] التقدير: وأبصر بهم؛ لكنه حذف لدلالة ما قبله عليه؛ حيث كان بلفظ الفضلة؛ وإن كان ممتنعاً فى الفاعل. وهذا التوجيه إنما يتم إذا قلنا: إن الجارّ والمجرور؛ فى «أسمع بهم وأبصر» فى محل الرفع؛ فإن قلنا فى محل النصب فلا.

---

(١) سورة النحل ١٧
(٢) سورة الزمر ٩
(٣) سورة الأحزاب ٥٦؛ وهى قراءة . . .
(٤) سورة الرعد ٣٩
(٥) سورة التوبة ٣
(٦) سورة إبراهيم ٤٨
(٧) سورة الطلاق ٤
(٨) سورة مريم ٣٨

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ ﴾(١) ، والتقدير خلقهنّ الله ، فحذف « خلقهنّ » لقرينةٍ تقدمت فى السؤال .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢) ، ولم يقل : « إنا كذلك » اختياراً واستغناء عنه بقوله فيما سبق : ﴿ إنا كذلك ﴾ .

والثالث كقوله : ﴿ وَٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾(٣) ، فقد قيل : إن « أحقّ » خبر عن اسم الله تعالى ، وقيل بالعكس .

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللّٰهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾(٤)، فالفائدة فى إعادة الجار والمجرور؛ أعنى « بها » . لأنه لو حذف من الثانى لم يحصل الربط لوجوب الضمير فيما وقع مفعولًا ثانياً، أو كالمفعول الثانى لـ « سمعتم »، ولو حذف من الأول لم يكن نصًّا على أن الكفر يتعلق بالإثبات؛ لجواز أن يكون متعلق الأول غير متعلق الثانى . .

* * *

الثامن الاختزال ؛ وهو الافتعال ؛ من خزله، قطع وسطه، ثم نقل فى الاصطلاح إلى حذف كلمة أو أكثر : وهى إما اسم ، أو فعل ، أو حرف .

* * *

---

(١) سورة الزمر ٣٨
(٢) سورة الصافات ١٠٩ ، ١١٠
(٣) سورة التوبة ٦٢
(٤) سورة النساء ١٤٠

الأول الاسم

[حذف المبتدأ]

فمنه حذف المبتدأ ، كقوله تعالى :﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ و ﴿ خَمْسَةٌ ﴾ ؛ و ﴿ سَبْعَةٌ ﴾(١)،أى هم ثلاثة ، وهم خمسة ، وهم سبعة .

وقوله : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ ﴾(٢) ، أى إحداهما ، بدليل قوله بعده : ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾(٣) ، أى هذا بلاغ .

وقوله : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾(٤) ، أى هم عباد .

وعلى هذا قال أبو علىّ : قوله تعالى : ﴿ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ ﴾(٥) ، أى هى النار .

وقوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ ﴾(٦) ، أى هو النار .

ويمكن أن يكون « النار » فى الآيتين مبتدأ والخبر الجملة التى بعدها،ويمكن فى الثانية أن تكون النار بدلًا من « سوء العذاب » .

---

(١) من قوله تعالى فى سورة الكهف ٢٢ :
﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

(٢) سورة آل عمران ١٣ ، وستأتى (٣) سورة الأحقاف ٣٥

(٤) سورة الأنبياء ٢٦

(٥) سورة الحج ٧٢ ؛ وتتمتها : ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

(٦) سورة المؤمن ٤٥ ، ٤٦ ، وتتمتها : ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[١] ، أى ساحر .

وقوله: ﴿ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[٢]. ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[٣] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[٤] ، أى هذا الحق من ربكم ؛ وليس هـذا كما يظنّه بعض الجهّال ، أى قل القول الحق ؛ فإنه لو أريد هذا لَنَصب « الحق » ؛ والمراد إثبات أن القرآن حقّ ، ولهذا قال : ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ؛ وليس المراد هنا قول حق مطلق؛ بل هذا المعنى مذكور فى قوله : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[٥] ، وقوله : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾[٧] ؛ أى هذه سورة .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾[٨] ، أى فعمله لنفسه وإساءته عليها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾[٩] أى فهو يئوس .

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾[١٠] ، أى تقلّبهم متاع، أو ذاك متاع .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾[١١] ، أى والحطمة نار الله .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾[١٢] ، أى كلّ واحدة منها كالقصر ؛فيكون من باب قوله : ﴿ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾[١٣] ، أى كلّ واحـد [١٤]منهم ، والحوج إلى ذلك أنه لا يجوز أن يكون الشّرر كله كقصر واحد؛والقصر هو البيتُ من أدَم [١٤]، كان يُضرَب

---

(١) سورة المؤمن ٢٤
(٢) سورة الذاريات ٥٢
(١) سورة الفرقان ٥
(٤) سورة الكهف ٢٩
(٥) سورة الأنعام ١٥٢
(٦) سورة الأعراف ١٩٦
(٧) سورة النور ١
(٨) سورة فصلت ٤٦
(٩) سورة فصلت ٤٩
(١٠) سورة آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧
(١١) سورة الهمزة ٥ ، ٦
(١٢) سورة المرسلات ٣٢
(١٣) سورة النور ٤
(١٤—١٤) سقط من ت .

على المال ، ويؤيده[1] قوله : ﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾[2] ، أفلا تراه كيف شبّهه بالجماعة ! أى كلّ واحدة من الشَّرَر كالجمل لجماعاته ، فجماعاته إذَنْ مثل الجمالات الصُّفْر ، وكذلك الأول ، شررة منه كالقصر . قاله أبو الفتح بن جنى .

وأما قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾[3] ، فقيل : إن « ثلاثة » خبر مبتدأ محذوف تقديره : « آلهتنا ثلاثة » .

واعترض باستلزامه[4] إثبات الإلهية لانصراف النفى الداخل على المبتدأ أو الخبر إلى المعنى المستفاد من الخبر لا إلى معنى المبتدأ ، وحينئذ يقتضى نفى عدة الآلهة لا نفى وجودهم .

قيل : وهو مردود؛ لأنَّ نفىَ كون آلهتهم ثلاثة يصدُق بألّا يكون للآلهة الثلاثة وجود بالكلّية ؛ لأنه من السالبة المحصلة[5] ، فمعناه : ليس آلهتكم ثلاثة ، وذلك يصدق بألّا يكون لهم آلهة وإنما حذف إيذاناً بالنهى عن مطلق العدد المفهم للمساواة بوجهٍ ما ؛ فما ظنّك بمن صرّح بالشركة ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[6] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[6] ، فأفهم أنه لو وجد الإله يكون غيره معه خطأ لإفهامه مساواة ما ، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[7] ، ولزم من نفى الثلاثة لامتناع المساواة المعلومة عقلا ، والمدلول عليها بقوله: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[8] ، نفىُ الشركة مطلقاً ؛ فإنّ تخصيص النهى وقع فى مقابلة الفعل، ودليلا عليه ؛ فإنهم كانوا يقولون فى الله وعيسى وأمه : ثلاثة .

---

(١) ت : « ويؤكده » .
(٢) سورة المرسلات ٣٣
(٣) سورة النساء ١٧١
(٤) ت : « استرامه » ؟؟
(٥) ت : « المتحصلة » .
(٦) سورة المائدة ٧٣
(٧) سورة الأنعام ١
(٨) سورة النساء ١٧١

ونحوه فى الخروج على السبب : ﴿ لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾[١] .

وقال صاحب « إسفار الصباح[٢] » : الوجه تقدير كون ثلاثة ، أو « فى الوجود » ، ثم حذف الخبر الذى هو « لنا » ، أو « فى الوجود » الحذف المطّرد ، وما دلّ عليه توحيد لا إلٰه إلا الله .

ثم حذف المبتدأ حذف الموصوف كالعدد ؛ إذا كان معلوما . كقولك : عندى ثلاثة . أى دراهم ؛ وقد علم بقرينة قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[٣] .

وقد عورض هذا بأن نفىَ وجود ثلاثة لا ينفى وجودَ إلهين . وأجيب بأن تقديره « آلهتنا ثلاثة » يُوجب ثبوت الآلهة ؛ وتقدير « لنا آلهة » لا يوجب ثبوت إلٰهين .

فعورض بأنه كما لا يُوجبه فلا ينفيه .

فأجيب بأنه إذا لم ينفه فقد نفاه ما بعده من قوله : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ .

فعورض بأنّ ما بعده إن نفى ثبوت إلهين فكيف ثبوت آلهة !

فأجاب بأنه لا ينفيه ، ولكن يناقضه ، لأن تقدير آلهتنا ثلاثة يثبت وجود إلٰهيْن ؛ لانصراف النفى فى الخبر عنه ، بخلاف تقدير : « لنا آلهة ثلاثة » ، فإنه لا يثبت وجود إلٰهيْن لانصراف النفى إلى أصل الإثبات للآلهة .

وفى أجوبة هذه المقدمات نظر .

قلت : وذكر ابن جنّى أن الآية من حذف المضاف ؛ أى ثالث ثلاثة لقوله فى موضع آخر : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٠

(٢) ذكره صاحب كشف الظنون .

(٣) سورة النساء ١٧١

حذف الخبر

نحو : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[١] ، أى دائم .

وقوله فى سورة صٓ بعد ذكر من اقتص ذكره من الأنبياء، فقال: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾[٢] ثم لما ذكر مصيرَهم إلى الجنة وما أعد لهم فيها من النعيم قال : ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ : هَٰذَا ﴾[٣] قد أشارت الآية إلى مآل أمر الطاغين ، ومنه يفهم الخبر .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾[٤] أى أهذا خير أمَّن جعل صدره ضيقاً حرجاً وقسا قلبه ، فحذف بدليل قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾[٥] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا ﴾[٧] قال سيبويه: الخبر[٨] محذوف ، أى فيما أتلوه السارق والسارقة، وجاء ﴿فَاقْطَعُوا﴾ جملة أخرى . وكذا قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾[٩] فيما نقصُّ لكم .

وقال غيره : السارق مبتدأ ، فاقطعوا خبره ؛ وجازَ ذلك لأن الاسم عام؛ فإنه لا يريد

---

(١) سورة الرعد ٣٥
(٢) سورة ص ٤٩ ،
(٣) سورة ص ٥٥ ـ ٥٦
(٤) سورة الزمر ٢٢
(٥) سورة الشعراء ٥٠ والآية بتمامها : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ .
قال الزمخشرى فى معناه : « لاضير علينا فى قتلك » .
(٦) سورة سبأ ٥١
(٧) سورة المائدة ٣٨
(٨) الكتاب ١ : ٧١
(٩) سورة النور ٢

به سارقا مخصوصا ، فصار كأسماء الشرط ؛ تدخل الفاء فى خبرها لعمومها ؛ وإنما قدّر سيبويه ذلك لجعل الخبر أمْراً ؛ وإذا ثبت الإضمار فالفاء داخلة فى موضعها ، تربط بين الجملتين . ومما يدلّ على أنه على الإضمار إجماع القراء على الرفع ؛ مع أن الأمرَ الاختيارفيه النصب . قال : وقد قرأ ناس بالنصب[١] ارتكاناً للوجه القوىّ فى العربية ؛ ولكن أبت العامة إلا الرفع . وكذا قال فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[٢] : مثل ، هنا خبر مبتدأ محذوف ؛ أى فيما نقصّ عليكم مثل الجنّة . وكذا قال أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ : إنه على الإضمار[٣] .

وقَدْ رُدّ بأنه أىّ ضرورة تدعو إليه هنا ؟ فإنّه إنما صرنا إليه فى السارق ونحوه لتقديره دخول الفاء فى الخبر ، فاحتيج للإضمار حتى تكون الفاء على بابها فى الربط ؛ وأما هذا فقد وُصِل بفعل هو بمنزلة : الذى يأتيك فله درهم .

وأجاب الصفّار بأنّ الذى حمله على هذا أنّ الأمر دائر مع الضرورة كيف كان؛ لأنه إذا أضمر فقد تكلّف ، وإن لم يضمر كان الاسم مرفوعاً وبعده الأمر ، فهو قليل بالنظر إلى « للذين يأتيانها » فكيفما عمل لم يخلُ من قبيح .

وإن قدّر منصوباً ، وجاء القرآن بالألف على لغة من يقول « الزيدان » فى جميع الأحوال وقع أيضاً فى محذور آخر ؛ فلهذا قدّره هذا التقدير ، لأن الإضمارَ مع الرفع يتكافآن .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾[٤] ، الخبر محذوف ، أى يعذّبون . ويجوز أن يكون الخبر : ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[٥] .

---

(١) عبارة الكتاب: «وقد قرأ أناس ﴿ والسَّارِقَ والسَّارِقَةَ ﴾ ، و ﴿ الزَّانيَةَ والزَّانِىَ ﴾ وهو فى العربية على ماذكرت لك من القوة » .

(٢) سورة الرعد ٣٥

(٣) سورة النساء ١٦

(٤) سورة فصلت ٤١

(٥) سورة فصلت ٤٤

وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾(١) ؛ فأنتم مبتـدأ والخبر محذوف ؛ أى حاضرون ؛ وهو لازم الحذف هنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾(٢)؛ أى حلّ لكم كذلك .

وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾(٣)، أمّا على قراءة التنوين فلا حذفَ لأنه يجعله مبتدأ ؛ و «ابن الله» خبر ؛ حكاية عن مقالة اليهود ؛ وأما على قراءة من لم ينوّن؛ فقيل : إنه صفة والخبر محذوف ؛ أى عزير ابن الله إلٰهنا ، وقيل : بل المبتدأ محذوف ، أى إلٰهنا عُزَير ، وابن صفة .

وردّ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يطابق : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾(٣) .

والثانى : أنه يلزم عليه أن يكون التكذيب ليس عائدا إلى البنوّة ، فكُذِّب لأنّ صدق الخبر وكذبه راجع إلى نسبة الخبر لا إلى الصفة. فلو قيل : زيد القائم فقيه، فكذب انصرف التكذيب لإسناد فقهه ؛ لا لوصفه بالقائم .

وفيه نظر ؛ لأن الصّفة ليست إنشاء فهى خبر ؛ إلّا أنها غير تامة الإفادة ، فيصحّ تكذيبُها . والأولى تقويته ، وأن يقال الصفة والإضافة ونحوهما فى المسند إليه لواحق بصورة الإفراد ؛ أىْ يريد أن يُصوّره بهيئة خاصّة ؛ ويحكم عليه كذلك ؛ لكن لا سبيلَ إلى كذبها ، مع أنها تصوّرت ، فالوجه أن يقال : إن كذب الصفة بإسناد مسندها إلى

(١) سورة سبأ ٣١
(٢) سورة المائدة ٤
(٣) سورة التوبة ٣٠

معدوم الثبوت . ونظير هذه المسألة فى الفقه ما لو قال : والله لا أشرب ماء هذا الكوز ؛ ولا ماء فيه .

وقال بعضهم : ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللهِ ﴾ خبر الجملة ، أى حكى فيه لفظهم ، أى قالوا هذه العبارة القبيحة ؛ وحينئذ فلا يقدّر خبر ولا مبتدأ .

وقيل : « ابن الله » خبر وحذف التنوين من « عزير » للعجمة والعلمية .

وقيل : حذف تنوينه لا لتقاء الساكنين ؛ لأن الصفةَ مع الموصوف كشىءٍ واحد ، كقراءة : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ ﴾[١] ، على إراد التنوين ؛ بل هنا أوضح ؛ لأنه فى جملة واحدة .

وقيل : « ابن الله » نعت ولا محذوف ؛ وكأنّ الله تعالى حكى أنهم ذكروا هذا اللفظ إنكاراً عليهم ؛ إلا أن فيه نعتاً ، لأن سيبويه قال : إن قلت وضعته العرب لتحكىَ به ما كان كلاماً لا قولا . وأيضاً إنه لا يطابق قوله : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ﴾[٢] ، والظاهر أنه خبر . والقولان منقولان .

والصحيح فى هذه القراءة أنه ليس الغرض إلا أن اليهود قد بلغوا فى رسوخ الاعتقاد فى هذا الشىء إلى أن يذكرون هذا النكر ، كما تقول فى قومٍ تغالوا فى تعظيم صاحبهم : أراهم اعتقدوا فيه أمراً عظيماً ثابتاً ، يقولون : زيد الأمير !

ما يحتمل الأمرين

قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[٣] يحتمل حذف الخبر ، أى أجمل[٤] ، أو حذف المبتدأ ، أى فأمرى صبر جميل . وهذا أولى لوجود قرينة حالية ــ هى قيام الصبر به ــ دالة على

---

(١) سورة الإخلاص ١ ، ٢

(٢) سورة التوبة ٣٠

(٣) سورة يوسف ١٨

(٤) قدره صاحب الكشاف : « أمثل » .

المحذوف ، وعدم قرينة حالية أو مقالية تدلّ على خصوص الخبر ، وأنّ الكلام سوق للإخبار بحصول الصبر له واتصافه به ، وحذف المبتدأ يحصّل ذلك دون حذف الخبر ؛ لأن معناه أن الصبر الجميل ؛ أجمل ممن[1] لأن المتكلم متلبس به .

وكذلك يقوله مَنْ لم يكن وصفا له ؛ ولأن الصبر مصدر ، والمصادر معناها الإخبار؛ فإذا حمل على حذف المبتدأ فقد أُجْرِىَ على أصل معناه ؛ من استعماله خبراً ، وإذا حُمِل على حذف الخبر فقد أُخرج عن أصل معناه[2] .

ومثاله قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾[3] أى أمثل ، أو أولى لكم من هذا ، أو أمركم الذى يطلب منكم .

ومثله قوله : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾[4] ؛ إما أن يقدر : فيما أوحينا إليك سورة ، أو هذه سورة .

وقد يحذفان جملة ، كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ . . . . ﴾[5] الآية .

حذف الفاعل

المشهور امتناعه إلا فى ثلاثة مواضع :

أحدها : إذا بنى الفعل للمفعول .

ثانيها : فى المصدر ، إذا لم يذكر معه الفاعل ؛ مُظهراً يكون محذوفاً ، ولا يكون مضمراً ، نحو ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾[6] .

---

(١) كذا فى الأصول وموضع النقط بياض فى ت . (٢) كذا وردت العبارة فى الأصلين؛ وفيها غموض.
(٣) سورة النور ٥٣ (٤) سورة النور ١
(٥) سورة الطلاق ٤ وبقية الآية : ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ . . . ﴾ والتقدير فعدتهن ثلاثة أشهر ؛ قال صاحب الكشاف : « فحذف لدلالة المذكور عليه » .
(٦) سورة البقرة البلد ١٤

ثالثها : إذا لاقى الفاعل ساكناً من كلمة أخرى ، كقولك للجماعة : اضربُ القوم ، وللمخاطبة : اضربِ القوم .

وجوز الكسائىّ حذفه مطلقاً إذا وجد ما يدلّ عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾(١) أى بلغت الروح .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾(٢) أى الشمس .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾(٣) يعنى العذاب، لقوله قبله: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾(٤).

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾(٥) تقديره: فلما جاء الرسول سليمان.

والحق أنه فى المذكورات مُضْمَر لا محذوف ، وقد سبق الفرق بينهما .

***

أما حذفه وإقامة المفعول مقامه ، مع بناء الفعل للمفعول فله أسباب :

منها العلم به ، كقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(٦) . ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾(٧) ، ونحن نعلم أن الله خالقه .

قال ابن جنى : وضابطه أن يكون الغرض إنما هو الإعلام بوقوع الفعل بالمفعول ؛ ولا غرض فى إبانة الفاعل مَنْ هو .

ومنها تعظيمه ، كقوله : ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾(٨) ، إذ كان الذى قضاه عظيم القدر .

وقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾(٩) .

---

(١) سورة القيامة ٢٦ — (٢) سورة ص ٣٢
(٣) سورة الصافات ١٧٧ — (٤) سورة الصافات ١٧٦
(٥) سورة النمل ٣٦ — (٦) سورة الأنبياء ٣٧
(٧) سورة النساء ٢٨ — (٨) سورة يوسف ٤١
(٩) سورة هود ٤٤

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾[١] قال الزمخشرى فى كشافه القديم : هذا أدلّ على كبرياء المنزّل وجلالة شأنه من القراءة الشاذة « أَنْزَلَ »[٢] مبنيًّا للفاعل ، كما تقول : الملك أمر بكذا ، ورسم بكذا ؛ وخاصّة إذا كان الفعل فعلا لا يَقدِر عليه إلا الله ، كقوله : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾[٣] قال : كأن طىّ ذكر الفاعل كالواجب ؛ لأمرين :

أحدهما : أنه إن تعيّن الفاعل وعُلِم أن الفعل مما لا يتولّاه إلّا هو وحده ، كان ذكره فضلًا ولغواً .

والثانى : الإيذان بأنه منه ؛ غيرَ مشارَك ولا مدافَع عن الاستئثار به والتفرّد بإيجاده.

وأيضاً فما فى ذلك من مصير أن اسمه جدير بأن يصان ويرتفع به عن الابتذال والامتهان.

وعن الحسن : لولا أنى مأذونٌ لى فى ذكر اسمه لربأتُ به عن مسلك الطعام والشراب .

ومنها مناسبة الفواصل ، نحو : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾[٤] ، ولم يقل يُجزيها .

ومنها مناسبة ماتقدمه ، كقوله فى سورة براءة : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٥] ؛ لأنّ قبلها : ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾[٦] على بناء الفعل للمفعول ؛ فجاء قوله : ﴿ وطُبِع ﴾ ليناسب بالختام المطلع ، بخلاف قوله فيما بعدها: ﴿ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٧] ، فإنه لم يقع قبلها مايقتضى البناء ، فجاءت على الأصل .

---

(١) سورة البقرة ٤

(٢) على لفظ ما سمى فاعله؛ وهى قراءة يزيد بن قطيب ، وانظر الكشاف .

(٣) سورة هود ٤٤

(٤) سورة الليل ١٩

(٥) سورة التوبة ٨٧

(٦) سورة التوبة ٨٦

(٧) سورة التوبة ٩٣

حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه

وهو كثير ، قال ابن جنّى : وفى القرآن منه زهاء ألف موضع . وأما أبو الحسن ، فلا يقيس عليه ؛ ثم ردّه بكثرة المجاز فى اللغة ، وحذف المضاف مجاز . انتهى .

وشرط المبرّد فى كتاب « ما اتّفق لفظه واختلف معناه » لجوازه وجودَ دليل على المحذوف من عقل أو قرينة ، نحو : ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾(١) ، أى أهلها ، قال(٢) : ولا يجوزُ على هذا أن تقول : جاء زيد ، وأنت تريد غلامَ زيد ؛ لأنّ المجىء يكون له ، ولا دليلَ [فى مثل هذا](٣) على المحذوف .

وقال الزمخشرىّ فى الكشاف القديم : لا يستقيم تقدير حذف المضاف فى كل موضع ؛ ولا يُقْدَم عليه إلا بدليل واضح وفى غير مُلْبِس ؛ كقوله : ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾(١) . وضُعِّف بذلك قولُ منْ قدّر فى قوله : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾(٤) ، أنّه على حذف مضاف .

فإن قلتَ : كما لا يجوز مجيئه(٥) لا يجوز خداعه؛ فحين جرّك إلى تقدير المضاف امتناع مجيئه ، فهلّا جرّك إلى مثله امتناع خداعه !

قلتُ : يجوز فى اعتقاد المنافقين تصوّر خداعه؛ فكان الوضع ملبسا فلا يقدّر . انتهى .

فمنه قوله تعالى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾(٦) ، أى رحمته ويخاف عذابه .

---

(١) سورة يوسف ٨٢

(٢) ما اتفق لفظه واختلف معناه ٣٢

(٣) تكملة مما اتفق لفظه واختلف معناه

(٤) سورة النساء ١٤٢

(٥) من قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ .

(٦) سورة الأحزاب ٢١

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾(١) أى سدّ يأجوج ومأجوج .

﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾(٢) ، أى شعر الرأس .

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾(٣) ، أى بقراءة صلاتك ، ولا تخافت بقراءتها .

﴿ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾(٤) ، أىْ برّ مَن آمن بالله .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ ﴾(٥) أى ناحيتها ، والجهة التى هو فيها .

و ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾(٦) أى هل يسمعون دعاءكم ، بدليل الآية الأخرى ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾(٧) .

﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾(٨) ، أى من آل فرعون .

﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾(٩) ، أى ضعف عذابهما .

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾(١٠) ، أى وَمَثَلُ واعظ الذين كفروا كناعق الأنعام .

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾(١١) ، أى مثل أمهاتهم .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾(١٢) ، أى شكر رزقكم . وقيل تجعلوز التكذيبَ شكرَ رزقكم .

وقوله : ﴿ وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾(١٣) ، أى على ألسنة رسلك .

وقوله: ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾(١٤) أى ذوى أماناتكم ، كالمودِع والمُعِير والموكِّل

(١) سورة الأنبياء ٩٦
(٢) سورة مريم ٤
(٣) سورة الإسراء ١١٠
(٤) سورة البقرة ١٧٧
(٥) سورة طه ١١
(٦) سورة الشعراء ٧٢
(٧) سورة فاطر ١٤
(٨) سورة يونس ٨٣
(٩) سورة الإسراء ٧٥
(١٠) سورة البقرة ١٧١
(١١) سورة الأحزاب ٦
(١٢) سورة الواقعة ٨٢
(١٣) سورة آل عمران ١٩٤
(١٤) سورة الأنفال ٢٧

والشريك ، ومن يدك فى ماله أمانة لايد ضمان ، ويجوز أن لا حذف فيه ؛ لأن « خنت » من باب « أعطيت » ؛ فيتعدّى إلى مفعولين ، ويقتصر على أحدهما .

وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[١] ، أى أهل مدين ؛ بدليل قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾[٢] .

﴿ وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾[٣] ، أى أهل القرية ؛ وأهل العير .

وقيل : فيه وجهان : أحدهما أنّ القرية يُراد بها نفس الجماعة ، والثانى أنّ المراد الأبنية نفسها ؛ لأنّ المخاطب نبىّ صاحب معجزة .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾[٤] ؛ ويجوز أن يقدر : الحج حجّ أشهر معلومات .

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾[٥] أى أمرُ ربك .

﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[٦] ، أى حب العجل ؛ قال الراغب[٧] : إنه على بابه ؛ فإنّ فى ذكر العجل تنبيهاً على أنّه لفرط محبّتهم صار صورة العجل فى قلوبهم لا تمّحى .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ﴾[٨] ؛ فإرم اسم لموضع وهو فى موضع جرّ ؛ إلّا أنه منع الصرف للعلمية والتأنيث ؛ أما العلَمية فواضح ، وأما التأنيث فلقوله : ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾[٩] أى بسؤالها ؛ فحذف المضاف ؛ ولم يكفروا بالسؤال ؛ إنما كفروا بربّهم المسئول عنه ، فلما كان السؤالُ سبباً للكفر فيما سألوا عنه نُسِب الكفر إليه على الاتساع .

---

(١) سورة هود ٨٤
(٢) سورة القصص ٤٥
(٣) سورة يوسف ٨٢
(٤) سورة البقرة ١٩٧
(٥) سورة الفجر ٢٢
(٦) سورة البقرة ٩٣
(٧) المفردات ٢٥٨ ؛ وهو أحد أقواله .
(٨) سورة الفجر ٦ ، ٧
(٩) سورة المائدة ١٠٢

وقيل : الهاء عائدة على غير ما تقدّم لقوة هذا الكلام ؛ بدليل أنّ الفعل تعدّى بنفسه والأول بغيره ؛ وإنما هذه الآية كناية عما سأل قوم موسى ، وقوم عيسى من الآيات، ثم كفروا ، فمعنى السؤال الأول والثانى[1] الاستفهام ، ومعنى الثالث طلب الشىء .

وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾[2] ، أى تناوُلها ، لأنّ الأحكام لا تتعلق بالأجرام إلا بتأويل الأفعال .

وقيل : إنّ الميتة يعبّر بها عن تناولها فلا حذف ؛ ولو كان ثَمّ حذف لم يؤنث الفعل؛ ولأن المركبَ إنما يحذف إذا كان للكلام دلالة غير الدلالة الإفرادية ؛ والمفهوم من هذا التركيب التناول من غير تقدير ؛ فيكون اللفظ موضوعاً له ، والمشهور فى الأصول أنه من محالّ الحذف .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّالِحِينَ ﴾[3] ؛ فهاهنا إضمار ؛ لأنّ قائلا لو قال : « من عمل صالحا جعلته فى جملة الصالحين » لم يكن فائدة ؛ وإنما المعنى لندخلنّهم فى زمرة الصالحين .

وقوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ﴾[4] ، أى ذا قراطيس ، أو مكتوباً فى قراطيس ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾[4] ، أى تبدون مكتوبها .

وقوله : ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾[4] ؛ ليس المعنى تخفونها إخفاء كثيرا ؛ ولكنّ التقدير: تخفون كثيراً من إنكار ذى القراطيس ؛ أى يكتمونه فلا يظهرونه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى

(١) من قوله تعالى فى أول الآية : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْآنُ . . ﴾ .

(٢) سورة المائدة ٣

(٣) سورة العنكبوت ٩

(٤) سورة الأنعام ٩١

ٱلْـكِتَابِ ﴾(١) . ويدلُّ له قوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَـكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْـكِتَابِ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾(٣) ؛ أى بقدر مياهها .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾(٤) ؛ أى همّ بدفعها ، أى عن نفسه فى هـذا التأويل بتنزيه يوسف صلى الله عليه وسلم عما لا يليق به ؛ لأنّ الأنبياء صـــلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الصغائر والـكبائر ، وعليه فينبغى الوقف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾.

تنبيه

[فى جواز حذف المضاف مع الالتفات إليه]

اعلم أنّ المضاف إذا عُلم جاز حـذفه مع الالتفات إليه ؛ فيعامَل معاملة الملفوظ به ؛ من عَوْد الضمير عليه . ومع اطّراحه يصير الحـكم فى عَوْد الضمير للقائم مقامه .

فمثال استهلاك حكمه وتناسى أمره قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾(٥) : فإنّ الضمير فى ﴿ يغشاه ﴾ عائد على المضـاف المحذوف بتقـدير أو كذى ظلمات .

وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾(٦) أى كمثل ذوى صيّب ؛ ولهذا رجع الضمير إليه مجموعا فى قوله : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾(٦) ؛ ولو لم يراع لأفرده أيضاً .

---

(١) سورة البقرة ١٥٩
(٢) سورة المائدة ١٥
(٣) سورة الرعد ١٧
(٤) سورة يوسف ٢٤
(٥) سورة النور ٤٠
(٦) سورة البقرة ١٩

وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾[١] ، ولولا ذلك لحذفت التاء ؛ لأنّ القوم مذكّر ، ومنه قول حسّان :

يَسْقُونَ منْ وَرَدَ البريصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[٢]

بالياء ، أى ماء بردى ، ولو راعى المذكور لأتى بالتاء .

قالوا : وقد جاء فى آية واحدة مراعاة التأنيث والمحذوف ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴾[٣] أنّث الضمير فى ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ و﴿ فجاءها ﴾ ، لإعادتهما على القرية المؤنثة ، وهى الثابتة ، ثم قال : ﴿ أَوْهُمْ قائلُونَ ﴾ فأتى بضمير مَنْ يعقل حملا على « أهلها » المحذوف .

وفى تأويل إعادة الضمير على التأنيث وجهان : أحدُهما أنه لما قام مقام المحذوف صارت المعاملة معه . والثانى أن يقدّر فى الثانى حذف المضاف ؛ كما قدر فى الأول . فإذا قلت : سألت القرية وضربتها ، فمعناه : وضربت أهلها ، فحذف المضاف كما حذف من الأول إذ وجه الجواز قائم .

وقيل : هنا مضاف محذوف ، والمعنى أهلكنا أهلها . وبياتاً ، حال منهم ، أى مبيّتين و ﴿ أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴾[٣] جملة معطوفة عليها ، ومحلها النصب .

وأنكر الشَّلَوْبين مراعاة المحذوف ، وأوّل ما سبق على أنه من باب الحمل على المعنى ونقله عن المحققين ؛ لأن القوم جماعة ولهذا يؤنث تأنيث الجمع ، نحو هى الرجال ؛ وجمع التكسير عندهم مؤنث وأسماء الجموع تجرى مجراها ، وعلى هذا جاء التأنيث ، لا على الحذف ؛ وكذا القول فى البيت .

---

(١) سورة الشعراء ١٠٥

(٢) ديوانه ٣٠٩ . البريص وبردى : نهران بدمشق . ويصفق : يمزج ، ولم يقل « تصفق » والرحيق : الخمر البيضاء . والسلسل : اللينة السهلة .

(٣) سورة الأعراف ٤

وفى قراءة بعضهم : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾(١) ، قدّروه « عرض الآخرة » .
والأحسن أن يقدّر: « ثواب الآخرة » ؛ لأن العَرضَ لا يبقى ، بخلاف الثواب.

حذف المضاف إليه

وهو أقلّ استعمالا ، كقوله : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(٢) .
وقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٣) .
وكذا كل ما قُطِع عن الإضافة ، مما وجبت إضافته معنى لا لفظا ، كقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾(٤) ، أى من قبل ذلك ومن بعده .

حذف المضاف والمضاف إليه

قد يضاف المضاف إلى مضاف ؛ فيحذف الأول والثانى ويبقى الثالث ، كقوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾(٥) أى بدل شكر رزقكم .
وقوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾(٦) ، أى كدوران عين الذى يغشى عليه من الموت .
وقيل : الرزق فى الآية الأولى الحظّ والنصيب ؛ فلا حاجة إلى تقدير . وكذلك ، قدرت فى الثانية « كالذى » حالا من الهاء والميم فى « أعينهم » ، لأن المضاف بعض [illegible] تقدير .

---

(١) سورة الأنفال ٦٧
(٢) سورة الأنبياء ٣٣
(٣) سورة البقرة ٢٥٣
(٤) سورة الروم ٤
(٥) سورة الواقعة ٨٢
(٦) سورة الأحزاب ١٩

وقوله : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[١] ، وقدّره أبو الفتح فى « المحتسب » على أفعال أهل النار .

وأما قوله : ﴿ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[٢] فالتقدير من مداناة الموت أو مقاربته ؛ ولا ينكر عُسْره على الإنسان ولكن إذا دُفِع إلى أمرٍ هابه .

ومثله الآية الأخرى : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾[٤] ، أى من أثر حافر فرس الرسول .

وقوله : ﴿ ما أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى ﴾[٥] ، أى من أموال كفار أهل القرى .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[٦] ، أى من أفعال ذوى تقوى القلوب .

وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ . . . ﴾[٧] الآية، فإنّ التقدير كمثل ذوى صيّب، فحذف المضاف والمضاف إليه ، أما حذف المضاف فلقرينة عطفه على: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾[٨] وأما المضاف إليه فلدلالة: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾[٩] عليه فأعاد الضمير عليه مجموعاً ، وإنما صير إلى هذا التقدير؛ لأن التشبيه بين صفة المنافقين وصفة ذوى الصّيب، لا بين صفة المنافقين وذوى الصيّب .

حذف الجار والمجرور

كقوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾[١٠] ، أى بسيء ﴿ وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾[١٠] أى بصالح.

---

(١) سورة البقرة ١٧٥
(٢) سورة الأحزاب ١٩
(٣) سورة القتال ٢٠
(٤) سورة طه ٩٦
(٥) سورة الحشر ٧
(٦) سورة الحج ٣٢
(٧) سورة البقرة ١٩
(٨) سورة البقرة ١٧
(٩) سورة البقرة ١٩
(١٠) سورة التوبة ١٠٢

وكذا بعد أفعل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[١] ، أى من كلّ شىء .

﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى﴾[٢] أى من السرّ ، وكلام الزمخشرىّ فى المفصّل يقتضى أنه مما قطع[٣] فيه عن متعلّقه قصداً لنفى الزيادة ، نحو فلان يعطى ، ليكون كالفعل المتعدّى . إذا جعل قاصرا للمبالغة ؛ فعلى هذا لا يكون من الحذف ، فإنه قال : أفعل التفضيل له معنيان : أحدهما أن يراد أنه زائد على المضاف إليه فى الجلة التى هو وهم فيها شركاء . والثانى أن يوجد مطلقاً له الزيادة فيها إطلاقاً ، ثم يضاف للتفضيل على المضاف إليه ؛ لكن بمجرد التخصيص كما يضاف مالا تفضيل فيه ؛ نحو قولك : الناقص والأشجّ أعدلا بنى مروان كأنك قلت : عادلا . انتهى .

حذف الموصوف

يشترط فيه أمران :

أحدهما : كون الصفة خاصة بالموصوف ؛ حتى يحصل العلم بالموصوف ؛ فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف . نص عليه سيبويه فى آخر باب ترجمة « هذا باب مجارى أواخر الكلم العربيّة » . وكذلك نص عليه أرسطاطاليس فى كتابه الخطابة .

الثانى : أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هى ، لتعلق غرض السياق ، كقوله تعالى : ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[٤] . ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٥] ؛ فإن الاعتمادَ فى سياق القول على مجرد الصفة لتعلّق غرض القول من المدح أو الذم بها .

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥
(٢) سورة طه ٧
(٣) المفصل ص ٢٣٤
(٤) سورة آل عمران ١١٥
(٥) سورة البقرة ٩٥

كقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾(١) ، أى حور قاصرات .

وقوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾(٢) ، أى وجنة دانية .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٣) ، أى العبد الشكور .

وقوله : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٤) ، أى القوم المتقين .

وقوله : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(٥) ، أى سفينة ذات ألواح .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾(٦) ، أى الأمة القيّمة .

وقوله : ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾(٧) ، أى دروعاً سابغات .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾(٨) ، أى يا أيها الرجل الساحر .

وقوله : ﴿ أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٩) ، أى القوم المؤمنون .

وقوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾(١٠) ، أى عملا صالحاً .

حذف الصفة

وأكثر ما يرد للتفخيم والتعظيم فى النكرات، وكأن التنكير حينئذ علم عليه، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾(١١) ، أى وزناً نافعاً .

وقوله : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾(١٢)، أى من جوع شديد وخوف عظيم .

وقوله : ﴿ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ ﴾(١٣) ، أى شىء نافع .

(١) سورة الصافات ٤٨
(٢) سورة الإنسان ١٤
(٣) سورة سبأ ١٣
(٤) سورة البقرة ٢
(٥) سورة القمر ١٣
(٦) سورة البينة ٥
(٧) سورة سبأ ١١
(٨) سورة الزخرف ٤٩
(٩) سورة النور ٣١
(١٠) سورة القصص ٦٧
(١١) سورة الكهف ١٠٥
(١٢) سورة قريش ٤
(١٣) سورة المائدة ٦٨

وقوله : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ ﴾[1] ، أي سلطت عليه.

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[2] ، أي جامعاً لأ كمل كل صفات الرسل .

وقوله : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[3] ، أى صالحة . وقيل : إنهـا قراءة ابن عباس . وفيه بحث وهو أنا لا نسلّم الإضمار ، بل هو عام مخصوص.

وقوله : ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾[4] ، أى كثير ، بدليل ما قبله .

ويجئ فى العرف ، كقوله تعالى : ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾[5] ، أى المبين .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾[6] ، أى الناس الذين يعادونكم

وقوله : ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾[7] ؛ أى الناجين .

وقوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾[8] ؛ أى قومك المعاندون.

ومنه : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[9] ، أى من أولى الضرر ، ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ المجاهدين على القاعدين ﴾ ؛ أى من غير أولى الضرر. قاله ابن مالك وغيره ، وبهذا التقدير يزول إشكال التكرار من الآية .

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾[10] أى لم أتل عليكم فيه شيئاً، فحذفت الصفة أو الحال ، قيل والعمر هنا أربعون سنة .

حذف المعطوف

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾[11] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾[12] ، ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾[13] التقدير: أعموا ! أمكثوا ! أكفرتم !

---

(١) سورة الذاريات ٤٢
(٢) سورة النساء ٧٩
(٣) سورة الكهف ٧٩
(٤) سورة ص ٥١
(٥) سورة البقرة ٧١
(٦) سورة آل عمران ١٧٣
(٧) سورة هود ٤٦
(٨) سورة الأنعام ٦٦
(٩) سورة النساء ٩٥
(١٠) سورة يونس ١٦
(١١) سورة الأعراف ١٨٥
(١٢) سورة يوسف ١٠٩
(١٣) سورة يونس ٥١

وقوله : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾(١) ، أى ماشهدنا مهلك أهله ومهلكه، بدليل قوله: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾(١) ؛ وما رُوِى أنهم كانوا عزموا على قتله وقتل أهله ؛ وعلى هذا فقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾(١) كذب فى الإخبار ، وأوهموا قومَهم أنهم قتلوه وأهلَه سرًّا ولم يشعر بهم أحد ؛ وقالوا تلك المقالة يوهمونَ أنهم صادقون ، وهم كاذبون .

ويحتمل أن يكون من حذف المعطوف عليه ؛ أى ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله .

وقال بعض المتأخرين : أصله ما شهدنا مهلك أهلِك بالخطاب ؛ ثم عدل عنه إلى الغيبة، فلا حذف .

وقد يحذف المعطوف مع حرف العطف ، مثل : ﴿ لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾(٣) ؛ أى أمرنا مُتْرَفيها ، فخالفوا الأمر ، ففسقوا . وبهذا التقدير يزول الإشكال من الآية ؛ وأنه ليس الفسق مأموراً به . ويحتمل أن يكون: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ صفة للقرية لا جوابا لقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا ﴾ ، التقدير : وإذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ؛ ويكون إذا على هذا لم يأت لها جواب ظاهر استغناء بالسياق ، كما فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾(٤) .

حذف المعطوف عليه

﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾(٥) ، أى لو مَلَكه ولو افتدى به .

---

(١) سورة النمل ٤٩

(٢) سورة الحديد ١٠

(٣) سورة الإسراء ١٦

(٤) سورة الزمر ٧٣

(٥) سورة آل عمران ٩١

ويجوز حذفه مع حرف العطف ، كقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾(١) ، أى فأفطر فعدة .

وقوله : ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾(٢) التقدير : فضرب فانفلق ، فحذف المعطوف عليه ، وهو « ضرب » ، وحرف العطف وهو الفاء المتصلة بـ « انفلق » فصار : ﴿ فانفلق ﴾ فالفاء الداخلة ، على « انفلق » هى الفاء التى كانت متصلة بـ ﴿ ضرب ﴾ وأما المتصلة بـ « انفلق » فمحذوفة .

كذا زعم ابن عصفور والأبذىّ قالوا : والذى دل على ذلك أنّ حرف العطف إنما نوى به مشاركة الأول للثانى ؛ فإذا حذف أحد اللفظين ـ أعنى لفظ المعطوف أو المعطوف عليه ـ ينبغى ألّا يؤتَى به ليزول ما أتى به من أجله .

وقال ابن الضائع : ليس هذا من الحذف بل من إقامة المعطوف مقام المعطوف عليه ؛ لأنه سببه ، ويقام السبب كثيرا مقام مسبّبه ؛ وليس ما بعدها معطوفاً على الجواب ؛ بل صار هو الجواب ؛ بدليل ﴿ فانبجَست ﴾ هو جواب الأمر .

حذف المبدل منه

اختلفوا فيه ، وخرّج عليه قوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ . هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾(٣)

حذف الموصول

قوله : ﴿ آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾(٤) ، أى والذى أنزل إليكم ؛ لأن « الذى أنزل إلينا » ليس هو الذى أنزل إلى من قبلنا ؛ ولذلك أعيدت « ما » بعد « ما »

(١) سورة البقرة ١٨٤ (٢) سورة الشعراء ٦٣

(٣) سورة النحل ١١٧ وقوله : ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ بدل من الكذب .

(٤) سورة العنكبوت ٤٦

فى قوله: ﴿ قولُوا آمَنَّا بِاللهِ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾(١). وهو نظير قوله: ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾(٢).

وقوله: ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾(٣).

وقوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾(٤) أى مَنْ له.

وشرط ابن مالك فى بعض كتبه لجواب الحذف كونه معطوفا على موصول آخر؛ ويؤيده هذه الآية. قال: ولا يحذف موصول حرفىّ إلا « أنْ »، كقوله تعالى: ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾(٥).

حذف المخصوص فى باب نعم

إذا علم من سياق الكلام

كقوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾(٦) التقدير: نعم العبد أيوب، أو نعم العبد هو، لأن القصة فى ذكر أيوب؛ فإن قدرت: نعم العبد هو؛ لم يكن « هو » عائداً على العبد بل على أيوب:

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾(٧)، فسليمان هو المخصوص الممدوح، وإنما لم يكرر لأنه تقدم منصوباً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾(٨)، أى نحن.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾(٩)، أى الجنة، أو دارهم.

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(١٠)، أى عقباهم.

---

(١) سورة البقرة ١٣٦
(٢) سورة النساء ١٣٦
(٣) سورة الرعد ١٠
(٤) سورة الصافات ٦٤
(٥) سورة الروم ٢٤
(٦) سورة ص ٣٠
(٧) سورة ص ٣٠.
(٨) سورة المرسلات ٢٣
(٩) سورة النحل ٣٠
(١٠) سورة الرعد ٢٤

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾(١)، أى أجرهم.

وقال: ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾(٢) أى مَنْ ضرّه أقرب من نفعه.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾(٣)، أى إيمانكم بما أنزل عليكم، وكفركم بما وراءه.

وقد يحذف الفاعل والمخصوص، كقوله تعالى: ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾(٤)، أى بئس البدل إبليس وذريّته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: « فَبِهَا وَنِعْمَتْ »، أى نعمت الرخصة.

حذف الضمير المنصوب المتصل

يقع فى أربعة أبواب:

أحدها: الصلة، كقوله تعالى: ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾(٥).

الثانى: الصفة، كقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾(٦)، أى فيه، بدليل قوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾(٦) ولذلك يقدّر فى الجمل المعطوف على الأولى؛ لأن حكمهنّ حكمها، فالتقدير: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾(٦) فيه.

ثم اختلفوا، فقال الأخفش: حذفت على التدريج؛ أى حذف العطف فاتصل الضمير، فحذف. وقال سيبويه: حذفا معاً لأول وهلة.

---

(١) سورة آل عمران ١٣٦

(٢) سورة الحج ١٣، وقبلها: ﴿ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ ... ﴾.

(٣) سورة البقرة ٩٣ (٤) سورة الكهف ٥٠

(٥) سورة الفرقان ٤١، والتقدير: « بعثه ». (٦) سورة البقرة ٤٨

وقيل : عُدِّىَ الفعل إلى الضمير أولا اتساعاً ، وهو قول الفارسى .

وجعل الواحدىّ من هذا قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾(١) ، أى منه . وقوله : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ،(٢) أى ما للظالمين منه .

وفيه نظر ؛ أما الأولى فلأن ﴿يُغْنِي﴾ جملة قد أضيف إليها اسم الزمان، وليست صفة .

وقد نصُّوا على أنّ عَوْد ضمير إلى المضاف من الجملة التى أضيف إليها الظرف غير جائز ؛ حتى قال ابن السراج : فإن قلتَ : أعجبنى يوم قمت فيه امتنعت الإضافة ؛ لأن الجملة حينئذ صفة ، ولا يضاف موصوف إلى صفته . قال ابن مالك : وهذا مما خَفِىَ على أكثر النحويين . وأما الثانية ؛ فكأنه يريد أن ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ صفة ليوم ، المضاف إليها الأزمنة ؛ وذلك متعذّر ؛ لأن الجملةَ لا تقع صفة للمعرفة ، والظاهر أن الجملة حال منه، ثم حذف العائد المجرور بـ « فى » ، كما يحذف من الصفة .

الثالث : الخبر ، كقوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾(٣) فى قراءة ابن عامر .

الرابع : الحال .

تنبيه

[عن ابن الشجرى فى تفاوت أنواع الحذف]

قال ابن الشَّجَرى : أقوى هذه الأمور فى الحذف الصلة ، لطول الكلام فيها ؛ لأنه أربع كلمات ؛ نحو : جاء الذى ضربت ؛ وهو : الموصول ، والفعل ، والفاعل ، والمفعول. ثم الصفة ؛ لأنّ الموصوفَ قائم بنفسه ، وإنما أتى بالصفة للتوضيح. ثم الخبر ؛ لانفصاله عن المبتدأ باعتبار أنه محكوم عليه .

---

(١) سورة الدخان ٣١
(٢) سورة المؤمن ١٨
(٣) سورة النساء ٩٥

ووجه التفاوت أن الصفةَ رتبة متوسطة بين الصلة والخبر ؛ لأن الموصولَ وصلته كالكلمة الواحدة ، ولهذا لا يفصل بينهما ؛ والصفة دونها فى ذلك ؛ ولهذا يكثر حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، والخبر دون ذلك ، فكان الحذف آكد فى الصلة من الصفة ، لأن هناك شيئين يدلّان على الحذف ؛ الصفة تستدعى موصوفاً ، والعامل يستدعيه أيضاً .

ويستحسن ابنُ مالك هذا الكلام ، ولم يتكلّم على الحال لرجوعه إلى الصفة .

***

حذف المفعول

وهو ضربان :

أحدهما : أن يكون مقصوداً مع الحذف فيُنوَى لدليل؛ ويقدَّر فى كلّ موضع مايليق به ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾(١) أى يريده .

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴾(٢) أى غشاها إياه .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾(٣) .

﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾(٤) .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ ﴾(٥) .

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾(٦) .

وكلّ هذا على حذف ضمير المفعول ، وهو مراد ، حُذِف تخفيفاً لطول الكلام بالصفة؛ ولولا إرادةُ المفعول ـ وهو الضمير ـ لخلَتِ الصلة من ضمير يعود على الموصول؛ وذلك لا يجوز؛

(١) سورة البروج ١٦
(٢) سورة النجم ٥٤
(٣) سورة الرعد ٢٦
(٤) سورة هود ٤٣
(٥) سورة النمل ٥٩
(٦) سورة القصص ٦٢

وكان فى حكم المنطوق به ؛ فالدلالة عليه من وجهين : اقتضاء الفعل له ، واقتضاء الصلة إذا كان العائد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[1] فى قراءة حمزة والكسائى بغير هاء ، أى ماعملته ، بدليل قراءة الباقين ، فـ «ما» فى موضع خفض للعطف على ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ .

ويجوز أن تكون «ما» نافية ، والمعنى: ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم؛ فيكون أبلغ فى الامتنان . ويقوِّى ذلك قولُه تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[2] ؛ وعلى هذا فلا تكون الهاء مُرادة ، لأنها غير موصولة .

وجعل بعضُهم منه قولَهُ تعالى : ﴿ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾[3] ، وهو فاسد ، لأن « شرب » يتعدّى بنفسه .

والغرض حينئذٍ بالحذف أمور :

منها : قصد الاختصار عند قيام القرائن ؛ والقرائن إما حالية كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾[4] ، لظهور أن المراد : أرنى ذاتك. ويحتمل أن يكون هابَ المواجهة بذلك ، ثم بَراه الشوق . ويجوز أن يكون أخّر ليأتى به مع الأصرح ؛ لئلا يتكرّر هذا المطلوب المعظم على المواجهة إجلالا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾[5] ؛ الظاهر أنه متعدٍّ حذف مفعوله ؛ أى تأجُرنى نفسك .

وجعل منه السكاكىّ قولَه تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ

---

(١) سورة يس ٣٥ ؛ وقبله : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ .

(٢) سورة الواقعة ٦٣ ، ٦٤

(٣) سورة المؤمنون ٣٣

(٤) سورة الأعراف ١٤٣

(٥) سورة القصص ٢٧

الرِّعَاءُ ﴾[١] فمن قرأ بكسر الدال من ﴿ يُصْدِرِ ﴾ فإنه حذف المفعول فى خمسة مواضع، والأقرب أنه من الضرب الثانى كما سنبيّنه فيه إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾[٢] ، أى أنفسكم .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ﴾[٣] ، أى فذوقوا العذاب .

وقوله : ﴿ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى ﴾[٤] ، أى ناسا أو فريقا .

وقوله: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا ﴾[٥] ، أى شيئاً .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمٰوَاتُ ﴾[٦] ، أى غير السموات .

وقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللّٰهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ ﴾[٧] ؛ على أن الدعاء بمعنى التسمية ؛ التى تتعدى إلى مفعولين ؛ أى سمُّوه الله ، أو سموه الرحمن ؛ أيًّا ماتسمّوه ، فله الأسماء الحسنى ؛ إذ لو كان المراد بمعنى الدعاء المتعدى لواحدٍ لزم الشرك إن كان مسمّى الله غير مسمّى الرحمٰن ؛ وعطف الشىء على نفسه إن كان عينه .

ومنها قصد الاحتقار كقوله : ﴿ كَتَبَ ٱللّٰهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى ﴾[٨]؛ أى الكفارَ.

ومنها قصد التعميم ؛ ولا سيما إذا كان فى حيِّز النفى ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٩]. وكذا ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[١٠] وكثيراً ما يعترى الحذف فى رءوس الآى نحو : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[١١] .

و ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[١٢] .

---

(١) سورة القصص ٢٣
(٢) سورة البقرة ١٩٨
(٣) سورة السجدة ١٤
(٤) سورة إبراهيم ٣٧
(٥) سورة البقرة ٦١
(٦) سورة إبراهيم ٤٨
(٧) سورة الإسراء ١١٠
(٨) سورة المجادلة ٢١
(٩) سورة يونس ١٠١
(١٠) سورة الأعراف ٧٢
(١١) سورة البقرة ١٠٢
(١٢) سورة الأعراف ٥٨

﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾(١) .

أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٢) .

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٣)

﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾(٤) .

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

وكذا كلّ موضع كان الغرض إثبات المعنى الذى دلّ عليه الفعل لفاعل غير متعلّق بغيره .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾(٦) ، أى كلّ أحد ، لأن الدعوة عامة والهداية خاصة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾(٧) ، فكال ووزن يتعديان إلى مفعولين : أحدهما باللام ، والتقدير : كالوا لهم ووزنوا لهم ، وحذف المفعول الثانى لقصد التعميم .

وما ذكرناه من كون « هم » منصوباً فى الموضع بعد اللام هو الظاهر ، وقرره ابن الشجرى فى أماليه ، قال : وأخطأ بعض المتأولين حيث زعم أن « هم » ضمير مرفوع أكدت به الواو كالضمير فى قولك : « خرجوا هم » ، فـ « هم » على هذا التأويل عائد على المطفّفين .

ويدلّ على بطلان هذا القول أمران :

---

(١) سورة القصص ٧١
(٢) سورة القصص ٧٢
(٣) سورة البقرة ٧٧
(٤) سورة البقرة ١٤
(٥) سورة البقرة ٢٢
(٦) سورة يونس ٢٥
(٧) سورة المطففين ٣

أحدهما : عدم ثبوت الألف فى « كالوهم » و « وزنوهم » ؛ ولو كان كاقال لأثبتوها فى خط المصحف ؛ كما أثبتوها فى قوله تعالى : ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾(١) ﴿ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ﴾(٢) ونحوه .

والثانى أن تقدم ذكر « النّاس » يدلّ على أنّ الضميرَ راجع إليهم ؛ فالمعنى : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾(٣) وإذا كالوا للناس أو وزنوا للناس يخسرون .

وجعل الزمخشرىّ من حذف المفعول قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(٤)؛ أى فى المصر . وعند أبى علىّ أن الشهر ظرف ، والتقدير فمن شهد منكم المصر فى الشهر .

ومنها تقدم مثله فى اللفظ ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾(٥) ، أى ويثبت ما يشاء .

فلما كان المفعول الثانى بلفظ الأول فى عمومه واحتياجه إلى الصلة جاز حذفه ، لدلالة ما ذكر عليه ، كقوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾(٧) أى غير السموات .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾(٨) ، أى ومن أنفق من بعده وقاتل ؛ بدليل ما بعده .

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾(٧) أى أبصرهم، بدليل قوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾(٨). وسبق عن ابن ظفر السرّ فى ذكر المفعول فى الأول وحذفه فى الثانى فى هذه الآية الشريفة

---

(١) سورة البقرة ٢٤٣ (٢) سورة البقرة ٢٤٦
(٣) سورة المطففين ٢ (٤) سورة البقرة ١٨٥
(٥) سورة الرعد ٣٩ (٦) سورة المؤمنون ٩٦
(٧) سورة إبراهيم ٤٨ (٨) سورة الحديد ١٠
(٩) سورة الصافات ١٧٩ (١٠) سورة الصافات ١٧٥

أن الأولى اقتضت نزول العذاب بهم يوم بدر ، فلما تضمنت التشفِّيَ قيل : ﴿ أبصرهم ﴾.
وأما الثانى فالمراد بها يوم الفتح ؛ واقترن بها مع الظهور عليهم تأمينهم والدعاء إلى إيمانهم؛ فلم يكن وقتاً للتشفّى بل للبروز ؛ فقيل له : ﴿ أبصر ﴾، والمعنى : فسيبصرون منّك عليهم.

وقوله: ﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾[1]، أى وعدكم ربكم ؛ فحذف لدلالة قوله قبله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾[1] ، قاله الزمخشرى .

وقد يقال : أطلق ذلك ليتناول كلَّ ما وعد الله من الحساب والبعث والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة ؛ لأنهم كانوا يكذّبون بذلك أجمع ، ولأن الموعود كلّه مما ساءهم ؛ وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم ، فأطلق لذلك ليكون من الضرب الآتى .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ ﴾[2] .

ومنها رعاية الفاصلة ، نحو : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[3] أى ما قلاك ، فحذف المفعول ، لأن فواصل الآى على الألف .

ويحتمل أنه للاختصار لظهور المحذوف قبله ؛ أى أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه ؛ فحذف لدلالة : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ ﴾[2] .

ومنها البيان بعد الإبهام كما فى مفعول المشيئة والإرادة ، فإنهم لا يكادون يذكرونه، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾[4] .
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾[5] .

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ — (٢) سورة الزمر ٢٢
(٣) سورة الضحى ١ — ٣ — (٤) سورة البقرة ٢٠
(٥) سورة الأنعام ٣٥

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١) .

﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾(٢) .

﴿ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ﴾(٣) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾(٤) .

التقدير : لو شاء الله أن يفعل ذلك لفعل .

وشرط ابن النحوية(٥) فى حذفة دخول أداة الشرط عليه كما سبق من قوله : ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾(٦) .

و ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾(٧) .

﴿ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٨) .

والحكمة فى كثرة حذف مفعول المشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن أن تكون إلا مثيلة الجواب ؛ ولذلك كانت الإرادة كالمشيئة فى جواز اطّراد حذف مفعولها ؛صرح به الزمخشرىّ فى تفسير سورة البقرة، وابن الزّمْلكانىّ فى البرهان(٩)، والتنوخى فى الأقصى(١٠)؛ كقوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾(١١) ، وإنما حذفه لأن فى الآية قبلها ما يدلّ على أنهم أمِروا لكذب ؛ وهو بزعمهم إطفاء نور الله ، فلو ذكر أيضاً لكان

---

(١) سورة النحل ٩ (٢) سورة الشورى ٢٤

(٣) سورة الأنعام ٣٩ (٤) سورة السجدة ١٣

(٥) هو بن يعقوب بن إلياس الدمشقى الإمام بدر الدين المعروف بابن النحوية ؛ اختصر المصباح لبدر الدين بن مالك فى المعانى ، وسماه ضوء المصباح وشرحه ؛ توفى سنة ٧١٨ . بغية الوعاة ١١٧

(٦) سورة الشورى ٢٤ (٧) سورة الأنفال ٣١

(٨) سورة الأنعام ٣٩

(٩) هو كمال الدين محمد بن على بن الزملكانى ، توفى سنة ٧٢٧ ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

(١٠) هو زين الدين محمد بن محمد التنوخى ؛ صاحب كتاب أقصى القرب فى صناعة الأدب ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

(١١) سورة الصف ٨

كالمتكرر ؛ فحذف وفسّر بقوله: ﴿ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾(١)؛ وكان فى الحذف تنبيه على هذا المعنى الغريب .

وينبغى أن يتمهل فى تقدير مفعول المشيئة؛فإنه يختلف المعنى بحسب التقدير ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾(٢) ؛ فإن التقديرَ كما قاله عبد القاهر الجرجانى : ولو شئنا أن نؤتِيَ كلَّ نفس هداها لآتيناها ، لا يصحُّ إلا على ذلك؛ لأنه إن لم يقدر هذا المفعول أدّى والعياذ بالله إلى أمر عظيم ، وهو نفى أن يكون لله مشيئة على الإطلاق ؛ لأن من شأن « لو » أن يكون الإثبات بعدها نفيا ، ألا ترى أنك إذا قلت : لو جئتَنى أعطيتك، كان المعنى على أنه لم يكن مجىء ولا إعطاء ؛ وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾(٣) ؛ فقدّره النحويون : فلم نشأ فلم نرفعه .

وقال ابنُ الخبّاز : الصواب أن يكونَ التقدير « فلم نرفعه فلم نشأ »، لأنَّ نفيَ اللازم يوجب نفيَ الملزوم ، فوجود الملزوم يوجب وجود اللازم؛ فيلزم من وجود المشيئة وجودُ الرفع ، ومن نفى الرفع نفى المشيئة ؛ وأما نفيُ الملزوم فلا يوجب نفيَ اللازم ، ولا وجود اللازم وجود الملزوم . انتهى

ويؤيده قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(٤) ، فإن المقصود انتفاء وجود الآلهة لا انتفاء لازمها وهو الفساد .

ويمكن توجيه كلام النحويين بأنهم جعلوا الأوّلَ شرطاً للثانى ، لأنّهم عدّوا « لو » من حروف الشرط ، وانتفاء الشرط يوجب انتفاء المشروط . وقد يكون الشرط مساوياً للمشروط ؛ بحيث يلزم من وجوده وجود المشروط ، ومن عدمه عدمه . والمقصود فى الآية تعليل عدم الرفع بعدم المشيئة لا العكس .

---

(١) سورة الصف ٨ — (٢) سورة السجدة ١٣
(٣) سورة الأعراف ١٧٦ — (٤) سورة الأنبياء ٢٢

وأوضح منه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1]، جعل انتفاء الملزوم سبباً لانتفاء اللازم ؛ لأن « كذبوا » ملزوم عدم الإيمان والتقوى ؛ فأخذهم بذلك ملزوم عدم فتح بركات السماء والأرض عليهم . والفاء فى قوله ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ للسببية ، وجعل التكذيب سبباً لأخذهم بكفرهم ؛ ولعلّ ذلك يختلف باختلاف المواد ووقوع الأفراد، مع أن القول ما قاله ابن الخباز . وأماما جاء على خلافه فذلك من خصوص المادة ، وذلك لا يقدح فى القضية الكلية ؛ ألا ترى أنا نقول : الموجبة الكلية لا تنعكس كلية مع أنها تنعكس كليّة فى بعض المواضع ، كقولنا : كل إنسان ناطق ، ولا يعدّ ذلك مبطلا للقاعدة .

تنبيهان

التنبيه الأول

[متى يذكر مفعول المشيئة والإرادة]

يستثنى من هذه القاعدة ثلاثة أمور : أحدها ما إذا كان مفعول المشيئة عظيما أو غريبا؛ فإنه لا يحذف ، كقوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ . . . ﴾[2] الآية ، أراد ردّ قول الكفار : « اتخذ الله ولداً » بما يطابقه فى اللفظ ؛ ليكونَ أبلغَ فى الردّ ؛ لأنه لو حذفه فقال : « لو أراد الله لاصطفى » لم يظهر المعنى المراد ؛ لأن الاصطفاء قد لا يكون بمعنى التبنّى ، ولو قال : لو أراد الله لاتخذ ولدا لم يكن فيه ما فى إظهاره من تعظيم جرم قائله .

ومثله صاحب كتاب « القول الوجيز فى استنباط علم البيان من الكتاب

---

(١) سورة الأعراف ٩٦ (٢) سورة الزمر ٤

العزيز » بقوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾(١) . وقوله : ﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾(٢) . و ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٣) . وفيما ذكره نظر .

قلت : يجىء الذكر فى مفعول الإرادة أيضا ، إذ كان كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾(٤) .

الثانى : إذا احتيج لعود الضمير عليه ، فإنه يُذكر ، كقوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ ﴾(٤) ، فإنه لو حذف لم يبق للضمير ما يرجع عليه .

وقد يقال : الضمير لم يرجع عليه وإنما عاد على معمول معموله .

الثالث : أن يكون السامع منكراً لذلك ، أو كالمنكر ، فيقصد إلى إثباته عنده ، فإن لم يكن منكراً ، فالحذف .

والحاصل أن حذف مفعول « أراد » و « شاء » لا يذكر إلا لأحد هذه الثلاثة .

التنبيه الثانى

[فى إنكار أبى حيّان للقاعدة السابقة]

أنكر الشيخ أبو حيان فى باب عوامل الجزم من شرح « التسهيل » هذه القاعدة وقال : غلط البيانيون فى دعواهم لزوم حذف مفعول المشيئة ؛ إلا فيما إذا كان مستغربا ؛ وفى القرآن : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾(٥) . ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾(٦) . ولهم أن يقولوا : إن المفعول هاهنا عظيم ؛ فلهذا صرّح به فلا غلط

(١) سورة الأنفال ٣١
(٢) سورة الشورى ٢٤
(٣) سورة الأنعام ٣٩
(٤) سورة الأنبياء ١٧
(٥) سورة التكوير ٢٨
(٦) سورة المدثر ٣٧

على القوم ؛ وأما قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَا ذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[١] ؛ فإذا جعلت « ما ذا » بمعنى « الذى » ؛ فمفعول « أراد » متقدّم عليـه ، وإن جعلت « ذا » وحده بمعنى « الذى » فيكون مفعول « أراد » محذوفا ؛ وهو ضمير « ذا » ولا يجوز أن يكون « مثلا » مفعول « أراد » لأنه أحد معموليه ولـكنه حال .

فصل

وقد كثر حذف مفعول أشياء غير ما سبق؛ منها الصبر، نحو: ﴿فَٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾[٢]: ﴿ ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾[٣] .

وقد يذكر ، نحو: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾[٤] قال الزمخشرى[٥] فى تفسير سورة الحجرات : قولهم : صبر عن كذا[٦] ، محذوف منه المفعول؛ وهو النفس.

ومنها مفعول « رأى »، كقوله : ﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾[٧].

قال الفارسىّ : الوجه أنّ « يرى » هنا للتعدية لمفعولين ؛ لأن رؤية الغائب لا تـكون إلا علما، والمعنى عليه قوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾[٨] وذكره العلم، قال: والمفعولان محذوفان؛ فـكأنه قال: فهو يرى الغائب حاضراً، أو حذف؛ كما حذف فى قوله: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[٩] ، أى تزعمونهم إياهم .

---

(١) سورة البقرة ٢٦
(٢) سورة الطور ١٦
(٣) سورة آل عمران ٢٠٠
(٤) سورة الـكهف ٢٨
(٥) الـكشاف ٤ : ٢٨٥
(٦) فى الأصلين : « هذا » والأجود ماأثبته عن الـكشاف ٤ : ٢٨٥
(٧) سورة النجم ٣٥
(٨) سورة الجن ٢٦
(٩) سورة الأنعام ٢٢

وقال ابن خروف : هو من باب الحذف لدليل ، لأن المعنى دالّ على المفعولين ؛ أى فهو يعلم ما يفعله ويعتقده حقًّا وصواباً ، ولافائدة فى الآية مع الاقتصار ، لأنه لا يُعلم منه المراد . وقد ذهب إليه بعض المحققين وعدل عن الصواب .

ومنها وعَدَ يتعدى إلى مفعولين ؛ ويجوز الاقتصار على أحدها كأعطيت ، قال تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾[1] ، فـ « جانب » مفعول ثان ، ولا يكون ظرفاً لاختصاصه . والتقدير : واعدناكم إتيانه أو مكثاً فيه .

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾[2] .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾[3] فإحدى الطائفتين فى موضع نصب ؛ بأنه المفعول الثانى ؛ وأنها لكم ، بدل منه ، والتقدير : وإذ يعدكم الله ثبات إحدى الطائفتين أو ملكها .

وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[4]، فلم يُعَدَّ الفعل فيها إلا إلى واحد ، ﴿ وليستخلفنهم ﴾ تفسير للوعد ومبين له ، كقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ﴾[5]، فالجملة الثانية تبيين للوصية ، لا مفعول ثان .

وأما قوله: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾[6]، ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾[7] فإن هـذا ونحوه يحتمل أمرين : انتصاب الوعد بالمصدر ، وبأنه المفعول الثانى على تسمية الموعود به وعدا .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[8] فما تعدّى فيه « وَعَد »

---

(١) سورة طه ٨٠
(٢) سورة المائدة ٩
(٣) سورة الأنفال ٧
(٤) سورة النور ٥٥
(٥) سورة النساء ١١
(٦) سورة طه ٨٦
(٧) سورة إبراهيم ٢٢
(٨) سورة البقرة ٥١

إلى اثنين ، لأن « الأربعين » لو كان ظرفاً لكان الوعد فى جميعه ؛ يعنى من حيث إنه معدود ، فيلزم وقوعُ المظروف فى كل فرد من أفراده ، وليس الوعد واقعاً فى« الأربعين» بل ولا فى بعضها .

ثم قدّر الواحدىّ وغيره محذوفاً مضافاً إلى « الأربعين » ، وجعلوه المفعول الثانى ، فقالوا : التقدير : وإذ واعدنا موسى انقضاء أربعين ، أو تمام أربعين ، ثم حذف وأقيم المضاف إليه مقامه .

قال بعضهم : ولم يظهر لى وجهُ عدولِهم عن كون « أربعين » هو نفس المفعول إلى تقدير هذا المحذوف ؛ إلا أن يقال : نفس الأربعين ليلة لا توعد ؛ لأنها واجبة الوقوع ، وإنما المعنى على تعليق الوعد بابتدائها وتمامها ، ليترتب على الانتهاء شىء .

قلت : وقال أبو البقاء[١] : ليس أربعين ظرفاً ؛ إذ ليس المعنى وَعَده فى أربعين .

وقال غيره : لا يجوز أن يكون ظرفاً ؛ لأنه لم يقع الوعد فى كل من أجزائه ، ولا فى بعضه .

ومنها « اتخذ » تتعدى لواحد أو لاثنين ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾[٢] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾[٣] ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾[٤] ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[٥] . ومن الثانى : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾[٦] ،﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[٧] ،﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾[٨] والثانى من المفعولين هو الأول فى المعنى .

(١) املاء مامن به الرحمن ٢١
(٢) سورة الأنبياء ١٧
(٣) سورة الفرقان ٣
(٤) سورة الزخرف ١٦
(٥) سورة الفرقان ٢٧
(٦) سورة المنافقون ٢
(٧) سورة الممتحنة ١
(٨) سورة المؤمنون ١١٠

قال الواحدى فأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(١) وقوله : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾(٢) ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾(٣) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾(٤)، فالتقدير فى هذا كلّه : اتخذوه إلٰها ، فحذف المفعول الثانى .

والدليل على ذلك أنه لو كان على ظاهره ؛ لـكان مَنْ صاغ عجلا أو نحوه ، أو عمله بضرب من الأعمال، استحقّ الغضب من الله، لقوله: ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(٥) .

وفيما قاله نظر ؛ لأن الواقع أن أولئك عبدوه؛ فالتقدير على هذا فى المتعدى لواحد أنّ الذين اتخذوا العجل وعبدوه؛ ولهذا جوّز الشيخ أثير الدين فى هذه الآيات كلّها أن تـكون «اتخذ» فيها متعدّية إلى واحد ، قال: ويكون ثَمّ جملة محذوفة ؛ تدل على المعنى؛ وتقديره: « وعبدتموه إلٰها » ورجّحه على القول الآخر بأنها لو كانت متعدّية فى هذه القصة لاثنين لصرّح بالثانى ولو فى موضع واحد .

* * *

الضرب الثانى :

ألّا يكون المفعول مقصوداً أصلا ؛ وينزّل الفعل المتعدّى منزلةَ القاصر ؛ وذلك عند إرادة وقوع نفس الفعل فقط ؛ وجعل المحذوف نسياً منسيًّا ، كما ينسى الفاعل عند بناء لفعل ، فلا يُذكر المفعول ، ولا يُقدّر ؛ غير أنه لازم الثبوت عقلا لموضوع كلّ فعل متعدّ ؛ لأن الفعلَ لا يدرى تعيينُه .

وبهذا يعلم أنه ليس كلُّ ما هو لازم من موضوع الـكلام مقدراً فيه، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾(٦) .

---

(١) سورة البقرة ٥١
(٢) سورة البقرة ٥٤
(٣) سورة الأعراف ١٤٨
(٤) سورة الأعراف ١٥٢
(٥) سورة الأعراف ١٥٢
(٦) سورة البقرة ٢٤

وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾(١) ، لأنه لم يرد الأكل من معيّن ، وإنما أرادَ وقوع هذين الفعلين .

وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) ، ويسمّى المفعول حينئذٍ مماتا .

ولما كان التحقيق أنه لا يعدّ هذا من المحذوف ، فإنه لا حذف فيه بالكلّيّة ؛ ولكن تبعناهم فى العبارة ؛ نحو فلان يعطى ؛ قاصداً أنه يفعل الإعطاء . وتوجد هذه الحقيقة إيهاما للمبالغة بخلاف ما يقصد فيه تعميم الفعل ؛ نحو : هو يعطى ويمنع ؛ فإنه أعمّ تناولا ؛ من قولك : يعطى الدرهم ويمنعه ؛ والغالب أنّ هذا يُستعمل فى النفى ، كقوله : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(٣) ، والآخر فى الإثبات ، كقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٤) .

ومن أمثلة هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ ﴾(٧) الخ الآية ؛ حذف منها المفعول خمس مرات ؛ لأنه غير مراد ؛ وهو قوله ﴿ يسقون ﴾ ، وقوله ﴿ تذودان ﴾ ، وقوله : ﴿ لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾(٧) مواشيهم ، ﴿ فسقى لهما ﴾ غنمهما .

وقوله : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ ﴾(٨) قيل : لو ذكر المفعول فيها نقص المعنى ؛ والمراد

---

(١) سورة البقرة ٦٠
(٢) سورة الزمر ٩
(٣) سورة البقرة ١٧
(٤) سورة الروم ٢٤
(٥) سورة البقرة ٢٥٨
(٦) سورة مريم ٤٢
(٧) سورة القصص ٢٣
(٨) سورة الأعراف ٨٨

أن الله تعالى له الإحياء والإماتة ؛ وأن إلٰهم ليس له سمع ولا بصر، وأن موسى عليه السلام وجد قوماً يعانون السقي، وامرأتين تعانيان الذَّوْد، وأخبرتاه أنَّا لا نستطيعُ السقي؛ فوجدا من موسى عليه السلام لهما السقي ، ووجدَ من أبيهما مكافأة على السقي . وهذا مما حُذِف لظهور المراد ؛ وأن القصدَ[1] الإعلام بأنه كان من الناس في تلك الحالة سَقْي، ومن المرأتين ذَوْد ، وأنهما قالتا : لا يكون منّا سقي حتى يُصْدِر الرعاء ، وأنّ موسى سقى بعد ذلك ؛ فأمّا أنّ المسقى غنمٌ أو إبل أو غيره فخارج عن المقصود ؛ لأنه لو قيل : يذُودان غنمهما لجاز أن يكون الإنكار لم يتوجه من موسى على الذَّوْد من حيث هو ذَوْد ؛ بل من حيث هو ذَودُ غنم ؛ حتى لو كان ذودَ إبل لم ينكره .

واعلم أنّا جعلنا هذا من الضرب الثاني موافقة للزمخشري ؛ فإنه قال : تُرِكَ المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيّهم إبل ، وكذلك قولهما : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ ﴾ ، المقصود منه[2] السقي لا المسقيّ .

وجعله السكاكي من الضرب الأول ؛ أعني مما حُذِف فيه للاختصار مع الإرادة .

والأقرب قولُ الزمخشريّ ، ورجح الجزريّ قول السكاكي أنه للاختصار ، فإن الغنم ليست ساقطة عن الاعتبار بالأصالة ؛ فإن فيها ضعفا عن المزاحمة ، والمرأتان فيهما ضعف ، فإذا انضمّ إلى ضعف المسقيّ ضعفُ الساق ، كان ذلك أدعى للرحمة والإعانة .

وكقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾[4] .

---

(١) ت : « المقصود » .
(٢) الكشاف : « فيه » .
(٣) سورة الليل ٥
(٤) سورة النجم ٤٨

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[1] .

وإنما ذكر المفعول فى قوله : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾[2]؛ لأن المراد جنسُ الزوجين فكأنه قال : يخلق كلّ ذكر وكل أنثى ، وكان ذكره هنا أبلغ ليدلّ على عموم ثبوت الخلق له بالتصريح .

وليس منه قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾[3]، لوجود العِوَض من المفعول به لفظا ، أو هو المفعول به وهو قوله : ﴿ فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ ، ومعنى الدعاء به قصر الإصلاح له على الذرية ؛ إشعاراً بعنايته بهم .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[4]، أى عاقبة أمركم؛ لأن سياق القول فى التهديد والوعيد .

واعلم أن الغرض حينئذ بالحذف فى هذا الضرب أشياء :

منها البيان بعد الإبهام كما فى فعل المشيئة على ما سبق ؛ نحو : أمرته فقام ؛ أى بالقيام . وعليه قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾[5] أى أمرناهم بالفسق؛ وهو مجاز عن تمكينهم وإقدارهم .

ومنها : المبالغة بترك التقييد ؛ نحو : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[6] ، وقوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[7] ونفيُ الفعل غير متعلق أبلغُ من نفيه متعلقا به ؛ لأن المنفىّ فى الأول نفس الفعل ، وفى الثانى متعلقه .

---

(١) سورة النجم ٤٣ ، ٤٤
(٢) سورة النجم ٤٥
(٣) سورة الأحقاف ١٥
(٤) سورة التكاثر ٣ ، ٤
(٥) سورة الإسراء ١٦
(٦) سورة يونس ٥٦
(٧) سورة يس ٩

تنبيه

قد يلحظ الأمران ؛ فيجوز الاعتباران ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ ﴾(١) أجاز الزمخشرىّ(٢) فى حذف المفعول منه الوجهين .

وكذلك فى قوله فى آخر سورة الحج : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ ﴾(٣) .

حذف الحال

كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾(٤)، أى قائلين سلام عليكم .

قال ابن أبى الربيع : اعلم أنّ العرب قد تحذف الحال إذا كانت بالفعل لدلالة مصدر الفعل عليه ؛ فتقول : قتلته صبراً ، وأتيته ركضاً ، قال تعالى : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾(٥) ، فدأبا يقدر بالفعل ؛ تقديره : « تدأبون » فى موضع الحال .

قال أبو علىّ : لا خلاف بين سيبويه وأبى العباس فى الحال المحذوف الذى المصدر منصوب به ، وإنما الخلاف بينهما فى القياس ، فسيبويه يذهب إلى السماع ولا يقيس ، والأخفش والمبرّد يقيسان .

---

(١) سورة الحجرات ١

(٢) الكشاف ٤: ٢٧٧، وعبارته : وفى قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ من غير ذكر مفعول وجهان: أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع فى النفس مما يقدم . والثانى ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ؛ ويتوجه بالنفى إلى نفس التقدمة ؛ كأنه قيل : لاتقدموا على التلبس بهذا الفعل ؛ ولا تجعلوه منكم بسبيل ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

(٣) سورة الحج ٧٨ (٤) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤

(٥) سورة يوسف ٤٧

حذف المنادى

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَاسْجُدُوا ﴾(١) على قراءة الكسائىّ بتخفيف « ألا » على أنها تنبيه و « يا » نداء ، والتقدير ألا ياهؤلاء اسجدوا لله . ويجوز أن يكون «يا» تنبيهاً ولامنادى هنالك ، وجمع بينهن تأكيداً ؛ لأنّ الأمر قد يحتاج إلى استعطاف المأمور واستدعاء إقباله على الآمر .

وأما على قراءة الأكثر بالتشديد ؛ فعلى أنّ أن الناصبة للفعل دخلت عليها لا النافية ، والفعلُ المضارع بعدها منصوب ؛ وحذفت النون علامة النصب، فالفعل هنا معرب، وفى تلك القراءة مبنىّ ، فاعرفه .

فائدة

[فى حذف الياء من المنادى المضاف إلى ياء المتكلم]

كَثُر فى القرآن حذفُ الياء من المنادى المضاف إلى ياء المتكلم ؛ نحو ياربِّ ، ياقومِ ؛ وعلّل ذلك بأن النداء باب حذف ؛ ألا ترى أنه يحذف منه التنوين وبعض الاسم للترخيم ؛ وجاء فيه إثباتها ساكنة ، كقراءة مَنْ قرأ: ﴿ يَاعِبَادِى فَاتَّقُونِ ﴾(٢) ، ومحركة بالفتح ؛ كقراءة من قرأ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾(٣) ، ومنقلبة عن الياء فى قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَىٰ ﴾(٤) .

حذف الشرط

﴿ قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾(٥) ؛ أى إن قلت لهم: أقيموا يقيموا.

(١) سورة النمل ٢٥
(٢) سورة الزمر ١٦
(٣) سورة الزمر ٥٣
(٤) سورة الزمر ٥٦
(٥) سورة إبراهيم ٣١

وجعل منه الزمخشريّ : ﴿ قل أتَّخذتم عند الله عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾(١) .

وجعل أبو حيان منه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(٢)، أي إن كنتم آمنتم بما أُنزل إليكم فلم تقتلون ؟ وجواب «إن كنتم» محذوف دلّ عليه ما تقدم ، أي فلم فعلتم ؟ وكرر الشرط وجوابه مرتين للتأكيد ، إلا أنه حُذف الشرط من الأول وبقيَ جوابه ، وحُذِف الجواب من الثانى وبقيَ شرطه. انتهى.

وهو حسن ، إلا أنه قد كان خالف الزمخشريّ؛ وأنكر قوله بحذف الشرط في: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾(٣) وفى : ﴿ فَانْفَجَرَتْ ﴾(٤) ، وقال : إنّ الشرط لا يحذف فى غير الأجوبة ، والآن قد رجع إلى موافقته .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥) ، تقديره: إن كنتم منكرين فهذا يوم البعث ؛ أى فقد تبيّنَ بطلان إنكاركم .

وقوله : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ﴾(٦) ، بمعنى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، فعدلَ عن الافتخار بقتلهم ، فحذف لدلالة الفاعلية .

وقوله : ﴿ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾(٧) ؛ تقديره : إن أرادوا أولياء فالله هو الولىّ بالحق، لا ولىّ سواه .

حذف جواب الشرط

قوله : ﴿ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) سورة البقرة ٨٠

(٢) سورة البقرة ٩١

(٣) سورة البقرة ٥٤

(٤) سورة البقرة ٦٠

(٥) سورة الروم ٥٦

(٦) سورة الأنفال ١٧

(٧) سورة الشورى ٩

عَلَى مِثْلِهِ . فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[(١)] ؛ أى أفلستم ظالمين ؟ بدليل قوله عقبه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[(١)] وقدّره البغوىّ : مَن المحق منّا ومَن المبطل ؟ ونقله عن أكثر المفسرين .

ومن حذف جواب الفعل: ﴿اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ﴾[(٢)] ، تقديره : « فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم » ، والفاء العاطفة على الجواب المحذوف هى المسمّاة عندهم بالفاء الفصيحة .

وقال صاحب المفتاح : وانظر إلى الفاء الفصيحة فى قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾[(٣)]، كيف أفادت : « ففعلتم فتاب عليكم » !

وقوله : ﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[(٤)] ؛ تقديره : فضربوه فحيى ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ .

وقال صاحب الكشاف[(٥)] فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ ﴾[(٦)] تقديره : فعملا به وعلّماه ، وعرَفا حق النّعمة فيه والفضيلة ﴿ وَقَالَا الحمدُ لِلَّهِ ﴾ .

وقال السكاكىّ : هو إخبارٌ عمّا صنع بهمـــا وعمّا قالاه ، حتى كأنه قيل : نحن فعلنا إيتاء العلم ؛ وهما فعلا الحمد ، تعريضا لاستتارة الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع ، مثله « قم يدعوك » بدل « قم فإنه يدعوك » .

---

(١) سورة الأحقاف ١٠
(٢) سورة الفرقان ٣٦
(٣) سورة البقرة ٥٤
(٤) سورة البقرة ٧٣
(٥) الكشاف ٣ : ٢٧٨
(٦) سورة النمل ١٥

حذف الأجوبة

ويكثر ذلك فى جواب لو، ولولا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾(١)

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾(٤)

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(٥).

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾(٦)، تقديره فى هذه المواضع «لرأيت عجباً» أو «أمراً عظيما»، «ولرأيت سوء منقلبهم»، أو «لرأيت سوء حالهم».

والسرّ فى حذفه فى هذه المواضع أنها لما رُبطت إحدى الجملتين بالأخرى حتى صارا جملة واحـــدة، أوجب ذلك لها فضلا وطولا؛ نخفف بالحذف؛ خصوصا مع الدلالة على ذلك.

قالوا: وحذف الجواب يقع فى مواقع التفخيم والتعظيم، ويجوز حذفه لعلم المخاطَب، وإنما يحذف لقصد المبالغة، لأن السامع مع أقصى تخيّله يذهب منه الذهن كلَّ مذهب، ولو صرّح بالجواب لوقف الذهن عند المصرّح به فلا يكون لهذلك الوقع، ومن ثَمّ لا يحسن تقدير الجواب مخصوصاً إلا بعد العلم بالسياق، كما قدر بعض النحويين فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾(٧) الآية، فقال: تقديره: لكان هذا القرآن

---

(١) سورة الأنعام ٢٧
(٢) سورة الأنعام ٣٠
(٣) سورة سبأ ٣١
(٤) سورة الأنفال ٥٠
(٥) سورة السجدة ١٢
(٦) سورة الأنعام ٩٣
(٧) سورة الرعد ٣١

وحكاه أبو عمرو الزاهد فى « الياقوتة » عن ثعلب والمبرّد ، وهو مردود ، لأن الآية ما سيقت لتفضيل القرآن ، بل سيقت فى معرض ذم الكفار ، بدليل قوله قبلها : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾(١) ، وبعدها : ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٢) فلو قدر الخبر « لما آمنوا به » لكان أشدّ .

ونقل الشيخ محيى الدين النووى فى كتاب « رءوس المسائل » كون الجواب « كان هذا القرآن » ، عن الأكثرين . وفيه ما ذكرت .

وقيل تقديره : لو قضيت أنه لا يقرأ القرآن على الجبال إلّا سارت ورأوا ذلك ، لما آمنوا :

وقيل : جواب « لو » مقدّم ، معناه : يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، وهذا قول الفراء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾(٣) ، محذوف ، والتقدير : لنفدت هذه الأشياء وما نفدت كلمات الله . ويحتمل أن يكون « ما نفدت » هو الجواب مبالغة فى نفى النفاد ؛ لأنه إذا كان نفىُ النفاد لازما على تقدير كون ما فى الأرض من شجرة أقلاما والبحر مدادا لكان لزومها على تقدير عدمها أولى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الرعد ٣٠ (٢) سورة الرعد ٣١
(٣) سورة لقمان ٢٧ (٤) سورة النساء ١١٣

فإنه قد قيل : ظاهره نفيُ وجود الهمّ منهم بإضلاله ، وهو خلافُ الواقع ؛ فإنهم همّوا وردّوا القول .

وقيل : قوله : ﴿ لَهَمَّتْ ﴾ ليس جواب « لو » بل هو كلامٌ تقدم على « لو » ، وجوابها مقول على طريق القسم ، وجواب « لو » محذوف تقديره ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾(١)، لولا فضل الله عليك لأضلُّوك .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾(٢) ، أى همت بمخالطته ، وجواب « لولا » محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لخالطها(٣) .

وقيل : لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ؛ والوقف على هـذا ﴿ ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ ، والمعنى أنه لم يهمّ بها(٤) .

ذكره أبو البقاء . والأوّل للزمخشرى .

ولا يجوز تقديم جواب « لو » عليها لأنه فى حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام .

وقوله : ﴿ وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾(٥) جواب الشّرط محذوف ؛ يدلّ عليه قوله : ﴿ إنا لمهتدون ﴾ أى إن شاء الله اهتدينا . وقد توسّط الشرط هنا بين جزأى الجملة بالجزاء ؛ لأن التقديمَ على الشرط ، فيكون دليل الجواب متقدما على الشرط ؛ والذى حسّن تقديم الشرط عليه الاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾،(٦) تقديره : لما استعجلوا فقالوا متى هذا الوعد .

---

(١) سورة النساء ١١٣
(٢) سورة يوسف ٢٤
(٣) الكشاف ٢ : ٣٥٥
(٤) إملاء ما من به الرحمن لأبى البقاء العكبرى ٢٨
(٥) سورة البقرة ٧٠
(٦) سورة الأنبياء ٣٩

وقال الزجاج : تقديره « لعلموا صدق الوعد » لأنهم قالوا: متى هذا الوعد ، وجعل الله الساعة موعدهم فقال تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾(١) .

وقيل : تقديره: « لما أقاموا على كفرهم ولندموا أو تابوا ».

وقوله في سورة التكاثر : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾(٢) تقديره لما : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .

وقيل : تقديره : لشغلكم ذلك عما أنتم فيه .

وقيل : لرجعتم عن كفركم أو لتحققتم مصداق ما تحذرونه .

وقوله : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴾(٣)، أي لا يتبعونهم.

وقوله : ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤) تقديره : « لآمنتم » أو « لما كفرتم » أو « لزهدتم في الدنيا » أو « لتأهبتم للقائنا » .

ونحوه : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾(٥) ، أي يهتدون في الدنيا لما رأوا العذاب في الآخرة ، أو لما اتبعوهم .

وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾(٦) ، قال محمد بن إسحاق : معناه لو أن لي قوة لحلتُ بينكم وبين المعصية .

وقوله تعالى: ﴿ ولَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾،(٧) أي رأيت ما يعتبر به عبرة عظيمة.

(١) سورة الأنبياء ٤٠
(٢) سورة التكاثر ١ ، ٥
(٣) سورة البقرة ١٧٠
(٤) سورة المؤمنون ١١٤
(٥) سورة القصص ٦٤
(٦) سورة هود ٨٠
(٧) سورة سبأ ٥١

وقوله عقب آية اللِّعان : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾(١) ، قال الواحديّ : قال الفراء : جواب « لو » محذوف لأنه معلوم المعنى ، وكلٌّ ما عُلِم فإن العرب تكتفى بترك جوابه ؛ ألا ترى أن الرجل يشتم الرجلَ ، فيقول المشتوم : أما والله لولا أبوك . . . فيُعلم أنك تريد : لشتمتك .

وقال المبرِّد : تأويله والله أعلم : لهلكتم ، أو لم يبق لكم باقية ، أو لم يصلح أمركم ، ونحوه من الوعيد الموجِع ، فحذِف لأنه لا يُشْكِل .

وقال الزجاج : المعنى لنال الكاذبَ منكم أمر عظيم ؛ وهذا أجود مما قدّره المبرد .

وكذلك « لولا » التى بعدها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) ،جوابها محذوف ؛ وقدّره بعضُهم فى الأولى : لافتَضَح فاعل ذلك ؛ وفى الثانية : لعجّل عذاب فاعل ذلك ؛ وسوّغ الحذفَ طولُ الكلام بالمعطوف ، والطول داع للحذف .

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾(٣) جوابها محذوف، أى لولا احتجاجهم بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة .

وقال مقاتل : تقديره لأصابتهم مصيبة .

وقال الزجاج : لولا ذلك لم يحتج إلى إرسال الرسول ومواترة الاحتجاج .

وقوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾(٤) ، أى لأبدت .

---

(١) سورة النور ١٠
(٢) سورة النور ٢٠
(٣) سورة القصص ٤٧
(٤) سورة القصص ١٠

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾[١] ، تقديره : لو تملكون ، [تملكون][٢] ، فأضمر « تملك » الأولى على شريطة التفسير وأُبْدِل من الضمير المتصل ، الذى هو « الواو » ضمير منفصل،وهو « أنتم » لسقوط ما يتصل به من الكلام ، فـ « أنتم » فاعلُ الفعل المضمر ، « وتملكون » تفسيره .

قال الزمخشرى[٣] : هـذا ما يقتضيه[٤] الإعراب ؛ فأما ما يقتضيه علم البيان ، فهو أنّ [أنتم][٥] تملكون فيــه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشحّ المتتابع[٦] ؛ وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسّر برز الكلام فى صورة المبتدأ والخبر .

ومن حذف الجواب قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيــلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٧] ، أى أعرضوا ؟ بدليل قوله بعده : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾[٧] .

وقوله فى قصة إبراهيم فى الحِجْر : ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾[٨] ، وفى غيرها من السور: ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾[٩] ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾[١٠] ، قال الكِرْمانىّ : لأن هذه السورة متأخرة عن الأولى ، فاكتفى بما فى هذه ؛ ولو ثبت تعدّد الوقائع لنزلت على واقعتين

---

(١) سورة الإسراء ١٠٠
(٢) تكملة من الكشاف ٢ : ٥٤٣
(٣) الكشاف ٢ : ٥٤٣
(٤) عبارة الزمخشرى فى الكشاف : « وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب » .
(٥) من الكشاف .
(٦) فى الكشاف بعده : نحو قول حاتم :

* لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي *

وقول المتلمس :

* وَلَوْ غَيْرُ أَخْوالِي أرادوا نقيصتى *

(٧) سورة يس ٤٥ ، ٤٦
(٨) سورة الحجر ٥٢
(٩) سورة الفرقان ٦٣
(١٠) سورة الذاريات ٢٥

وكقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[١] ، قال الزمخشرى[٢] : حذف الجواب ، وتقديره مصرّح به فى سورتى التكوير والانفطار ، وهو قوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾[٣].

وقال فى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[٤] : الجواب محذوف ، أى أنهم ملعونون ، يدلّ عليه قوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾[٤] .

وكقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[٥] ، أى « حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها » ، والواو واو حال ، وفى هذا ماحُكِىَ أنه اجتمع أبو علىّ الفارسى مع أبى عبد الله الحسين بن خالويه فى مجلس سيف الدولة ، فسئل ابن خالويه عن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[٦] ، فى النار بغير واو ، وفى الجنة بالواو ! فقال ابن خالويه : هذه الواو تسمّى واو الثمانية لأن العرب لا تعطف الثمانية إلا بالواو ، قال: فنظر سيف الدولة إلى أبى علىّ وقال : أحق هذا ! فقال أبو علىّ : لا أقول كما قال ؛ إنما تركت الواو فى النار ، لأنها مغلقة ، وكان مجيئهم شرطاً فى فتحها ، فقوله : ﴿فتحت﴾ فيه معنى الشرط ، وأما قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ فى الجنة ، فهذه واو الحال ، كأنه قال : جاءوها وهى مفتحة الأبواب ؛ أو هذه حالها .

وهذا الذى قاله أبو علىّ هو الصواب ، ويشهد له أمران :

أحدها : أن العادة مطّردة شاهدة فى إهانة المعذبين بالسجون ، من إغلاقها حتى يردُوا عليها ، وإكرام المنعمين بإعداد فتح الأبواب لهم مبادرة واهتماماً .

---

(١) سورة الانشقاق ١

(٢) الكشاف ٤ : ٥٧٩ ، والعبارة هناك : « حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب ، أو اكتفاء بما علم فى مثلها من سورتى التكوير والانفطار » .

(٣) سورة التكوير ١٤ : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ والانفطار ٥ : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

(٤) سورة البروج ١ ، ٤

(٥) سورة الزمر ٧٣

(٦) سورة الزمر ٧٣

والثانى : النظير فى قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ ﴾(١) .

وللنحويين فى الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الواو زائدة ، والجواب قوله « فتحت » وهؤلاء قسمان : منهم من جعل هذه الواو مع أنها زائدة واو الثمانية ، ومنهم من لم يثبتها .

والثانى : أن الجواب محذوف عطف عليه قوله : ﴿وفتحت﴾ كأنه قال « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا [جاءوها](٢) وَفُتِحَتْ » قال الزجاج وغيره : وفى هذا حذف المعطوف وإبقاء المعطوف عليه .

والثالث : أن الجواب محذوف آخر الكلام ؛ كأنه قال بعد الفراغ : استقروا ، أو خلدوا ، أو استووا ؛ مما يقتضيه المقام ؛ وليس فيه حذف معطوف . ويحتمل أن يكون التقدير : إذا جاءوها أذن لهم فى دخولها وفتحت أبوابها ؛ المجئ ليس سببا مباشراً للفتح ؛ بل الإذن فى الدخول هو السبب فى ذلك .

وكذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾(٣) أى رحمهم ثم تاب عليهم ؛ وهذا التأويل أحسن من القول بزيادة « ثم » .

وحَذْفُ المعطوف عليه وإبقاء المعطوف سائغ ، كقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ﴾(٤) ، التقدير والله أعلم: فذهبا فبلّغا ، فكذّبا فدمّرناهم ؛ لأن المعنى يرشد إلى ذلك .

وكذا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾(٥) ، أى فامتثلتم ، أو فعلتم فتاب عليكم .

---

(١) سورة ص ٥٠

(٢) تكملة من الكشاف ٤ : ١١٤

(٣) سورة التوبة ١١٨

(٤) سورة الفرقان ٣٦

(٥) سورة البقرة ٥٤

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾(١)، أى رحما وسعدا وتله . وابن عطية يجعل التقدير : فلما أسلما أسلما ؛ وهو مشكل .

وقوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا ﴾(٢) ، المعنى : حتى إذا كان ذلك ندم الذين كفروا ولم ينفعهم إيمانهم ؛ لأنه من الآيات والأشراط .

* * *

وقد يجىء فى الكلام شرطان؛ويحذف جواب أحدهما اكتفاء بالآخر كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴾(٣) فى الاعتراض به مجرى الظرف ؛ لأنّ الشرطَ وإن كان جملة ؛ فإنه لما لم يقم بنفسه جرى مجرى الجزء الواحد، ولو كان عنده جملة لما جاز الفصل به بين «أما» وجوابها، لأنه لا يجوز . أما زيد فمنطلق؛ وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب لهما .

ونظيره: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾(٤)، فقوله : ﴿ لَعَذَّبْنَا ﴾(٤) جواب للولا ولو جميعا .

واختار ابن مالك قول سيبويه أن الجواب « لأمّا » واستغنى به عن جواب « إن » لأن الجواب الأول الشرطين المتواليين فى قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾(٥) ونظائره .

فإذا كان أول الشرطين « أما » كانت أحق بذلك لوجهين :

أحدهما : أنّ جوابها إذا انفردت لا يحذف أصلا ؛ وجواب غيرها إذا انفرد يحذف كثيراً لدليل ؛ وحذف ما عُهِد حذفُهُ أَوْلَى من حذف ما لم يعهد .

---

(١) سورة الصافات ١٠٣ (٢) سورة الأنبياء ٩٧
(٣) سورة الواقعة ٩٠ (٤) سورة الفتح ٢٥
(٥) سورة هود ٣٤

والثانى : أن « أما » قد التزم معها حذف فعل الشرط، وقامت هى مقامه ، فلو حذف جوابها لـكان ذلك إجحافاً ، وإنْ ليست كذلك . انتهى .

والظاهر أنه لاحذف فى الآية الـكريمة ، وإنما الشرط الثانى وجوابه جواب الأول، والمحذوف إنما هو أحد القاءين .

وقال الفارسىّ فى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾(١) الآية: إنه حذف منه: أعزّنا ولا تذلّنا .

وقال فى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾(٢)، تقديره: « فكيف تجدونهم مسرورين » أو « محزونين » ، ف « كيف » فى موضع نصب بهذا الفعل المضمر ، وهذا الفعل المضمر قد سدّ مسدّ جواب إذا .

حذف جواب القسم

لعلم السامع المراد منه ، كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا . فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا . فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾(٣)، تقديره : لتبعثنّ ولتحاسبنّ، بدليل إنكارهم للبعث فى قولهم : ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾(٤) .

وقيل : القسم وقع على قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾(٥) .

وكقوله تعالى : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾(٦) وحذف لدلالة الـكلام السابق عليه .

---

(١) سورة آل عمران ٢٦
(٢) سورة النساء ٦٢
(٣) سورة النازعات ١ ـ ٦
(٤) سورة النازعات ١٠
(٥) سورة النازعات ٢٦
(٦) سورة طه ٧٢

واختلف فى جواب القسم فى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[١] فقال الزجّاج : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾[٢] ، واستبعده الكسائى .

وقال الفراء : قد تأخّر كثيراً ، وجرت بينهما قصص مختلفة ، فلا يستقيم ذلك فى العربية .

وقيل: ﴿ كم أهلكنا ﴾[٣]، ومعناه : لَكَمْ أهلكنا ، وما بينهما اعتراض ، وحذفت اللام لطول الكلام .

وقال الأخفش: ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾[٤]، والمعترض بينهما قصة واحدة.

وعن قتادة : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[٥]، مثل : ﴿ قٓ . وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا ﴾[٦] .

وقال صاحب النظم فى هذا القول : معنى « بل » توكيد الأمر بعده ؛ فصار مثل أنّ الشديدة تُثبت ما بعدها ، وإن كان لها معنًى آخر فى نفى خبر متقدم ؛ كأنه قال: إن الذين كفروا فى عزة وشقاق .

وقال أبو القاسم الزجّاجى : إن النحويين قالوا : إن « بل » تقع فى جواب القسم كما تقع « إنّ » لأن المراد بها توكيد الخبر ؛ وذلك فى ﴿ صٓ القرآن . . . ﴾ الآية . وفى ﴿ قٓ . والقرآن . . . ﴾ الآية ؛ وهذا من طريق الاعتبار ، ويصلح أن يكون بمعنى « إنّ » لأنه سائغ فى كلامهم ؛ أو يكون « بل » جواباً للقسم ؛ لكن لما كانت متضمّنة رفع خبر وإتيان خبر بعده كانت أوكد من سائر التوكيدات ، فحسُن وضعها موضع « إن » .

---

(١) سورة ص ١
(٢) سورة ص ٦٤
(٣) سورة ص ٣
(٤) سورة ص ١٤
(٥) سورة ص ٢
(٦) سورة ق ١ ، ٢

وقيل : الجواب محذوف ، أى والقرآن المجيد ، ما الأمرُ كما يقول هؤلاء . أو الحق ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾(١) جوابه محذوف ؛ أى فيومئذ يلاقى حسابه .

وعن قتادة أن جوابه : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(١) يعنى أن الواو فيها بمعنى السقوط، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ ﴾(٢) ، أى ناديناه .

حذف الجملة

هى أقسام : قسم هى مسببة عن المذكور ، وقسم هى سبب له ، وقسم خارج عنها ؛ فالأول : كقوله تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾(٣) فإن اللام الداخلة على الفعل لابدّ لها من متعلّق ، يكون سبباً عن مدخول اللام ، فلما لم يوجَد لها متعلّق فى الظاهر وجب تقديره ضرورة ، فيقدّر : فَعلَ ما فعل ليُحِق الحق .

والثانى : كقوله تعالى : ﴿ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾(٤) ؛ فإن الفاء ، إنما تدخل على شىء مسبّب عن شىء ، ولا مسبّب إلا له سبب ، فإذا وُجد المسبب – ولا سبب له ظاهراً – أوجب أن يقدّر ضرورة ، فيقدر : فضرب به فانفجر .

والثالث : كقوله تعالى: ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾(٥) ، أى نحن هم ، أوهم نحن .

وقد يكون المحذوف أكثر من جملة كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ ...﴾(٦) الآية، فإن التقدير : « فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا ، فأرسلوه إليه لذلك ، فجاء فقال له:

---

(١) سورة الانشقاق ١ ، ٢

(٢) سورة الصافات ١٠٣ ، ١٠٤

(٣) سورة الأنفال ٨

(٤) سورة البقرة ٦٠

(٥) سورة الذاريات ٤٨

(٦) سورة يوسف ٤٥ ، ٤٦

يا يوسف » ، وإنما قلنا : إنّ هذا الكل محذوف ؛ لأن قوله : ﴿ أَرْسِلُونِ ﴾ يدل لامحالة على المرسل إليه ، فثبت أن « إلى يوسف » محذوف . ثم إنه لما طُلِب الإرسال إلى يوسف عند العجز الحاصل للمعبّرين عن تعبير رؤيا الملك دلّ ذلك على أن المقصود من طلب الإرسال إليه استعباره الرؤيا التى عجزوا عن تعبيرها ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ . . . ﴾(١) الآية ، فأعقب بقوله حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾، تقديره : فأخذ الكتاب فألقاه إليهم ، فرأته بلقيس ، وقرأته، و﴿ قَالَتْ يَٰأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ ﴾(١) .

وقوله: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾(٢)، حذف يطول، تقديره : فلما ولد يحيى ونشأ وترعرع قلنا : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾(٢) .

ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم موسى : ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ . قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾(٣)

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾(٤) إلى قوله ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾(٥) أى كمن قسا قلبه تُرِكَ على ظلمه وكفره ؛ ودلّ على المحذوف قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾(٥) .

. ومن حذف الجملة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾(٦) قيل : المعنى جاعلٌ فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا ؛ وإلا فمن أين علم الملائكة أنهم يفسدون ! وباقى الكلام يدلّ على المحذوف .

وقوله : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾(٧) ، قال

---

(١) سورة النمل ٢٨ ، ٢٩
(٢) سورة مريم ١٢
(٣) سورة طه ٩١ ــ ٩٣
(٤) سورة النمل ٤٠ ، ٤١
(٥) سورة الزمر ٢٢
(٦) سورة البقرة ٣٠
(٧) سورة الحجرات ١٢

الفارسي : المعنى فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ ، عطف على قوله : « فاكرهوا » وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾(١)،أي فضرب فانفجرت . فقوله : ﴿ كرهتموه ﴾ كلام مستأنف، وإنما دخلت الفاء لما في الكلام من معنى الجواب ؛ لأن قوله : ﴿ أيحبّ أحدكم ﴾ كأنهم قالوا في جوابه : لا ، فقال : فكرهتموه ؛ أي فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة .

قال ابن الشجريّ : وهذا التقدير بعيد ؛ لأنه قدر المحذوف موصولًا ، وهو« ما » المصدرية ، وحذف الموصول ، وإبقاء صلته ضعيف ؛ وإنما التقدير : فهذا كرهتموه؛ والجملة المقدرة المحذوفة ابتدائية لاأمرية ، والمعنى: فهذا كرهتموه، والغيبة مثله؛ وإنما قدرها أمرية ليعطف عليها الجملة الأمرية في قوله : ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ .

حذف القول

قد كثُر في القرآن العظيم حتى إنه في الإضمار بمنزلة الإظهار، كقوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾(٢) ، أي يقولون : ما نعبدهم إلا للقربة .

ومنه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا ﴾(٣)،أي وقلنا كلوا، أوقائلين .

وقوله : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾(٤) ، أي قلنا .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ﴾(٥) ، أي وقلنا : خذوا.

---

(١) سورة البقرة ٦٠

(٢) سورة الزمر ٣

(٣) سورة طه ٨٠ ، ٨١

(٤) سورة البقرة ٦٠

(٥) سورة البقرة ٦٣

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(١) ، أى وقلنا : اتخذوا .

وقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ﴾(٢) ، أى يقولان : ربنا . وعليه قراءة عبد الله .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ ﴾(٣) ؛ أى فيقال لهم ، لأنّ « أمّا » لابدّ لها فى الخبر من فاء ، فلما أضمر القول أضمر الفاء .

وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾(٤) ، يقال لهم هذا .

وقوله :﴿ وَٱلْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾(٥) ، أى يقولون سلامٌ .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾(٦) ، أى يقولون لهم ذلك .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾(٧)،أى يقولون مانعبدهم.

وقوله : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾(٨) ؛ أى يقولون إنّا لمغرمون : أى معذّبون ، وتفكّهون : تندّمون .

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾(٩) أى يقولون ربنا .

---

(١) سورة البقرة ١٢٥
(٢) سورة البقرة ١٢٧
(٣) سورة آل عمران ١٠٦
(٤) سورة ص ٥٢ ، ٥٣
(٥) سورة الرعد ٢٣ ، ٢٤
(٦) سورة الأنبياء ١٠٣
(٧) سورة الزمر ٣
(٨) سورة الواقعة ٦٥ ، ٦٦
(٩) سورة السجدة ١٢

وقوله : ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ ﴾[١] ، أى قالوا : قال الحق .

حذف الفعل

وينقسم إلى عام وخاص :

[الخاص]

فالخاص نحو « أعنى » مضمراً ، وينتصب المفعول به فى المدح ؛ نحو ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[٣] ، أى أمدح .

واعلم أنه إذا كان المنعوت متعيِّناً لم يجز تقدير ناصب نعته بأعنى ؛ نحو الحمد لله الحميد؛ بل المقدّر فيه، وفى نحوه أذكر أو أمدح، فاعرف ذلك. والذم نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾[٤] ، فى قراءة النصب ، والأخفش ينصب فى المدح بأمدح ، وفى الذم بأذمّ .

واعلم أنّ مراد المادح إبانة الممدوح من غيره ، فلابدّ من إبانة إعرابه عن غيره ، ليدلّ اللفظ على المعنى المقصود ، ويجوز فيه النصب بتقدير أمدح ، والرفع على معنى «هو» ؛ ولا يظهران لئلا يصيرا بمنزلة الخبر .

والذى لا مدحَ فيه فاختزال العامل فيه واجبٌ ، كاختزاله فى « والله لأفعلن » ؛ إذ لو قيل : « أحلف بالله » لكان عِدَةً لا قسما .

---

(١) سورة سبأ ٢٣ — (٢) سورة البقرة ١٧٧

(٣) سورة النساء ١٦٢ — (٤) سورة اللهب ٤

[العام]

والعامّ كلُّ منصوب دلّ عليه الفعلُ لفظاً ، أو معنى، أو تقديرا . ويحذف لأسباب:

* * *

أحدها : أن يكون مفسَّراً ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾(١) ، ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(٢) .

ومنه : ﴿ أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ ﴾(٣) . ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾(٤) . ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾(٥) . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾(٦) . ﴿ إِنْ طَائِفَتَانِ ﴾(٧) فإنه ارتفع بـ « اقتتل » مقدّرا .

قالوا : ولا يجوز حذف الفعل مع شيء من حروف الشرط العاملة ، سوى « إنْ » لأنها الأصل .

وجعل ابن الزّملكانى هذا مما هو دائر بين الحذف والذكر ؛ فإن الفعل المفسّر كالمتسلط على المذكور ؛ ولكن لا يتعين إلا بعد تقدم إبهام ولقد يزيده الإضمار إبهاماً ، إذا لم يكن المضمر من جنس الملفوظ به ؛ نحو: ﴿ والظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾(٨) .

* * *

الثانى : أن يكون هناك حرف جرّ : نحو ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾(٩) فإنه يفيد

---

(١) سورة الانشقاق ١
(٢) سورة البقرة ٤٠
(٣) سورة القمر ٢٤
(٤) سورة الرحمن ٧
(٥) سورة التكوير ١
(٦) سورة التوبة ٦
(٧) سورة الحجرات ٩
(٨) سورة الدهر ٣١
(٩) سورة الفاتحة ١

أن المراد : بسم الله أقرأ أو أقوم ، أو أقعد عند القراءة ، وعند الشروع فى القيام أو القعود، أىّ فعل كان .

واعلم أنّ النحاة اتفقوا على أنّ « بسم الله » بعض جملة ، واختلفوا .

فقال البصريون : الجملة اسمية ؛ أى ابتدائى بسم الله .

وقال الكوفيون : الجملة فعلية ، وتابعهم الزمخشرىّ فى تقدير الجملة فعلية ؛ ولكن خالفهم فى موضعين : أحدُهما أنّهم يُقَدِّرون الفعل مقدّما ، وهو يقدره مؤخراً . والثانى : أنّهم يقدرونه فعل البداية ، وهو يقدّره فى كلّ موضع بحسبه ، فإذا قال الذابح : بسم الله، كان التقدير : بسم الله أذبح ، وإذا قال القارئُ : بسم الله ، فالتقدير : بسم الله أقرأ .

وما قال أجود مما قالوا[١] ؛ لأن مراعاة المناسبة أوْلى من إهمالها ، ولأنّ اسم الله أهمّ من الفعل ، فكان أوْلى بالتقديم ؛ ومما يدلّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « باسمك ربّى وضعتُ جنبى » ، فقدم اسم الله على الفعل المتعلق ثم الجار ، وهو « وضعت » .

* * *

الثالث : أن يكون جوابا لسؤال وقع ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾[٤] أى بل نتبع

---

(١) كذا فى م ، وفى ت : « مما قالوه » .
(٢) سورة لقمان ٢٥
(٣) سورة العنكبوت ٦٣
(٤) سورة البقرة ١٣٥

أو جواباً لسؤال مقدّر ؛ كقراءة : ﴿ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ ﴾(١) ببناء الفعل للمفعول ؛ فإنّ التقدير : يُسبِّحه رجال .

وفيه فوائد : منها الإخبار بالفعل مرّتين . ومنها جعل الفضلة عمدة .

ومنها : أنّ الفاعل فُسّر بعد اليأس منه كضالّة وجدها بعد اليأس ، ويصحّ أن يكون « يُسَبَّح » بدل من « يُذْكَر »(٢) على طريقة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾(٣) و « له فيها » خبر مبتدأ هو « رجال » .

مثله قراءة من قرأ : ﴿ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾(٤) ، قال أبو العباس : المعنى زَيَّنه شركاؤهم ؛ فيرفع الشركاء بفعل مضمر دلّ عليه « زُيِّن » .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾(٥) إن جعلنا قوله « لله شركاء » مفعولى « جعلوا » ، لأن « لله » فى موضع الخبر المنسوخ ، وشركاء نصب فى موضع المبتدأ .

وعلى هذا فيحتمل وجهين: أحدهما أن يكون مفعولا بفعل محذوف دل عليه سؤال مقدّر ، كأنه قيل: أجعلوا لله شركاء ؟ قيل: جعلوا الجنّ ، فيفيد الكلام إنكار الشريك مطلقاً ، فدخل اعتقاد الشريك من غير الجن فى إنكار دخول اتّخاذه من الجن .

والثانى : ذكره الزمخشرىّ أنّ الجنّ بدل من « شركاء » ، فيفيد إنكار الشريك مطلقاً ، كما سبق ، وإن جعل « لله » صلة كان « شركاء الجن » مفعولين ، قدم ثانيهما على أولهما ؛ وعلى هذا فلا حذف .

فأما على الوجه الأول فقيل : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾(٥) ، ولم يقل : « وجعلوا

---

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧

(٢) من قوله تعالى قبلها فى الآية : ﴿ وَيُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ ... ﴾ .

(٣) سورة الأعلى ١

(٤) سورة الأنعام ١٣٧

(٥) سورة الأنعام ١٠٠

الجنّ شركاء لله » تعظيماً لاسم الله تعالى ؛ لأنّ شأن الله أعظمُ فى النفوس ؛ فإذا قدم «لله» والـكلام فيه يستدعى طلب المجعول له ما هو ؟ فقيل : شركاء وقع فى غاية التشنيع ؛ لأنّ النفس منتظرة لهذا المهمّ المعلّق بهذا المعظم نهاية التعظيم ؛ فإذا عُلِم أنه عُلّق به هذا المستبشع فى النهاية ، كان أعظم موقعاً من العكس ؛ لأنّه إذا قيل : وجعلوا شركاء لم يعطه تشوفَ النفوس ؛ لجواز أن يكون : جعلوا شركاء فى أموالهم وصدقاتهم أو غير ذلك .

الثالث : أنّ الجعل غالبا لا يتعلق بالله ويُخْبَرُ به إلا وهو جعل مستقبَح كاذب ؛ إذ لا يستعمل جعل الله رحمة ومشيئة وعلما ؛ ونحوه ، لاسيّما بالاستقراء القرآنى ؛ كـ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾[1] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[2] إلى غير ذلك .

الرابع : أن أصلَ الجعل وإن جاز وإسناده إلى الله فيما إذا كان الأمر لائقا ، فإن بابه مهول ؛ لأن الله تعالى قد علّمنا عظيم خطره ، وألّا نقول فيه إلا بالعلم ، كقوله : ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] ، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[4] ، إلى غير ذلك ، مع مادلّ عليه الأدب عقلا ، وكان نفس الجعل مستنكَرا إن لم يتبع بمجعول لائق ، فإذا أتبع بمجعول غير لائق منهم ثم فسّر بخاص مستنكر ، صار قوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ فى قوة إنكار ذلك ثلاث مرات : الأوّل جسارتهم فى أصل الجعل ، الثانى فى كون المجعول شركاء ، الثالث فى أنهم شركاء جنّ .

الخامس : أن فى تقديم « لله » إفادة تخصيصهم إياه بالشركة على الوجه الثالث ، دون جميع ما يعبدون ، لأنه الإله الحق .

السادس : أنه جيء بكلمة « جعلوا » لا « اعتقدوا » ولا « قالوا » لأنه أدلّ على إثبات المعتقَد ، لأنه يستعمل فى الخلق والإبداع .

---

(١) سورة النحل ٥٧
(٢) سورة النحل ٦٢
(٣) سورة البقرة ١٦٩
(٤) سورة النجم ٢٨

السابع : كلمة « شركاء » ولم يقل « شريكا » وفاقا لمزيد ما فتحوا من اعتقادهم .

الثامن : لم يقل « جنّا » ، وإنما قال « الجن » ، دلالة على أنهم اتخذوا الجن كلها جعلوه من حيث هو صالح لذلك؛ وهو أقبح من التنكير الذى وضعه للمفردات المعدولة.

* * *

الرابع : أن يدلّ عليه معنى الفعل الظاهر ؛ كقوله تعالى : ﴿انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾(١) ، أى وائتوا أمراً خيرا لكم ؛ فعند سيبويه أن « خيرا »(٢) انتصب بإضمار « ائت » لأنه لما نهاه علم أنه يأمره بما هو خير ؛ فكأنه قال : « وائتوا خيرا » ؛ لأنّ النهىَ عن الشىء أمرٌ بضدّه ؛ ولأنّ النهىَ تكليف، وتكليف العدم محال؛ لأنه ليس مقدورا، فثبت أنّ متعلّق التكليف أمر وجودىّ ، ينافى المنهىّ عنه وهو الضدّ .

وحمله الكسائىّ على إضمار « كان » أى يكن الانتهاء خيراً لكم . ويمنعه إضمار كان ، ولا تضمر فى كل موضع ، ومن جهة المعنى إذْ مَنْ ترك ما نهى عنه فقد سقط عنه اللوم وعلم أن تركَ المنهىّ عنه خير من فعله ، فلا فائدة فى قوله « خيرا » .

وحمله الفراء على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى انتهوا انتهاء خيرا لكم . وقال : إنّ هذا الحذف لم يأت إلا فيما كان أفعل ، نحو خير لك ، وأفعل .

ورد مذهبه ومذهب الكسائىّ بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ﴾(٣)، لو حُمِلَ على ماقالا لا يكون خيراً، لأن من انتهى عن التثليث وكان معطّلا لا يكون خيراً له . وقول سيبويه : وائت خيراً يكون أمراً بالتوحيد الذى هو خير . فلله در الخليل وسيبويه ، ما أطلعهما على المعانى !

---

(١) سورة النساء ١٧١

(٢) الكتاب ١ : ١٤٣

(٣) سورة النساء ١٧١

وقوله : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[1] ، إن لم يجعل مفعولًا معه ، أي وادْعوا شركاءكم ، وبإظهار « ادعوا » قرأ أ. ّ ، وكذلك هو مثبت في مصحف ابن مسعود .

وقوله تعالى : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[2] ، قال ابن الشجرى : معناه مال عليهم يضربهم ضربًا . ويجوز نصبه على الحال ؛ نحو أتيته مشيًا ، أي ماشيًا . ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾[3] أي ساعيات . وقوله : « باليمين » إمّا اليد أو القوة. وجوّز ابن الشجرى إرادة القسم والباء للتعليل ؛ أي لليمين التي حلفها ، وهي قوله تعالى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[4] .

وزعم النوويّ في قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾[5] ، أن التقدير ليكن منكم طاعة معروفة .

* * *

الخامس : أن يدلّ عليه العقل كقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾[6] ، أي فضرب فانفجرت .

وقوله : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا﴾[7] ، قال النحاس : التقدير فنصرناه ففتحنا أبواب السماء ؛ لأن ما ظهر من الكلام يدلّ على ما حذف .

وقوله : ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[8] أي يكتب بذلك كلمات الله مانفدت، قاله أبو الفتح .

وقوله : ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[9] .

فقوله : « ثم أحياهم » معطوف على فعل محذوف تقديره فماتوا ثم أحياهم ،ولا يصح

---

(١) سورة يونس ٧١
(٢) سورة الصافات ٩٣
(٣) سورة البقرة ٢٦٠
(٤) سورة الأنبياء ٥٧
(٥) سورة النور ٥٣
(٦) سورة البقرة ٦٠
(٧) سورة القمر ١٠ ، ١١
(٨) سورة لقمان ٢٧
(٩) سورة البقرة ٢٤٣

عطف قوله : « ثم أحياهم » على قوله : موتوا » لأنه أمر ، وفعل الأمر لا يعطف على الماضى .

وقوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ ﴾(١) ، أى فاختلفوا فبعث ، وحذف لدلالة قوله : ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(١) ، وهى فى قراءة عبد الله كذلك(٢) .

وقيل : تقديره كان الناس أمة واحدة كفاراً ، فبعث الله النبيين ، فاختلفوا . والأول أوجه .

وقوله : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾(٣) ، فالهمزة للإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف تقديره : أكذبتم وعجبتم أن جاءكم .

وقوله : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾(٤) ، هو معطوف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب ؛ كأنه قال إيجاباً لقولهم : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً ﴾(٥) ، نعم إن لكم أجراً وإنكم لمن المقربين .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾(٦) ، أى فأفطر فعدة ، خلافا للظاهرية حيث أوجبوا الفِطْر على المسافر أخذاً من الظاهر .

وقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ ﴾(٧) ، أى فحلق ففدية .

وقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾(٨) ، قال الزمخشرى : التقدير فضربوه فحيى ،

(١) سورة البقرة ٢١٣
(٢) أى « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله » وانظر الكشاف ٢ : ١٩٤
(٣) سورة الأعراف ٦٣ — (٤) سورة الأعراف ١١٤
(٥) سورة الأعراف ١١٣ — (٦) سورة البقرة ١٨٤
(٧) سورة البقرة ١٩٦ — (٨) سورة البقرة ٧٣

فحذف ذلك لدلالة قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾[١] .

وزعم ابن جنى أن التقدير فى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[٢] أن التقدير فكيف يكون إذا جئنا .

***

السادس : أن يدلّ عليه ذكره فى موضع آخر ، كقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾[٣] ، قال الواحدىّ : هو بإضمار « اذكر » ، ولهذا لم يأت لإذ بجواب . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[٤] ، وليس شىء قبله تراه ناصبا لـ « صالحا » ، بل عُلم بذكر النبى والمرسل إليه أن فيه إضمار « أرسلنا » .

وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾[٥] أى وسخرنا .

ومثله : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾[٦] ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾[٧] .

وكذا : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾[٨] ، أى واذكر .

قال : ويدل على « اذكر » فى هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾[٩] ، ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾[١٠] .

وما قاله ظاهر ، إلا أنّ مفعول « اذكر » يكون محذوفا أيضاً تقديره : ﴿ واذكروا أحالكم » ونحوه إذا كان كذا ، وذلك ليكون « إذ » فى موضع نصب على الظرف ، ولو لم يقدر ذلك المحذوف لزم وقوع « إذ » مفعولا به ؛ والأصح أنها لا تفارق الظرفية .

***

(١) سورة البقرة ٧٣

(٢) سورة النساء ٤١

(٣) سورة البقرة ٧٢

(٤) سورة هود ٦١

(٥) سورة الأنبياء ٨١

(٦) سورة الأنبياء ٧٦

(٧) سورة الأنبياء ٨٧

(٨) سورة الأنبياء ٧٨

(٩) سورة الأنفال ٢٦

(١٠) سورة الأعراف ٨٦

السابع : المشاكلة ، كحذف الفاعل فى « بسم الله » لأنه موطن لا ينبغى أن يتقدم فيه سوى ذكر الله ؛ فلو ذكر الفعل وهو لا يستغنى عن فاعله كان ذلك مناقضاً للمقصود، وكان فى حذفة مشاكلة اللفظ للمعنى ؛ ليكون المبدوء به اسم الله كما تقول فى الصلاة : الله أكبر ، ومعناه « من كل شىء » ، ولكن لا تقول هذا المقدّر ليكون اللفظ فى اللسان مطابقا لمقصود الجنان ؛ وهو أن يكون فى القلب ذكر الله وحده . وأيضاً فلأنّ الحذف أعمّ من الذكر ؛ فإنّ أىّ فعل ذكرته كان المحذوف أعمّ منه ؛ لأن التسمية تشرع عند كل فعل .

الثامن : أن يكون بدلا من مصدره ؛ كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[1]،وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[2] ؛ أى فإما أن تمنّوا ، وإما أن تفادوا .

وقد اختلف فى نصب « السلام » فى قوله تعالى فى سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾[3] وفى الداريات : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾[4] ؛ وفى نصبها وجهان :

أحدها : أن يكون منصوباً بالقول ، أى يذكرون قولا « سلاما » فيكون من قلت حقا وصدقا .

الثانى : أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره : فقالوا سلّمنا سلاما ، أى سلمنا تسليما ؛ فيكون قد حكى الجملة بعد القول ، ثم حذفها واكتفى ببعضها .

والحاصل أنه هل هو منصوب بالقول ، أو بكونه مصدرا لفعل محذوف ؟ .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾[5] ،

---

(١) سورة القتال ٤
(٢) سورة القتال ٤
(٣) سورة هود ٦٩
(٤) سورة الداريات ٢٤ ، ٢٥
(٥) سورة النحل ٣٠

منصوب ، « بقالوا » كقولك فقلت حقا ، أو منصوب بفعل مضمر أى قالوا: أنزل خيراً، من باب حذف الجملة المحكيّة وتبقية بعضها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾(١) فمرفوع ؛ لأنه لا يمكن نصبُه على تقدير « قالوا أساطير الأولين » ، لأنهم لم يكونوا يرونه من عند الله حتى يقولوا ذلك ، ولا هو أيضاً من باب : قلت حقا وصدقا، فلم يبق إلا رفعه.

تنبيه

قد يشتبه الحال فى أمر المحذوف وعدمه لعدم تحصيل معنى الفعل ، كما قالوا فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٢) ، فإنّه قد يظن أن الدعاء فيه بمعنى النّداء ؛ فلا يقدّر فى الكلام حذف ، وليس كذلك ، وإلّا لزم الاشتراك إن كانا متفاوتين ، أو عَطْفُ الشيء على نفسه ؛ وإنما الدعاء هنا بمعنى التسمية التى تتعدى لمفعولين ، أى سمّوه الله أو الرحمن .

وقد يشتبه فى تعيين المحذوف لقيام قرينتين ، كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ ﴾(٣) قدرّه سيبويه بـ « بلَى نجمعها قادرين » ، فقادرين حال وحذف الفعل لدلالة : ﴿ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ ﴾(٤) عليه(٥) .

وقدّره الفرّاء « نحسب » لدلالة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ ﴾(٤) أى بلى نحسبنا قادرين .

---

(١) سورة النحل ٢٤
(٢) سورة الإسراء ١١٠
(٣) سورة القيامة ٤
(٤) سورة القيامة ٣
(٥) الكتاب ١ : ١٧٣

وتقدير سيبويه أولى؛ لأنّ «بلى» ليس جوابًا لـ «يحسب» إنما هو جوابٌ لـ «أن لن نجمع» وقدره بعضهم: بلى نقدر قادرين .

وقيل : منصوب ، لوقوعه موقع الفعل ، وهو باطل؛ لأنه ليس من نواصب الاسم وقوعُه موقع الفعل .

تنبيه آخر

إنّ الحذف على ضربين : أحدها ألّا يقام شيء مقام المحذوف كما سبق. والثانى: أن يقام مقامه ما يدل عليه ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾[1] ؛ ليس الإبلاغ هو الجواب لتقدّمه على قولهم ؛ فالتقدير : فإنْ تولّوا فلا ملامَ علىّ ، لأنى قد أبلغتكم .

وقوله : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[2] فلا تحزن واصبر.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[3]، أى يصيبهم ما أصاب الأولين.

حذف الحرف

قال أبو الفتح فى « المحتسب » : أخبرنا أبو علىّ قال : قال أبو بكر بن السرّاج : حذف الحرف ليس بقياس ، وذلك لأن الحرف نائب عن الفعل بفاعله ، ألا تراك إذا قلت: ماقام زيد ، فقد نابت «ما» عن «أنفى» كما نابت «إلا» عن «أستثنى»، وكما نابت الهمزة وهل عن «أستفهم» ، وكما نابت حروف العطف عن «أعطف» ، ونحو ذلك . فلو ذهبتَ

(١) سورة هود ٥٧
(٢) سورة فاطر ٤
(٣) سورة الأنفال ٣٨

تحذف الحرف ؛ لكان ذلك اختصاراً ، واختصارُ المختصرِ إجحاف به ؛ إلا إذا صحّ التوجّه إليه ، وقد جاز فى بعض الأحوال حذفه لقوة الدلالة عليه . انتهى .

فمنه الواو ، تحذف لقصد البلاغة ؛ فإنّ فى إثباتها مايقتضى تغايرُ المتعاطفين فإذا حذفت أشعر بأن الكلّ كالواحد : كقوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قد بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[1] ؛ تقديره : ولا يألونكم خبالا .

وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾[2] ، أى ووجوه :

وخرّج عليه الفارسىّ قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا . . . ﴾[3] الآية . وقال : تقديره : « وقلت لا أجد » فهو معطوف على قوله : « أتوك » لأن جواب « إذا » قوله : ﴿ تولوا ﴾ .

ومنعه ابن الشجرىّ فى أماليه ؛ وعلى هذا فلا موضع له من الإعراب ،لأنه معطوف على الصلة ؛ والصلة لا موضع لها من الإعراب ، فكذلك ماعطف عليها .

وقال الزمخشرى : هى حال من الكاف فى « أتوك » ، « وقد » قبله مضمرة كما فى قوله: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾[4] ، أىْ إذا ماأتوك قائلا: لاأجدُ تولوا[5] . وعلى هذا فله موضعٌ من الإعراب لأنه حال .

قال السهيلىّ فى أماليه : ليس معنى الآية كما قالوا ؛ لأنّ رفع الحرج عن القوم ليس مشروطاً بالبكاء عند التولّى ؛ وإنما شرطه عدم الجِدَة ، ونزلت فى السبعة الذين سمى أبو إسحاق ؛ ولو كان جواب «إذا أتوك» فى قوله:﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾[6] لكان مَنْ لم تَفِضْ عيناه من الدمع هو الذى حَرِج وأثِم ؛وما رفع الله الحرج عنهم إلا لأن الرسول

---

(١) سورة آل عمران ١١٨
(٢) سورة الغاشية ٨
(٣) سورة التوبة ٩٢
(٤) سورة النساء ٩٠
(٥) الكشاف ٢ : ٢٣٦
(٦) سوره التوبة ٩٢

لم يجد مايحملهم عليه . وإذا عطفت « قلت لا أجد » على « أتوك » كان الحرج غيرَ مرفوع عنهم حتى يقال : ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾(١) ، فجواب « إذا » فى قوله « لا أجد »، ومابعد ذلك خبر ونَبَأ على هؤلاء السبعة الذين كانوا سبب نزول هذه الآية ، ففضيلة البكاء مخصوصة بهم ، ورفع الحرج بشرط عدم الجِدَة عامٌّ فيهم وفى غيرهم .

وقال الواحدىّ فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾(٢) : آية البقرة فى مصاحف الشام بغير واو - يعنى قراءة ابن عامر - لأن هذه الآية ملابسة لما قبلها من قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾(٣) لأن القائلين : «اتخذ الله ولداً» من جملة المتقدم ذكرهم ، فيستغنى عن ذكر الواو لالتباس الجملة بما قبلها ، كما استغنى عنها فى نحو قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٤)، ولو كان «وهم» كان حسنا ؛ إلا أنّ التباسَ إحدى الجملتين بالأخرى وارتباطها بها أغنى عن الواو .

ومثله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ ﴾(٥) ولم يقل : « ورابعهم » كما قال : ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾(٥) ولو حذف الواو منها كما حذف من التى قبلها واستغنى عن الواو بالملابسة التى بينهما كان حسنا . ويمكن أن يكون حذف الواو لاستئناف الجملة ، ولا يعطف على ما تقدم . انتهى .

وحصل من كلامه أنه عند حذف الواو يجوز أن يُلاحظ معنى العطف ، ويكتفى للربط بينها وبين ما قبلها بالملابسة كما ذكر . ويجوز ألّا يلاحظ ذلك ؛ فتكون الجملة مستأنفة .

قال ابن عمرون : وحذف الواو فى الجمل أسهلُ منه فى المفرد ، وقد كثُر حذفها فى الجمل

---

(١) سورة التوبة ٩٢
(٢) سورة البقرة ١١٦
(٣) سورة البقرة ١١٤
(٤) سورة البقرة ٣٩
(٥) سورة الكهف ٢٢

فى الـكلام المحمول بعضه على بعض، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وما رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وربُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[1] كلّه محمول بعضه على بعض،والواو مزيدة ، حذفت لاستقلال الجمل بأنفسها بخلاف المفرد ؛ ولأنه فى المفرد ربّما أوقع لبساً فى نحو « رأيت زيداً ورجلا عاقلا » ؛ ولو[2] جاز حذف الواو احتمل أن يكون«رجلا» بدلا بخلاف الجملة .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾[3] ، أى : وقال .

ومنه الفاء فى جواب الشرط على رأى ، وخُرِّج عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ﴾[4] أى فالوصية .

والفاء فى العطف كقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[5]، تقديره « فقال أعوذ بالله » ، ذكره ابن الشجرى فى أماليه .

وقوله تعالى : ﴿ وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾[6] حذف حرف العطف من قوله : ﴿ قال ﴾ ولم يقل : « فقـــال » كما فى قصة[7] نوح ؛ لأنه على تقدير سؤال سائل قال : ما قال لهم هود ؟ فقيل : قال ياقوم اعبدوا الله واتقوه .

---

(١) سورة الشعراء ٢٣ ــ ٢٨
(٢) ت : « فلو » .
(٣) سورة القصص ٧٩
(٤) سورة البقرة ١٨٠
(٥) سورة البقرة ٦٧
(٦) سورة الأعراف ٦٥
(٧) من قوله تعالى فى الأعراف ٥٩ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ... ﴾ .

ومنه حذف همزة الاستفهام ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾(١) ، أى أهذا ربى ؟

وقوله : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾(٢) أى أفمن نفسك(٣) !

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾(٤) أى أوَ تلك نعمة !

وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾(٥) على قراءة ابن كثير بكسر الهمزة، على خلاف فى ذلك جميعه .

ومنه حذف ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر للفرق بين الاستفهامية والخبرية كقوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ﴾(٦) ، ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾(٧) ، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾(٨) ، و ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾(٩) .

ومنه حذف الياء فى ﴿ وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾(١٠) للتخفيف ورعاية الفاصلة .

ومنه حذف حرف النداء ، كقوله : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ ﴾(١١) ، أى يا هؤلاء .

وقوله : ﴿ يُوسُفُ ﴾(١٢) ، أى يا يوسف .

وقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ ﴾(١٣) ، أى يا رب .

ويكثر فى المضاف نحو : ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ﴾(١٤) . ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾(١٥)

وكثر ذلك فى نداء الرّب سبحانه ؛ وحكمة ذلك دلالته على التعظيم والتنزيه ؛ لأن النداء يتشرّب معنى الأمر ؛ لأنك إذا قلت : يا زيد ، فمعناه أدعوك يازيد ، فحذفت «يا» من نداء الرب ؛ ليزول معنى الأمر ، ويتمحّض التعظيم والإجلال .

---

(١) سورة الأنعام ٧٦
(٢) سورة النساء ٧٩
(٣) ذكره أبو حيان فى البحر ٣ : ٣٠١ ، والقرطبى ٥ : ٢٨٥
(٤) سورة الشعراء ٢٢
(٥) سورة يوسف ٩٠
(٦) سورة البقرة ٩١
(٧) سورة النازعات ٤٣
(٨) سورة النبأ ١
(٩) سورة الطارق ٥
(١٠) سورة الفجر ٤
(١١) سورة آل عمران ٦٦
(١٢) سورة يوسف ٢٩
(١٣) سورة مريم ٤
(١٤) سورة يوسف ١٠١
(١٥) سورة المائدة ١١٤

وقال الصفار: يجوز حذف حرف النداء من المنادى، إلّا إذا كان المنادى نكرة مقبلا عليها؛ إذ لا دليل عليه؛ وإلا إذا كان اسم إشارة.

ومنه حذف « لو » فى قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(١)، تقديره: لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(٢)، معناه لو كان كذلك لارتاب المبطلون.

ومنه حذف « قد » فى قوله تعالى: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾(٣)، أى وقد اتبعك؛ لأن الماضى لا يقع موقع الحال إلا و « قد » معه ظاهرة أو مقدرة.

ومثلها: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا ﴾(٤) أى وقد كنتم.

وقوله: ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾(٥) قيل معناه « قد حصرت » بدلالة قراءة يعقوب. « حَصِرَةً صدورهم ». وقال الأخفش: الحال محذوفة، و « حصرت صدورهم » صفتها؛ أى جاءوكم يوماً حصرت؛ دعاء عليهم بأن تُحْصَرَ صدورُهم عن قتالهم لقومهم طريقته قاتلهم الله. وردّه أبو علىّ بقوله أى قاتلوا قومهم فلا يجوز أن يدعى عليهم بأن تحصر صدورهم عن قتالهم لقومهم؛ لكن بقول: اللهم ألق بأسهم بينهم.

ومنه حذف « أن » فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾(٦)، المعنى أن يريكم.

---

(١) سورة المؤمنون ٩١
(٢) سورة العنكبوت ٤٨
(٣) سورة الشعراء ١١١
(٤) سورة البقرة ٢٨
(٥) سورة النساء ٩٠
(٦) سورة الروم ٢٤

وحذف « لا » فى قوله : ﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ ﴾[1]، أى لا تفتأ ، لأنهاملازمةللنفى ومعناها لا تبرح .

قوله : ﴿ وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[2] ، أى لاتميد .

وقوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾[3] ، أى لاتبوء .

وبهذا يزول الإشكالُ من الآية : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾[4] أى لا يطيقونه ، على قول .

فائدة

[فى حذف الجار ثم إيصال الفعل إلى المجرور]

كثر فى القرآن حذفُ الجار ، ثم إيصال الفعل إلى المجرور به ، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ ﴾[5] ، أى من قومه .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[6] .

﴿ لَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ ﴾[7] ، أى على عقدة .

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾[8] ، أى يخوفكم بأوليائه، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾[8] .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[9] ، أى يبغون لها .

---

(١) سورة يوسف ٨٥

(٢) سورة النحل ١٥

(٣) سورة المائدة ٢٩

(٤) سورة البقرة ١٨٤

(٥) سورة الأعراف ١٥٥

(٦) سورة البقرة ٢٥٣

(٧) سورة البقرة ٢٣٥

(٨) سورة آل عمران ١٧٥

(٩) سورة الأعراف ٤٥

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾[1] أى قدرنا له .

﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ﴾[2] أى على سيرتها .

* * *

فصل

[فيما حذف فى آية وأثبت فى أخرى]

من الأنواع ما حُذِف فى آية ، وأثبت فى أخرى ؛ وهو قسمان :

أحدهما : أن يكون ما حذف منه محمولا على المذكور ؛ كالمطلق فى الرقبة[3] فى كفارة الظهار ، مقيدا بالمؤمنة فى كفارة القتل[4] .

وكقوله : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[5] ، قيدت بالتشبيه فى موضع آخر[6] .

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾[7] وقوله فى سورة النحل : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[8] ، فإن هذه تقتضى أن الأولى على حذف مضاف .

* * *

(١) سورة يس ٣٩ (٣) سورة طه ٢١

(٢) وذلك قوله تعالى فى سورة المجادلة ٣ : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ .

(٤) وذلك قوله تعالى فى سورة النساء ٩٢ : ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

(٥) سورة آل عمران ١٣٣

(٦) وذلك قوله تعالى فى سورة الحديد ٢١ : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

(٧) سورة البقرة ٢١٠ (٨) النحل ٣٣

والقسم الثانى : لا يكون مرادا . فمنه قوله تعالى فى سورة المؤمنين : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(١) ، وفى الزخرف : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٢) .

وقوله فى البقرة : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣) وفى سورة الأعراف : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(٤) .

وحكمته أنه قد اختلف الخبران فى سورة البقرة ؛ فلذلك دخل العاطف، بخلاف الخبرين فى الأعراف ؛ فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم واحد ؛ فكانت الجملة الثالثة مقرِّرة ما فى الأولى فهى من العطف بمعزل .

ومنه قوله تعالى فى البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾(٥) وقال فى يس : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾(٦) مع العاطف، وحكمته أنّ مافى يس ومابعده جملة معطوفة على جملة أخرى ، فاحتاجت إلى العاطف . والجملة هنا ليست معطوفة ، فهى من العطف بمعزل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾(٧) فأثبت الواو فى الأعراف ، وحذفها فى الكهف ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ ﴾(٨) والفرق بينهما أن الذى فى الأعراف خطاب لجمع ، وأصله « تدعونهم » ، حذفت للجزم ، والتى فى الكهف خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو واحد ، وعلامة الجزم فيه سقوط الواو .

ومنه فى آل عمران : ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾(٩) وفى فاطر :

---

(١) سورة المؤمنون ١٩
(٢) سورة الزخرف ٧٣
(٣) سورة البقرة ٥
(٤) سورة الأعراف ١٧٩
(٥) سورة البقرة ٦
(٦) سورة يس ١٠
(٧) سورة الأعراف ١٩٣
(٨) سورة الكهف ٥٧
(٩) سورة آل عمران ١٨٤

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[1] والفرق أن الأولى حذفت الباء وفيها للاختصار استغناء بالتي قبلها ، وخرجت عن الأصل للتوكيد ، وتقدير المعنى كما تقول : مررت بك وبأخيك وبأبيك ؛ إذا اختصرت .

ومنه قوله في قصة ثمود : ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[2] ، وفي قصة شعيب : ﴿وَمَا أَنْتَ﴾[3] بالواو ، والفرق أن الأولى جرى على انقطاع الكلام عند النحويين ، واستئناف ﴿مَا أَنْتَ﴾ ، فاستغنى عن الواو لما تقرّر من الابتداء ، وفي الثانية جرى في العطف ، وأن يكون قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ معطوفا على ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾[4] .

ومنه قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[5] ، وفي سورة النمل ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾[6] ، بإثبات النون ، وحكمته أن القصة لما طالت في سورة النحل ناسب التخفيف بحذف النون ، بخلافه في سورة النمل ؛ فإنّ الواو استئنافية ، ولا تعلّق لها بما قبلها .

وقوله في البقرة : ﴿فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[7] ، وفي آل عمران : ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[8] ؛ وحكمته أنّ الخطاب في البقرة لليهود وهم أشدّ جدالا .

ومنه قوله في الأعراف : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[9] وفي الأنعام : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾[10] .

---

(١) سورة فاطر ٢٥ — (٢) سورة الشعراء ١٥٤

(٣) سورة الشعراء ١٨٦

(٤) في الآية التي قبل من سورة الشعراء ١٨٥ ، وهي : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ .

(٥) سورة النحل ١٢٧ — (٦) سورة النمل ٧٠

(٧) سورة البقرة ١٤٧ — (٨) سورة آل عمران ٦٠

(٩) سورة الأعراف ١٧٢ — (١٠) سورة الأنعام ١٣٠

ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾(١)، وفى سورة آل عمران : ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾(٢) . والحكمة فيه أن الجملة فى آل عمران خرجت مخرج الشرط ، وهو عام ، فناسب أن يكون النفى بصيغة التنكير ؛ حتى يكون عاما ، وفى سورة البقرة جاء عن أناس معهودين ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، فناسب أن يؤتى بالتعريف ، لأن الحق الذى كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفا ، كقوله تعالى:﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾(٣) ، فالحقّ هنا الذى تُقتل به الأنفس معهود معروف ، بخلاف ما فى سورة آل عمران .

ومنه قوله تعالى فى هود حاكيا عن شعيب : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٤) ، وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول لقريش: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

ويمكن أن يقال : لما كررت مراجعته لقومه ، ناسب اختصاص قصته بالاستئناف الذى هو أبلغ فى الإنذار والوعيد؛ وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فكانت مدة إنذاره لقومه قصيرة ، فعقّب عملهم على مكافأتهم بوعيدهم بالفاء ؛ إشارة إلى قرب نزول الوعيد لهم بخلاف شعيب ، فإنه طالت مدته فى قومه ، فاستأنف لهم ذكر الوعيد .

ولعلّ قومَ شعيب سألوه السؤال المتقدم ، فأجابهم بهذا الجواب ، والفاء لاتحسن فيه، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يقل ذلك جوابا للسؤال ، ولا يحسن معه الحذف .

ومنه أنه تعالى قال فى خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

---

(١) سورة البقرة ٦١
(٢) سورة آل عمران ٢١
(٣) سورة المائدة ٤٥
(٤) سورة هود ٩٣
(٥) سورة النحل ٥٥

عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[١] ، إلى أن قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٢] ، وقال فى خطاب الكافرين : ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾[٣]، ﴿ يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾[٤] .

قال الزمخشرىّ فى تفسير سورة إبراهيم[٥] : ما علمتُه جاء الخطاب هكذا فى القرآن إلا فى خطاب الكافرين ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوّى بين الفريقين فى الميعاد .

واعترض الإمام فخر الدين بأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإن لم يحصُل كان هذا الكلام فاسداً .

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان فى تفسيره[٦] : ويقال : ما فائدة الفرق فى الخطاب والمعنى مشترك ؟ إذ الكافر إذا آمن والمؤمن إذا تاب مشتركان فى الغفران ، وما تخيلت فيه مغفرة بعض الذنوب من[٧] الكافر إذا هو آمن[٨] ، موجود فى المؤمن إذا تاب . وسيأتى بسطُ الكلام على ذلك فى آخر الكتاب .

الإيجاز

وهو قسم من الحذف ، ويسمى إيجاز القصر ؛ فإن الإيجاز عندهم قسمان : وجيز بلفظ ، ووجيز بحذف .

---

(١) سورة الصف ١٠
(٢) سورة الصف ١٢
(٣) سورة إبراهيم ١٠
(٤) سورة الأحقاف ٣١
(٥) الكشاف ٢ : ٢٣ ٤
(٦) البحر المحيط ٦ : ٤٠٩
(٧) البحر : « فى » .
(٨) البحر : « الذى هو آمن » .

فالوجيز باللفظ أن يكون اللفظ بالنسبة إلى المعنى أقلّ من القدر[1] المعهود عادة ؛ وسبب حسنه أنه يدلُّ على التمكن فى الفصاحة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم » .

واللفظ لا يخلو إما أن يكون مساويا لمعناه وهو المقدر ؛ أو أقل منه وهو المقصور .

أما المقدّر فكقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . .﴾[1] الآية. وقوله : ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[2] ، وهو كثير .

وأما المقصور ؛ فإما أن يكون نقصان لفظه عن معناه لا حتمال لفظه لمعان كثيرة،أو لا

* * *

الأول كاللفظ المشترك الذى له مجازان ، أو حقيقة ومجاز إذا أريد معانيه ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[3] ؛ فإن الصلاة من الله مغايرة للصلاة من الملائكة ، والحق أنه من القدر المشترك وهو الاعتناء والتعظيم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ . . .﴾[4] الآية؛ فإن السجود فى الكل يجمعه معنى واحد ؛ وهو الانقياد .

* * *

والثانى كقوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5] .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[6]

---

(١) سورة النحل ٩٠
(٢) سورة عبس ١٧
(٣) سورة الأحزاب ٥٦
(٤) سورة الحج ١٨
(٥) سورة الأعراف ١٩٩
(٦) سورة الأنعام ٨٢

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1] ، إذْ معناه كبير ، ولفظه يسير .

وقد نُظِر لقول العرب : «القتل أنفَى للقتل» ؛ وهو بنون ثم فاء ، ويروى بتاء ثم قاف ويروى «أوقى» . والمعنى أنه إذا أقيم وتحقق حكمه خاف مَنْ يريد قتل أحد أن يقتص منه، وقد حكاه الحوْفيّ فى تفسيره عن على بن أبى طالب ، وقال : قولُ علىّ فى غاية البلاغة ؛ وقد أجمع الناس على بلاغته وفصاحته ؛ وأبلغ منه قولُه تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[2] وقد تكلّموا فى وجه الأبلغية ، انتهى .

وقد أشار صاحب « المثل السائر » إلى إنكار ذلك ، وقال : لا نسبة بين كلام الخالق عزّ وجل وكلام المخلوق ؛ وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك . وهو كما قال ، وكيف يقابَل المعجِز بغيره مفاضلة ، وهو منه فى مرتبة العَجْز عن إدراكه :

وَمَاذَا يَقُولُ الْقَائِلُونَ إِذَا بَدَا ... جَمَالُ خِطَابٍ فَاتَ فَهْمَ الْخَلَائِقِ

وجملة ما ذكروا فى ذلك وجوه :

أحدها أن قوله : ﴿الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ أوجز ؛ فإن حروفه عشرة، وحروف «القتل أنفى للقتل» أربعة عشر حرفا ، والتاء وألف الوصل ساقطان لفظاً ، وكذا التنوين لتمام الكلام المقتضى للوقف .

الثانى : أن قولهم فيه كُلفة بتكرير القتل ، ولا تكرير فى الآية .

الثالث : أنّ لفظ « القصاص » فيه حروف متلائمة ؛ لما فيه من الخروج من القاف إلى الصاد ، إذ القاف من حروف الاستعلاء ، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق ؛

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) انظر الجزء الثانى ص ١٢٥ من كتاب المثل السائر .

بخلاف الخروج من القاف إلى التاء ، التى هى حرف منخفض ، فهو غير ملائم ، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة ، لبعد مادون طرف اللسان وأقصى الحلق .

الرابع : فى النطق بالصاد والحاء والتاء حسن الصوت ، ولا كذلك تكرير القاف والفاء .

الخامس : تكرير ذلك فى[1] كلمتين متماثلتين بعد فصل طويل ، وهو ثِقَل فى الحروف أو الكلمات .

السادس : الإثبات أوّل والنفى ثان عنه ؛ والإثبات أشرف .

السابع : أنّ القصاص المبنىّ على المساواة أوْزَن فى المعادلة من مطلق القتل ، ولذلك يلزم التخصيص ، بخلاف الآية .

الثامن : الطباع أقْبَلُ للفظ « الحياة » من كلة « القتل » ، لما فيه من الاختصار ، وعدم تكرار الكلمة ، وعدم تنافر الحروف ، وعدم تكرار الحرفين ؛ وقبول الطبع للفظ « الحياة » وصحة الإطلاق .

التاسع : أنّ نفى القتل لا يستلزم الحياة ، والآية ناصّة على ثبوتها التى هى الغرض المطلوب منه .

العاشر : أن قولهم لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة ، وقوله : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ مفهوم لأوّل وهلة .

الحادى عشر : أنّ قولهم خطأ ؛ فإن القتل كلّه ليس نافياً للقتل ؛ فإنّ القتل العدوانىّ لا ينفى القتل ، وكذا القتل فى الرِّدة والزنا لا ينفيه ؛ وإنما ينفيه قتل خاص

---

(١) ت : « من » ، وما أثبته من م .

وهو قتل القصاص ؛ فالذى فى الآية تنصيص على المقصود ، والذى فى المثل لا يمكن حمله على ظاهره .

الثانى عشر : فيه دلالة على ربط المقادير بالأسباب ، وإن كانت الأسباب أيضاً بالمقادير ، وكلام العرب يتضمنه ؛ إلّا أنّ فيه زيادة وهى الدلالة على ربط الأجل فى الحياة ؛ بالسبب ، لا من مجرد نفى القتل .

الثالث عشر : فى تنكير « حياة » نوع تعظيم ؛ يدلّ على أنّ فى القصاص حياة متطاولة ، كقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾[1] ولا كذلك المَثَل ؛ فإنّ اللام فيه للجنس ؛ ولهذا فسروا الحياة فيها بالبقاء .

الرابع عشر : فيه بناء أفعل التفضيل من متعد ، والآية سالمة منه .

الخامس عشر : أنّ « أفعل» فى الغالب تقتضى الاشتراك ؛ فيكون ترك القصاص نافياً القتل ؛ ولكن القصاص أكثر نفيا ، وليس الأمر كذلك ، والآية سالمة من هذا .

السادس عشر : أنّ اللفظ المنطوق به إذا توالت حركاته تمكّن اللسان من النطق ، وظهرت فصاحته ، بخلافه إذا تعقب كل حركة سكون، والحركات تنقطع بالسكنات نظيرُه: إذا تحركت الدابة أدنى حركة ، فخنست ، ثم تحركت فخنست ، لا يتبين انطلاقها ، ولا تتمكن من حركتها على ما تختاره ؛ وهى كالمقيّدة ، وقولهم : « القتل أنفى للقتل » ، حركاته متعاقبة بالسكون بخلاف الآية .

السابع عشر : الآية اشتملت على فنّ بديع ؛ وهو جعل أحد الضدين الذى هو الفناء والموت محلا ومكانا لضدّه الذى هو الحياة ،واستقرار الحياة فى الموت مبالغة عظيمة. ذكره فى الكشاف .

---

(١) سورة البقرة ٩٦

الثامن عشر : أنّ فى الآية طِباقا ؛ لأنّ القصاص مُشعر بضدّ الحياة ، بخلاف المثَل .

التاسع عشر : القصاص فى الأعضاء والنفوس ، وقد جُعل فى الكلّ حياة ؛ فيكون جمعاً بين حياة النفس والأطراف، وإن فُرِض قصاص بما لاحياة فيه كالسنّ ؛ فإن مصلحةَ الحياة تنقص بذهابه ، ويصير كنوع آخر ؛ وهذه اللطيفة لا يتضمنها المثل .

العشرون : أنها أكثر[1] فائدة لتضمنه القصاص فى الأعضاء ، وأنه نبّه على حياة النفس من وجهين : من وجه به القصاص صريحاً ، ومن وجه القصاص فى الطرْف ؛ لأن أحد أحوالها أن يسرى إلى النفس فيزيلها ، ولا كذلك المثل .

وقد قيل غير ذلك .

وأما زيادة ﴿ لَكُمْ ﴾ ففيها لطيفة ؛ وهى بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص ، وأنهم المراد حياتهم لا غيرهم ، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم .

والحاصل أنّ هذا من البيان الموجز الذى لا يقترن به شىء .

* * *

ومن بديع الإيجاز قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . . . ﴾[2] الآية ، فإنها نهاية التنزيه .

وقوله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾[3] ، وهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الاغترار بالإمهال .

وقوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[5] ، وهذا من أحسن الوعد والوعيد .

(١) ت : « أكبر » .
(٢) سورة الإخلاص ١ ، ٢
(٣) سورة الدخان ٢٦
(٤) سورة الدخان ٤٠
(٥) سورة الدخان ٥١

وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[1] ، فهذه ثلاث كلمات اشتملت على جميع ما فى الرسالة .

وقوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾[2] ، فهذه جمعت مكارم الأخلاق كلها ؛ لأن فى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وفى الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام ، وصرف اللسان عن الكذب ، وفى الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه .

قوله : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[3] ، معناه مسودّتان من شدة الخضرة .

وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[4].

وقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[5] ، فدلّ بأمرين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام ، من العشب ، والشجر ، والحبّ ، والثمر ، والعصف ، والحطب ، واللباس ، والنار ، والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

وقوله :﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾[6] ، فدلّ على نفسه ولطفه ووحدانيته وقدرته ، وهدى للحجة على من ضلّ عنه ؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة ، لوجب فى القياس ألّا تختلف الطعوم والروائح ، ولا يقع التفاضل فى الجنس الواحد إذا نبَت فى مغرس واحد ؛ ولكنّه صنع اللطيف الخبير .

وقوله : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾[7] ، كيف نفَى بهذين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : ﴿ لَا يُنْزِفُونَ ﴾[7] عدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب .

---

(١) سورة الحجر ٩٤
(٢) سورة الأعراف ١٩٩
(٣) سورة الرحمن ٦٤
(٤) سورة البقرة ٢٨٦
(٥) سورة النازعات ٣١
(٦) سورة الرعد ٤
(٧) سورة الواقعة ١٩

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾[١] فدلّ على فضل السمع والبصر ، حيث جعل مع الصّمّ فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان البصر وحده .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٢] كيف أمر ونهى ، وأخبر ونادى ، ونعت وسمّى ، وأهلك وأبقى ، وأسعد وأشقى ، قصّ من الأنباء مالو شرح ما اندرج فى هـذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفّت الأقلام وانحسرت الأيدى .

وقوله تعـالى عن النملة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾[٣] لجمع فى هذه اللفظة أحد عشر جنسا من الـكلام، نادت ، وكَنّت ، ونبهت وسمّت،وأمرت،وقصت وحذّرت ، وخصت ، وعمت ، وأشارت ، وغذَرت ؛ فالنداء «يا» ، والـكناية «أىّ»، والتنبيه « ها » ، والتسمية النمل ، والأمر ، « ادخلوا » ، والقصص « مساكنكم » ، والتحذير « لا يحطمنـكم » ، والتخصيص سليمان ؛ والتعميم جنوده ، والإشارة «وهم»، والعذر لا يشعرون . فأدّت خمس حقوق :حق الله، وحق رسوله، وحقها ، وحق رعيتهـا وحق جنود سليمان . فحقّ الله أنها استرعيت على النمل فقامت بحقهم ، وحق سليمان أنها نبهته على النمل ، وحقها إسقاطهـا حق الله عن الجنود فى نصحهم[٤] ، وحق الجنود بنصحها لهم ليدخلوا مساكنهم ، وحق الجنود إعلامها إياهم وجميع الخلق أن من

(١) سورة يونس ٤٢ ، ٤٣
(٢) سورة هود ٤٤
(٣) سورة النمل ١٨
(٤) ت : « نصيحتهم » .

استرعاه رعيّة فوجب[1] عليه حفظها والذبّ عنها ؛ وهو داخل فى الخبر المشهور : « كُلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيته »

ويقال : إن سليمان عليه السلام لم يضحك فى عمره إلا مرة واحدة ، وأخرى حين أشرف على وادى النمل فرآها على كبر الثعالب ، لها خراطيم وأنياب ، فقال رئيسهم : ادخلوا مساكنكم ، فخرج كبير[2] النمل فى عظم الجواميس ، فلما نظر إليه سليمان هاله ، فأراه الخاتم ، فخضع له ، ثم قال : أهذه كلها نمل ؟ فقال : إن النمل لكبير ، إنها ثلاثة أصناف : صِنْف فى الجبال ، وصِنْف فى القرى ، وصِنْف فى المدن . فقال سليمان عليه السلام : اعرضها علىّ ، فقال له : قف . فبقى سليمان عليه السلام تسعين يوما واقفا ، يمرّ عليه النمل ؛ فقال : هل انقطعت عساكركم ، فقال ملك النمل : لو وقفت إلى يوم القيامة ما انقطعت .

فذكر الجنيد أنّ سليمان عليه السلام قال لعظيم النمل : لِمَ قلت للنمل : ادخلوا مساكنكم ؟ أخِفْتَ عليهم من ظلمنا ؟ قال : لا ، ولكن خفت أن يفتتنوا بما رأوا من ملكك ، فيشغلهم ذلك عن طاعة الله .

وقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[3] ، وهذا أشدّ ما يكون من الحجاج .

وقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[4] ، وهذا أعظم ما يكون من التحسير .

وقوله : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾[5] ، وهذا أشدّ ما يكون من التنفير عن الخلة إلا على التقوى .

---

(١) ت : « فواجب » .
(٢) م : « كثير » .
(٣) سورة يس ٧٨ ، ٧٩
(٤) سورة الزخرف ٣٩
(٥) سورة الزخرف ٦٧

وقوله: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحسْرَتَىٰ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللهِ ﴾(١)، وهذا أشدّ ما يكون من التحذير من التفريط .

وقوله: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾(٢)، وهذا أشدّ ما يكون من التبعيد .

وقوله: ﴿ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾(٣) ؛ فهذا أعظم مايكون من التخيير(٤) .

وقوله: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(٥) ، وهذا أبلغ ما يكون من التذكير .

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾(٦) ، وهذا أشدّ ما يكون فى التقريع على التمادى فى الباطل .

وقوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾(٧) ، وهذا أشدُّ ما يكون من التقريع .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٨) ، وهذا غاية الترهيب .

وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾(٩) ، وهذه غاية الترغيب .

---

(١) سورة الزمر ٥٦

(٢) سورة فصلت ٤٠

(٣) سورة فصلت ٤٠

(٤) فى حاشية إحدى النسخ: «المعروف عند الأصوليين أن الأمر فيه للتهديد لا للإباحة والتخيير ــ كذا من الأصل» . وفى ت: «التحسير» .

(٥) سورة ق ٢١ ، ٢٢

(٦) سورة الذاريات ٥٢ : ٥٣

(٧) سورة الرحمن ٤٣ ، ٤٤

(٨) سورة آل عمران ١٨٥

(٩) سورة فصلت ٣١

وقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[٢] ،وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج؛ وهو الأصل الذى عليه أثبتت دلالة التمانع فى علم الكلام .

وقوله : ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣] ، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بكل ماتميل إليه النفس من الشهوات ، وتلذّ الأعين من المرئيات ، ليُعلم أن هذا اللفظ القليل جدًّا ، حوى معانىَ كثيرة لا تنحصر عددا .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾[٤] ، وهذا أشدّ ما يكون من الخوف .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾[٧] .

وقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٨] .

وقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[٩] .

وقوله: ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾[١٠] ، معناه قابلهم بما يفعلونه معك، وعاملهم مثل معاملتهم لك سواء ، مع ما يدلّ عليه « سواء » من الأمر بالعدل .

وقوله : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾[١١] ،فإنه أشار به إلى انقطاع مدة الماء النازل

---

(١) سورة المؤمنون ٩١
(٢) سورة الأنبياء ٢٢
(٣) سورة الزخرف ٧١
(٤) سورة المنافقون ٤
(٥) سورة فاطر ٤٣
(٦) سورة يونس ٢٣
(٧) سورة سبأ ٥١
(٨) سورة البقرة ٢
(٩) سورة غافر ١٨
(١٠) سورة الأنفال ٥٨
(١١) سورة هود ٤٤

من السماء والنابع من الأرض . وقوله : ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى هلك مَنْ قضى هلاكه ، ونجا مَن قدرت نجاته، وإنما عدل عن لفظه إلى لفظ التمثيل؛ لأمرين: اختصار اللفظ ، وكون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع ، إذ الأمر يستدعى آمرا ومطاعا، وقضاؤه يدلّ على قدرته.

* * *

ومن أقسام الإيجاز الاقتصار على السبب الظاهر للشىء ؛ اكتفاء بذلك عن جميع الأسباب ، كما يقال : فلان لا يخاف الشجعان ، والمراد لا يخاف أحداً .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[1] ، ولا شكّ أنّ من فسخت النكاح أيضاً تتربص ، لأن السببَ الغالب للفراق الطلاق .

وقوله : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ ٱلْغَائِطِ﴾[2] ، ولم يذكر النوم وغيره؛لأنّ السببَ الضروريّ الناقض خروج الخارج : فإن النوم الناقضَ ليس بضروريّ ، فذكر السببَ الظاهر ، وعُلِم منه الحكم فى الباقى .

ومنه قوله : ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[3] ، أى وهو مالم يقع فى وهم الضمير من الهواجس، ولم يخطر على القلوب من مخيّلات الوساوس .

ومنه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[4] ، ونظائره .

وكذلك زيد وعمرو قائم ، على القول بأن « قائم » خبر عن أحدهما ، واستغنى به عن خبر الآخر .

ومنها الاقتصار على المبتدأ وإقامة الشىء مقام الخبر نحو : أقائم الزيدان، فإن« قائم» مبتدأ لا خبر له .

---

(١) سورة البقرة ٢٢٨
(٢) سورة النساء ٤٣
(٣) سورة طه ٧
(٤) سورة الأحزاب ٥٦

ومنها باب « علمت أنك قائم » ، إذا جعلنا الجملة سادة مسدّ المفعولين ؛ فإن الجملة مَحلّة لاسم واحد سدّ مسدّ اسمين مفعولين من غير حذف .

ومنه باب النائب عن الفاعل، فى« ضُرِب زيد » ، فـ « زيد » دلّ على الفاعل بإعطائه حكمه ، وعلى المفعول بوضعه .

ومنها جميع أدوات الاستفهام والشرط ؛ فإنّ « كم مالك » ؟ يغنى عن عشرين أو ثلاثين ، و « من يقم أكرمه[1] » يغنى عن زيد وعمرو ، قاله ابن الأثير فى « الجامع » .

ومنه الألفاظ اللازمة للعموم ، مثل أحد ودَيّار ، قاله ابن الأثير أيضاً .

ومنه لفظ الجمع ؛ فإن « الزيدين » يغنى عن زيد وزيد وزيد ، وكذا التثنية أصلها رجل ورجل ، فحذفوا العطف والمعطوف ، وأقاموا حرف الجمع والتثنية مقامهما اختصاراً وصحّ ذلك لاتفاق الذاتين فى التسمية بلفظ واحد ، فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرار بالعطف ؛ نحو مررت بزيد وبكر .

ومنه باب الضمائر على ما سيأتى بيانه ؛ فى قاعدة الضمير .

ومنه لفظ « فعل » فإنه يجىء كثيراً كناية عن أفعال متعددة ؛ قال تعالى : ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾[3] .

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾[4] ، أى فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله ، ولن تأتوا بسورةٍ من مثله .

---

(١) ساقطة من ت .

(٢) سورة المائدة ٧٩

(٣) سورة النساء ٦٦

(٤) سورة البقرة ٢٤

القول في التقديم والتأخير

هو أحد أساليب البلاغة ؛ فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم فى الفصاحة ، وملكتهم فى الكلام وانقياده لهم . وله فى القلوب أحسنُ موقع ، وأعذب مَذاق .

وقد اختلف فى عدّه من المجاز ؛ فمنهم من عدّه منه ؛ لأنه تقديم ما رتبته التأخير ، كالمفعول ، وتأخير ما رتبته التقديم ، كالفاعل ، نُقِل كلٌّ واحد منهما عن رتبته وحقه .

والصحيح أنّه ليس منه ؛ فإنّ المجاز نَقْل ما وضع له إلى مالم يوضع .

ويقع الكلام فيه فى فصول :

الفصل الأول

[فى أسباب التقديم والتأخير]

الأول : فى أسبابه ، وهى كثيرة :

أحدها : أن يكون أصله التقديم ، ولا مقتضى للعدول عنه ، كتقديم الفاعل على المفعول ، والمبتدأ على الخبر ، وصاحب الحال عليها ؛ نحو جاء زيد راكباً .

***

والثانى : أن يكون فى التأخير إخلالٌ ببيان المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾[1] ، فإنّه لو أخر قوله : ﴿ من آل فرعون ﴾ ، فلا يفهم أنه منهم .

وجعل السكاكى[2] من الأسباب كون التأخير مانعاً ، مثل الإخلال بالمقصود ،

---

(١) سورة غافر ٢٨

(٢) انظر مفتاح العلوم ١٢٩

كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١) ، بتقديم الحال أعنى ﴿من قَوْمِهِ﴾ على الوصف، أعنى ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو تأخر(٢) لتُوُهِّم أنه من صفة الدنيا ؛ لأنها هاهنا اسم تفضيل ؛ من الدنو، وليست اسماً، والدنوّ يتعدى بـ « مِنْ » ، وحينئذ يشتبه الأمر فى القائلين أنهم أهُمْ: من قومه أم لا ؟ فقدَّم لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المعنى المقصود ؛ وهو كون القائلين من قومه . وحين أَمِنَ هذا الإخلال بالتأخير قال تعالى فى موضع آخر من هذه السورة : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾(٣) ، بتأخير المجرور عن صفة المرفوع

* * *

الثالث : أن يكون فى التأخير إخلال بالتناسب ، فيقدَّم(٤) لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة ، كقوله : ﴿ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٥) ، بتقديم « إياه » على « تعبدون » لمشاكلة رءوس الآى ، وكقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾(٦) ، فإنه لو أخّر ﴿ فى نفسه ﴾ عن ﴿ موسى ﴾ ؛ فات تناسبُ الفواصل ؛ لأن قبله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾(٦) ، وبعده : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(٦) .

وكقوله : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾(٧) ؛ فإن تأخيرَ الفاعل عن المفعول لمناسبته لما بعده .

وكقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٧) ، وهو أشكلُ بما قبله ، لأن قبله : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾(٨) .

(١) سورة المؤمنون ٣٣
(٢) ت : « إذ » .
(٣) سورة المؤمنون ٢٤
(٤) م : « فقدم » .
(٥) سورة فصلت ٣٧
(٦) سورة طه ٦٦ ، ٦٨
(٧) سورة إبراهيم ٥٠ ، ٥١
(٨) سورة إبراهيم ٤٩

وجعل منه السكاكى[١] : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢] ، بتقديم ﴿ هارون ﴾ مع أن ﴿ موسى ﴾ أحَقُّ بالتقديم .

* * *

الرابع : لعظمه والاهتمام به ؛ وذلك أنّ من عادة العرب الفصحاء ، إذا أخبرتْ عن مخبَرٍ مّا ـ وأناطت به حكما ـ وقد يشركه غيره فى ذلك الحكم ، أو فيما أخبر به عنه ، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب ـ فإنهم مع ذلك إنما يبدءون بالأهم والأولى . قال سيبويه : كأنهم يقدّمون الذى شأنه أهمّ لهم ، وهم ببيانه أعْنَى ، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويَعْنيانهم . انتهى .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[٣] ، فبدأ بالصلاة لأنها أهمّ .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٥] ؛ فقدّم العبادة للاهتمام بها .

ومنه تقدير المحذوف فى بسم الله مؤخّرا .

وأوردوا : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[٦] ؛ وأجيب بوجهين :

أحدهما : أنّ تقديم الفعل هناك أهمّ ، لأنها أولُ سورة نزلت .

والثانى أن : ﴿ باسم ربِّكَ ﴾ متعلق بـ ﴿ اقرأ ﴾[٦] الثانى ، ومعنى الأول : أوجد القراءة ، والقصد التعميم .

* * *

الخامس : أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به ؛ وذلك كقوله تعالى :

---

(١) انظر مفتاح العلوم ١٢٩
(٢) سورة طه ٧٠
(٣) سورة البقرة ٤٣
(٤) سورة التغابن ١٢
(٥) سورة فاتحة الكتاب ٥
(٦) سورة العلق ١ ، ٣

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾[1] ، بتقديم المجرور على المفعول الأول ؛ لأن الإنكار متوجهٌ إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق الجعل .

* * *

السادس : أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور ؛ كتقديم المفعول الثانى على الأول فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[1] ، والأصل « الجنَّ شركاء » ؛ وقدّم ، لأنّ المقصود التوبيخ ، وتقديم الشركاء أبلغ فى حصوله .

ومنه قوله تعالى فى سورة يس : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾[2] ، وسنذكره .

* * *

السابع : الاختصاص ، وذلك بتقديم المفعول ، والخبر ، والظرف ، والجاروالمجرور ، ونحوها على الفعل ، كقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[3] ، أى نخصّك بالعبادة فلانعبد غيرك .

وقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[4] ، أىْ إن كنتم تخصُّونه بالعبادة .

والخبر كقوله : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾[5] ،وقوله : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[6] .

وأما تقديم الظرف ؛ ففيه تفصيل ، فإن كان فى الإثبات دلَّ على الاختصاص ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[7] ، وكذلك : ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾[8] ، فإن ذلك يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى : وقوله : ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾[9] .

---

(١) سورة الأنعام ١٠٠
(٢) سورة يس ٢٠
(٣) سورة فاتحة الكتاب ٥
(٤) سورة النحل ١١٤
(٥) سورة مريم ٤٦
(٦) سورة الحشر ٢
(٧) سورة الغاشية ٢٥ ، ٢٦
(٨) سورة التغابن ١
(٩) سورة آل عمران ١٥٨

أى لا إلى غيره ، وقوله : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[١] ، أُخِّرت صلة الشهادة فى الأوّل وقدمت فى الثانى ؛ لأنّ الغَرضَ فى الأول إثباتُ شهادتِهم على الأمم ، وفى اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم .

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[٢] ، أى لجميع الناس من العجم والعرب ؛ على أن التعريف للاستغراق .

وإن كان فى النفى فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفىّ عنه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾[٣] ، أى ليس فى خمر الجنة ما فى خمرة غيرها من الغَوْل .

وأما تأخيره فإنها تُفيد النفى فقط ، كما فى قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٤] فكذلك إذا قلنا لا عيب فى الدار ؛ كان معناه : نفى العيب فى الدار ، وإذا قلنا لا فى الدار عيب ، كان معناه : أنها تفضّل على غيرها بعدم العيب .

تنبيه

ما ذكرناه من أن تقديمَ المعمول يفيد الاختصاص ، فهمه الشيخ أبو حيان فى كلام الزمخشرى وغيره ، والذى عليه محققو البيانيين أن ذلك غالب لالازم، بدليل قوله تعالى: ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾[٦] ، إن جعلنا ما بعد الظرف مبتدأ .

وقد ردّ صاحب « الفلك[٧] الدائر » القاعدة بالآية الأولى ، وكذلك ابن الحاجب والشيخ أبو حيان ، وخالفوا البيانيين فى ذلك ، وأنت إذا علمت أنهم

(١) سورة البقرة ١٤٣ (٢) سورة النساء ٧٩
(٣) سورة الصافات ٤٧ (٤) سورة البقرة ٢
(٥) سورة الأنعام ٨٤ (٦) سورة إبراهيم ١٠
(٧) هو عز الدين بن أبى الحديد، صاحب كتاب الفلك الدائر على المثل السائر؛ نقد فيه كتاب ابن الأثير وطبع فى الهند سنة ١٣٠٩ هـ .

ذكروا فى ذلك قيد الغلبة سَهُل الأمر . نعم له شرطان :

أحدهما ألا يكون المعمول مقدما بالوضع ؛ فإن ذلك لا يسمى تقديما حقيقة ، كأسماء الاستفهام ، وكالمبتدأ عند من يجعله معمولا لخبره .

والثانى : ألّا يكون التقديم لمصلحة التركيب ، مثل : ﴿وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾(١) على قراءة النصب .

وقد اجتمع الاختصاص وعدمه فى آية واحدة ؛ وهى قوله : ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ﴾(٢) ، التقديم فى الأول قطعا ليس للاختصاص ، بخلاف الثانى .

الفصل الثانى

فى أنواعه

وهى إما أن يُقدَّم والمعنى عليه ، أو يقدّم وهو فى المعنى مؤخر ، أو بالعكس .

النوع الأول

ما قدم والمعنى عليه

ومقتضياته كثيرة ، قد يسّر الله منها خمسا وعشرين ، ولله درّ ابنِ عَبْدون فى قوله :

سَقَاكَ الْحَيَا من مَعَانٍ سِفَاحٍ   فكم لى بها من مَعانٍ فِصَاحِ

---

(١) سورة فصلت ١٧   (٢) سورة الأنعام ٤٠ ، ٤١

أحدها

السبق

وهو أقسام : منها السبق بالزمان والإيجاد ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾(1) قال ابن عطية : المراد بالذين اتبعوه فى زمن الفترة .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾(2) ؛ فإنّ مذهبَ أهلِ السنّة تفضيل البشر ، وإنما قُدِّم المَلَكُ لسبقه فى الوجود .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾(3) ؛ فإن الأزواجَ أسبق بالزمان؛ لأن البناتِ أفضلُ منهنّ ، لكونهنّ بضعة منه صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾(4) .

واعلم أنّه ينضم إليه مع ذلك التشريف ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ﴾(5) .

وقوله : ﴿ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾(6) .

﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾(7) .

وأما قوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾(8) فإنما قدّم ذكرَ موسى لوجهين : أحدهما أنه فى سياق الاحتجاج عليهم بالترك وكانت صحف موسى منتشرة أكثر انتشارا من صحف إبراهيم ، وثانيهما مراعاة رءوس الآى .

---

(1) سورة آل عمران ٦٨
(2) سورة الحج ٧٥
(3) سورة الأحزاب ٥٩
(4) سورة الفرقان ٧٤
(5) سورة آل عمران ٣٣
(6) سورة الأحزاب ٧
(7) سورة الأعلى ١٩
(8) سورة النجم ٣٦ ، ٣٧

وقد ينضم إليه التحقير ، كما فى قوله : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾(١)؛ تقدّم اليهود لأنهم كانوا أسبق من النصارى ، ولأنهم كانوا أقرب إلى المؤمنين بالمجاورة.

وقد لا يلحظ هذا كقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾(٢) وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾(٣) .

ومن التقديم بالإيجاد تقديمُ السِّنَةِ على النوم فى قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٤) لأن العادة فى البَشَر أن تأخذ العبدَ السِّنَةُ قبل النوم ، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة .

ذكره السهيلى وذكر معه وجها آخر ؛ وهو أنها وردت فى معرض التمدح والثناء وافتقادُ السِّنة أبلغ فى التنزيه فبدئ بالأفضل ؛ لأنه إذا استحالت عليه السِّنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم .

ومنه تقديم الظّلمة على النور فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنورَ ﴾(٥) فإنّ الظلمات سابقة على النور فى الإحساس ، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوى ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ ﴾(٦) فانتفاء العلم ظلمة ، وهو متقدم بالزمان على نور الإدراكات .

ومنه تقديم الليل على النهار : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾(٧) ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾(٨) . ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾(٩) . ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

---

(١) سورة الفاتحة ٧
(٢) سورة العنكبوت ٣٨
(٣) سورة النجم ٥٠ ، ٥١
(٤) سورة البقرة ٢٥٥
(٥) سورة الأنعام ١
(٦) سورة النحل ٧٨
(٧) سورة الإسراء ١٢
(٧) سورة سبأ ١٨
(٩) سورة سبأ ٣٣

تُصْبِحُونَ ﴾[1] ولذلك اختارت العرب التاريخ بالليالى دون الأيام ؛ وإن كانت الليالى مؤنثة والأيام مذكرة ، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا فى التاريخ .

فإن قلتَ : فما تصنع بقوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾[2] .

قلتُ : استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام فى قواعده[3] بالإجماع على سَبْق الليلة على اليوم . وأجاب بأن المعنى : تُدرك القمرَ فى سلطانه ، وهو الليل ، أى لا تجىء الشمس فى [أثناء][4] الليل ، فقوله بعده: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2] ، أى لا يأتى فى بعض سلطان الشمس وهو النهار . وبين الجملتين مقابلة .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[5] مُشْكل على هذا ؛ لأن الإيلاج إدخالُ الشىء فى الشىء ، وهذا البحث ينافيه .

قلتُ : المشهور فى معنى الآية أن الله يزيد فى زمن الشتاء مقداراً من النهار،ومن[6] النهار فى الصيف مقداراً من الليل ؛ وتقدير الكلام : يولج بعض مقدار الليل فى النهار ، وبعض مقدار النهار فى الليل . وعلى غير المشهور، يجعل الليل فى المكان الذى كان فيه النهار ويجعل النهار فى المكان الذى كان فيه الليل ،والتقدير : يُولج الليل فى مكان النهار ويُولج النهار فى مكان الليل .

ومنه تقديم المكان على الزمان فى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ

---

(١) سورة الروم ١٧ (٢) سورة يس ٤٠

(٣) القواعد الكبرى، فى فروع الشافعية للشيخ عز الدين بن عبد السلام، ذكره صاحب كشف الظنون، وقال : ليس لأحد مثله . وكثير منه مأخوذ من شعب الإيمان للحليمى ، وله القواعد الصغرى أيضا .

(٤) تكملة من م . (٥) سورة الحديد ٦

(٦) م : « فى » .

وَٱلنُّورَ ﴾[1] ، أى الليل والنهار ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2] .

وهذه مسألة مهمّة قلّ مَنْ تعرّض لها ، أعنى سبق المكان على الزمان ، وقد صرّح بها الإمام أبو جعفر الطبرى فى أول تاريخه ، واحتجّ[3] على ذلك بحديث ابن عباس : إن الله خلق التربة يوم السبت ، وخلق الشمس والقمر ؛ وكان ذلك كلّه ولا ليل ولا نهار ؛ إذ كانا إنما هما أسماء لساعات معلومة من قَطْع الشمس والقمر [دَرَج الفلك][4] وإذا كان ذلك صحيحاً وأنه لا شمس ولا قمر ، كان معلوما أنه لا ليل ولا نهار . قال : وحديث أبى هريرة — يعنى فى صحيح مسلم — صريح فيه ؛ فإن فيه : « وخلق [الله][4] النور يوم الأربعاء » ، قال : ويعنى به[5] الشمس إن شاء الله .

والحاصل أنّ تأخر خلق الأيام عن بعض الأشياء المذكورة فى الخبر لازم .

فإن قلت : الحديث كالمصرّح بخلافه ؛ فإنه قال : خلق الله التربة يوم السبت ، حين خلق البرية وهى أول المخلوقات المذكورة ، فلا يمكن أن يكون خلق الأيام كلّها متأخرا عن ذلك .

قلت : قد نبّه الطبرىّ على جواب ذلك بما حاصله : أن الله تعالى سمّى أسماء الأيام قبل خلق التربة ، وخلق الأيام كلّها ، ثم قدّر كل يوم مقداراً ، فخلَق التربة فى مقدار يوم السبت قبل خلقه يوم السبت ، وكذا الباقى .

وهذا وإن كان خلاف الظاهر لكن أوجبه ما قاله الطبرى ؛ من أنه يتعين تأخير الأيام لما ذكرناه من الدليل المستفاد من الخبرين .

والحاصل أن الزمان قسمان : تحقيقىّ وتقديرىّ ؛ والمذكور فى الحديث التقديرىّ .

---

(١) سورة الأنعام ١
(٢) سورة الأنبياء ٣٢ ، ٣٣
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١٣
(٤) من تاريخ الطبرى
(٥) الطبرى : يعنى بالنور .

ومنه قوله تعالى : ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾(١) . ﴿مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾(٢) ؛ ولذلك لمـــا استغنى عن أحدهما ذكَر المشرق فقط ، فقال : ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ﴾(٣) . ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾(٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿الَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ﴾(٤) ، وقوله : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(٥) . ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾(٦) .

ويمكن فيه وجوه أخر :

منها أن فيه قهرًا للخلق ، والمقام يقتضيه .

ومنها أنّ حياة الإنسان كلاحياة ، ومآله إلى الموت ، ولا حياة إلا بعد الموت .

ومنها أن الموت تقدم فى الوجود، إذ الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتاً لعدم الروح وهذا إن أريد بالموت عدم الوجود ؛ بدليل: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ، وإن أريد با بعد الوجود ، فالناس متنازعون فى الموت : هل هو أمر وجودِىّ كالحياة أولا ؟

وقيل بالوقف ، فقالت الفلاسفة : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيًا .

والجمهور على أنه أمر وجودىّ يضادّ الحياة ، محتجين بقوله : ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ، والحديث فى الإتيان بالموت فى صورة كبش وذبحه .

وأجيب عن الآية بأن الخلق بمعنى التقدير ، ولا يجب فى المقدّر أن يكون وجوديًا، وعن الثانى بأنّ ذلك على طريق التمثيل ؛ لبيان انقطاع الموت وثبوت الخلود .

فإن قلنا : عدمىّ ، فالتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدَم والمَلَكة ، وعلى الصحيح تقابل التضاد . وعلى القول بأنه وجودىّ يجب أن يقال: تقديم الموت الذى هو عدم الوجود؛

---

(١) سورة الرحمن ١٧ — (٢) سورة الأعراف ١٣٧

(٣) سورة الصافات ٥ ، ٦ — (٤) سورة الملك ٢

(٥) سورة النجم ٤٤ — (٦) سورة البقرة ٢٨

لكونه سابقاً أو معدوم الحياة ، الذى هو مفارقة الروح البدنَ يجوز أن يكونَ لكونه الغاية التى يساق إليها فى دار الدنيا ؛ فهى العلّة الغائبة بعدم تحقيقها ، لتحققه[1] ، فخص العلة العامة كما وقع تأكيده فى قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾[2] ، أو تزهيداً فى الدار الفانية ، وترغيباً فيما بعد الموت .

فإن قيل : فما وجه تقدُّم « الحياة » فى قوله : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾[3] وقوله : ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[4] ؟

قلنا : إن كان الخطاب لآدم وحواء ، فلأنّ حياتهما فى الدنيا سبقت الموت ، وإن كان للخَلْق بالخطاب لمن هو حيّ يعقبه الموت ، فما التقديم بالترتيب ، وكذا الآية بعده .

فإن قيل : فما وجهُ تقديم الموت على الحياة فى الحكاية عن مُنْكِر البعث : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾[5] ؟

قلت : لأجل مناسبة رءوس الآى .

فإن قلت : فما وجه تقدم التوفِّى على الرفع فى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[6] مع أنّ الرفع سابق ؟

قيل : فيه جوابان :

أحدهما : المراد بالتوفِّى النوم ، كقوله تعالى : ﴿ يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾[7] .

وثانيهما : أن التاء فى « مُتَوَفِّيكَ » زائدة ، أى موفيك عملَك .

ومنها سَبْق إنزال، كقوله : ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾[8] . وقوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾[9]

(١) الكلام غير واضح فى الأصلين .
(٢) سورة المؤمنون ١٥
(٣) سورة الأعراف ٢٥
(٤) سورة الأنعام ١٦٢
(٥) سورة المؤمنون ٣٧
(٦) سورة آل عمران ٥٥
(٧) سورة الأنعام ٦٠
(٨) سورة آل عمران ٣ ، ٤
(٩) سورة الأعراف ١٥٧

وأما قوله : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾(١) ، فإنما قدم القرآن مُنَبِّهاً له على فضيلة المنزَّل إليهم .

ومنها سبق وجوب ، كقوله تعالى : ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾(٢) ، وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾(٣) .

فإن قيل : فقد قال : ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ .

قيل : يحتمل أنه كان فى شريعتهم السجود قبل الركوع، ويحتمل أن يراد بالركوع ركوع الركعة الثانية .

وقيل : المراد بـ « اركعى » اشكرى .

وقيل : أراد بـ « اسجدى » صلِّى وحدك ، وبـ « اركعى » صلِّى فى جماعة ، ولذلك قال : ﴿مع الراكعين﴾ .

ومنها سبق تنزيه ، كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ من رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾، فبدأ بالرسول قبل المؤمنين، ثم قال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ ، فبدأ بالإيمان بالله ؛ لأنه قد يحصل بدليل العقل ، والعقل سابق فى الوجود على الشرع، ثم قال : « وملائكته » مراعاة لإيمان الرسول، فإنه يتعلق بالملك الذى هو جبريل أوّلا ، ثم بالكتاب الذى نزل به جبريل، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول. وإنما عرف نبوةَ نفسه بعد معرفته بجبريل عليه السلام وإيمانه ، فترتب الذكر المنزل عليه بحسب ذلك، فظهرت الحكمة والإعجاز، فقال: ﴿كُلٌّ آمن بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ؛ لأن الملَك هو النازل بالكتاب ، وإن كان الكتاب أقدم من الملَك ، ولكن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم للملَك كانت قبل سماعه الكتاب . وأما إيماننا نحن بالعقل ، آمنا بالله ، أى

(١) سورة آل عمران ١٩٩
(٢) سورة الحج ٧٧
(٣) سورة الفتح ٢٩

بوجوده ، ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عرفنا اسمه ووجوب النظر المؤدى إلى معرفته ، فآمنا بالرسول ثم بالكتاب المنزل عليه ، وبالملك النازل به ، فلو ترتب اللفظ على حسب إيماننا لبدأ بالرسول قبل الكتاب ؛ ولكن إنما ترتب على حسب إيمان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، الذى هو إمام المؤمنين . ذكره السهيلىّ فى أماليه .

وقال غيره : فى هذا الترتيب سرّ لطيف ، وذلك لأن النور والكمال والرحمة والخير كلّه مضاف إلى الله تعالى ، والوسائط فى ذلك الملائكة ، والمقابل لتلك الرحمة هم الأنبياء والرسل ، فلا بدّ أولًا من أصل ، وثانياً من وسائط ، وثالثاً من حصول تلك الرحمة ، ورابعاً من وصولها إلى المقابل لها ؛ والأصل المقتضى للخيرات والرحمة هو الله ، ومِنْ أعظم رحمةٍ رَحِمَ بها عبادَه إنزالُ كتبه إليهم ، والموصل لها هم الملائكة ، والمقابل لها المنزلة عليهم هم الأنبياء ؛ فجاء الترتيب على ذلك بحسب الوقائع .

الثانى

بالذات

كقوله تعالى : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾(١) . ونحوه ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾(٣) وكذلك جميع الأعداد كلّ مرتبة هى متقدمة على ما فوقها بالذات .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ ﴾(٤) فوجْه تقديم المثْنَى أن المعنىّ حثُّهم على القيام بالنصيحة لله ، وترك الهوى ، مجتمعِيْن متساويِيْن أو منفردين متفكرين . ولا شك أنّ الأهمّ حالة الاجتماع فبدأ بها .

---

(١) سورة النساء ٣

(٢) سورة المجادلة ٧

(٣) سورة الكهف ٢٢

(٤) سورة سبأ ٤٦

الثالث

بالعلّة والسببية

كتقديم « العزيز » على « الحكيم » ، لأنه عَزّ فحَكم ، وتقديم « العليم » على « الحكيم » ، لأن الإتقان ناشئ عن العلم ، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(1) .

ويجوز أن يكون قدّم وصف العلم هنا ليتّصل بما يناسبه ، وهو ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ، وفي غيره من نظائره ، لأنه صفات ذات فيكون من القِسْم قبله .

ومنه قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(2) ، قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(3) ؛ فإنّ التوبةَ سبب الطهارة .

وكذا : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾(4) لأن الإفك سبب الإثم .

وكذا : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾(5) .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾(6) قدم إحياء الأرض ؛ لأنّه سببُ إحياء الأنعام والأناسيّ ، وقَدّم إحياء الأنعام ؛ لأنّه مما يحيا به الناس ، بأكل لحومها وشُرْبِ ألبانها .

---

(1) سورة البقرة ٣٢
(2) سورة الفاتحة ٥
(3) سورة البقرة ٢٢٢
(4) سورة الجاثية ٧
(5) سورة المطففين ١٢
(6) سورة الفرقان ٤٨ ، ٤٩

وكذا كل علة مع معلولها، كقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[1]، قيل: قدّم الأموال من باب تقديم السبب؛ فإنه إنّما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته، فهو سبب التزويج، والتزويج سبب للتناسل؛ ولأنّ المال سبب للتنعيم بالولد، وفقده سبب لشقائه.

وكذا تقديم البنات على البنين فى قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾[2]، وأخّر ذكر الذهب والفضة عن النساء والبنين لأنهما أقوى فى الشهوة الجِبِلّيّة من المال، فإن الطبع يحث على بذل المال، فيحصل النكاح، والنساء أقعد من الأولاد فى الشهوة الجبلّيّة، والبنون أقعد من الأموال، والذهب أقعد من الفضة، والفضة أقعد من الأنعام؛ إذ هى وسيلة إلى تحصيل النّعم، فلما صُدِّرت الآية بذكر الحب، وكان المحبوب مختلفَ المراتب، اقتضت حكمةُ الترتيب أن يقدّم ما هو الأهمّ فالأهمّ، فى رتبة المحبوبات.

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾[3]، قدّم[4] الشكر على الإيمان؛ لأنّ العاقل ينظر [إلى][5] ماعليه من النعمة العظيمة فى خَلْقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرا مبْهَما؛ فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعِم آمن به، ثم شكر شكرا متصلا[6] فكان الشكر متقدما على الإيمان؛ وكأنه أصل التكليف ومداره. انتهى.

وجعله غيرُه من عطف الخاص على العام؛ لأن الإيمان من الشكر، وخُصّ بالذكر لشرفه.

---

(١) سورة الأنفال ٢٨
(٢) سورة آل عمران ١٤
(٣) سورة النساء ١٤٧
(٤) الكشاف ١ : ٤٥١
(٥) من الكشاف.
(٦) الكشاف: «منفصلا».

الرابع

بالرتبـــة

كتقديم « سميع » على « عليم » فإنه يقتضى التخويفَ والتهديد، فبدأ بالسميع لتعلقه بالأصوات ، وإنّ مَنْ سَمِع حسّك فقد يكونُ أقربَ إليك فى العادة ممن يعلم ، وإن كان علمُ الله تعلق بما ظهر وما بطن .

وكقوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) ، فإن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة ؛ وإنما تأخرت فى آية سبأ فى قوله : ﴿ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾(٢) ؛ لأنها منتظمة فى سلك تعداد أصناف الخلق من المكلّفين وغيرهم ، وهو قوله : ﴿ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾(٢)، فالرحمة شملتهم جميعا ، والمغفرة تخصّ بعضا ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة .

وقوله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾(٣) فإن الهمّاز هو المغتاب ؛ وذلك لا يفتقر إلى شيء بخلاف النميمة .

وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾(٤) فإنّ الغالبَ أنّ الذين يأتون رجالا من مكان قريب ، والذين يأتون على الضامر من البعيد . ويحتمل أن يكونَ من التقديم بالشرف ؛ لأن الأجر فى المشى مضاعَف .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾(٥) مع أنّ الراكب متمكن من الصلاة أكثر من الماشى ، فجبرا له فى باب الرخصة .

---

(١) سورة البقرة ١٧٣ وآيات كثيرة .
(٢) سورة سبأ ٢
(٣) سورة القلم ١١
(٤) سورة الحج ٢٧
(٥) سورة البقرة ٢٣٩

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[1] ، فقدّم الطائفين لقربهم من البيت ؛ ثم ثنّى بالقائمين وهم العاكفون ؛ لأنهم يخصّون موضعا بالعكوف والطواف بخلافه فكان أعمّ منه ، والأعمّ قبل الأخصّ ، ثم ثلث بالرّكوع ، لأنّ الركوع لا يلزم أن يكون فى البيت[2] ولا عنده .

ثم فى هذه الآية ثلاثة أسئلة :

الأول : كيف جمع الطائفين والقائمين جمع سلامة ، والرّكع جمع تكسير ؟ والجواب أنّ جمعَ السلامة أقربُ إلى لفظ الفعل ، فطائفون بمنزلة يطوفون ، ففى لفظه إشعار بصلة التطهير ، وهو حدوث الطواف وتجدّده ، ولو قال : بالطواف لم يفد ذلك ، لأن لفظ المصدر يخفى ذلك ؛ وكذا القول فى القائمين ، وأمّا الراكعون فلما سبق أنه لا يلزم كونه فى البيت ولا عنده ؛ فلهذا لم يجمع جمع سلامة ؛ إذ لا يحتاج فيه إلى بيان الفعل الباعث على التطهير ، كما احتيج فيما قبله .

الثانى : كيف وصف الركّع بالسجود ، ولم يعطف بالواو ؟

والجواب ، لأن الركّع هم السُّجود ، والشىء لا يعطف على نفسه ؛ لأن السجود يكون عبارة عن المصدر ، وهو هنا عبارة عن الجمع ، فلو عطف بالواو لأوهم إرادةَ للصدر دون اسم الفاعل ؛ لأن الراكع إن لم يسجد فليس براكع شرعا ، ولو عطف بالواو لأوهم أنه مستقلّ ، كالذى قبله .

الثالث : هلّا قيل : السّجّد كما قيل الركّع ، وكما جاء فى آية أخرى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾[3] ، والركوع قبل السجود ! والجواب أنّ السجود يُطلق على وضع الجبهة بالأرض وعلى الخشوع ، فلو قال : السجّد ، لم يتناول إلا المعنى الظاهر ، ومنه : ﴿ تَرَاهُمْ

(١) سورة البقرة ١٢٥
(٢) ت : « بالبيت » .
(٣) سورة الفتح ٢٩

رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ ، وهو من رؤية العين ، ورؤية العين لا تتعلّق إلا بالظاهر ، فقصد بذلك الرمز إلى السجود المعنوىّ والصورى ؛ بخلاف الركوع ، فإنّه ظاهر فى أعمال الظاهر التى يشترط فيها البيت كما فى الطواف والقيام المتقدم ، دون أعمال القلب ، فجعل السجود وصفاً للركوع وتتميما له ؛ لأنّ الخشوع روح الصلاة وسرّها الذى شرعت له .

الخامس

بالداعيـــة

كتقدم الأمر بغضّ الأبصار على حفظ الفروج فى قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾(١) ، لأن البصرَ داعية إلى الفرج ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « العينان تَزْنيان والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه » .

السادس

التعظيم

كقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾(٣) .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ ﴾(٤) .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾(٥) .

---

(١) سورة النور ٣٠

(٢) سورة النساء ٦٩

(٣) سورة الأحزاب ٥٦

(٤) سورة آل عمران ١٨

(٥) سورة المائدة ٥٥

السابع
الشرف وهو أنواع

منها شرف الرسالة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾(١) ، فإنّ الرسول أفضل من النبي ؛ خلافا لابن عبد السلام .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾(٢) . ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾(٣)

ومنها شرف الذكورة :

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾(٦) .

وأما تقديم الإناث فى قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾(٧) ، فلجبرهنّ ، إذ هنّ موضع الانكسار ، ولهذا جُبِر الذكور بالتعريف ، للإشارة إلى مافاتهم من فضيلة التقديم .

ويُحتمَل أنّ تقديم الإناث ، لأن المقصود بيان أن الخلق كلّه بمشيئة الله تعالى، لا على وفق غرض العباد .

ومنها شرف الحرية ، كقوله تعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾(٨) ، ومن الغريب حكاية بعضهم قولين فى أن الحرّ أشرف من العبد أم لا ، حكاه القرطبي ، فى تفسير سورة النساء فلينظر فيه .

---

(١) سورة الحج ٥٢
(٢) سورة الأعراف ١٥٧
(٣) سورة مريم ٥٤
(٤) سورة الأحزاب ٣٥
(٥) سورة النجم ٢١
(٦) سورة النساء ١
(٧) سورة الشورى ٤٩
(٨) سورة البقرة ١٧٨

ومنها شرف العقل ، كقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾(١) .

وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾(٢) .

وأما تقديم الأنعام عليهم فى قوله : ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾(٣) ، فمن باب تقديم السَّبَب ، وقد سبق .

ومنها شرف الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾(٤) ، وكذلك تقديم المسلمين على الكافرين فى كل موضع ، والطائع على العاصى ، وأصحاب اليمين عن أصحاب الشمال .

ومنها شرف العلم ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

ومنها شرف الحياة ، كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ ﴾(٧) . وأما تقديم الموت فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ ﴾(٨) ، فمن تقدّم السبق بالوجود ، وقد سبق .

ومنها شرف المعلوم ؛ نحو : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾(٩) ، فإن علم الغيبيّات أشرف من المشاهدات .

ومنه : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾(١٠) . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾(١١)

---

(١) سورة النور ٤١
(٢) سورة النازعات ٣٣
(٣) سورة السجدة ٢٧
(٤) سورة الأعراف ٨٧
(٥) سورة الزمر ٩
(٦) سورة الروم ١٩
(٧) سورة فاطر ٢٢
(٨) سورة الملك ٢
(٩) سورة المؤمنون ٩٢
(١٠) سورة الأنعام ٦
(١١) سورة التغابن ٤

وأما قوله : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(١) ، أى من السرّ ، فعن ابن عباس وغيره : السرّ : ما أسررتَ فى نفسك ، وأخفى منه ما لم تحدّث به نفسك ، مما يكون فى غد علم الله فيهما سواء ، ولا شكّ أن الآتى أبلغُ ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أفعل تفضيل يستدعى مفضلا عليه ، علم حتى يتحقق فى نفسه ، فيكون حينئذ تقديم السرّ من النوع الأول .

وثانيهما : مراعاة رءوس الآى .

ومنها شرف الإدراك ، كتقديم السّمع على البصر ، والسميع على البصير؛لأنّ السمع أشرفُ على أرجح القولين عند جماعة ، وقدم القلب عليهما فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾(٢) ، لأن الحواسّ خَدَمة القلب ، وموصّلة إليه ؛ وهو المقصود ؛ وأما قوله : ﴿ وخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وقَلْبِهِ ﴾(٣) ، فأخّر القلب فيها ؛ لأن العناية هناك بذمّ المتصامّين عن السماع ؛ ومنهم الذين كانوا يجعلون القطن فى آذانهم حتى لا يسمعوا ، ولهذا صدرت السورة بذكرهم فى قوله : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾(٤) .

ومنها شرف المجازاة ، كقوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾(٥) .

ومنها شرف العموم ؛ فإنّ العامّ أشرف من الخاص ، كتقديم العفوّ على الغفور ؛ أى عفوّ عمّا لم يؤاخذنا به مما نستحقّه بذنوبنا ، غفور لما آخذنا به فى الدنيا ، قَبِلَنا ورجعْنا إليه ؛ فتقدم العفوّ على الغفور ، لأنه أعمّ ، وأخّرت المغفرة لأنها أخصّ .

---

(١) سورة طه ٧
(٢) سورة البقرة ٧
(٣) سورة الجاثية ٢٣
(٤) سورة الجاثية ٧ ، ٨
(٥) سورة الأنعام ٦٠

ومنها شرف الإباحة للإذن بها، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ ﴾(١) ، وإنما تقديم الحرام فى قوله : ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾(٢) فللزيادة فى التشنيع عليهم ، أو لأجل السياق ؛ لأن قبله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾(٣) . ثم ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾(٤) .

ومنها الشرف بالفضيلة ، كقوله تعالى : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾(٧) الآية .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾(٨) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(٩) .

وقوله : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(١٠) فى الأعراف والشعراء ، فإنّ موسى استأثر باصطفائه تعالى له بتكليمه ، وكونه من أولى العزم .

فإن قلت : فقد جاء هارون وموسى فى سورة طه بتقديم هارون ؟

قلنا : لتناسب رءوس الآى .

ومنه تقديم جبريل على ميكائيل فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾(١١) لأنّ جبريل صاحبُ الوحى والعلم ، وميكائيل

---

(١) سورة النحل ١١٦
(٢) سورة يونس ٥٩
(٣) سورة النحل ١١٤
(٤) سورة البقرة ١٧٣
(٥) سورة النساء ٢٣
(٦) سورة الأحزاب ٧
(٧) سورة الفتح ٦٩
(٨) سورة الأنبياء ٤٨
(٩) سورة يونس ٧٥
(١٠) سورة الأعراف ١٢٢، والشعراء ٤٨
(١١) سورة البقرة ٩٨

صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضلُ من الخيرات الجسمانية .

ومنــه تقديم المهاجرين فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ﴾(1) .

وقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾(2) ، ويدلّ على فضيلة الهجرة قوله صلى الله عليه وسلم : «لولا الهجرة لـكنت امرأ من الأنصار»، وبالآية احتجّ الصِّدِّيق على تفضيلهم وتعيين الإمامة فيهم .

ومنه قوله : ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾(3) ، فإن الصلاة أفضلُ من السلام .

وقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ﴾(4) ، قدم القريبَ لأن الصدقة عليه أفضلُ من الأجنبي .

ومنه تقديم الوجه فى قوله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾(5) .

وتقديم اليمين على الشمال فى نحو : ﴿ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾(6) ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾(7) .

ومنه تقديم الأنفس على الأموال فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾(8) . وأما تقديم الأموال فى سورة الأنفال فى قوله : ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(9) ، فوجهُ التقديم أنّ الجهاد يستدعى تقديم إنفاق الأموال ، فهو من باب السبق بالسببية .

ومنه : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾(10) ، فإن الحلق أفضل من التقصير .

---

(1) سورة التوبة ١١٧
(2) سورة التوبة ١٠٠
(3) سورة الأحزاب ٥٦
(4) سورة البقرة ١٧٧
(5) سورة المائدة ٦
(6) سورة سبأ ١٥
(7) سورة المعارج ٣٧
(8) سورة التوبة ١١١
(9) سورة الأنفال ٧٢
(10) سورة الفتح ٢٧

ومنه تقديم السّمٰوَات على الأرض، كقوله: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[1] وهو كثير، وكذلك كثيرا ما يقع «السموات» بلفظ الجمع، و «الأرض» لم تقع إلا مفردة.

وأما تأخيرها عنها فى قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ﴾[2]؛ فلأنه لما ذكر المخاطبين، وهو قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2]، وهو خطاب لأهل الأرض، وعملهم يكون فى الأرض؛ وهذا بخلاف الآية التى فى سبأ؛ فإنها منتظمة فى سياق علم الغيب.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ﴾[3].

وأما تأخيرها عنها فى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[4]؛ فلأن الآية فى سياق الوعد والوعيد؛ وإنما هو لأهل الأرض.

وكذا قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ﴾[5].

ومنه تقديم الإنس على الجن فى قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ...﴾[6] الآية.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[7]:

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[8].

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً﴾[9].

---

(١) سورة العنكبوت ٤٤ — (٢) سورة يونس ٦١
(٣) سورة آل عمران ٥ — (٤) سورة الزمر ٦٧
(٥) سورة إبراهيم ٤٨ — (٦) سورة الإسراء ٨٨
(٧) سورة الرحمن ٣٩ — (٨) سورة الرحمن ٥٦
(٩) سورة الجن ٥

وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ . وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾(١) .

وأما تقديم الجن فى مواضع أخر، كقوله : ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ﴾(٢) ؛ فلأنهم أقدمُ فى الخلق ، فيكون من النوع(٣) الأول ـ أعنى التقديم بالزمان ـ ولهذا لمّا أُخِّر فى آية الحجر صرّحَ بالقَبْلية بذكر الإنسان ، ثم قال : ﴿ وَٱلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾(٤) .

ويجوز أن يكون فى الأمثلة السالفة من باب تقديم الأعجب ؛ لأنّ خَلْقها أغرب ، كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾(٥) .

أو لأنهم أقوى أجساماً ، وأعظم أقداماً ولهذا قُدّموا فى : ﴿ يَامَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٦)، وفى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾(٧) .

ومنه تقديم السُّجَّد على الراكعين فى قوله: ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾(٨)، وسبق فيه شىء آخر .

ومنه تقديم الخيل على البغال ، والبغال على الحمير فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾(٩) .

ومنه تقديم الذهب على الفضة فى قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾(١٠).

---

(١) سورة الرحمن ١٤ ، ١٥ (٢) سورة الأنعام ١٣٠

(٣) سبق الكلام عليه فى ص ٢٣٩ من هذا الجزء . (٤) سورة الحجر ٢٧

(٥) سورة النور ٤٥ (٦) سورة الرحمن ٣٣

(٧) سورة النمل ١٧ (٨) سورة آل عمران ٤٣

(٩) سورة النحل ٨ (١٠) سورة التوبة ٣٤

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون من تقديم المذكر على المؤنث ؟

قلت : هيهات ، الذهب أيضاً مؤنث ، ولهذا يصغّر على ذهيبة كـ « قَدَم » .

ومنه تقديم الصّوف فى قوله : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾(١) ؛ ولهذا احتجّ به بعضُ الصوفية على اختيار لبس الصوف على غيره من الملابس ؛ وأنه شعار الملائكة فى قوله : ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾(٢) قيل : سيماهم يومئذ الصّوف . وعن علىّ : الصوف الأبيض؛ رواه أبو نعيم فى مَدْح الصوف، وقال : إنه شعار الأنبياء . وقال ابن مسعود : كانت الأنبياء قبلكم يلبسون الصوف ؛ وفى الصحيح فى موسى عليه السلام : « عليه عباءة » .

ومنه تقديم الشمس على القمر فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً ﴾(٤) ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾(٥) ؛ والحكماء يقولون: إن نور القمر مستَمَدّ من نور الشمس ، قال الشاعر:

يَا مُفْرَداً بِالْحُسْنِ وَالشَّكْلِ مَنْ دَلَّ عَيْنَيْكَ عَلَىٰ قَتْلِي
الْبَدْرُ من شمسِ الضُّحَىٰ نُورُهُ والشَّمْس من نورِكَ تَسْتَمْلِي

وأما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾(٦) فيحتمل وجهين: مناسبة رءوس الآى أوْ أنّ انتفاع أهل السموات به أكثر. قال ابن الأنبارى : يقال : إن القمر وجهه يضىء لأهل الشمس،

---

(١) سورة النحل ٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٥ من قوله تعالى . ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ .

(٣) سورة الحج ١٨ من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ... ﴾ .

(٤) سورة الفرقان ٦١

(٥) سورة يونس ٥

(٦) سورة نوح ١٥ ، ١٦

وظهره إلى الأرض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ لما كان أكثر نوره يضيء إلى أهل السماء .

الثامن

الغلبة والكثرة

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(١) ، قدم الظالم لكثرته ، ثم المقتصد ، ثم السابق .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(٢) .

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾(٣) .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾(٤) .

وجعل منه الزمخشري : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾(٥) يعني بدليل قوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٦) وحديث بعث النار .

وأما قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾(٧) ، قدّم ذكرَ العذاب لكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتله .

وجُعل مِنْ هذا النوع قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾(٨) ؛ لأنّ السرقة في الذكور أكثر .

وقدم في الزنى المرأة في قوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾(٩) لأن الزنى فيهن أكثر . وأما قولُهُ :

---

(١) سورة فاطر ٣٢
(٢) سورة هود ١٠٥
(٣) سورة آل عمران ١٥٢
(٤) سورة النور ٢٦
(٥) سورة التغابن ٢
(٦) سورة يوسف ١٠٣ ؛ وانظر الكشاف : ٤٣٧
(٧) سورة آل عمران ٥٦
(٨) سورة المائدة ٣٨
(٩) سورة النور ٢

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾(١).

فقال الزمخشرى: سيقت الآية التى قبلها لعقوبتهما على ماجنيا ؛ والمرأة هى المادة التى نشأت منها الخيانة(٢) ؛ لأنها لو لم تُطمع الرجلَ ، [ولم تومض له](٣) وتمكّنه لم يطمع ولم يتمكّنْ ، فلما كانت أصلا وأوّلًا فى ذلك بدأ بذكرها ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل ، [فيه](٣) لأنه هو الراغب والخاطب يبدأ الطلب(٤) .

ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾(٥)، قال الزمخشرى : قدم غضّ البصر ؛ لأن النظر بَريد الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى به أشدّ وأكثر ، ولا يكاد يُقْدَر على الاحتراس منه(٦) .

ومنه تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع فى القرآن ، ولهذا ورد : «إن رحمتى غلبت غضبى » .

وأما تقديمُ التعذيب على المغفرة فى آية المائدة(٧) فللسياق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾(٨) ، قال ابن الحاجب فى أماليه : إنما قدّم الأزواج لأن المقصود الإخبار أن فيهم أعداء، ووقوع ذلك فى الأزواج أقعد منه فى الأولاد ؛ فكان أقعد فى المعنى المراد فَقُدِّم ، ولذلك قدمت الأموال فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(٩) ، لأن الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾(١٠) . ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾(١١)، وليست الأولاد فى استلزام الفتنة مثلها ، وكان تقدّمها أولى .

---

(١) سورة النور ٣
(٢) الكشاف : « الجناية » .
(٣) من الكشاف .
(٤) الكشاف ٣ : ١٦٨
(٥) سورة النور ٣٠
(٦) الكشاف ٣ : ١٨١
(٧) وهو قوله تعالى فى الآية ١١٨ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .
(٨) سورة التغابن ١٤
(٩) سورة التغابن ١٥
(١٠) سورة العلق ٦ ، ٧
(١١) سورة الإسراء ١٦

التاسع

سبق ما يقتضى تقديمه

وهو دلالة السياق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[1] ؛ لما كان إسراحُها وهى خِماص ، وإراحتها وهى بِطَان ، قدم الإراحة لأنّ الجمال بها حينئذ أفخر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[2] ، لأن السياق فى ذكر مريم فى قوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾[2] ، ولذلك قدّم الابن فى غير هذا المكان ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾[3] .

وقوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[4] ؛ فإنه قدّم الحكم مع أن العلم لا بدّ من سبقه للحكم ؛ ولكن لما كان السياق فى الحكم قدّمه ، قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾[5] ، ويحتمل أن المراد بالحكم الحكمة ، وبها فسر الزمخشرىّ قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[6] ؛ وأما تقديم الحكيم على العليم فى سورة الأنعام[7] ، فلأنه مقام تشريع الأحكام ، وأما فى أول سورة يوسف فقدّم العليم على الحكيم[8] ، لقوله فى آخرها : ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ .

---

(١) سورة النحل ٦
(٢) سورة الأنبياء ٩١
(٣) سورة المؤمنون ٥٠
(٤) سورة الأنبياء ٧٩
(٥) سورة الأنبياء ٧٨
(٦) سورة يوسف ٢٢
(٧) وهو قوله تعالى فى آية ٨٣ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .
(٨) وهو قوله تعالى فى آية ٦ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ومنه تقديم المحو على الإثبات فى قوله : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾[١] ، فإنّ قبله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[٢] . ويمكن أن يقال : ما يقع عليه المحو أقلّ مما يقع عليه غيره ، ولا سيما عَلَى قراءة تشديد « يُثَبِّت » ؛ فإنها ناصّة على الكثرة، والمراد به الاستمرار لا الاستئناف .

وقوله : ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾[٣] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا ﴾[٢]، قدّم « رسلا » هنا على « مِنْ قَبْلِكَ » وفى غير هذه[٤] بالعكس ؛ لأن السياق هنا فى الرسل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾[٥]، قدم القبض لأن قبله ﴿ مَنْ ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[٥]، وكان هذا بسطا، فلا يناسب تلاوة البسط ، فقدّم القبض لهذا ، وللترغيب فى الإنفاق ؛ لأن المتنع منه سببه خوف القِلّة، فبيّن أنّ هذا لا ينجيه ، فإن القبض مقدر ولا بدّ .

العاشر

مراعاة اشتقاق اللفظ

كقوله : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾[٦] .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[٧] .

﴿ يُنَبَّأُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[٨] .

---

(١) سورة الرعد ٣٩ (٢) سورة الرعد ٣٨

(٣) سورة الشورى ٢٤

(٤) وهو قوله تعالى فى سورة الروم ٤٧ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴾.

(٥) سورة البقرة ٢٤٥ (٦) سورة المدثر ٣٧

(٨) سورة الانفطار ٧ (٨) سورة القيامة ١٣

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ . إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾(١).

﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾(٢) .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ﴾(٣) .

وأما قوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٤) ، فقدّم نفىَ التأخير ؛ لأنه الأصل فى الكلام ، وإنما ذكر التقدّم مع عدم إمكان التقدم ، نفياً لأطراف الكلام كله .

وكقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(٥) .

وقوله : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٦) .

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾(٧) :

﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾(٨) .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾(٩).

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾(١٠)

فإن قلت قد جاء : ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾(١١). ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ . فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾(١٢) .

قلت : لمناسبة رءوس الآى .

---

(١) سورة الواقعة ٤٩ ، ٥٠
(٢) سورة الواقعة ٣٩ ، ٤٠
(٣) سورة الحجر ٢٤
(٤) سورة النحل ٦١
(٥) سورة البروج ١٣
(٦) سورة الأعراف ٢٩
(٧) سورة الروم ٤
(٨) سورة القصص ٧٠
(٩) سورة الحديد ٣
(١٠) سورة البقرة ٢٢٠
(١١) سورة النازعات ٣٥
(١٢) سورة النجم ٢٤ ، ٢٥

ومثله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾[١] ، ولأنّ الخطاب لهم، فقُدّموا.

الحادى عشر

للحث عليه خيفة من التهاون به

كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين ، فى قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾[٢] ، فإن وفاء الدَّيْن سابق على الوصية ، لكن قدّم الوصية ، لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها ، بخلاف الدَّيْن .

ونظيره : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾[٣] ، قدّم الإناث حثًّا على الإحسان إليهم .

وقال السهيلى فى « النتائج »[٤] : إنما قدِّمت الوصية لوجهين :

أحدهما : أنها قُرْبة إلى الله تعالى ، بخلاف الدَّين الذى تعوّذ الرسل منه ، فبدئ بها للفضل .

والثانى : أنّ الوصية للميت ، والدين لغيره ، ونفسك قبل نفس غيرك ، تقول : هذا لى وهذا لغيرى ، ولا تقول فى فصيح الكلام: هذا لغيرى وهذا لى

الثانى عشر

لتحقق ما بعده واستغنائه هو عنه فى تصوّره

كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[٥] .

---

(١) سورة المرسلات ٣٨ (٢) سورة النساء ١١

(٣) سورة الشورى ٤٩ (٤) نتائج الفكر فى علل النحو؛ ذكر فيه أن الإعراب مرقاة إلى علوم الكتاب ، ورتبه على ترتيب أبواب الجمل . قاله صاحب كشف الظنون .

(٥) سورة مريم ٩٦

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾[١] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُم تَابُوا ﴾[٢] .

الثالث عشر

الاهتمام عند المخاطب

كقوله : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[٣] .

ونظيره قوله عليه السلام : « وأن تقرأ السلامَ عَلَى مَنْ عرفتَه ومن لم تعرفه » .

وقوله : ﴿ ولِذِي الْقُرْبَىٰ والْيَتَامَىٰ والْمَسَاكِينِ ﴾[٤] لفضل الصدقة على القريب .

وكقوله : ﴿ ومَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ ودِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾[٥] ، فقدم الكفارة على الدّية ، وعكس في قتل المعاهَد حيث قال : ﴿ وإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾[٥] .

قال الماورديّ في « الحاوى »[٦] : ووجهه أنّ المسلمَ يَرَى تقديمَ حَقّ الله على نفسه والكافرَ يرى تقديمَ نفسه على حق الله ، قال: وقال ابن أبي هريرة[٧] : إنما خالف بينهما ولم يجعلهما على نسق واحد ؛ لئلا يلحق بهما ما بينهما من قتل المؤمن في دار الحرب ، في قوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ، [٥] فضم إليه الدّيةَ إلحاقاً بأحد الطرفين ، فأزال هذا الاحتمال باختلاف اللفظين .

---

(١) سورة فصلت ٣٣
(٢) سورة الأعراف ١٥٣
(٣) سورة النساء ٨٦
(٤) سورة الأنفال ٤١
(٥) سورة النساء ٩٢

(٦) الحاوى الكبير في الفروع للقاضي أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠ ، ذكره صاحب كشف الظنون . وقال : « وهو كتاب عظيم في عشرة مجلدات . ويقال : إنه ثلاثون مجلدا لم يؤلف في المذهب مثله » .

(٧) هو أبو علي الحسن بن الحسين الشافعي ، عرف بابن أبي هريرة ، شرح مختصر المزني ؛ ومات سنة ٣٤٥ . طبقات الشافعية ٢ : ٢٠٦

وقال الفقيه نجم الدين بن الرِّفْعة[١] : يحتمل أن يقال : إنه لما كان الكفر يهْدِر الدماء وهو موجود ، كان الغاية ببذل الدم عند العصمة لأجل الميثاق أتمّ ، لأنّه يُنْمَض حُكْمُه ، فلذلك قدمت الدِّية فيه ، وأخّرت الكفارة ، لأن حكمها قد سبق . ولما كانت عصمةُ المسلِم ثابتة ، وقياس الأصول أنّه لا تجب الكفارة فى قتل الخطأ ، لأنّه لا إثمَ فيه ، خصوصا على المسلمين لرفع القلم عن الخطأ ، كانت العناية بذكر الكفارة فيه أتمّ ؛ لأنها التى تنمض ، فقدّمت .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾[٢] قيل : لماذا بدأ بالمغرب قبل المشرق ، وكان مسكن ذى القرنين من ناحية المشرق ؟ قيل: لقصد الاهتمام، إما لتمرّد أهله وكثرة طغيانهم فى ذلك الوقت، أوغير ذلك مما لم ينته إلينا علمه.

ومن هذا أنّ تأخر المقصود بالمدح والذم أوْلَى مِنْ تقدُّمه؛ كقوله: نعم الرجل زيد، أحسن من قولك : زيد نعم الرجل ، لأنهم يقدّمون الأهمّ ، وهُمْ فى هذا بذكر المدح والذم أهمّ.

فأما تقديمه فى قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[٣] ، فإن الممدوح هنا بـ « نعم العبد » هو سليمان عليه السلام ، وقد تقدّم ذكره . وكذلك أيوب فى الآية الأخرى والمخصوص بالمدح فى الآيتين ضمير سليمان وأيوب ، وتقديره : نعم العبد هو إنه أوّاب .

الرابع عشر
للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد

كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ ﴾[٤] ، على القول بأن « الله » فى موضع المفعول الثانى لـ «جعل» ، و «شركاء» مفعول أول ، ويكون «الجن» فى كلام ثان مقدر،

---

(١) هو أحمد بن على ، المعروف بابن الرفعة إمام الشافعية فى عصره . وانظر ترجمته فى طبقات الشافعية ٥ : ١٧٧ — ١٧٨

(٢) سورة الكهف ٨٥ ، ٨٦

(٣) سورة ص ٣٠ ، ٤٤

(٤) سورة الأنعام ١٠٠

كأنه قيل : فمن جعلوا شركاء ؟ قيل : الجن ؛ وهذا يقتضى وقوعَ الإنـكار على جعلهم « لله شركاء » على الإطلاق ، فيدخل مشركةُ غير الجنّ ولو أُخّر فقيل : وجعلوا الجنّ شركاء لله ، كان الجنّ مفعولا أولا ، وشركاء ثانيا ، فتكون الشركة مقيّدة غير مطلقة؛ لأنه جرى على الجنّ ، فيكون الإنكار توجه لجعل المشاركة للجن خاصة ، وليس كذلك وفيه زيادة سبقت .

الخامس عشر

للتنبيه على أن السبب مرتب

كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[1] قدّم الجباه ثم الجنوب ؛ لأن مانع الصدقة فى الدنيا كان يصرف وجهه أولا عن السائل ، ثم ينوء بجانبه ، ثم يتولّى بظهره .

السادس عشر

التنقل

وهو أنواع : إما من الأقرب إلى الأبعد ، كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[2] قدّم ذكر المخاطبين على من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾[3] ، لقصد الترقى .

---

(١) سورة التوبة ٣٥
(٢) سورة البقرة ٢١ ، ٢٢
(٣) سورة آل عمران ٥

وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾(١) .

وإمّا بالعكس كقوله فى أول الجاثية : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾(٢) .

وإما من الأعلى ، كقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾(٤) .

وإما من الأدنى ، كقوله : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٧) .

فإن قلت : لم لا اكتفى بنفى الأدنى ، ليُعلم منه نفيُ الأعلى بطريق الأولى ؟ قلت : جوابه ممّا سبق من التقديم بالزمان .

وكقوله : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ . . . ﴾(٨) الآية ، وبهذا يتبين فسادُ استدلال المعتزلة على تفضيل الملك على البشر بقوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ ﴾(٩) فإنّهم زعموا أنّ سياقها يقتضى الترقّى من الأدنى إلى الأعلى ، إذ لا يحسن أن يقال : لا يستنكف فلان عن خدمتك ، ولا مَنْ دونه بل ولا من فوقه .

وجوابه أن هؤلاء لمّا عبدوا المسيح ، واعتقدوا فيه الولَدِيّة لما فيه من القدرة على الخوارق

---

(١) سورة المؤمنون ٨٦
(٢) سورة الجاثية ٣ ، ٤
(٣) سورة آل عمران ١٨
(٤) سورة هود ٤٩
(٥) سورة التوبة ١٢١
(٦) سورة الكهف ٤٩
(٧) سورة البقرة ٢٥٥
(٨) سورة المدثر ٣١
(٩) سورة النساء ١٧٢

والمعجزات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص وغيره ؛ ولكونه خُلِق من غير تراب . والتزهيدُ فى الدنيا وغالب هذه الأمور هى للملائكة أتمّ ، وهم فيها أقوى ، فإن كانت هذه الصفات أوجبت عبادته ، فهو مع هذه الصفات لا يستنكف عن عبادة الله ، بل ولا مَنْ هو أكبر منه فى هذه الصفات ، للترقى من الأدنى إلى الأعلى فى المقصود ، ولم يلزم منه الشرف المطلق والفضيلة على المسيح .

السابع عشر
الترقى

كقوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا . . . ﴾[1] الآية ؛ فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقى ؛ لأن منفعة الرابع أهمّ من منفعة الثالث ، فهو أشرف منه ، ومنفعة الثالث أعمّ من منفعة الثانى ، ومنفعة الثانى أعم من منفعة الأول ، فهو أشرف منه .

وقد قُرِنَ السمع بالعقل ولم يقرَن به البصر فى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾[2] ، وما قُرِن بالأشرف كان أشرف ؛ وحكى ذلك عن على بن عيسى الربعىّ .

قال الشيخ أبو الفتح القُشَيْرِىّ :

فإن قيل : قد كان الأولى أن يقدّم الوصف الأعلى ، ثم ما دونه ، حتى ينتهىَ إلى أضعفها ؛ لأنّه إذا بدا بسلب الوصف الأعلى ، ثم بسلب ما دونه ، كان ذلك أبلغَ فى الذمّ ؛

(١) سورة الأعراف ١٩٥

(٢) سورة يونس ٤٢

لأنه لا يلزم من سلب الأعلى سلبُ ما دونه ، كما تقول : ليس زيد بسلطان ، ولا وزير ، ولا أمير ، ولا والٍ . والغرض من الآية المبالغة فى الذم .

قلت : ما ذكرته طريقة حسنة فى علم المعانى ، والمقصود من الآية طريقة أخرى، وهى أنه تعالى أثبت أنّ الأصنامَ التى تعبدها الكفار أمثالُ الكفار ، فى أنها مقهورة مربوبة ، ثم حطّها عن درجة المثلية بنفى هذه الصفات الثابتة للكفار عنها . وقد علمتَ أن المماثلةَ بين الذوات المتنائية إنما تكون باعتبار الصفات الجامعة بينها ؛ إذ هى أسباب فى ثبوت المماثلة بينهما ، وتَقْوَى المماثلة بقوة أسبابها ، وتضعف بضعفها ، فإذا سُلِب وصفٌ ثابت لإحدى الذاتين عن الأخرى انتفى وجه من المماثلة بينهما ، ثمّ إذا سُلب وصفٌ من الأول انتفى وجهٌ من المماثلة أقوى من الأول ، ثم لا يزال يسلب أسباب المماثلة ،أقواها فأقواها؛ حتى تنتفىَ المماثلة كلّها بهذا التدريج . وهذه الطريقة ألطف من سلب أسباب المماثلة ؛ أقواها ثم أضعفها فأضعفها .

الثامن عشر

مراعاة الإفراد

فإن المفرد سابقٌ على الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ ﴾(١) . وقوله : ﴿ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾(٢) ؛ ولهذا لما عَبّر عن المال بالجمع أُخِّر عن البنين فى قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الكهف ٤٦ (٢) سورة المؤمنون ٥٥

(٣) سورة آل عمران ١٤

ومنه تقديم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة ، فى قوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾(٢) .

التاسع عشر

التحذير منه والتنفير عنه

كقوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾(٣) ، قرن الزنى بالشرك وقدّمه .

وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾(٤) ، قدّمهن فى الذكر؛لأنّ المحنة بهن أعظم من المحنة بالأولاد ،وفى صحيح مسلم(٥):«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي [فى الناس](٦) فِتْنَةً أَضَرَّ على الرجال من النساء » . ومن الحكمة العظيمة أنه بدأ بذكر النساء فى الدنيا، وختم بـ«الحَرْثِ» وهما طرفان متشابهان، وفيهما الشهوة والمعاش الدنيوىّ، ولمّا ذكر بعد ذلك ما أعدّه للمتقين أخّر ذكر الأزواج كما يجب فى الترتيب الأخروىّ، وختم بالرضوان . وكم فى القرآن من مثل هذا العجب إذا حضر له الذهن، وفرغ له الفهم!

ومنه تقديم نفى الولَد على نفى الوالد ، فى قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾(٧) ؛ فإنه لما وقع فى الأول منازعة الكفرة وتقوّلهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه فى الذكر ، اعتناء به ، قبل التنزيه عن الوالد الذى لم ينازع فيه أحد من الأمم .

العشرون

التخويف منه

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(٨) ، ونظائره السابقة فى الثامن .

---

(١) سورة غافر ٢٨
(٢) سورة الأنبياء ٥٠
(٣) سورة النور ٣
(٤) سورة آل عمران ١٤
(٥) صحيح مسلم ٤ : ٢٩٨
(٦) تكملة من صحيح مسلم
(٧) سورة الإخلاص ٣
(٨) سورة هود ١٠٥

الحادى والعشرون

التعجيب من شأنه

كقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[1] .

قال الزمخشرى : قدم[2] الجبال على الطير ؛ لأن تسخيرَها له وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة ، وأدخل فى الإعجاز ؛ لأنها جماد ، والطير حيوان ناطق .

قال ابن النحاس[3] : وليس مراد الزمخشرى بـ « ناطق » ما يراد به فى حدّ الإنسان .

الثانى والعشرون

كونه أدلّ على القدرة

كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾[4] .

والثالث والعشرون

قصد الترتيب

كما فى آية الوضوء ، فإن إدخال المسح بين الغَسْلين ، وقطع النظر عن النظير مع مراعاة ذلك فى لسانهم ، دليل على قصد الترتيب .

---

(١) سورة الأنبياء ٧٩ (٢) الكشاف ٣ : ١٠١
(٣) لعله محمد بن إبراهيم بهاء الدين بن النحاس الحلبى شيخ الديار المصرية ، المتوفى سنة ٦٩٨ وانظر بغية الوعاة ٦ (٤) سورة النور ٤٥

وكذلك البداءة فى الصفا بالسعى . ومثله الكفارة المرتبة فى الظهار والقتل .

وهنا قاعدة ذكرها أصحابنا ، وهى أن الكفارة المرتبة بدأ الله فيها بالأغلظ ، والمخيّرة بدأ فيهـا بالأخفّ ، كما فى كفارة اليمين ، ولهذا حملوا آية المحاربة فى قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا . . . ﴾[1]،الآية على الترتيب لا التخيير ؛ لأنه بدأ فيها بالأغلظ طرداً للقاعدة ، خلافا لمالك حيث جعلهـا على التخيير .

الرابع والعشرون

خفة اللفظ

كما فى قولهم : ربيعة ومضر ؛مع أنّ مضر أشرفُ لكون النبىّ صلى الله عليه وسلم منهم، لأنهم لو قدّموا مُضرَ لَتوالَى حركات كثيرة ، وذلك يثقُل ، فإذا قدّموا ربيعة ووقفوا على مضر ، بسكون الراء ، نقص الثِّقَل لقلة الحركات المتوالية .

وقد يـكون تقديم الإنس على الجنّ من ذلك ؛ فالإنس أخفّ لـمكان النون والسين المهموسة .

الخامس والعشرون

رعاية الفواصل

كتأخير الغفور فى قوله : ﴿ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾[2]، وقوله ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[3]،

---

(١) سورة المائدة ٣٣
(٢) سورة الحج ٦٠
(٣) سورة مريم ٥٤

وإن كانت القاعدة فى علم البيان تأخيرَ ماهو الأبلغ، فإنه يقال: عالم نحرير، وشجاع باسل، وسَبَق له نظائر .

وكقوله : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾(١) ، ولو قال : صَلُّوه الجحيم لأفاد المعنى ، ولكن يفوت الجمع .

وقيل : فائدته الاختصاص .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٢) ، فقدم « إياه » على « تعبدون » لمشاكلة رءوس الآى .

تنبيه

قد يكون فى كلّ واحد مما ذكرنا من الأمثلة سببان فأكثر للتقديم، فإمّا أن يُعتقد إعادة الكلّ ، أو يرجح بعضها لكونه أهمّ فى ذلك المحلّ . وإن كانت الأخرى أهمّ فى محلٍّ آخر . وإذا تعارضت الأسباب رُوعى أقواها ، فإن تساوت كان المتكلم بالخيار فى تقديم أىّ الأمرين شاء .

النوع الثانى

مما قدم النية به التأخير

فمنه ما يدل على ذلك الإعراب ، كتقديم المفعول على الفاعل فى نحو قوله له: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(٣)، و ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ﴾(٤)، ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى

(١) سورة الحاقة ٣٠ ، ٣١

(٢) سورة النحل ١١٤

(٣) سورة فاطر ٢٨

(٤) سورة الحج ٣٧

﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾(١) .

ونحوه مما يجب فى الصناعة النحوية كذلك ، ولكن ذلك لقصد الحصر . كتقديم المفعول . كقوله : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾(٢) . ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾(٣) .

وكتقديم الخبر على المبتدأ فى قوله : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾(٤) ولو قال « وظنوا أنّ حصونهم مانعتهم » لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم .

وكذا : ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾(٥) ، ولو قال : « أأنت راغب عنها » ؟ما أفادت زيادة الإنكار على إبراهيم .

وكذلك : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٦) ولم يقل : « فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة » ، وكان يستغنى عن الضمير ، لأن هذا لا يفيد اختصاص الذين كفروا بالشخوص .

ومنه ما يدلّ على المعنى ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾(٧) ، قال البغوىّ : هذا أول القصة ، وإن كانت مؤخّرة فى التلاوة .

وقال الواحدى : كان الاختلاف فى القاتل قبل ذبح البقرة ، وإنما أُخّر فى الكلام لأنه سبحانه لما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ . . .﴾(٨) الآية عَلِم المخاطبون أنّ البقرة لا تُذبح إلا للدلالة على قاتلٍ خفيت عينه عليهم ، فلما استقرّ عِلْمُ هذا فى نفوسهم أتبع بقوله : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ على جهة التوكيد ، لا أنه عرّفهم الاختلاف فى القاتل بعد أن دلّهم على ذبح البقرة . وقيل : إنه من المؤخر الذى يراد به التقدم ،

(١) سورة البقرة ١٢٤
(٢) سورة الزمر ٦٤
(٣) سورة الزمر ١٤
(٤) سورة الحشر ٢
(٥) سورة مريم ٤٦
(٦) سورة الأنبياء ٩٧
(٧) سورة البقرة ٧٢
(٨) سورة البقرة ٦٧

وتأويله : وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فسألتم موسى فقال لكم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ .

وأما الزمخشرى ففى كلامه ما يدلّ على أن إيرادها إنما كان يتأتى على الوجه الواقع فى القرآن ، لمعنًى حسن لطيف استخرجه وأبداه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[1]، وأصل الكلام : « هواه إلٰهه » ، كما تقول : اتخذ الصنم معبوداً ، لكن قدّم المفعول الثانى على الأول للعناية ، كما تقول : علمت منطلقا زيداً ، لفضل عنايتك بانطلاقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ . . . ﴾[2] الآية ، أى أنزله قيّما ولم يجعل له عِوَجاً . قاله جماعة منهم الواحدى .

وردّه فخر الدين فى تفسيره بأن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا . قَيِّمًا ﴾[2]، معناه أنه كاملٌ فى ذاته ، وأن « قيّما » ، معناه أنه مكمّل لغيره ، وكونه كاملًا فى ذاته ، سابق على كونه مكمّلًا لغيره ؛ لأن معنى كونه « قيّما » أنه قائم بمصالح الغير . قال : فثبت بالبرهان العقلىّ أن الترتيبَ الصحيح ما ذكر فى الآية ، وما ذكر من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه . انتهى .

وهذا فهم عجيب من الإمام ، لأنّ القائل بالتقديم والتأخير لا يقول بأن كونه غير ذى عِوَج متأخر عن كونه « قيّما » فى المعنى ، وإنما الكلام فى ترتيب اللفظ لأجل الإعراب . وقد يكون أحد المعنيين ثابتا قبل الآخر ويذكر بعده .

وأيضاً فإن هذا البحث إنّما هو على تفسير القيم بالمستقيم ، فأما إذا فُسّر بالقيام على غيره فلا نسلّم أنّ القائل يقول بالتقديم والتأخير .

وهاهنا أمران :

* * *

(١) سورة الجاثية ٢٣ (٢) سورة الكهف ١ ، ٢

أحدها : أنّ الأظهر جَعْل هذه الجملة ـ أعنى قوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ ـ من جملة صلة « الذى » وتمامها ، وعلى[1] هذا لا موضعَ لها من الإعراب لوجهين[2] : أحدهما أنها فى حَيِّز الصلة ؛ لأنها معطوفة عليها . والثانى أنها اعتراض بين الحال وعاملها . ويجوز فى الجملة المذكورة أن يكون موضعها النصب ؛ على أنها حال من « الكتاب » ، والعامل فيها « أنزل » .

قاله جماعة ، وفيه نظر .

وأما قوله : « قَيِّمًا » فيجوز فى نصبه وجوه :

أحدها ـ وهو قول الأكثر ـ أنّه منصوب على الحال من « الكتاب » والعامل فيه « أنزل » ، وفى الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : « الحمد لله الَّذِى أنزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا » ، فتكون الجملة على هذا اعتراضاً .

والثانى أن يكون منصوبا بفعل مقدّر ، وتقديره : « ولكن جعله قيما » ، فيكون مفعولا للفعل المقدّر .

والثالث أن يكون حالًا من الضمير فى قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ، وتكون حالا مؤكدة .

واختار صاحبُ الكشاف أن يكون[3] « قَيِّمًا » مفعولا لفعل مقدّر كما ذكرناه ؛ لأن الجملة التى قبلها عنده معطوفة على الصلة ، و « قَيِّمًا » من تمام الصلة ، وإذا كان حالا يكون فيه فَصْلٌ بين بعض الصلة وتمامها ، فكان الأحسن جعلُه معمولا لمقدر .

وقال جماعة منهم ابن المنيّر فى تفسير البحر بعد نقله كلام الزمخشرى : وعجيب من كونه لم يجعل الفاصل المذكور حالا أيضاً ، ولا فصل ، بل هما حالان متواليان من شىء واحد ، والتقدير : أنزل الكتاب غير معوج .

---

(١) م : « وهذه » .

(٢) ت : « بوجهين » .

(٣) انظر الكشاف ٢ : ٥٤٨

وهذا القول ـ وهو جعل الجملة حالا ـ قد ذكره جماعة قبل ابن المنيّر . والظاهر أن الزمخشريَّ لم يرتض هذا القول ، لأنّ جَعْل الجملة حالا لا يفيده ما يفيد العطف ، من نفى العِوَج عن الكتاب مطلقا ، غير مقيد بالإنزال وهو المقصود . فالفائدة التى هى أتمّ إنما تكون على تقدير استقلال الجملة ، كيف والقول بالتقديم والتأخير منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما ! نقله الطبرى وغيره .

وقال الواحدىّ : هو قول جميع أهل اللغة والتفسير . والزمخشرى ربما لاحظ هذا المعنى ، ولم يمنع جواز غير ما قال ، لكنّ ما قال هو الأحسن .

وقال غير ابن المنيّر فى الاعتراض على الزمخشرىّ: إن الجملة وإن كانت مستقلّة فهى فى حيّز الصلة للعطف ، فلم يقع فصل ، ويؤيد ماذكره صاحب الكشاف أنّ بعضَ القراء يسكت عند قوله : « عِوَجًا » ويفصل بينه وبين « قيّما » بسكتة لطيفة، وهى رواية حفص عن عاصم ، وذلك يحتمل أن يكون لما ذكرنا من تقدير الفصل وانقطاع الكلام عمّا قبله.

قال ابن المنيّر : وتحتمل السكتة وجها آخر ، وهو أن يكون ذلك لرفع توهُّم أن يكون « قيما » نعتا للعوج ؛ لأن النكرة تستدعى النعت غالباً، وقد كثر فى كلامهم إيلاء النكرة الجامدة نعتَها ، كقوله : ﴿ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ﴾ ، و ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، فإذا وَلِىَ النكرة الجامدة اسم مشتق نكرة ظهر فيه معنى الوصف ، فربما خِيف اللبس فى جعل « قيّما » نعتا لـ « عِوَج » فوقع اللبس بهذه السكتة .

وهذا أيضا فيه نظر ، لأن ذلك إنما يتوهم فيما يصلح أن يكون وصفا ، ولا يصلح «قيما» أن يكون وصفا لـ «عوج» فإنّ الشىء لا يوصف بضده ؛ لأن العوج لا يكون قيما ، والأولى ما ذكرناه أولا .

* * *

الثانى : نقل الإمام عن بعضهم أن « قَيِّمًا » بدل من قوله : « عِوَجًا » ، وهو مُشْكِل ، لأنه لا يظهر له وجه .

* * *

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾(١) ، قيل : التقدير : لقد همّت به لولا أن رأى برهانَ ربه وهمّ بها . وهذا أحسن ؛ لـكن فى تأويله قَلَق ، ولا يُحتاج إلى هـذا التأويل إلّا على قول من قال : إنّ الصغائر يجوز وقوعها منهم .

وقوله : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾(٢) قيل : أصله : فبشرناها بإسحاق فضحكت . وقيل : ضحكت أى حاضت بعد الـكبَر عند البُشْرَى ، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(٣) ، قدّم على ما بعده ، وهو مؤخّر عنه فى المعنى ؛ لأنّ ذلك يحصل للتوافق .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾(٤) ، أى أحوى غثاء ، أى أخضر ، يميل إلى السواد ، والموجب لتأخير ﴿ أَحْوَى ﴾ رعاية الفواصل .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾(٥) ، قال ابن بَرْهان النحوى : أصله : ومن يبتغ دينا غير الإسلام .

وقوله : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾(٦) ، قال أبو عبيد : الغربيب : الشديد السواد ، ففى الـكلام تقديم وتأخير . وقال صاحب(٧) « العجائب والغرائب » : قال ابن عيسى :

---

(١) سورة يوسف ٢٤ (٢) سورة هود ٧١
(٣) سورة الـكهف ٧٩ (٤) سورة الأعلى ٥
(٥) سورة آل عمران ٨٥ (٦) سورة فاطر ٢٧
(٧) هو محمود بن حمزة الـكرمانى المعروف بتاج القراء ؛ قال صاحب كشف الظنون : « أورد بعض الوجوه فى الآية ، وذكر كل عجيب وغريب » .

الغريب: الذى لونه لون الغراب ، فصار كأنه غراب . قال : والغراب يكون أسودَ وغير أسود ، وعلى هذا فلا تقديم ولا تأخير فيه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾[1] على قول من يقول : إنّ الذّكر هنا القرآن .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾[2] .

وقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[3] .

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾[4] أى فعقروها ثم كذبوه فى عَقْرها وفى إجابتهم.

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾[5]، تقديره : ثم قضى أجلا وعندهُ أجل مسمى ، أى وقت مؤقت .

وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾[6] أى الأوثان من الرجس .

﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[7] ، أى يرهبون ربهم .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾[8] ، أى الذين هم حافظون لفروجهم .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾[9] أى مخلفَ رسله وعده .

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[10] ، أى بل الإنسان بصيرٌ على نفسه فى شهود جوارحه عليه .

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[11] ، خُلِق العجل من الإنسان .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾[12]،أى ولولا

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥
(٢) سورة النور ٢٧
(٣) سورة القمر ١
(٤) سورة الشمس ١٤
(٥) سورة الأنعام ٢
(٦) سورة الحج ٣٠
(٧) سورة الأعراف ١٥٤
(٨) سورة المؤمنون ٥
(٩) سورة إبراهيم ٤٧
(١٠) سورة القيامة ١٤
(١١) سورة الأنبياء ٣٧
(١٢) سورة طه ١٢٩

كلمة سبقت من ربك وأجل مسمًّى لـكان العذاب لازما لهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾(١) ، أى كيف مدّه ربك .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾(٢) أى لشديدٌ لحبّ الخير .

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾(٣) أى زيّن للمشركين شركاؤهم قتلَ أولادهم ؛ لأن الشياطين كانوا يحسّنون لهم قتل بناتهم خشية العار.

وقوله : ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾(٤).

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(٥) ، أى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذّبهم بها فى الآخرة .

وقوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾(٦) ، تقديره : مثل الذين كفروا بربهم كرماد اشتدت به الريح .

وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾(٧)، أى فأنا عدوّ آلهتهم وأصنامهم، وكلّ معبود يعبدونه من دون الله .

وقوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا ﴾(٨) ، أى فزعوا وأخذوا ، فلا فوت ، لأن الفوت يكون بعد الأخذ .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ﴾، يعنى القيامة .﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾(٩)؛

---

(١) سورة الفرقان ٤٥
(٢) سورة العاديات ٨
(٣) سورة الأنعام ١٣٧
(٤) سورة النساء ٨٣
(٥) سورة التوبة ٥٥
(٦) سورة إبراهيم ١٨
(٧) سورة الشعراء ٧٧
(٨) سورة سبأ ٥١
(٩) سورة الغاشية ١ ، ٢

وذلك يوم القيامة . ثم قال : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾(١) ، والنصب والعمل يكونان فى الدنيا ، فكأنه على التقديم والتأخير ، معناه : وجوه عاملة ناصبة ويوم القيامة خاشعة، والدليل عليه قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾(٣) ، تقديره : لَمَقْتُ الله إياكم فى الدنيا حين دعيتم إلا الإيمان فكفرتم ، ومقته إياكم اليوم أكبر من مقتكم أنفسكم إذ دُعِيتم إلى النار .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾(٤) ، لأن الفجرَ ليس له سواد ، والتقدير : حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الفجر من الخيط الأسود من الليل ؛ أى حتى يتبين لكم بياض الصبح من بقية سواد الليل .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ كأن لم تكن ﴾ منظوم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ﴾(٦) ، لأنه موضع الشماتة .

وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾(٧) ، أى اثنين إلٰهين، لأن اتخاذ اثنين يقع على ما يجوز وما لا يجوز ، و « إلٰهين » لا يقع إلا على ما لا يجوز، ف «إلٰهين» أخصّ ، فكان جعله صفة أوْلى .

---

(١) سورة الغاشية ٣
(٢) سورة الغاشية ٨
(٣) سورة غافر ١٠
(٤) سورة البقرة ١٨٧
(٥) سورة النساء ٧٣
(٦) من قوله تعالى فى سورة النساء ٧٢ : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ﴾ .
(٧) سورة النحل ٥١

النوع الثالث

ما قدّم فى آية وأُخّر فى أخرى

فمن ذلك قوله فى فاتحة الفاتحة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وفى خاتمة الجاثية ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ ﴾(١)، فتقديم « الحمد » فى الأول جاء على الأصل ، والثانى على تقدير الجواب ، فكأنه قيل عند وقوع الأمر : لمن الحمد ؟ ومَنْ أهله ؟ فجاء الجواب على ذلك ، نظيره : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(٢) .

وقوله فى سورة يس : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾(٣) ، قدّم المجرور على المرفوع ، لاشتمال ما قبلَه من سوء معاملة أصحاب القرية الرسل ، وإصرارهم على تكذيبهم ، فكان مظنّة التتابع على مجرى العبارة ، تلك القرية ، ويبقى مخيّلا فى فكره : أ كانت كلّها كذلك ، أم كان فيها . . .(٤) على خلاف ذلك ، بخلاف ما فى سورة القصص(٥) .

ومنها قوله فى سورة النمل : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾(٦) ، وفى سورة المؤمنين : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾(٧) ، فإنّ ما قبل الأولى ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ﴾(٨) ، وما قبل الثانية : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾(٩) ، فالجهة المنظور فيها هناك كون أنفسهم وآبائهم ترابًا ، والجهة المنظور فيها هنا كونهم ترابًا وعظاما ، ولا شبهة أنّ الأولى أدخَلُ عندهم فى تبعيد البعث .

---

(١) سورة الجاثية ٣٦
(٢) سورة غافر ١٦
(٣) سورة يس ٢٠
(٤) موضع النقط ثلاث كلمات غامضة غير واضحة
(٥) سورة القصص ٢٠ ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ... ﴾ .
(٦) سورة النمل ٦٨
(٧) سورة المؤمنون ٨٣
(٨) سورة النمل ٦٧
(٩) سورة المؤمنون ٨٢

ومنها قوله فى سورة المؤمنين : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١) ، فقدّم المجرور على الوصف ؛ لأنه لو أخبر عنه ـ وأنت تعلم أن تمام الوصف بتمام ما يدخل عليه الموصوف ، وتمامه : ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(١) ـ لاحتمل أن يكون من نعيم الدنيا. واشْتَبَهَ الأمر فى القائلين : أهم من قومه، أم لا؟ بخلاف قوله فى موضع آخر منها : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾(٢) ؛ فإنه جاء على الأصل .

ومنها قوله فى سورة طه : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٣) .

بخلاف قوله فى سورة الشعراء : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(٤) .

ومنها قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾(٥) ، وقال فى سورة الإسراء : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾(٦) ، قدم المخاطبين فى الأولى دون الثانية ، لأنّ الخطاب فى الأولى فى الفقراء ، بدليل قوله : ﴿ مِنْ إملاقٍ ﴾ ، فكان رزقهم عندهم أهمّ من رزق أولادهم ، فقدّم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، والخطاب فى الثانية للأغنياء ؛ بدليل ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ فإنّ الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رزق أولادهم هو المطلوب ، دون رزقهم ، لأنّه حاصل ، فكان أهمّ ، فقدّم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم .

ومنها ذكر الله فى أواخر سورة الملائكة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٧)، فقدّم ذكر السموات؛ لأن معلوماتها أكثر ، فكان تقديمها أدلّ على صفة العالمية ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ(٨) فبدأ بذكر الأرض ، لأنه فى

---

(١) سورة المؤمنون ٣٣
(٢) سورة المؤمنين ٢٤
(٣) سورة طه ٧٠
(٤) سورة الشعراء ٤٨
(٥) سورة الأنعام ١٥١
(٦) سورة الإسراء ٣١
(٧) سورة فاطر ٣٨
(٨) سورة فاطر ٤٠

سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة ، وأمرُ الأرضِ فى ذلك أيسرُ من السماء بكثير ؛ فبدأ بالأرض مبالغة فى بيان عجزهم ؛ لأن مَنْ عجزعن أيسر الأمرين كان عن أعظمهما أعجز، ثم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾(١) ، فقدّم السموات تنبيها على عِظَم قدرته سبحانه ؛ لأنّ خَلْقها أكبرُ من خَلْق الأرض ، كما صُرّح به فى سورة المؤمن(٢) ؛ ومَنْ قَدَر على إمساك الأعظم كان على إمساك الأصغر أقدر .

فإن قلت : فهلّا اكتفى من ذكر الأرض بهذا التنبيه البيّن ، الذى لا يَشُكّ فيه أحد !

قلت : أراد ذكرها مطابقة ؛ لأنه على كلّ حال أظهرُ وأبيَن ؛ فانظر أيها العاقل حكمة القرآن ، وما أُودِعَه من البيان والتبيان ، تحمد عاقبة النظر ، وتنتظر خير مُنْتظر !

* * *

ومن أنواعه أن يقدم اللفظ فى الآية ويتأخر فيها ؛ لقصد أن يقع البداءة والختم به ، للاعتناء بشأنه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ... ﴾(٤) إلى قوله: ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾(٤) .

وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(٥) فإنه لولا ما أسلفناه ، لقيل : ما تكتمون وتبدون ؛ لأنّ الوصف بعلمه

(١) سورة فاطر ٤١ (٢) وهو قوله تعالى فى الآية ٥٧ ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ .

(٣) سورة آل عمران ١٠٦ (٤) سورة الجمعة ١١

(٥) سورة البقرة ٣٣

أمدَح ، كما قيل : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾[1] ، و ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[2] ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[3] .

فإن قلت : فقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[4] .

قلت لأجْلِ تناسب رءوس الآى .

ومنها أن يقع التقديم فى موضع والتأخير فى آخر ، واللفظ واحد ، والقصة واحدة ؛ للتفنن فى الفصاحة ، وإخراج الكلام على عدة أساليب ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾[5]، وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ﴾[6] .

وقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾[7] ، وقوله : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾[8] ، قال الزمخشرىّ فى كشافه القديم : عُلِم بذلك أنّ كلا الطريقين داخل تحت الْحُسْن ؛ وذلك لأنّ العطف فى المختلفين ، كالتثنية فى المتفقين ، فلا عليك أن تقدّم أيّهما شئت ، فإنه حسن مؤدّ إلى الغرض . وقد قال سيبويه : ولم يجعل الرجل منزلة بتقديمك إياه ، بكونه أوْلى بها من الجائى ؛ كأنك قلت : مررت بهما ، يعنى فى قولك : مررت برجل وجاءنى ، إلّا أن الأحسن تقديم الأفضل ، فالقلب رئيس الأعضاء ، والمضغة لها الشأن ، ثم السمع طريق إدراك وحى الله ، وكلامه الذى قامت به السماوات والأرض ، وسائر العلوم التى هى الحياة كلها .

قلت : وقد سبق توجيه كل موضع بما ورد فيه من الحكمة .

---

(١) سورة الأنعام ٣
(٢) سورة الرعد ٩
(٣) سورة النحل ١٩
(٤) سورة طه ٧
(٥ سورة البقرة ٥٨
(٦) سورة الأعراف ١٦١
(٧) سورة البقرة ٧
(٨) سورة الجاثية ٢٣

القلب *

وفى كونه من أساليب البلاغة خلاف ، فأنكره جماعة ، منهم حازم فى كتاب « منهاج البلغاء » وقال : إنه مما يجب أن ينزّه كتاب الله عنه ؛ لأن العربَ إن صدر ذلك منهم فبقصد العَبث أو التهكّم أو المحاكاة أو حال اضطرار ، والله منزّه عن ذلك .

وقبله جماعة مطلقا ، بشرط عدم اللّبس كما قاله[1] المبرّد فى كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » .

وفصّل آخرون بين أن يتضمن اعتبارا لطيفا ، فبليغ وإلا فلا ؛ ولهذا قال ابن الضائع: يجوز القلب على التأويل ، ثم قد يَقْرُبُ التأويل فيصحّ فى فصيح الكلام ، وقد يبعد فيختص بالشعر .

وهو أنواع :

أحدها

قلب الإسناد

وهو أن يشمل الإسنادَ إلى شىء والمراد غيره ، كقوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[2] ، إن لم تجعل الباء للتعدية ؛ لأن ظاهره أن المفاتح تنوء بالعصبة ، ومعناه أنّ العصبة تنوء بالمفاتح لثقلها ، فأسند «لتنوء» إلى «المفاتح» ، والمراد إسناده إلى العصبة

---

* هو الأسلوب الرابع من الأساليب ، التى أوردها المؤلف؛ والأول أسلوب التوكيد فى الجزء الثانى ص ٣٨٤ وما بعدها، والثانى فى هذا الجزء ص ١٠٢ وما بعدها . والثالث أسلوب التقديم والتأخير فى هذا الجزء ص ٢٢٣ وما بعدها .

(١) ص ٣٨ ، وعبارته : « ويقولون : أدخلت القلنسوة فى رأسى، وأدخلت الخف فى رجلى؛ وإنما يكون هذا فيما لا يكون فيه لبس ولا إشكال » . (٢) سورة القصص ٧٦

لأن الباء للحال والعُصْبة مستصحبة المفاتح ، لا تستصحبها المفاتح . وفائدته المبالغة ، بجعل المفاتح كأنها مستتبعة للعُصْبة القوية بثقلها .

وقيل : لا قَلْبَ فيه ، والمراد ـ والله أعلم ـ أنّ المفاتح تنوء بالعصبة ، أى تُميلها من ثقلها . وقد ذكر هذا الفرّاء وغيره .

وقال ابن عصفور : والصحيح ما ذهب إليه الفارسىّ أنّها بالنقل ولا قلب ، والفعل غير متعدٍّ ، فصار متعدّياً بالباء ، لأن « ناء » غير متعدّ، يقال: ناءالنجم،أى نهض،ويقال: ناء ، أى مال للسقوط . فإذا نقلت الفعل بالباء قلت: نؤت به، أى أنهضته وأملته للسقوط، فقوله : ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾، أى تميلها المفاتح للسقوط لثقلها .

قال : وإنما كان مذهب الفارسىّ أصحّ ، لأن نقل الفعل غير المتعدى بالباء مَقيس ، والقلب غيرُ مقيس ، فحمْل الآية على ما هو مَقِيس أوْلى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(١) ، أى خُلِق العجل من الإنسان. قاله ثعلب وابن السكيت .

قال الزجّاج : ويدلّ على ذلك : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾(٢) .

قال ابن جنّى : والأحسن أن يكون تقديره : خُلق الإنسان من العجلة، لكثرة فعله إياه ، واعتماده له ، وهو أقوى فى المعنى من القلب ، لأنه أمر قد اطّرد واتسع ، فحمْله على القلب يبعد فى الصنعة ، ويضعف المعنى .

ولَمّا خفى هذا على بعضهم قال: إنّ العجَل هاهنا الطين ، قال : ولَعَمْرى إنه فى اللغة كما ذكر ، غير أنه ليس هنا إلا نفس العجل ، ألا ترى إلى قوله عقبه : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾(٣) ، ونظيره قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾(٤)، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ

(١) سورة الأنبياء ٣٧
(٢) سورة الإسراء ١١
(٣) سورة الأنبياء ٣٧
(٤) سورة الإسراء ١١

ضَعِيفًا ﴾[١] لأن العجلة ضرب من الضعف، لِمَا تؤذن به الضرورة والحاجة.

وقيل فى قوله: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾[٢]، أى إنه من المقلوب، وأنه ﴿ وجاءت سكرة الحق بالموت ﴾، وهكذا فى قراءة أبى بكر[٣].

ومثله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[٤]، قال الفراء: أى لكل أمرٍ كتبه الله أجل مؤجّل.

وقيل فى قوله: ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾[٥]: هو من المقلوب، أى يريد بك الخير، ويقال: أراده بالخير وأراد به الخير.

وجعل ابن الضائع منه: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾[٦]، قال: فآدم صلوات الله على نبينا وعليه هو المتلقّى للكلمات حقيقة، ويقرب أن ينسب التلقى للكلمات؛ لأن مَنْ تلقّى شيئا، أو طلب أن يتلقّاه فلقيَه كان الآخر أيضا قد طلب ذلك؛ لأنه قد لقيه، قال: ولقرب هذا المعنى قرئ بالقلب[٧].

وجعل الفارسىّ منه قوله تعالى: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾[٨]، أى فعميتم عليها.

وقوله: ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾[٩].

وقوله: ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾[١٠]، ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾[١١]، أى بلغت الكبر.

وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾[١٢]، وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي

(١) سورة النساء ٢٨ (٢) سورة ق ١٩
(٣) وهى أيضا قراءة ابن مسعود؛ على إضافة السكرة إلى الحق. وانظر الكشاف ٤: ٣٠٦
(٤) سورة الرعد ٣٨ (٥) سورة يونس ١٠٧
(٦) سورة البقرة ٣٧ (٧) أى بنصب آدم ورفع الكلمات؛ وهى قراءة ابن كثير. وانظر تفسير القرطبى ١: ٣٢٦
(٨) سورة هود ٢٨. قال الزمخشرى: ومعنى «عُمِّيَتْ» خفيت. وقرئ: ﴿فَعَمِيَتْ﴾، بمعنى أخفيت، وفى قراءة أبىّ ﴿فعمّاها عليكم﴾
(٩) سورة يونس ٢٤ (١٠) سورة مريم ٨
(١١) سورة آل عمران ٤٠ (١٢) سورة الجاثية ٢٣

إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[1] ؛ فإن الأصنام لا تعادى ، وإنما المعنى : فإنى عدوّ لهم ؛ مشتقّ من عدوت الشىء ، إذا جاوزتَه وخلفته ، وهذا لا يكون إلا فيمن له إرادة، وأمّا «عاديته» ففاعلة لا يكون إلا من اثنين .

وجعل منه بعضهم : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2] ، أى إنّ حبّه للخير لشديد .

وقيل : ليس منه ، لأنّ المقصود منه أنه لحبّ المال لَبخيل،والشدة:البخل،أى من أجل حبّه للمال يبخل .

وجعل الزمخشرىّ منه قوله تعالى :﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[3]، كقوله : عرضت النّاقة على الحوض ، لأنّ المعروض ليس له اختيار ، وإنما الاختيار للمعروض عليه ؛ فإنّه قد يفعل ويريد ؛ وعلى هذا فلا قلب فى الآية؛ لأنّ الكفار مقهورون فكأنهم لا اختيار لهم ، والنار متصرفة فيهم ، وهو كالمتاع الذى يقرب منه مَنْ يعرض عليه، كما قالوا : عرضت الجارية على البيع .

وقوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾[4] ، ومعلوم أنّ التحريم لا يقع إلا على المكلّف ، فالمعنى : وحرّمنا على المراضع أن ترضعه . ووجه تحريم إرضاعه عليهنّ ألّا يقبل إرضاعهنّ حتى يردّ إلى أمّه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾[5] ، وقيل : الأصل وما تخدعهم إلّا أنفسهم ، لأنّ الأنفسَ هى الخادعة والمسوِّلة ، قال تعالى : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾[6] .

ورُدَّ بأن الفاعل فى مثل هذا هو المفعول فى المعنى ، وأنّ التغاير فى اللفظ فقط،فعلى هذا يصحّ إسناد الفعل إلى كلٍّ منهما ؛ ولا حاجة إلى القلب .

---

(١) سورة الشعراء ٧٧ (٢) سورة العاديات ٨

(٣) سورة الأحقاف ٢٠، وانظر الكشاف ٤ : ٢٤٢ (٤) سورة القصص ١٢

(٥) سورة البقرة ٩ ، وهى قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو. (٦) سورة يوسف ١٨

الثـــانى

قلب المعطوف

إما بأن تجعل المعطوفَ عليه معطوفا والمعطوف معطوفا عليه ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾[1] ، حقيقته : فانظر ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم ، لأنَّ نظره ما يرجعون من القول غير متأتٍّ مع تولّيه عنهم . وما يفسّر به التولّى من أنه يتوارى فى الكوّة التى أُلقِىَ منها الكتاب مجاز والحقيقة راجحة عليه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾[2] ، أى تدلّى فدنا ؛ لأنه بالتدلّى ، نال الدنوّ والقرب إلى المنزلة الرفيعة وإلى المكانة ، لا إلى المكان .

وقيل : لاقلب ، والمعنى : ثم أراد الدنوّ ، وفى صحيح البخارى[3] : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ ﴾[4] ، المعنى فإذا استعذت فاقرأ .

وقوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾[5]، وقال صاحب الإيضاح: لا قلب فيه ؛ لعدم تضمّنه اعتبارا لطيفا .

وردّ بتضمنه المبالغة فى شدة سَوْرة البأس ؛ يعنى هلكت بمجرد توجّه الناس إليها ، ثم جاءها .

الثالث

العكس

العكس ؛ وهو أمر لفظىّ ، كقوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة النمل ٢٨
(٢) سورة النجم ٨
(٣) كتاب التفسير ، سورة النحل ٣ : ١٤٨
(٤) سورة النحل ٩٨
(٥) سورة الأعراف ٤
(٦) سورة الأنعام ٥٢

وقوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[١] .
﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ولَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[٢] .
﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[٣] .

الرابع

المستوى

وهو أنّ الكلمة أو الكلمات تقرأ من أوّلها إلى آخرها ، ومن آخرها إلى أوّلها ، لا يختلف لفظها ولا معناها ، كقوله : وَ ﴿ رَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[٤] .
﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾[٥] .

الخامس

مقلوب البعض

وهو أن تكون الكلمة الثانية مركبة من حروف الكلمة الأولى ، مع بقاء بعض حروف الكلمة الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٦] ، فَ « بَنِي » مركّب من حروف « بين » وهو مفرّق ، إلا أن الباقي بعضها في الكلمتين ، وهو أولها .

---

(١) سورة البقرة ١٨٨
(٢) سورة الممتحنة ١٠
(٣) سورة الحج ٦١
(٤) سورة طه ٩٤
(٥) سورة الأنبياء ٣٣
(٦) سورة طه ٩٤

المدرج

هذا النوع سميته بهذه التسمية ، بنظير المُدْرَج من الحديث[1] ، وحقيقته فى أسلوب القرآن أن تجيء الكلمة إلى جنب أخرى كأنها فى الظاهر معها ، وهى فى الحقيقة غير متعلّقة بها ، كقوله تعالى ذاكرا عن بلقيس : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[2] ، هو من قول الله لا من قول المرأة .

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾[3] . انتهى قول المرأة[4] ، ثم قال يوسف عليه السلام : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾[5] ، معناه ليعلم الملك أنى لم أخنه .

ومنه : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[6] ، تم الكلام ، فقالت الملائكة : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[6] .

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[7] فهذه صفه لأتقياء المؤمنين ، ثم قال: ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ﴾[8] ، فهذا يرجع إلى كفار مكة تمدهم إخوانهم من الشياطين فى الغيّ .

(١) المدرج من الحديث كما فى كتب المصطلح: أن تزاد لفظة فى متن الحديث من كلام الراوى، فيحسبها من يسمعها مرفوعة فى الحديث فيرويها كذلك . وانظر الباعث الحثيث ٨٠

(٢) سورة النمل ٣٤ (٣) سورة يوسف ٥١

(٤) كذا فى الأصول ؛ والحقيقة أن قول المرأة ينتهى عند قوله تعالى حكاية عنها : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آية ٥٣ .

(٥) سورة يوسف ٥٢ ؛ وهو من قول المرأة . (٦) سورة يس ٥٢

(٧) سورة الأعرالأعراف ٢٠١ (٨) سورة الأعراف ٢٠٢

وقوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴾(١) ، ثم أخبر عن فرعون متصلا: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

وقوله: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾(٢)، فالظاهر أنّ الكلام كلّه من كلام الزبانية ، والأمر ليس كذلك .

وقوله : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(٣) من كلامه تعالى، وقال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الشعراء ٣٥
(٢) سورة ص ٥٩
(٣) سورة الصافات ٨٤
(٤) سورة الشعراء ٨٩

الترقّى

كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[١] ، ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾[٢]

فإن قيل : فقد ورد : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[٣] ، والغالب أن يقدّم فيه القليل على الكثير ؛ مع أن الظّلم منع للحق من أصله ، والهضم مَنْعٌ له مِنْ وجه كالتطفيف ؛ فكان يناسبه[٤] تقديم الهضم .

قلت : لأجل فواصل الآى ؛ فإنه تقدم قبله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾[٥] ، فعدَل عنه فى الثانى ، كيلا يكون أبطأ ، وقد سبقت أمثلة الترقّى فى أسباب التقديم .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٥
(٢) سورة الكهف ٤٩
(٣) سورة طه ١١٢
(٤) م : « قياسه » .
(٥) سورة طه ١١١

الاقتصاص

ذكره أبو الحسين بن فارس[1]، وهو أن يكون كلام في سورة مقتصًا من كلام في سورة أخرى، أو في السورة نفسها، ومثّله بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، والآخرة دار ثواب لا عمل فيها، فهذا مقتصٌّ من قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[4]، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[5].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾[6].

فأما قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[7]، فيقال: إنها مقتصّة من أربع آيات؛ لأنّ الأشهاد أربعة:

الملائكة عليهم السلام في قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[8].

والأنبياء عليهم السلام لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[9]

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[10].

---

(١) الصاحبي ٢٠١
(٢) سورة العنكبوت ٢٧
(٣) سورة طه ٨٥
(٤) سورة الصافات ٥٧
(٥) سورة الروم ١٦
(٦) سورة مريم ٦٨
(٧) سورة غافر ٥١
(٨) سورة ق ٢١
(٩) سورة النساء ٤١
(١٠) سورة البقرة ١٤٣

والأعضاء لقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾[2]، وقرئت مخففة ومثقلة[3]، فمن شدد فهو من « ندّ » إذا نفر ؛ وهو مقتصّ من قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . . ﴾[4] الآية[5]، ومن خفّف فهو تفاعل من النداء ، مقتصّ من قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾[6] .

---

(١) سورة النور ٢٤
(٢) سورة غافر ٣٢
(٣) الصاحبي : « مشددة » .
(٤) سورة عبس ٣٤
(٥) الصاحبي : « إلى آخر القصة » .
(٦) سورة الأعراف ٤٤ ، وبعدها في الصاحبي ﴿ ونَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ ، ﴿ ونَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ ﴾ ، وما أشبه هذا من الآى التي فيها ذكر النداء .

الألغاز

واللّغز الطريق المنحرف ، سُمّى به لانحرافه عن نَمَط ظاهر الكلام ؛ ويسمّى أيضا أحجيّة ؛ لأنّ الحِجَى هو العقل ؛ وهذا النوع يقوّى العقل عند التمرّن والارتماض بحَلّه والفكر فيه .

وذكر بعضهم أنه وقع فى القرآن العظيم ، وجعل منه ما جاء فى أوائل السُّوَر من الحروف المفردة والمركّبة التى جهل معناها ، وحارت العقول فى منتهاها .

ومنه قوله تعالى فى قصة إبراهيم للسائل عن كسر الأصنام، وقيل له : أنت فعلته ؛ فقال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[1] ، قابلهم بهذه المعارضة ليقيم عليهم الحجة ، ويوضّح لهم المحجة.

وكذلك قول نمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[2] ، أتى باثنين فقتل أحدهما، وأرسل الآخر ، فإن هذا مغالطة .

---

(١) سورة الأنبياء ٦٣

(٢) سورة البقرة ٢٥٨

الاستطراد

وهو التعريض بعيب إنسان بذكر عيب غيره ، كقوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾[1] .

وكقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2]

وقوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[3] .

---

(١) سورة إبراهيم ٤٥
(٢) سورة فصلت ١٣
(٣) سورة هود ٩٥

الترديد

وهو أن يعلّق المتكلم لفظة من الكلام ثم يردّها بعينها، ويعلّقها بمعنى آخر، كقوله: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ . . . ﴾[1] ، الآية ؛ فإنّ الأول مضاف إليه ، والثانى مبتدأ .

وقوله : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] .

وقوله : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ ﴾[3] .

وقد يحذف أحدها ويضمر ، أولا يلاحظ[4] ،على الخلاف فى قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤
(٢) سورة الروم ٦ ، ٧
(٣) سورة التوبة ١٠٨
(٤) ت « لايلحظ » .
(٥) سورة البقرة ٢

التغليب

وحقيقته إعطاء الشيء حكم غيره . وقيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر ، أو إطلاق لفظة عليهما ؛ إجراء للمختلفين مجرى المتفقين .

وهو أنواع :

الأول
تغليب المذكر

كقوله تعالى : ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾(١) غلّب المذكر ؛ لأن الواو جامعة ؛ لأن لفظ الفعل مقتض(٢) ، ولو أردت العطف امتنع .

وقوله : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴾(٤) ، والأصل « من القانتات والغابرات » فعُدّت الأنثى من المذكّر بحكم التغليب .

هكذا قالوا ؛ وهو عجيب ؛ فإنّ العرب تقول : نحن من بني فلان ؛ لا تريد إلّا موالاتهم ، والتصويب لطريقتهم ؛ وفي الحديث الصحيح في الأشعريين : « هم مني وأنا منهم » فقوله سبحانه : ﴿ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ﴾ ولم يقل : « من القانتات » ؛ إيذانا بأنْ وَضَعها في العُبَّاد جدّا واجتهادا ، وعلما وتبصُّرا ورفعة من الله لدرجاتها في أوصاف الرجال القانتين وطريقهم .

ونظيره ، ولكن بالعكس قولُ عُقْبة بن أبي معيط لأمّية بن خلَف لما أجْمَع القعود

(١) سورة القيامة ٩
(٢) ت « يقتضى » .
(٣) سورة التحريم ١٢
(٤) سورة الأعراف ٨٣

عن وقعة بدر ؛ لأنه كان شيخا فجاء بمجمرة ، فقال : يا أبا علىّ استجمر ، فإنما أنت من النساء ؛ فقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ! ثم تجهّز .

ونازع بعضُهم فى ذلك من وجه آخر ، فقال : يحتمل ألّا يكون « من » للتبعيض بل لابتداء الغاية ، أى كانت ناشئة من القوم القانتين ، لأنها من أعقاب ، هارون أخى موسى عليه السلام .

الثانى

تغليب المتكلم على المخاطب والمخاطب على الغائب

فيقال : أنا وزيد فعلنا ، وأنت وزيد تفعلان . ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1] ، بتاء الخطاب ، غلّب جانب « أنتم » على جانب « قوم » ، والقياس أن يجىء بالياء ؛ لأنه وصف القوم ، وقوم اسم غيبة ، ولكن حَسُن آخر الخطاب ، وصفا لـ « قوم » لوقوعه خبرا عن ضمير المخاطبين . قاله ابن الشجرى .

ولو قيل : إنه حال لـ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾[2] ، لأنّ فى الضمير الخطاب معنى الإشارة لملازمته لها ، أو لمعناها لكان متجها وإن لم تساعده الصناعة ، لكن يبعده أن المراد وصفهم بجهل مستمر ، لا مخصوص بحال الخطاب ، ولم يقلْ « جاهلون » ، إيذانًا بأنهم يتجددون عند كل مصيبة لطلب آيات جهلهم .

وقال أبو البركات بن الأنبارى : ولو قيل : إنما قال : ﴿ تجهلون ﴾ بالتاء ـ لأن « قوم » هو « أنتم » فى المعنى فلذلك ، قال : « تجهلون » حملا على المعنى ـ لكان حسنا ، ونظيره قوله :

* أنا الذى سمّتنِى أمّى حيدَرَهْ[3] *

---

(١) سورة النمل ٥٥ (٢) سورة النمل ٥٢

(٣) من رجز لعلى بن أبى طالب ؛ أنشده حين برز للقتال يوم خيبر وبقيته .

لَيْثُ غابٍ كَرِيهُ الْمَنْظَرَهْ أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

وانظر الرياض النضرة ٢ : ١٨٦

بالياء حملا على « أنا » لأن « الذى » هو « أنا » فى المعنى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾(١) ، غلّب فيه جانب « أنت » على جانب « مَنْ » فأسند إليه الفعل ، وكان تقديره : فاستقيموا ، فغلّب الخطاب على الغيبة ، لأن حرف العطف فصل بين المسنَد إليهم الفعل ، فصار كما ترى . قال صاحب الكشاف : تقديره(٢) : فاستقم كما أمرت وليستقم كذلك من تاب معك .

وما قلنا أقل تقديرا من هذا فاختر أيّهما شئت .

وقوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾(٣) ، فأعاد الضمير بلفظ الخطاب ، وإن كان « من تبعك » يقتضى الغيبة ، تغليبا للمخاطب وجعل الغائب تبعا له ، كما كان تبعا له فى المعصية والعقوبة ، فحسن أن يُجعل تبعا له فى اللفظ ، وهو من محاسن ارتباط اللفظ بالمعنى .

وكقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٤) ، فإنّ الخطاب فى ﴿ لعلكم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ خلقكم ﴾ لا بقوله : ﴿ اعبدوا ﴾ حتى يختص بالناس المخاطبين ، إذ لا معنى لقوله : « اعبدوا لعلكم تتقون » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٥) ، فيمن قرأ بالتاء . ويجوز أن يكون المراد : « ما تعملون » الخلق كلهم ، والمخاطب النبى صلى الله عليه وسلم وكلّ سامع أبدا ، فيكون تغليبا ، ولا يجوز أن يعتبر خطاب من سواه بدونه من غير اعتبار التغليب ، لامتنان أن يخاطب فى كلام واحد اثنان أو أكثر من غير عطف أو تثنية أو جمع .

ومنه قوله تعالى(٦) . . . .

---

(١) سورة هود ١١٢

(٢) الكشاف ٢ : ٣٢٨ ؛ مع تغيير فى العبارة .

(٣) سورة الإسراء ٦٣

(٤) سورة البقرة ٢١

(٥) سورة هود ١٢٣

(٦) كذا فى الأصول .

الثالث

تغليب العاقل على غير

بأن يتقدم لفظ يعم مَنْ يعقل ومَنْ لا يعقل ، فيُطلَق اللفظ المختصّ بالعاقل على الجميع، كما تقول : « خَلق الله الناس والأنعام ورزقهم » ، فإن لفظ « هم » مختصّ بالعقلاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِنْ مَاء ﴾[1] ، لمّا تقدم لفظُ الدابة ، والمراد بها عموم مَنْ يعقل ومَنْ لا يعقل غلّب من يعقل ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى ﴾[1] .

فإن قيل : هذا صحيح فى « فَمِنْهُمْ » لأنّه لمن يعقل ؛ وهو راجع إلى الجميع ، فلم قال: « مَنْ » وهو لا يقع على العامّ ، بل خاصّ بالعاقل ؟

قلت : « مَنْ » هنا بعض « هُمْ » ، وهو ضمير من يعقل .

فإن قلت : فكيف يقع على بعضه لفظ ما لا يعقل ؟

قلت : مَنْ هنا قال أبو عثمان : إنه تغليبٌ من غير عموم لفظ متقدّم ، فهو بمنزله من يقول : رأيت ثلاثة : زيداً وعمراً وحماراً .

وقال ابن الضائع : « هُمْ » لا تقع إلا على مَنْ يعقل ، فلما أعاد الضمير على كل دابة غلّب مَنْ يعقل ، فقال: «هم » ، و«مَنْ» بعضُ هذا الضمير ؛ وهو للعاقل، فلزم أن يقول « مَنْ » فلما قال : بوقوع التغليب فى الضمير ، صار ما يقع عليه حكمه حُكْمَ العاقلين ؛ فتمّم ذلك بأن أوقع « منْ » .

وقوله تعالى حاكياً عن السماء والأرض: ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] ، إنما جمعهما جمع

---

(١) سورة النور ٤٥ (٢) سورة فصلت ١١

السلامة ، ولم يقل « طائعَيْن » ولا « طائعات » ، لأنه أراد: ائتيا بمن فيكم من الخلائق طائعين ، فخرجت الحال على لفظ الجمع ، وغلّب مَنْ يعقل من الذكور .

وقال بعض النحويين : لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذكورَ من بني آدم . وإنما قال : « طائعين » ولم يقل : « مطيعين »، لأنه من طِعنا أي انقَدْنا ، وليس من أطَعْنا ؛ يقال : طاعت الناقة تطُوع طوعا ، إذا انقادت .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(١) ، قيل :أوقع «ما» لأنها تقع على أنواع مَنْ يَعْقل؛لأنه إذا اجتمع من يعقل ومالا يعقل فغلّب مالا يعقل؛ كان الأمر بالعكس ؛ ويناقضه : ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾(١) .

وقال الزمخشري : جاء بـ « مَا » تحقيراً لشأنهم وتصغيراً ، قال : « له قانتون » تعظيم .

وردّ عليه ابن الضائع بصحة وقوعها على الله عز وجل ، قال : وهذا غاية الخطأ ؛

وقوله في دعاء الأصنام : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾(٢) .

وقوله : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾(٣) .

وأما قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾(٤)، وقوله: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٥) ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾(٦) .

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾(٧) . ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾(٨) . ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾(٩)

---

(١) سورة البقرة ١١٦
(٢) سورة الشعراء ٧٢
(٣) سورة فصلت ٢١
(٤) سورة الشعراء ٤
(٥) سورة يس ٤٠
(٦) سورة الأنبياء ٦٥
(٧) سورة يوسف ٤
(٨) سورة الأنبياء ٩٩
(٩) سورة النمل ١٨

لما أخبر عنها بأخبار الآدميين جرى ضميرها على حدّ مَنْ يعقل ، وكذا البواقى .

فإن قيل : فقد غلّب غير العاقل على العاقل فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾[1] فإنه لو غلّب العاقل على غير العاقل لأتى بـ « مَن » .

فالجواب أنّ هذا الموضع غلّب فيه من يعقل، وعبّر عن ذلك بـ « ما » ، لأنها واقعة على أجناس مَنْ يعقل خاصة ، كهذه الآية .

قوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾[2] ، ولم يقل « ومَنْ فيهن » قيل : لأن كلمة « ما » تتناول الأجناس كلّها تناولا عاما بأصل الوضع ، و « من » لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع ، فكان استعمال « ما » هنا أولى .

وقد يجتمع فى لفظ واحد تغليب المخاطب على الغائب ، والعقلاء على غيرهم، كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾[3]، أى خلق لكم أيها الناس مِنْ جنسكم ذكوراً وإناثا ، وخلق الأنعام أيضاًمن أنفسهاذكوراً وإناثاً، يذرؤكم ، أى ينبثكم ويكثركم أيها الناس والأنعام ، فى هذا التدبير والجعْل ، فهو خطاب للجميع ؛ للناس المخاطبين وللأنعام المذكورة بلفظ الغيبة ، ففيه تغليب المخاطب على الغائب ، وإلا لما صحّ ذكر الجميع – أعنى الناس والأنعام – بطريق الخطاب ؛ لأن الأنعام غيب ، و [فيه] تغليب العقلاء على غيرهم ؛ وإلّا لما صح خطاب الجمع بلفظ « كم »المختص بالعقلاء ، ففى لفظ « كم » تغليبان ، ولولا التغليب لكان القياس أن يقال: يذرؤكم وإياها. هكذا قرره السكاكىّ والزمخشرىّ .

ونوزعا فيه ؛ بأن جَعْل الخطاب شاملا للأنعام تكلّف لا حاجة إليه ؛ لأن الغرض إظهار القدرة وبيان الألطاف فى حق الناس ؛ فالخطاب مختص بهم ، والمعنى : يكثركم

---

(١) سورة النحل ٤٩ (٢) سورة المائدة ١٢٠

(٣) سورة الشورى ١١

أيها الناس فى التدبير حيث مكّنكم من التوالُد والتناسل ، وهيّأ لكم من مصالحكم ما تحتاجون إليه فى ترتيب المعاش وتدبيز التوالد ، وجَعَلها أزواجاً تبقى ببقائكم ،وعلى هذا يكون التقدير : وجعل لكم من الأنعام أزواجا ؛ وهذا أنسب بنظم الكلام مما قرروه، وهو جَعْل الأنعام أنفسها أزواجا .

وقوله : ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾(١) أى فى هذا التدبير ؛ كأنه محلّ لذلك ، ولم يقل « به » كما قال : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾(٢) ؛ لأنه مسوقٌ لإظهار الاقتدار مع الوحدانية، فأسقط السببية ، وأثبت « فى » الظرفية ، وهذا وجهٌ من إعجاز قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ؛ لأن الحياة من شأنها الاستناد إليه سبحانه لا إلى غيره ، فاختيرت « فى » على « الباء » ؛ لأنه مسوق لبيان الترغيب والمعنى مفهوم ، والقصاص مسوقٌ للتجويز وحسن المشروعية ، ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(٣) .

الرابع
تغليب المتّصف بالشىء على ما لم يتصف به

كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾(٤) ، قيل : غلّب غير المرتابين على المرتابين ، واعترض بقوله تعالى : ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، وهذا خطاب للكفار فقط قطعا ، فهم المخاطبون أوّلا بذلك ؛ ثم « إن كنتم صادقين » لا يتميز فيها التغليب ، ثم هى شاهدة بأن المتكلّم معهم يخصّ

---

(١) سورة الشورى ١١
(٢) سورة البقرة ١٧٩
(٣) سورة البقرة ٢٣٧
(٤) سورة البقرة ٢٣

الجاحدين بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] ، وإذا لم يكن الخطاب إلا فيهم ، فتغليب حال مَنْ لم يدخل فى الخطاب ، لا عهدَ به فى مخاطبات العرب .

الخامس

تغليب الأكثر على الأقل

بأن ينسب إلى الجميع وصفٌ يختصّ بالأكثر، كقوله تعالى: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[2] ، أدخِل شعيب عليه السلام فى قوله : ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ بحكم التغليب ؛ إذْ لم يكن فى ملّتهم أصلًا حتى يعود إليها . ومثله قوله : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾[3] ، واعترض بأن « عادَ » بمعنى « صارَ » لغة معروفة ، وأنشدوا :

فإن تـكن الأيام أحسنَّ مرّةً إلىّ فقد عادت لهنّ ذُنُوبُ

ولا حجة فيـه ؛ لجواز أن يـكون ضمير « الأيام » فاعلِ « عادت » ؛ وإنما الشاهد فى قول أمية :

تلك المكارم لا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبا بمـاءٍ فعـادا بَعْدُ أبْوالَا

ويحتمل جوابًا ثالثًا؛وهوأن يكون قولُهم لشعيب ذلك،من تعنتهم وبهتانِهمْ وادّعائهم أنّ شعيبا كان على ملّتهم ، لا كاقال فرعون لموسى . وقوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾[4] كناية عن أتباعه لمجرّد فائدتهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم إن قال ذلك عن نفسه وأتباعه فقد استثنى ، والمعلّق بالمشيئة لا يلزم إمكانه شرعا تقديرا ، والاعترافُ بالقدرة والرجوع لعلمه سبحانه ، وأنّ علم العبد عصمة نفسه أدبًا مع ربّه لا شكًّا .

---

(١) سورة البقرة ٢٥
(٢) سورة الأعراف ٨٨
(٣) سورة الأعراف ٨٩
(٤) سورة الأعراف ٨٩

ويجوز أن يراد بالعَوْد فى مِلّتهم مجرد المساكنة والاختلاط، بدليل قوله : ﴿ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾[١] . ونظيره : ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢]، ويكون ذلك إشارة إلى الهجرة عنهم ، وترك الإجابة لهم ، لا جوابا لهم . وفيه بُعْد .

السادس

تغليب الجنس الكثير الأفراد على فرد من غير هذا الجنس

مغموز فيما بينهم ، بأن يطلق اسم الجنس على الجميع

كقوله : ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[٣]، وأنّه عدّ منهم ؛ مع أنه كان من الجنّ، تغليباً لكونه جنّياواحدا فيما بينهم، ولأنّ حمل الاستثناء على الاتصال هو الأصل . ويدلّ على كونه من غير الملائكة ما رواه مسلم فى صحيحه : « خُلِقَت الملائكة من نُور والجن من النار »[٤] .

وقيل : إنه كان ملَكا فسُلِبَ الملَكيّة ، وأجيب عن كونه من الجن بأنه اسم لنوع من الملائكة .

قال الزمخشرىّ : كان مختلطا بهم ، فحينئذ عَمّته الدعوة بالخلطة لا بالجنس ؛ فيكون من تغليب الأكثر .

هذا إن جعلنا الاستثناء متصلا ؛ ولم يجعل « إلا » بمعنى « لكن » .

وقال ابن جنّى فى « القد » : قال أبو الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى

---

(١) الأعراف ٨٩ (٢) سورة آل عمران ٥٥ .

(٣) سورة ص ٧٣ ، ٧٤

(٤) لفظ الحديث فى صحيح مسلم ٤ : ٢٢٩٤ : « خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ، بسنده عن عائشة .

ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾(١) ، وإنما المتخذ عيسى دون أمه ؛ فهو من باب :

* لنا قمراها والنجوم الطوالع(٢) *

السابع

تغليب الموجود على ما لم يوجد

كقوله : ﴿ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾(٣) قال الزمخشريّ : فإن(٤) المراد: المنزّل كلّه، وإنما عبّر عنه بلفظ المضيّ وإن كان بعضه مُتَرَقَّباً ، تغليباً للموجود على ما لم يوجد .

الثامن

تغليب الإسلام

كقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾(٥) قاله الزمخشريّ(٦) : لأن الدّرجات للعلوّ والدرَكات للسفل ، فاستعمل الدرجات فى القسمين تغليبا .

التاسع

تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه

كقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(٧)، ذكر الأيدى لأنّ أكثر الأعمال

(١) سورة المائدة ١١٦

(٢) صدره :

* أخذنا بآفاقِ السَّماءِ عليكُمُ *

وهو للفرزدق ، ديوانه ٢ : ٥١٩

(٣) سورة البقرة ٤

(٤) الكشاف ١ : ٣٣

(٥) سورة الأحقاف ١٩

(٦) الكشاف ٤ : ٢٤١ ؛ وعبارته هناك :

﴿ ولِكُلٍّ ﴾ من الجنسين المذكورين ﴿ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾؛ أى منازل ومراتب منجزاء ماعملوا من الخير والشر ؛ ومن أجل ما عملوا منهما . فإن قلت : كيف قيل ﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ ، وقد جاء : الجنة درجات، والنار دركات ؟ قلت : يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لا شتمال كل على الفريقين» .

(٧) سورة آل عمران ١٨٢

تزاول بها، فحصل الجمع بالواقع بالأيدى، تغليباً أشار إليه الزمخشرى فى آخر آل عمران[1].

ويشاكله ما أنشده الغزنوىّ فى « العامريات » لصفية بنت عبد المطلب :

فلا والْعادياتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بأيديها إذا سطع الغُبَارُ[2]

العاشر

تغليب الأشهر

كقوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[3] أراد المشرق والمغرب، فغلّب المشرق ، لأنه أشهر الجهتين ، قاله ابن الشجرى وسيأتى فيه وجه آخر .

فائدتان

إحداها :

جميع باب التغليب من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له، ألَا ترى أن القانتين موضوع للذكور الموصوفين بهذا الوصف ، فإطلاقه على الذكور والإناث على غير ما وضع له ، وقسْ على هذا جميع الأمثلة السابقة .

الثانية :

الغالب من التّغليب أن يراعى الأشرف كما سبق ، ولهذا قالوا فى تثنية الأب والأم : أبوان ، وفى تثنية المشرق والمغرب : المشرقان ، لأن الشرق دالّ على الوجود ، والغرب دالّ على العدم ، والوجود لا محالة أشرف ، وكذلك القمران ، قال :

* لنا قمراها والنجوم الطوالع *

أراد الشمس والقمر، فغلّب القمر لشرف التذكير . وأما قولهم سنّة العمرين ، يريدون

---

(١) فى الكشاف ١ : ٣٤٤

(٢) تفسير البحر لأبى حيان ٨ : ٥٠٣

(٣) سورة الزخرف ٣٨

أبا بكر وعمر ، قال ابن سيده فى « المحكم » : إنما فعلوا ذلك إيثاراً للخفة ، أى غلّب الأخفّ على الأثقل ، لأن لفظ « عمر » مفرد ولفظ أبى بكر مركب.

وذكر أبو عبيد فى « غريب الحديث » أن ذلك للشهرة وطول المدة .

وذكر غيرهما أن المراد به عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وعلى هذا فلا تغليب .

ورُدّ بأنهم نطقوا بالعمرين قبل أن يعرفوا عمر بن عبد العزيز ، فقالوا يوم الجمل لعلىّ بن أبى طالب : سُنَّة العمرين .

الالتفات

وفيه مباحث :

الأول : فى حقيقته

وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطريةً واستدراراً للسامع ، وتجديداً لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملال والضجر ، بدوام الأسلوب الواحد على سمعه ، كما قيل :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إن كانت مصرّفةً ... إلّا التنقلُ من حالٍ إلى حال

قال حازم فى « منهاج البلغاء » : وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة . وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه ، وتارة يجعله كافاً فيجعل نفسه مخاطبا وتارة يجعله هاء ، فيقيم نفسه مقام الغائب . فلذلك كان الكلام المتوالى فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب ؛ وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض ، وهو نقل معنوىّ لا لفظىّ ، وشرطه أن يكون الضمير فى المتنقَّل إليه عائداً فى نفس الأمر إلى الملتَفَت عنه ، ليخرج(١) نحو أَكْرِمْ زيداً ، وأَحْسِنْ إليه ، فضمير « أنت » الذى هو فى « أ كرم » غير الضمير فى « إليه » .

***

واعلم أنّ للتكلم والخطاب والغيبة مقامات ، والمشهور أنّ الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول .

---

(١) ساقطة من م .

وقال السكاكيّ : إما ذلك ، وإما التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره .

المبحث الثاني : في أقسامه

وهي كثيرة :

الأول

الالتفات من التكلم إلى الخطاب

ووجهُهُ حثُّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه ، وأنّه أعطاه فَضْل عناية وتخصيص بالمواجهة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَالِيَ لَاأَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، (١) الأصل : « وإليه أرجع » ، فالتفت من التكلم إلى الخطاب ، وفائدتُه أنّه أخرج الكلام في مَعْرِض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نُصْحَ قومه ، تلطّفا وإعلاما بأنه يُريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله .

وأيضاً فإنّ قومه لما أنكروا عليه عبادته لله ، أخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاحتجّ عليهم بأنّه يقبح منه أنّه لايعبد فاطرَه ومبدعَه ؛ ثم حذّرهم بقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) .

لذا جعلوه من الالتفات ، وفيه نظر ، لأنه إنّما يكون منه إذا كان القصد الإخبارَ عن نفسه في كلتا الجملتين ، وهاهنا ليس كذلك ، لجواز أن يكون أراد بقوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) المخاطبين ؛ ولم يرد نفسَه ، ويؤيده ضمير الجمع ، ولو أراد نفسه لقال : « نرجع » .

---

(١) سورة يس ٢٢

وأيضاً فشرط الالتفات أن يكون فى جملتين ، و « فطرنى » و « وإليه ترجعون » كلام واحد .

وأجيب بأنه لو كان المراد بقوله : ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ ظاهرَه لما صحّ الاستفهام الإنكارىّ ؛ لأنّ رجوع العبد إلى مولاه ليس بمعنى أن يعبده غير ذلك الراجع . فالمعنى : كيف أعبد مَنْ إليه رجوعى ؛ وإنما ترك « وإليه أرجع » إلى ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لأنّه داخل فيهم. ومع ذلك أفاد فائدة حسنة ؛ وهى أنه نبّههم أنّهم مثله فى وجوب عبادة مَنْ إليه الرجوع ؛ فعلى هذا ، الواو للحال ، وعلى الأول واو العطف .

ومنه قوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾[1] عدل عن قوله : « رَحْمَةً مِنَّا » إلى قوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ؛ لما فيه من الإشعار بأنّ ربوبيته تقتضى رحمته ؛ وأنّه رحيم بعبده ، كقوله : ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ ﴾[3] ، ﴿ وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾[4] . وهو كثير .

وقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾[5] ولم يقل : « لنغفر لك » تعليقاً لهذه المغفرة التامة باسمه المتضمّن لسائر أسمائه الحسنى ، ولهذا علّق به النصر ، فقال: ﴿ وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾[6] .

الثانى

من التكلم إلى الغيبة

ووجهُ أن يَفْهَم السامع أنّ هذا نَمَط المتكلم وقصده من السامع ، حضر أو غاب ،

---

(١) سورة الكهف ٨٢ (٢) سورة سبا ١٥
(٣) سورة الأعراف ٥٥ (٤) سورة الحج ٧٧
(٥) سورة الفتح ١ ، ٢ (٦) سورة الفتح ٣

وأنّه فى كلامه ليس مِمّن يتلوّن ويتوجّه ، فيكون فى المضمر ونحوه ذا لَوْنَيْن ، وأراد بالانتقال إلى الغيبة الإبقاء على المخاطب ؛ من قرعه فى الوجه بسهام الهجْر ، فالغيبة أرْوَحُ له ، وأبقى على ماء وجهه أن يفوت ، كقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾[1] ، حيثُ لم يَقُل « لنا » تحريضاً على فعل الصلاة لحقّ الربوبية .

وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً . . . ﴾[3] إلى قوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[3] ، ولم يقل : « بى » .

وله فائدتان : إحداهما دفع التّهمة عن نفسه بالعصبيّة لها، والثانى تنبيهُهم على استحقاقه الاتباع بما اتّصف به من الصفات المذكورة ، من النبوّة والأمّيّة ، التى هى أكبرُ دليل على صِدْقه ، وأنّه لا يستحق الاتباع لذاته ، بل لهذه الخصائص .

الثالث

من الخطاب إلى التكلم

كقوله: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾[4] ؛ وهذا إنما يتمشّى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحدا ؛ فأما مَن اشترطه فلا يحسن أن يمثّل به ، ويمكن أن يمثل بقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[5] على أنه سبحانه نَزّل نَفْسه منزلة المخاطب .

---

(١) سورة الكوثر ١ ، ٢

(٢) سورة الدخان ٤ ـ ٦

(٣) سورة الأعراف ١٥٨

(٤) سورة طه ٧٢ ، ٧٣

(٥) سورة يونس ٢١

الرابع
من الخطاب إلى الغيبة

كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾[١] ، فقد التفتَ عن ﴿ كُنتُمْ ﴾ إلى ﴿ جَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم ، تعجّبه من فعلهم وكفرهم ، إذْ لو استمرّ على خطابهم لفاتت تلك الفائدة .

وقيل : لأنّ الخطاب أوّلا كان مع الناس: مؤمنهم وكافرهم؛ بدليل قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[١] ، فلو قال : « وجرين بكم » للزم الذّم للجميع ، فالتفت عن الأول للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية ، فعدَل عن الخطابِ العامّ إلى الذمّ الخاصّ ببعضهم ، وهم الموصوفون بما أخبر به عنهم .

وقيل : لأنهم وقت الركوب حضروا ، لأنّهم خافوا الهلاك وتقلّب الرياح ، فناداهم نداء الحاضرين . ثم إنّ الرياحَ لما جرت بما تشتهي النفوس ، وأمنت الهلاك لم يبق حضورهم كما كان على ماهي عادة الإنسان ؛ أنّه إذا أمن غاب ، فلما غابوا عند جريه بريح طيبة فكّرهم الله بصيغة الغيبة ؛ فقال : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ .

وقوله : ﴿ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[٢] ثم قال : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم ﴾[٣] ، فانتقل عن الخطاب إلى الغيبة ، ولو ربط بما قبله لقال : « يطاف عليكم » ، لأنه مخاطَب لا مخبَر ، ثم التفت فقال : ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٣] فكرّر الالتفات .

وقوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[٤]

---

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة الزخرف ٧٠
(٣) سورة الزخرف ٧١ (٤) سورة الروم ٣٩

وقوله : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾(١)

وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾(٢) ، والأصل « فقطعتم » عطفا على ما قبله ، لكنْ عَدَلَ من الخطاب إلى الغيبة، فقيل : إنّه سبحانه نعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ، ووبخهم عليه قائلا : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله لم !

وجعل منه ابن الشجريّ : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾(٣) ، وقد سبق أنه على حذف المفعول ، فلا التفات .

الخامس
من الغيبة إلى التكلم

كقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾(٤) .

﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾(٥) .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾(٦) .

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ ﴾(٧) وفائدته أنه لمّا كان

---

(١) سورة الحجرات ٧
(٢) سورة الأنبياء ٩٢ ، ٩٣
(٣) سورة الضحى ٣
(٤) سورة الإسراء ١
(٥) سورة فصلت ١٢
(٦) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩
(٧) سورة فاطر ٩

سَوْقُ السحاب إلى البلد إحياء للأرض بعد موتها بالمطر ، دالّا على القدرة الباهرة ، والآية العظيمة التى لا يقدر عليها غيره ، عَدَل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ؛ لأنه أدخلُ فى الاختصاص ، وأدلُّ عليه وأفخم .

وفيه معنى آخر ، وهو أنّ الأقوال المذكورة فى هذه الآية ، منها ما أخبر به سبحانه بسببه ؛ وهو سَوْق السحاب ، فإنه يسوق الرياح ، فتسوقه الملائكة بأمره ، وإحياء الأرض به بواسطة إنزاله ، وسائر الأسباب التى يقتضيها حكمه وعلمه . وعادته سبحانه فى كلّ هذه الأفعال أن يخبر بها بنون التعظيم ، الدالة على أن له جندا وخلقا قد سخرهم فى ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[1] ، أى إذا قرأه رسولنا جبريل . وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾[2] .

وأما إرسال السحاب فهو سحاب يأذن فى إرسالها ، ولم يذكر له سببا ، بخلاف سوق السحاب ، وإنزال المطر فإنه قد ذكر أسبابه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾[3] . ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[4] .

وجعل الزمخشرىّ منه قوله : فى سورة طه : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾[5] : وزعم الجرجانى أن فى هـذه الآية التفاتا ، وجعل قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[5] آخر كلام موسى ، ثم ابتدأ الله تعالى فأخبر عن نفسه بأوصافه لمالجتها .

وأشار الزمخشرى[6] إلى أن فائدة الالتفات إلى التكلم فى هذه المواضع التنبيه على

---

(١) سورة القيامة ١٨
(٢) سورة طه ١٠٢
(٣) سورة فاطر ٢٧
(٤) سورة النحل ٦٠
(٥) سورة طه ٥٣
(٦) الكشاف ٣ : ٥٣

التخصيص بالقدرة ؛ وأنه لا يدخل تحت قدرة واحد، وهو معنى قول غيره: إن الإشارة إلى حكاية الحال واستحضار تلك الصورة البديعة الدالّة على القدرة . وكذا يفعلون لكلّ فعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب، أو تهمّ المخاطب؛ وإنما قال: ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾(١) ، لإفادة بقاء المطر زماناً بعد زمان .

ومثله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾(٢)، عَدلَ عن الغيبة في « قضاهنّ » و « سواهنّ » إلى التكلم في قوله: ﴿ وَزَيَّنَّا ﴾(٢) ، فقيل للاهتمام بذلك، والإخبار عن نفسه ، بأنّه جعل الكوكب زينة السماء الدنيا ، وحفظا ؛ تكذيبا لمن أنكر ذلك .

وقيل : لما كانت الأفعال المذكورة في هذه الآية نوعين :

أحدهما: وجه الإخبار عنه بوقوعه في الأيام المذكورة ، وهو خلْق الأرض في يومين، وجَعْل الرواسي من فوقها وإلقاء البركة فيها ، وتقدير الأقوات في تمام أربعة أيام؛ ثم الإخبار بأنّه استوى إلى السماء ، وأنه أتمها وأكملها سبعاً في يومين ؛ فأتى في هذا النوع بضمير الغائب ، عطفاً على أول الكلام في قوله : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾(٣) إلى قوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ . . . ﴾(٤) الآية .

والثاني: قصد به الإخبار مطلقاً، من غير قصد مدة خلقه، وهو تزيين سماء الدنيا بمصابيح ، وجعلها حفظا ؛ فإنه لم يقصد بيان مدّة ذلك ؛ بخلاف ماقبله ؛ فإن نوع الأول يتضمن إيجاداً لهذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة اليسيرة، وذلك من أعظم آثار قدرته . وأما تزيين

(١) سورة الحج ٦٣
(٢) سورة فصلت ١٢
(٣) سورة فصلت ٩ ، ١٠
(٤) سورة فصلت ١٢

السماء الدنيا بالمصابيح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم ، فالتفت من الغيبة إلى التكلم ، فقال : ﴿ زَيَّنَّا ﴾ .

فائدة

[فى تكرار الالتفات فى موضع واحد]

وقد تكرر الالتفات فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1] فى أربعة مواضع ؛ فانتقل عن الغيبة فى قوله : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ ، إلى التكلم فى قوله : ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ، ثم عن التكلم إلى الغيبة فى قوله: ﴿ لِيُرِيَهُ ﴾ ، بالياء على قراءة الحسن ، ثم عن الغيبة إلى التكلم فى قوله : ﴿ آيَاتِنَا ﴾ ؛ ثم عن التكلم إلى الغيبة فى قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

وكذلك فى الفاتحة ، فإنّ من أولها إلى قوله:﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] أسلوب غَيْبة؛ ثم التفت بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2] إلى أسلوب خطاب فى قوله : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[2] ، ثم التفت إلى الغيبة بقوله : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[2] ، ولم يقل « الذين غضبتَ » كما قال : ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[2] .

السادس

من الغيبة إلى الخطاب

كقوله : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾[3] ، ولم يقل :

(١) سورة الإسراء ١ (٢) سورة الفاتحة ٤ ، ٥ ، ٧

(٣) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩

« لقد جاءوا » للدلالة على أنّ من قال مثل قولهم ينبغى أن يكون موبّخا عليه ، منكرا عليه قوله ، كأنه يخاطب به قوما حاضرين .

وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾(١) ، ثم قال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾(٦) ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ . . . ﴾(٧) الآية .

وقوله : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾(٨) .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٩) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾(١٠) .

وقوله حكاية عن الخليل : ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

---

(١) سورة مريم ٣٩
(٢) سورة مريم ٧١
(٣) سورة الدهر ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة آل عمران ١٠٦
(٥) سورة التوبة ٣٥
(٦) سورة الفرقان ٤٥
(٧) سورة البقرة ٦
(٨) سورة البقرة ٥٧
(٩) سورة الأحزاب ٥٠
(١٠) سورة الأنعام ٦

تَعْلَمُونَ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[1] ، إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ . وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾[4] إلى قوله : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾[5] .

وقوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ . . . ﴾[6] الآية .

وجعل بعضهم منه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا ﴾[7] ، وهو عجيب لأن « الذين » موصول لفظه للغيبة، ولا بدّ له من عائد وهو الضمير في « آمنوا » ، فكيف يعود ضمير مخاطب على غائب ! فهذا مما لا يعقل .

وقوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[8]؛ فقد التفت عن الغيبة وهو ﴿مَالِكِ﴾ إلى الخطاب وهو : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾[8] .

ولكَ أن تقول : إن كان التقدير : قولوا الحمد لله ، ففيه التفاتان — أعني في الكلام المأمور به :

أحدها : في لفظ الجلالة ، فإن الله تعالى حاضر ، فأصله الحمد لك .

والثاني : ﴿ إِيَّاكَ ﴾ لمجيئه على خلاف الاسلوب السابق وإن لم يقدّر : « قولوا » كان في « الحمدلله » التفاتٌ عن التكلم إلى الغيبة ؛ فإنّ الله سبحانه حمد نفسه، ولا يكون في ﴿ إياك

(١) سورة العنكبوت ١٦ ، ١٧
(٢) سورة العنكبوت ٢٤
(٣) سورة إبراهيم ١٩ — ٢١
(٤) سورة الأعراف ١٧٥
(٥) سورة الأعراف ١٧٦
(٦) سورة المائدة ٣٨ ، ٣٩
(٧) سورة المائدة ٦
(٨) سورة الفاتحة ٤ ، ٥

نعبد ﴾ التفات ؛ لأن « قولوا » مقدرة معها قطعا ؛ فإمّا أن يكون فى الآية التفات ، أو لاالتفات بالكلية .

السابع

بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه

فيكون التفاتا عنه ، كقوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾(١) بعد ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾(١) ؛ فإن المعنى « غير الذين غضبت عليهم » ذكره التنوخى فى « الأقصى القريب » والخفاجى، وابن الأثير وغيرهم .

واعلم أنّه على رأى السكاكى تجىء الأقسام الستة فى القسم الأخير ، وهو الانتقال التقديرىّ .

وزعم صاحب « ضوء المصباح » أنه لم يستعمل منها إلا وضع الخطاب والغيبة موضع التكلم ، ووضع التكلم موضع الخطاب ، ومثّل الثالث بقوله : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾(٢) ، مكان « ومالكم لا تعبدون الذى فطركم » .

وجعل بعضهم من الالتفات قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ﴾(٣) ثم قال : ﴿ وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ ﴾(٣) ، وقوله : ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ ﴾(٤) .

البحث الثالث فى أسبابه

اعلم أن للالتفات(٥) فوائد عامة وخاصة ؛ فمن العامة التفنّن والانتقال من أسلوب إلى آخر

---

(١) سورة الفاتحة ٧
(٢) سورة يس ٢٢
(٣) سورة البقرة ١٧٧
(٤) سورة النساء ١٦٢
(٥) ت : « اليقين » تحريف .

لما في ذلك من تنشيط السامع ، واستجلاب صفائه ، واتساع مجارى الكلام ، وتسهيل لوزن والقافية .

وقال البيانيون : إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة.

ونازعهم القاضى شمس الدين بن الجوزىّ وقال : الظاهر أنّ مجرّد هذا لا يكفى فى المناسبة ، فإنّا رأينا كلاما أطول فى هذا، والأسلوب محفوظ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ . . . ﴾[1] إلى أن ذكر عشرة أصناف ، وختم بـ ﴿ ٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً والذَّاكِرَاتِ ﴾، ولم يغيّر الأسلوب ؛ وإنما المناسبة أن الإنسان كثير التقلب ، وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمٰن ، ويقلّبه كيف يشاء ، فإنه يكون غائبا فيحضر بكلمة واحدة ، وآخر يكون حاضراً فيغيب ، فالله تعالى لما قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[2] تنبه السامع وحضر قلبه، فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3].

وأمّا [4]الخاصة فتختلف[4] باختلاف محالّه ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم .

* * *

فمنها قصد تعظيم شأن المخاطب ، كما فى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ ، فإنّ العبد إذا افتتح حمد مولاه بقوله : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » الدالّ على اختصاصه بالحمد وجد من نفسه التحرّك للإقبال عليه سبحانه ؛ فإذا انتقل إلى قوله : ﴿ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ الدالّ على ربوبيته لجميعهم قوِىَ تحرّكه ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ الدّال على أنّه منعم بأنواع النعم ؛ جليلها وحقيرها تزايد التحرّك عنده، فإذا وصل لـ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وهو خاتمة الصفات الدّالّة على أنه مالك الأمر يوم الجزاء ، فيتأهّب قربه ، وتيقّن الإقبال عليه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات .

---

(١) سورة الأحزاب ٣٥

(٢) سورة الفاتحة ٢

(٣) سورة الفاتحة ٥

(٤-٤) ت « والخاصة تختلف » ؛

وقيل : إنما اختير للحمد لفظ الغيبة، وللعبادة الخطاب، للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة فى الرتبة ؛ فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده ، إذ الإنسان يَحْمَد من لا يعبده ، ولا يعبد من لا يحمده ، فلما كان كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال : «الحمدلله» ولم يقل « الحمد لك » ، ولفظ العبادة مع الخطاب فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ، على ماهو أعلى رتبة ؛ وذلك على طريق التأدب . وعلى نحوٍ من ذلك جاء آخر السورة فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مصرّحا بذكر المنعم ، وإسناد الإنعام إليه لفظا ولم يقل « صراط المنعم عليهم » ؛ فلما صار إلى ذكر الغضب روى عنه لفظ الغضب فى النسبة إليه لفظا، وجاء باللفظ متحرفا عن ذكر الغاضب؛ فلم يقل «غير الذين غضبت عليهم » ، تفاديا عن نسبة الغضب فى اللفظ حال المواجهة .

ومن هذا قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾[1] ؛ فإنّ التأدب فى الغيبة دون الخطاب .

وقيل : لأنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه الصفات العظيمة من كونه ربا للعالمين ورحمانا ورحيما ، ومالكا ليوم الدين ، تعلق العِلْم بمعلومٍ عظيم الشأن حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره ، مستعانا به ، فخوطب بذلك لتميّزه بالصفات المذكورة ، تعظيما لشأنه كلّه ؛ حتى كأنه قيل : إياك ، يا مَنْ هذه صفاته نخصّ بالعبادة والاستعانة لا غيرك .

قيل : ومن لطائف التنبيه على أنّ مبتدأ الخلق الغيْبة منهم عنه سبحانه ، وقصورهم عن محاضرته ومخاطبته ، وقيام حجاب العظمة عليهم ، فإذا عرفوه بما هو له ، وتوسلوا للقرب بالثناء عليه ، وأقروا بالمحامد له وتعبّدوا له بما يليق بهم ، تأهّلوا لمخاطباته ومناجاته فقالوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء ١١١

وفيـه أنّهم يُبدون بين يدى كلّ دعاء له سبحانه ومناجاة له صفات عظمته لمخاطبته على الأدب والتعظيم ، لا عن الغفلة والإغفال ، ولا عن اللعب والاستخفاف ، كمن يدعو بلا نيّة أو على تلعب وغفلة ، وهم كثير .

ومنه أن مناجاته لا تصعد إلا إذا تطهر من أدناس الجهالة به، كما لا تسجد الأعضاء إلا بعد التطهير من حَدث الأجسام ؛ ولذلك قدمت الاستعاذة على القرآن .

قال الزمخشرىّ : وكما فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾(١) ، ولم يقل « واستغفرت لهم » [وعدل عنه إلى طريق الالتفات](٢) لأنّ فى هـذا الالتفات بيان تعظيم استغفاره ، وأنّ شفاعة من اسمه الرسول بمـكان(٣) .

* * *

ومنها : التنبيه على ما حق الـكلام أن يكون واردا عليه، كقوله تعالى : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٤) ، أصل الـكلام « وما لـكم لا تعبدون الذى فطركم » ولـكنه أبرز الـكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ؛ ليتلطّف بهم ، ويريَهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، ثم لمـا انقضى غرضه من ذلك ، قال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٤) ليدلّ على ما كان من أصل الـكلام ، ومقتضيا له ، ثم ساقه هذا المساق إلى أن قال : ﴿آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(٥) .

* * *

ومنها : أن يكون الغرض به التتميمُ لمعنى مقصود للمتـكلم ؛ فيأتى به محافظة على تتميم

---

(١) سورة النساء ٦٤
(٢) تـكملة من الـكشاف .
(٣) الـكشاف ٢ : ٤٠٨
(٤) سورة يس ٢٢
(٥) سورة يس ٢٥

ما قصد إليه من المعنى المطلوب له ، كقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١) ، أصل الكلام « إنا مرسلين رحمة منّا » ، ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر ، للإنذار بأنّ الربوبية تقتضى الرحمة للمربوبين ، للقدرة عليهم ، أو لتخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر ، أو الإشارة إلى أنّ الكتاب إنما هو إليه دون غيره ، ثم التفت بإعادة الضمير إلى الربّ الموضوع موضع المضمر ، للمعنى المقصود من تتميم المعنى .

* * *

ومنها : قصد المبالغة ، كقوله تعالى . ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾(٢) كأنّه يذكر لغيرهم حالَهم ، ليتعجّب منها ويستدعى منه الإنكار والتقبيح لها ؛ إشارةً منه على سبيل المبالغة إلى أنّ ما يعتمدونه بعد الإنجاء من البغى فى الأرض بغير الحقّ ، مِمّا ينكر ويقبح .

* * *

ومنها : قصد الدلالة على الاختصاص ، كقوله : ﴿ وَاللّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾(٣) فإنه لما كان سَوْق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر دَالًا على القدرة الباهرة التى لا يقدر عليها غيره ، عدَل عن لفظ الغيبة إلى التكلم ؛ لأنه أدخل فى الاختصاص وأدلّ عليه : « سقنا » و « أحيينا » .

* * *

---

(١) سورة الدخان ٤ — ٦

(٢) سورة يونس ٢٢

(٣) سورة فاطر ٩

ومنها : قصد الاهتمام ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(١) ، فعدل عن الغيبة فى «قضاهن» « وأوحى » إلى التكلم فى« وزيّنا السماء الدنيا» للاهتمام بالإخبار عن نفسه، فإنه تعالى جعل الكواكب فى سماء الدنيا للزينة والحفظ ؛ وذلك لأن طائفة اعتقدت فى النجوم أنها ليست فى سماء الدنيا ، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً ، فعدل إلى التكلّم والإخبار عن ذلك، لكونه مُهمًّا من مهمات الاعتقاد ، ولتكذيب الفرقة المعتقدة بطلانه .

* * *

ومنها : قصد التوبيخ ، كقوله تعالى :﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴾(٢) ، عدَل عن الغيبة إلى الخطاب ، للدلالة على أنّ قائلَ مثل قولهم ، ينبغى أن يكون مُوَبَّخًا ومنكراً عليه ؛ ولما أراد توبيخَهم على هذا أخبر عنه بالحضور ، فقال : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾(٢) ، لأن توبيخ الحاضر أبلغ فى الإهانة له .

ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾(٣) ؛ قال : ﴿ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ دون « تقطّعتم أمركم بينكم » ، كأنّه ينعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ويُقبّح عندهم مافعلوه ، ويوبخهم عليه قائلا : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله ، فجعلوا أمر دينهم به قِطَعاً ، تمثيلا لأخلاقهم فى الدين .

---

(١) سورة فصلت ١١ ، ١٢
(٢) سورة مريم ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة الأنبياء ٩٢ ، ٩٣

فائدة

اختلف فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(١) بعد ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾(١) .

فقيل : إن الكلام تمّ عند قوله : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وهذا الذى بعده من مقول الله تصديقا لهم .

وقيل : بل هو من بقية كلامهم الأول على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، كقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾(٢) .

فإن قلت : قد قال فى آخر السورة : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(٣) ، فلم عَدَل عن الخطاب هنا؟ قلت : إنما جاء الالتفات فى صدر السورة، لأن المقام يقتضيه ، فإن الإلٰهية تقتضى الخير والشر لتنصف المظلومين من الظالمين ، فكان العدول إلى ذكر الاسم الأعظم أولى . وأما قوله تعالى فى آخر السورة: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾(٣) ؛ فذلك المقام مقام الطلب للعبد من ربه أن يُنعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته ، فلم يكن فيه ما يقتضى العدول عن الأصل المستمرّ .

البحث الرابع فى شرطه

تقدم أنّ شرط الالتفات أن يكون الضميرُ فى المنتقل إليه عائداً فى نَفْس الأمر إلى المنتقَل عنه ؛ وشرطه أيضاً أن يكون فى جملتين ، أى كلامين مستقلين ، حتى يمتنع بين الشرط وجوابه .

---

(١) سورة آل عمران ٩

(٢) سورة يونس ٢٢

(٣) سورة آل عمران ١٩٤

وفى هذا الشرط نظر، فقد وقع فى القرآن مواضع، الالتفات فيها وقع فى كلام واحد؛ وإن لم يكن بين جزأى الجملة ، كقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾[١] .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[٢] .

وقوله : ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[٣] ، بعد قوله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾[٣]، التقدير : إن وهبت امرأة نفسها للنبىّ ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾[٣] ، وجملتا الشرط والجزاء كلام واحد .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾[٤] .

وقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٥] ؛ وفيه التفاتان : أحدهما بين « أرسلنا » والجلالة ، والثانى بين الكاف فى « أرسلناك » « ورسوله » وكلٌّ منهما فى كلام واحد .

وقوله : ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾[٦] .

وقوله : ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾[٧] ، وجوز الزمخشرى فيه أن يكون ضمير « جزاؤكم » يعود على « التابعين » على طريق الالتفات[٨].

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا يُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٩] ، على قراءة الياء .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٣
(٢) سورة القصص ٥٩
(٣) سورة الأحزاب ٥٠
(٤) سورة الفرقان ١٧
(٥) سورة الفتح ٨ ، ٩
(٦) سورة آل عمران ١٥١
(٧) سورة الإسراء ٦٣
(٨) الكشاف ٢ : ٥٢٨
(٩) سورة البقرة ؛ وانظر الكشاف ١ : ٢٤٧ .

وقوله : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾[١] ، قال التنوخى فى « الأقصى القريب » : الواو للحال .

وقوله : ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٢] .

البحث الخامس

أنه يقرب من الالتفات نقل الكلام إلى غيره

وإنما يُفعل ذلك إذا ابتلِيَ العاقل بخصم جاهل متعصّب، فيجب أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ؛ لأنه كلّما كان خوضُه معه أكثر ، كان بعدهُ عن القبول أشدّ ، فالوجه حينئذ أن يُقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، وأن يؤخَذ فى كلام آخر أجنبي ويطنب فيه ، بحيث ينسى الأول ، فإذا اشتغل خاطرُه به أدرج له أثناء الكلام الأجنبيّ مقدمة تناسب ذلك المطلب الأول ، ليتمكن من انقياده .

وهذا ذكره الإمام أبو الفضل فى كتاب « درة التنزيل »[٣] ، وجعل منه قوله تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾[٤] ، قال : إن قوله « واذكر » ليس متصلا بما قبله ، بل نقلا لهم عما هم عليه ، والمقدمة المدرجة قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾[٥] إلى قوله: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾[٥] .

وهذا الذى قاله يخرج الآية عن الاتصال ، مع أنّ فى الاتصال وجوها مذكورة فى موضعها .

---

(١) سورة المائدة ١٢ . (٢) سورة يس ٢

(٣) هو درة التنزيل وغرة التأويل للإمام فخر الدين الرازى .

(٤) سورة ص ١٨ (٥) سورة ص ٢٧ — ٢٩ .

وألحق به الأستاذ أبو جعفر بن الزبير[1] قوله تعالى : ﴿ قٓ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا . . . ﴾[2] الآية ؛ فهذا إنكار منهم للبعث واستبعاد، نحو الوارد فى سورة «صٓ» ؛ فأعقب ذلك بما يشبه الالتفات بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا . . . ﴾[3] إلى قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[4] ، فبعد العدول عن مجاوبتهم ، فى قولهم : ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[5] ، وذكر اختلافهم المسبّب عن تكذيبهم ، فى قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾[6] ، صرف تعالى الكلام إلى نبيّه والمؤمنين، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا . . : ﴾[7] إلى قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ﴾[8] ، وذلك حكمة تُدْرك مشاهدة ، لا يمكنهم التوقف فى شىء منه ولا حفظ عنهم إنكاره ، فعند تكرر هذا ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[8] .

ومما يقرب من الالتفات أيضا الانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع إلى خطاب آخر ؛ وهو ستة أقسام ، كما سبق تقسيم الالتفات :

أحدها : الانتقال من خطاب الواحد لخطاب الاثنين ، كقوله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[9] .

الثانى : من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ ﴾[10]

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطى الأندلسى، المتوفى سنة ٧٠٨، له كتاب: ملاك التأويل القاطع لذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه اللفظى من آى التنزيل ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٧٥ مجاميع، وقد لخص فيه كتاب درة التنزيل للفخر الرازى وزاد عليه أشياء (الدرر الكامنة ١ : ٢٨٤)

(٢) سورة ق ١ ، ٢
(٣) سورة ق ٦
(٤) سورة ق ١١
(٥) سورة ق ٣
(٦) سورة ق ٥
(٧) سورة ق ٦
(٨) سورة ق ١١
(٩) سورة يونس ٧٨
(١٠) سورة الطلاق ١

الثالث : من الاثنين إلى الواحد ، كقوله : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَىٰ ﴾(١) ، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾(١) .

الرابع : من الاثنين إلى الجمع ، كقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) ، وفيه انتقال آخر من الجمع إلى الواحد ، فإنه ثنَّى ثم جمع ، ثم وحّد ، توسعا فى الكلام . وحكمة التثنية أنّ موسى وهارون هما اللذان يقرران قواعد النبوة ، ويحكمان فى الشريعة ، فخصهما بذلك ، ثم خاطب الجميع باتخاذ البيوت قبلة للعبادة ؛ لأن الجميع مأمورون بها ، ثم قال لموسى وحده : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) ، لأنه الرسول الحقيقى الذى إليه البشارة والإنذار .

الخامس : من الجمع إلى الواحد، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣) وقد سبق حكمته . ومن نظائره قول بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾(٤) ، ثم قال : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾(٤) ، ولم يقل « منّا » مع أنه للجمع أو للواحد المعظم نفسه ، وحكمته المناسبة للواقع ، فالهدى لا يكون إلا من الله ، فناسب الخاص للخاصّ .

السادس : من الجمع إلى التثنية ، كقوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا . . . ﴾(٥) إلى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٥) .

السابع :(٦) ذكر بعضهم من الالتفات تعقيب الكلام بجملة مستقلة ملاقية له فى المعنى على طريق المثل أو الدعاء ، فالأول كقوله : ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾(٧) ؛ والثانى كقوله : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(٨) .

---

(١) سورة طه ٤٩ ، ١١٧
(٢) سورة يونس ٨٧
(٣) سورة يونس ٨٧
(٤) سورة البقرة ٣٨
(٥) سورة الرحمن ٣٣ ، ٣٤
(٦) هذا القسم وما بعده ؛ هو زيادة على ما ذكره قبلا من تقسيمه إلى ستة أقسام .
(٧) سورة الإسراء ٨١
(٨) سورة التوبة ١٢٧

الثامن : من الماضى إلى الأمر، كقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ ﴾[١] وقوله : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[٢].

التاسع : من المستقبل إلى الأمر ، تعظيما لحال مَنْ أجرى عليه المستقبل . وبالضد من ذلك فى حق من أجرى عليه الأمر ، كقوله تعالى : ﴿يَاهُودُ ما جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ...﴾[٣] إلى قوله : ﴿ بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٣] ، فإنه إنما قال ﴿ أُشْهِدُ ٱللَّهَ ﴾ ، و ﴿ ٱشْهَدُوا ﴾ ولم يقل : « وأشهدكم » ليكون موازنا له ؛ ولاشك أنّ معنى إشهاد الله على البراءة صحيح فى معنى يثبت التوحيد ؛ بخلاف إشهادهم ؛ فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة به ، فلذلك عَدل عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيءُ به على لفظ الأمر ، كما تقول للرجل منكرًا : اشهد علىّ أنى أحبُّك .

العاشر : من الماضى إلى المستقبل ، نحو :﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ ﴾[٤] ، ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾[٥] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٦] .

والحكمة فى هذه أن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضى ، ليفيد ذلك مع كونه نافيا أنه قد مضى عليه زمان ؛ ولا كذلك الصدّ عن سبيل الله ، فإن حكمه إنما ثبت حال حصوله مع أن فى الفعل المستقبل إشعارا بالتكثير ،

---

(١) سورة الأعراف ٢٩ (٢) سورة الحج ٣٠

(٣) سورة هود ٥٣ ، ٥٤ ؛ والآيتان بتمامهما : ﴿ قالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

(٤) سورة فاطر ٩ (٥) سورة الحج ٣١

(٦) سورة الحج ٢٥

فيُشعر قوله : « ويصدون » ، أنه فى كلّ وقت بصدد ذلك ، ولو قال : « وصدّوا » لأشعر بانقطاع صدّهم .

الحادى عشر : عكسه ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[1] ، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾[2] .

قالوا : والفائدة فى الفعل الماضى إذا أخبر به عن المستقبل الذى لم يوجد أنه أبلغ وأعظم موقعا ، لتنزيله منزلة الواقع . والفائدة فى المستقبل إذا أخبر به عن الماضى لتتبين هيئة الفعل باستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه شاهد ، وإنما عبر فى الأمر بالتوبيخ بالماضى بعد قوله : ﴿ ينفخ ﴾ للإشعار بتحقيق الوقوع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة ، كقوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾[3] ، والمعنى : « يبرزون » ، وإنما قال : ﴿ وحشرناهم ﴾ بعد ﴿ نُسَيِّرُ ﴾ ﴿ وترى ﴾ ، وهما مستقبلان ، لذلك .

---

(١) سورة النمل ٨٧

(٢) سورة الكهف ٤٧

(٣) سورة إبراهيم ٢١ .

التضمين

وهو إعطاء الشيء معنى الشيء ، وتارة يكون فى الأسماء ، وفى الأفعال، وفى الحروف،
فأمّا فى الأسماء فهو أن تضمّن اسماً معنى اسم ؛ لإفادة معنى الاسمين جميعاً ، كقوله تعالى :
﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَلَّا أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾(١) ، ضمّن « حقيق » معنى « حريص »
ليُفيد أنه محقوق بقول الحقّ وحريص عليه .

وأما الأفعال فأنْ تضمّن فعلا معنى فعل آخر ، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً ؛
وذلك بأن يكون الفعل يتعدّى بحرف ، فيأتى متعديا بحرف آخر ليس من عادته التعدّى به،
فيُحتاج إمّا إلى تأويله أو تأويل الفعل ، ليصحّ تعدّيه به .

واختلفوا أيّهما أولى ؟ فذهب أهلُ اللغة وجماعة من النحويين إلى أنّ التوسع فى الحرف
وأنه واقع موقع غيره من الحروف أوْلى .

وذهب المحققون إلى أن التوسع فى الفعل وتعديته بما لا يتعدى لتضمّنه معنى ما يتعدى
بذلك الحرف أوْلى ؛ لأن التوسع فى الأفعال أكثر .

مثاله قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾(٢) ، فضمّن « يشرب » معنى
« يروى » ، لأنه لا يتعدى بالباء ، فلذلك دخلت الباء ، وإلا فـ « يشرب » يتعدّى
بنفسه ، فأريد باللفظ الشرب والريّ معا ، لجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ واحد .

وقيل : التجوّز فى الحرف ؛ وهو الباء ؛ فإنها بمعنى « من » .

وقيل : لا مجاز أصلا ، بل العين هاهنا إشارة إلى المكان الذى ينبع منه الماء ؛

---

(١) سورة الأعراف ١٠٥ (٢) سورة الدهر ٦

لا إلى الماء نفسه ، نحو نزلت بعين ، فصار كقوله : مكانا يشرب به .

وعلى هذا : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾(١) ، قاله الراغب .

وهذا بخلاف المجاز ؛ فإنّ فيه العدولَ عن مسمّاه بالكلّية ، ويراد به غيره ، كقوله: ﴿ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾(٢) ، فإنّه استعمل « أراد » فى معنى مقاربة السقوط ؛ لأنه من لوازم الإرادة ، وإنّ من أراد شيئاً فقد قارب فعله،ولم يُرِدْ باللفظ هـذا المعنى الحقيقىّ الذى هو الإرادة البتة . والتضمين أيضاً مجاز ؛ لأنّ اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معا ، والجمع بينهما مجاز خاصّ يسمونه بالتضمين ، تفرقةً بينه وبين المجاز المطلق .

ومن التضمين قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾(٣)؛ لأنه لا يقال : رفثتُ إلى المرأة ؛ لكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك .

وهكذا قوله : ﴿ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾(٤) ؛ وإنمـا يقال : هل لك فى كذا ؟ لكن المعنى أدعوك إلى أن تزكّى .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(٥)، فجاء بـ « عَن » ، لأنه ضمّن التوبة معنى العفو والصفح .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾(٦) ، وإنمـا يقال : خلوت به ، لكن ضمّن « خَلَوْا » معنى « ذهبوا » « وانصرفوا »، وهو معادل لقوله : ﴿ لقوا ﴾ ؛ وهـذا أولى من قول من قال : إنّ « إلى » هنا بمعنى الباء ، أو بمعنى « مع » .

وقال مَكّىّ : إنما لم تأت الباء ؛ لأنه يقال: خلوت به إذاسخرت منه، فأتى بـ« إلى» لدفع هذا الوهم .

---

(١) سورة آل عمران ١٨٨
(٢) سورة الكهف ٧٧
(٣) سورة البقرة ١٨٧
(٤) سورة والنازعات ١٨
(٥) سورة الشورى ٢٥
(٦) سورة البقرة ١٤

وقوله : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1] ، قيل : الصراط منصوب على المفعول به ، أى لألزمنّ لك صراطك ، أو لأملكنّه لهم ، و « أقعد » وإن كان غير متعدّ ضمّن معنى فعل متعدّ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[2] ، ضمّن « تَعْدُ » معنى « تنصرف » ، فعدّى بـ « من » . قال ابن الشجرىّ : ومن زعم أنه كان حق الكلام : « لا تعدُ عينيك عنهم » بالنصب ؛ لأن « تَعْدُ » متعدّ بنفسه فباطل ، لأن عدوت وجاوزت بمعنى واحد . وأنت لا تقول : جاوز فلان عينَه عن فلان ، ولو كانت التلاوة بنصب العين لكان اللفظ يتضمنها محمولا أيضاً على : لا تصرف عينك عنهم ، وإذا كان كذلك ، فالذى وردت به التلاوة من رفع العين يئول إلى معنى النصب فيها ؛ إذ كان « لا تعد عيناك » بمنزلة « لا تنصرف » ومعناه لا تصرف عينك عنهم ، فالفعل مسند إلى العين ، وهو فى الحقيقة موجّه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾[3] ، أسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى لا تُعْجَب بأموالهم .

وقوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[4] ، ضُمّن معنى « لتدخلنّ » أو « لتصيرنّ » ؛ وأما قول شعيب : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾[5] فليس اعترافاً بأنّه كان فيهم ، بل مؤوّل على ماسبق . وتأويل آخر وهو أن يكون من نسبة فعل البعض إلى الجماعة ، أو قاله على طريق المشاكلة لكلامهم ، وهذا أحسن .

وقوله : ﴿ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾[6] ، ضمّن « لا تشرك » معنى « لا تعدل » والعدل : التسوية ، أى لا تسوّى به شيئاً .

---

(١) سورة الأعراف ١٦
(٢) سورة الكهف ٢٨
(٣) سورة التوبة ٨٥
(٤) سورة إبراهيم ١٣
(٥) سورة الأعراف ٨٩
(٦) سورة الحج ٢٦

وقوله : ﴿ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾(١) ضُمِّن معنى « أنابوا » فعدّى بحرفه .

وقوله : ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾(٢) ضمّن ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ معنى « تخبر به » أو « لتعلم » ليفيد الإظهار معنى الإخبار ؛ لأن الخبر قد يقع سرًّا غير ظاهر .

وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾(٣) ، جوّز الزمخشري نصب ﴿ مَقَامًا ﴾ ، على الظرف على تضمين ﴿ يبعثك ﴾ معنى « يقيمك » .

وقوله : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾(٤) ، قال الفارسي : ومن قرأ « فَأَجْمِعُوا » بالقطع أراد فاجمعوا أمركم وشركاءكم ، كقوله :

* مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحا *

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾(٥) ، قال ابن سيده : عدّاه بـ « عن » لأنه في معنى كشف الفزع .

وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٦) ، فإنه يقال : ذلّ له ، لا عليه ، ولكنه هنا ضمّن معنى التعطف والتحنّن .

وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾(٧) ضمن ﴿ يُؤْلُونَ ﴾ معنى « يمتنعون » من وطئهن بالألِيَّة .

وقوله : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾(٨) أي لا يُصغون .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾(٩) ، أي أنزل .

﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾(١٠) ، أي أحلّ له .

---

(١) سورة هود ٢٣
(٢) سورة القصص ١٠
(٣) سورة الإسراء ٧٩
(٤) سورة يونس ٧١
(٥) سورة سبأ ٢٣
(٦) سورة المائدة ٥٤
(٧) سورة البقرة ٢٢٦
(٨) سورة الصافات ٨
(٩) سورة القصص ٨٥
(١٠) سورة الأحزاب ٣٨

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[1] أى مميزك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] أى لا يرضى .

﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾[3] ، أى أنيبوا إليه وارجعوا .

﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾[4] ، أى زال .

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾[5] ، فإنه يقال : خالفت زيدا ، من غير احتياج لتعديه بالجارّ ؛ وإنما جاء محمولا على « ينحرفون » أو « يزيغون » .

ومثله تعدية « رحيم » بالباء فى نحو : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[6] حملا على « رءوف » ، فى نحو : ﴿ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[7] ، ألا ترى أنك تقول : رأفت به ، ولا تقول : رحمت به ؛ ولكن لما وافقه فى المعنى تنزّل منزلته فى التعدية .

وقوله : ﴿ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[8] ، ضمّن معنى « سائل » .

﴿ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[9] ، قال الزمخشرىّ : ضمن معنى «تحاملوا»، فعداه بـ« عَلَى » ، والأصل فيه « من » .

تنبيهان

الأول : الأكثر أن يُراعى فى التعدية ما ضمّن منه ، وهو المحذوف لا المذكور ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾[10] ، أى الإفضاء .

وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾[11] ، أى يروى بها ، وغيره مما سبق .

---

(١) سورة آل عمران ٥٥
(٢) سورة يونس ٨١
(٣) سورة فصلت ٦
(٤) سورة الحاقة ٢٩
(٥) سورة النور ٦٣
(٦) سورة الأحزاب ٤٣
(٧) سورة التوبة ١٢٨
(٨) سورة القصص ٢٤
(٩) سورة المطففين ٢
(١٠) سورة البقرة ١٨٧
(١١) سورة الدهر ٦

ولم أجد مراعاة الملفوظ به إلا فى موضعين : أحدهما قوله تعالى : ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[١] ، على قول ابن الضائع أنّه ضمن «يقال» معنى « ينادى » و « إبراهيم » نائب عن الفاعل ؛ وأورد على نفسه : كيف عدّى باللام والنداء لا يتعدى به ؟ وأجاب بأنه رُوعى الملفوظ به ؛ وهو القول ؛ لأنه يقال: قلت له .

الثانى : قوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾[٢] ؛ فإنه قد يقال : كيف يتعلّق التكليف بالمرضع ؟ فأجيب بأنّه ضمن « حرّم » المعنى اللغوى ، وهو المنع . فاعترض كيف عدّى بـ « على » والمنع لا يتعدى به ؛ فأجيب بأنه روعى صورة اللفظ .

***

الثانى : أن التضمين يُطلق على غير ما سبق ؛ قال القاضى أبو بكر فى كتاب« إعجاز القرآن »[٣] : هو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم[أو صفة][٤] هى عبارة عنه، ثم قسمه إلى قسمين: أحدهما ما يفهم من البنية ، كقولك : معلوم ؛ فإنه يوجب أنه لا بد من عالم . والثانى من معنى العبارة [من حيث لا يصح إلا به][٤] كالصفة ، فضارب يدل على مضروب.

قال: والتضمين كله إيجاز ، قال: وذكر أن﴿بِسْمِ ٱللهِ الرحمن الرحيم﴾من باب التضمين؛ لأنّه تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تعالى ، أو التبرّك باسمه .

***

وذكر ابن الأثير فى كتاب « المعانى المبتدعة » : أنّ التضمين واقع فى القرآن خلافا لما أجمع عليه أهلُ البيان ؛ وجعل منه قوله تعالى فى الصافات : ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[٥] .

***

ويطلق التضمين أيضاً على إدراج كلام الغير فى أثناء الكلام لتأكيد المعنى ،

---

(١) سورة الأنبياء ٦٠

(٢) سورة القصص ١٢

(٣) إعجاز القرآن ص ٤١٢ ـ ٤١٣

(٤) تكملة من إعجاز القرآن

(٥) سورة الصافات ١٦٩

أو لترتيب النظم ؛ ويسمى الإبداع كإبداع الله تعالى فى حكايات أقوال المخلوقين، كقوله تعالى حكاية عن قول الملائكة : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾(١) .

ومثل ما حكاه عن المنافقين : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾(٣) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾(٤) .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ ﴾(٤) ، ومثله فى القرآن كثير .

وكذلك ما أودع فى القرآن من اللغات الأعجمية .

***

ويقرب من التضمين فى إيقاع فعل موقع آخر إيقاع الظن موقع اليقين فى الأمور المحققة؛ كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾(٥) .

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾(٦) .

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾(٧) .

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾(٨) .

﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾(٩) .

وشرطا بن عطية فى ذلك ألا يكون متعلقه حِسّيًّا ، كما تقول العرب فى رجل يُرى حاضراً : أظن هذا إنساناً ، وإنما يستعمل ذلك فيما لم يخرج إلى الحسّ بعد ، كالآيات السابقة .

---

(١) سورة البقرة ٣٠
(٢) سورة البقرة ١١
(٣) سورة البقرة ١٣
(٤) سورة البقرة ١١٣
(٥) سورة البقرة ٤٦
(٦) سورة البقرة ٢٤٩
(٧) سورة الكهف ٥٣
(٨) سورة ص ٢٤
(٩) سورة فصلت ٤٨

قال الراغب فى « الذريعة » : الظنّ إصابة المطلوب بضرب من الأمارة متردد بين يقين وشك ، فيقرُب تارة من طرف اليقين ، وتارة من طَرَف الشك ، فصار أهل اللغة يُفسّرونه بهما ؛ فمتى رُئِىَ إلى طَرَف اليقين أقرب استعمل معه « أنّ » المثقلة والمخففة فيهما ، كقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو ٱللَّهِ﴾[1] ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾[2].
ومتى رُئى إلى الشك أقرب استعمل معه « أن » التى للمعدومين من الفعل ، نحو ظننت أن يخرج.

قال : وإنما استعمل الظن بمعنى العلم فى قوله : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾[3] لأمرين :

أحدهما : للتنبيه على أنّ علم أكثر الناس فى الدنيا بالنسبة إلى علمهم فى الآخرة ، كالظنّ فى جنب العلم .

والثانى : أن العلم الحقيقىّ فى الدنيا لا يكاد يحصل إلا للنبيّين والصديقين المعنيّين بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[4] ، والظنّ متى كان عن أمارة قوية فإنه يُمدَح به ، ومتى كان عن تخمين لم يُمدَح ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[5].

وجوّز أبو الفتح فى قوله : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[6] أن يكون المراد بها اليقين ، وأن تكون على بابها ، وهو أقوى فى المعنى ، أى فقد يمنع من هذا التوهم ، فكيف عند تحقيق الأمر ، فهذا أبلغ كقوله : « يكفيك من شرّ سَماعُه » أى لو توهم البعث والنشور وما هناك من عظم الأمر وشدته لاجتنب المعاصى ، فكيف عند تحقق الأمر ! وهذا أبلغ .

وقيل : آيتا البقرة بمعنى الاعتقاد ، والباقى بمعنى اليقين ، والفرق بينهما أن الاعتقاد يقبل التشكيك بخلاف اليقين ، وإن اشتركا جميعاً فى وجوب الجزم بهما .

---

(١) سورة البقرة ٢٤٩
(٢) سورة الأعراف ١٧١
(٣) سورة البقرة ٤٦
(٤) سورة الحجرات ١٥
(٥) سورة الحجرات ١٢
(٦) سورة المطففين ٤ ، ٥

وكذلك قوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾(١) .

وقد جاء عكسه وهو التجوّز عن الظن بالعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾(٢) ، ولم يكن ذلك علماً جازماً بل اعتقاداً ظنياً .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾(٣) ، وكان يحكم بالظن وبالظاهر .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾(٤) وإنما يحصل بالامتحان فى الحكم ، ووجه التجوز أنّ بين الظن والعلم قدْراً مشتركا وهو الرجحان ؛ فتجوّز بأحدهما عن الآخر .

---

(١) سورة الحاقة ٢٠

(٢) سورة يوسف ٨١

(٣) سورة الإسراء ٣٦

(٤) سورة الممتحنة ١٠

وضع الخبر موضع الطلب
فى الأمر والنهى

كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾[1] .

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾[2] .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾[3] .

﴿ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ . . . ﴾[5] الآية ؛ ولهذا جعلها العلماء من أمثلة الواجب .

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ﴾[6] على قراءة نافع ، أى لا ترفثوا ولا تفسقوا .

﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[7] قالوا : هو خبر، وتأويله نهى، أى لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، كقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[8] وكقوله : ﴿ لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾[9]، على قراءة الرفع . وقيل: إنه نهى مجزوم ـ أعنى قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ ـ ولكن ضُمّت إتباعا للضمير ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنّا لم نردّه عليك إلا أنّا حرم » .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[10] ، ضمن « لا تعبدون » معنى « لا تعبدوا » بدليل قوله بعده : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[10]، وبه يزول الإشكال فى عطف الإنشاء على الخبر ؛ لكن إن كان « حسنا » معمولاً لأحسنوا، فعطفُ

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣
(٢) سورة البقرة ٢٢٨
(٣) سورة الرعد ٢٤
(٤) سورة يوسف ٩٢
(٥) سورة المائدة ٨٩
(٦) سورة البقرة ١٩٧
(٧) سورة البقرة ٢٧٢
(٨) سورة الواقعة ٨٩
(٩) سورة البقرة ٢٣٣
(١٠) سورة البقرة ٨٣

« قولوا » عليه أولى لاتفاقهما لفظا ومعنى ، وإن كان التقدير و « يحسنون » فهو الذى قبله ، والعطف على القريب أولى . وقيل : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهىّ يسارع إلى الانتهاء ، فهو مخبَر عنه .

وكذا قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾(١) فى موضع « لا تسفكوا » .

وقوله فى سورة الصف : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) عطفا على قوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾(٢) ، ولهذا جزم الجواب .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾(٣) إلى قوله : ﴿ وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ ﴾(٤) ؛ فإن المقام يشتمل على تضمين ﴿إنّ أصحابَ الجنّة اليوم﴾ معنى الطلب، بدليل ماقبله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾(٥)، فإنه كلام وقت الحشر لوروده معطوفا بالفاء، على قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾(٦) وعامّ لجميع الخلق لعموم قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾(٥)، وإن الخطاب الوارد بعده على سبيل الالتفات، وهو قوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٥) ، خطاب عام لأهل المحشر ، فيكون قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾(٧) إلى قوله : ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(٤) مقيدا بهذا الخطاب لكونه تفصيلا لما أجمله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٣)، وإن التقدير أن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر، ثم جاء فى التفسير أن قوله هذا : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾(٧) يقال لهم حين يساق بهم إلى الجنة ، بتنزيل ما هو للتكوين منزلة الكائن، أى إن أصحاب الجنة منكم يا أهل المحشر ، يؤول حالهم

(١) سورة البقرة ٨٤
(٢) سورة الصف ١٣
(٣) سورة يس ٥٥
(٤) سورة يس ٥٩
(٥) سورة يس ٥٤
(٦) سورة يس ٥٣
(٧) سورة يس ٥٥

إلى أسعد حال ، والتقدير حينئذ « فامتازوا عنكم إلى الجنة » ، هكذا قرره السكاكى فى « المفتاح » .

قيل : وفيه نظر ؛ لأنها إذا كانت طلبية ومعناها أمر المؤمنين بالذهاب إلى الجنة ، فليكن الخطاب معهم لا مع أهل الحشر .

ولهذا قال بعضهم : إن تضمين أصحاب أهل الجنة للطّلب ليس المراد منه أن الجملة نفسها طلبية ، بل معناه أن يقدر جملة إنشائية بعدها ، بخلاف قوله : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[2] ، فإنه يقال : كيف جاء الجزم فى جواب الخبر ؟ وجوابه أنه لما كان فى معنى الأمر جاز ذلك ، إذ المعنى : آمنوا وجاهدوا .

وقال ابن جنّى : لا يكون « يغفر » جوابا لـ « هَلْ أدلكم » وإن كان أبو العباس قد قاله ، لأن المغفرة تحصل بالإيمان لا بالدلالة . انتهى . وقد يقال الدلالة : سبب السبب .

إذا علمت هذا ؛ فإنما يجىء الأمر بلفظ الخبر الحاصل تحقيقا لثبوته ؛ وأنه مما ينبغى أن يكون واقعا ولا بد ، وهذا هو المشهور .

وفيه طريقة أخرى نقلت عن القاضى أبى بكر وغيره ؛ وهى أنّ هذا خبر حقيقة غير مصروف عن جهة الخبرية ؛ ولكنه خبر عن حكم الله وشرعه ليس خبرا عن الواقع ؛ حتى يلزم ما ذكره من الإشكال ؛ وهو احتمال عدم وقوع مخبره ؛ فإن هذا إنما يلزم الخبر عن الواقع ؛ أما الخبر عن الحكم فلا ؛ لأنه لا يقع خلافه أصلا .

---

(١) سورة البقرة ٨٣ (٢) سورة الصف ١١ ، ١٢

وضع الطلب موضع الخبر

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾(١) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ . يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾(٤) فقوله : ﴿ وألق ﴾ معطوف على قوله . ﴿ أنْ بُورِكَ ﴾ فـ « ألق » وإن كان إنشاء لفظا ، لكنه خبر معنى . والمعنى : فلما جاءها قيل بورك مَنْ فى النار . وقيل : ألق .

والموجب لهذا قول النحاة إن « أنْ » هذه مفسّرة لا تأتى إلا بعد فعل فى معنى القول ، وإذا قيل : كتبت إليه أن ارجع ، ونادانى أن قم ، كلّه بمنزلة : قلت له ، وقال لى قم . كذا قاله صاحب المفتاح .

وما ذكره من أن « بورك » خبرية لفظا ومعنى ممنوع ؛ لجواز أن يكون دعاء وهو إنشاء ؛ وقد ذكر هذا التقدير الفارسى وأبو البقاء ، فتكون الجملتان متفقتين فى معنى الإنشاء ؛ فتكون مثل ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ .

وقوله : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ ﴾(٥) إلى قوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾(٥) ؛ فإنه يقال : كيف ورد التمنى على التكذيب وهو إنشاء ؟

---

(١) سورة مريم ٧٥
(٢) سورة التوبة ٥٣
(٣) سورة البقرة ١٢٥
(٤) سورة النمل ٨ ــ ١٠
(٥) سورة الأنعام ٢٧ ، ٢٨

وأجاب الزمخشري أنه ضمّن معنى العِدَة ، وأجاب غيره بأنه محمول على المعنى من الشرط والخبر ؛ كأنه قيل : إن زددنا لم نكذّب وآمنّا . والشرط خبر ، فصحّ ورود التكذيب[1] عليه .

وقوله : ﴿ ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾[2]،أي ونحن حاملون، بدليل قوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[3] والكذب إنما يَرِد على الخبر .

وقوله : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾[4] ؛ تقديره : ما أسمعهم وأبصرهم ! لأنّ الله تعالى لم يتعجّب منهم ، ولكنّه دلّ المكلّفين على أن هؤلاء قد نُزِّلوا منزلة مَنْ يُتعجب منه .

ومّما يدلّ على كونه ليس أمراً حقيقيا ظهورُ الفاعل الذى هو الجار والمجرور فى الأول، وفعل الأمر لا يبرز فاعله أبدا .

ووجه التجوّز فى هذا الأسلوب أنّ الأمرَ شأنه أن يكون ما فيه داعية للأمر ؛ وليس الخبر كذلك ، فإذا عبّر عن الخبر بلفظ الأمر أشعر ذلك بالداعية ، فيكون ثبوته وصدقه أقرب . هذا بالنسبة لكلام العرب لا لكلام الله ؛ إذ يستحيل فى حقه سبحانه الداعية للفعل .

بقيَ الكلام فى أيّهما أبلغ ؟ هذا القسم أو الذى قبله ؟ .

قال الكواشى فى قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾[5] ، الأمر بمعنى الخبر ؛ لتضمنه اللزوم ؛ نحو إن زرتنا فلنكرمك، يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم.

وقال الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[6] ، وورود الخبر؛ والمراد الأمر أو النهى ، أبلغ من صريح الأمر والنهى ؛ كأنّه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه .

---

(١) حاشية م : « التكذيب على التمنى » .
(٢) سورة العنكبوت ١٢
(٣) سورة مريم ٤٠
(٤) سورة مريم ٧٥
(٥) سورة البقرة ٨٣

وقال النَّوَوىّ فى شرح « مسلم » فى باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها : وقول صلى الله عليه وسلم : « لا يخطبُ الرجل على خِطْبة أخيه ، وَلَا يَسُوم على سوم أخيه » ، هكذا هو فى جميع النسخ ، « ولا يسوم » بالواو « ولا يخطب » بالرفع ، وكلاهما لفظه لفظ الخبر ؛ والمراد به النهى وهو أبلغ فى النهى، لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهى قد يقع مخالفته ، فكأن المعنى : عاملوا هذا النهى معاملة خبر الحتم، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ولا تسأل المرأة طلاق أختها » يجوز فى « تسأل » الرفع والكسر[1] ، والأول على الخبر الذى يراد به النهى، وهو المناسب لقوله قبله: «لا يَخْطُبُ وَلَا يَسُومُ»، والثانى على النهى الحقيقى . انتهى .

---

(١) حاشية م : « أى لالتقاء الساكنين وهو مجزوم بسكون مقدر » .

وضع النداء موضع التعجب

كقوله تعالى : ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾[1] ، قال الفراء : معناه : فيالها من حسرة! والحسرة فى اللغة أشدّ الندم ؛ لأن القلب يبقى حسيرا .

وحكى أبو الحسين بن خالويه فى كتاب « المبتدأ » عن البصريين أن هذه من أصعب مسألة فى القرآن ، لأن الحسرة لا تنادَى ، وإنما تنادى الأشخاص ؛ لأن فائدته التنبيه، ولكن المعنى على التعجب ، كقوله : يا عجبا لم فعلت ! ﴿ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ ﴾[2] ، وهو أبلغ من قولك : العجب . قيل : فكأنّ التقدير يا عجبا احضر ، ياحسرة احضرى!

وقرأ الحسن : ﴿ يَا حَسْرَةَ العبادِ ﴾ .

ومنهم قال : الأصل « يا حسرتاه » ثم أسقطوا الهاء تخفيفاً ، ولهذا قرأ عاصم ﴿ يَا أَسَفَاهُ عَلَى يُوسُفَ ﴾[3] .

وقال ابن جنى فى كتاب « الفسر » معناه أنه لو كانت الحسرة مما يصحّ نداؤه لكان هذا وقتها .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَا بُشْرَى ﴾[4] ، فقالوا : معنى النداء فيما لا يعقل تنبيه المخاطب وتوكيد القصة ؛ فإذا قلت : يا عجباً ! فكأنك قلت : اعجبوا ، فكأنه قال : يا قوم أبشروا .

قال أبو الفتح فى « الخاطريات » : وقد توضع الجملة من المبتدأ والخبر موضع

---

(١) سورة يس ٣٠

(٢) سورة الزمر ٥٦

(٣) سورة يوسف ٨٤

(٤) سورة يوسف ١٩

المفعول به ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾(١) بعد قوله : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾(٢) ، المعنى : ولتنتفعوا بها ، عطفا على قوله : ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ وعلى هذا قال : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾(١) . وكذلك قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾(٢) ، أي ولتأكلوا منها . ولذلك أتى : ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(١) ، فعطف الجملة من الفعل ومرفوعه على المفعول له .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾(٣) ، أي ولأني ربكم فاتقون ، فوضع الجملة من المبتدأ والخبر موضع المفعول له .

وبهذا يبطل تعلق مَنْ تعلق على ثبوته في قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾(٤) ، وقوله : إن هذا ليس من مواضع الابتداء لجواز تقدير : وأذان بأن الله برئ ، وبأن رسوله كذلك .

---

(١) سورة غافر ٨٠
(٢) سورة غافر ٧٩
(٣) سورة المؤمنين ٥٢
(٤) سورة التوبة ٣

لأن الجموع يقع بعضها موقع بعض ، لاشتراكها فى مطلق الجمعية ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[1] ، فإن المجموع بالألف والتاء للقلة ، وغرف الجنة لا تحصى .

وقوله : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2] ، ورُتَبُ الناس فى علم الله أكثر من العشرة لا محالة .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾[4] ، وهو كثير .

وقيل : سبب ذلك فى الآية الأولى دخولُ الألف واللام الجنسية ؛ فيكون ذلك تكثيراً لها ، وكان دخولها على جمع القلة أوْلَى من دخولها على جمع الكثرة ، إشارةً إلى قلة من يكون فيها ، ألا ترى أنّه لا يكون فيها إلا المؤمنون !

وقد نصّ سبحانه على قلّتهم بالإضافة إلى غيرهم فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ ﴾[5] ، فيكون التكثير الداخل فى قوله : ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ ﴾[6] ، لا من جهة وضع جمع القلة موضع جمع الكثرة ؛ ولكن من جهة ما اقتضته الألف واللام للجنس .

واعلم أن جموع التكثير الأربعة وجَمْعَيِ التصحيح ـ أعنى جمع التأنيث وجمع التذكير ـ كل ذلك للقلّة ؛ أما جموع التكسير فبالوضع ، وأمّا جمعا التصحيح ؛ فلأنهما

(١) سورة سبأ ٣٧
(٢) سورة آل عمران ١٦٣
(٣) سورة الزمر ٤٢
(٤) سورة النمل ١٤
(٥) سورة ص ٢٤
(٦) سورة سبأ ٣٧

أقرب إلى التثنية ؛ وهى أقل العدد ، فوجب أن يكون الجمع المشابه لها بمنزلتها فى القلة ، وما عداها من الجموع فيرد تارة للقلة وتارة للكثرة بحسب القرائن ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾(١) . ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٢) . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٣) ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾(٤) . ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾(٥) . ﴿ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾(٦) ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾(٧) . ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾(٨) . ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾(٩) . ﴿ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٩) . ﴿ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾(١٠) . ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾(١١) . ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ ﴾(١٢) . ﴿ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١٣) . ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾(١٤) . ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾(١٥) . ﴿ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ . ﴿ وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾(١٦) . ﴿ بِٱللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾(١٧) . ﴿ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾(١٨) ﴿ حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ ﴾(١٩) ، فإن قلت : ليس هذا منه ، بل هى للقلة ، لأنها خمس .

قلت : لو كان كذلك لما صحّ : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ ﴾(٢٠)

---

(١) سورة الفاتحة ٧
(٢) سورة البقرة ٢
(٣) سورة البقرة ٥
(٤) سورة البقرة ١١
(٥) سورة البقرة ١٢
(٦) سورة البقرة ١٤
(٧) سورة البقرة ١٦
(٨) سورة البقرة ٢٨
(٩) سورة البقرة ٣١
(١٠) سورة البقرة ٢٠
(١١) سورة البقرة ٤٤
(١٢) سورة الطلاق ١
(١٣) سورة التوبة ٧٠
(١٤) سورة البقرة ٨٥
(١٥) سورة البقرة ١٥٤
(١٦) سورة البقرة ١٩٧
(١٧) سورة المائدة ٨٩
(١٨) سورة البقرة ٢٣٢
(١٩) سورة البقرة ٢٣٨
(٢٠) سورة البقرة ٢٣٦

﴿ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ ﴾[1] ؛ فالمراد منهما واحد ، والجواب عن أحدهما الجواب عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ ﴾[2] . ﴿ إِنْ تبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ ﴾[3] ، ﴿ ٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّادِقِينَ ﴾[4] الآية . ﴿ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ﴾[5] الآية . ولا تحصى كثرة

ومن شواهد مجيء جمع القلة مرادا به الكثرة قول حسان رضى الله عنه :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى ... وأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا[6]

وحُكِيَ أن النابغة قال له : قد قلّلت جفناتك وأسيافك[7] .

وطعن الفارسى فى هذه الحكاية لوجود وضع جمع القلة موضع الكثرة فيما له جمع كثرة ، وفيما لا جمع له كثرة فى كلامهم . وصحّحها بعضهم قال : يعنى أنه كان ينبغى لحسان تجنّب اللفظ الذى أصله أن يكون فى القلة ، وإن كان جائزا فى اللسان وضعه لقرينة إذا كان الموضع موضع مدح ، أو أنّه وإن كانت القلة لمعنى الكثرة ، لكن ليس فى كل مقام .

ومن المشكل قوله تعالى : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[8] فإن « أضعافا » جمع قلّة فكيف جاء بعده كثرة !

والجواب أن جمع القلة يستعمل مرادا به الكثرة ، وهذا منه .

تنبيهان

الأوّل : إنما يُسأل عن حكمة ذلك حيث كان له جمع كثرة ، فإن لم يكن فلا :

---

(١) سورة البقرة ٢٣٦ (٢) سورة البقرة ٢٦٦
(٣) سورة البقرة ٢٧١ (٤) سورة آل عمران ١٧
(٥) سورة الأحزاب ٣٥ (٦) ديوانه
(٧) فى الموشح ٦٠ : « أنت شاعر ، ولكنّك أقللت أجفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » . (٨) سورة البقرة ٢٤٥

كقوله : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾[١] ؛ فإنّ « أياما » أفعال مع أنها ثلاثون ، لكن ليس لليوم جمع غيره ؛ ومن ثم أفرد السَّمْع وجمع الأبصار فى قوله : ﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾[٢] لأن « فعلا » ساكن العين صحيحها لا يجمع على « أفعال » غالبا ؛ وليس له جمع تكسير ؛ فلما كان كذلك اكتفى بدلالة الجنس على الجمع .

وجعل بعضهم من هذا «أنفسكم» على كثرتها فى القرآن ؛ وليس كذلك ، فقد جاء ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ، وحكمته هنا ظاهرة، لأنّ المراد استيعاب جميع الخلق فى المحشر .

ونظيره : ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾[٣] لإمكان « الثمار » وليس رأس آية .

ومنه : ﴿ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾[٤] لإمكان « آى » ، ولا يقال إنه لطلب المشاكلة فقد قال تعالى بعده : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[٤]، فدل على عدم المشاكلة لإمكان «أخريات» .

وكذلك قوله : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾[٥] ، وليس رأس آية ، ولا فيه مشاكلة ، لإمكان « الأنهر » .

وقد جاء أنفس للقلة ، كقوله : ﴿ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾[٦] ، وقيل : المراد نفسان من باب : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾[٧] .

* * *

الثانى : إنما يتم فى المنكّر أما المعرّف فيستغنى بالعموم عن ذلك ، وبهذا يخدش فى كثير مما سبق جعله من هذا النوع . وقد قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[٨]: إنه جمع قلة ، وضع موضع جمع الكثرة[٩] ، وردّ عليه بأن « أل » فى «الثمرات» للعموم فيصير كالثمار ، ولا حاجة إلى ارتكاب وضع جمع قلة موضع جمع كثرة ، وكذلك بيت حسان السابق فإن الجفنات معرّفة بـ« أل » « وأسيافنا » مضاف ، ليعمّ .

(١) سورة البقرة ١٨٤
(٢) سورة البقرة ٧
(٣) سورة البقرة ٢٦٦
(٤) سورة آل عمران ٧
(٥) سورة البقرة ٢٥
(٦) سورة آل عمران ٦١
(٧) سورة التحريم ٤
(٨) سورة البقرة ٢٢
(٩) الكشاف ١ : ٧١

تذكير المؤنث

يكثر فى تأويله بمذكر ، كقوله تعالى : ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[1] ، على تأويلها بالوعظ .

وقوله : ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾[2] ، على تأويل البلدة بالمكان ، وإلا لقال : « ميتة » .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[3] ، أى الشخص أو الطالع .

وقوله : ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4] ، أى بيان ودليل وبرهان .

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾[5] .

وإنما يترك التأنيث كما يترك فى صفات المذكر ، لا كما فى قولهم : امرأة معطار ؛ لأن السماء بمعنى المطر ، مذكر ، قال :

إذا نَزَلَ السَّماء بأرضِ قومٍ   رَعَيْنَاهُ وَإنْ كانوا غضابا[6]

ويجمع على أسمية وسميّ ، قال العجاج :

* تَلُفُّهُ الأرواح والسميّ *[7]

وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾[8] ، إلى قوله : ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[8] ، ذكّر الضمير ؛ لأنه ذهب بالقسمة إلى المقسوم .

---

(1) سورة البقرة ٢٧٥
(2) سورة ق ١١
(3) سورة الأنعام ٧٨
(4) سورة الأعراف ٨٥
(5) سورة الأنعام ٦
(6) لمعاوية بن مالك بن جعفر ؛ المفضليات ص ٣٥٩ ؛ والبيت من شواهد التلخيص ؛ ونسبه بعض شراحه إلى جرير ، وليس له .
(7) اللسان ١٩ : ١٢٣ ، ونسبه إلى رؤبة .
(8) سورة النساء ٨

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾(١) ، ذهب بالأنعام إلى معنى النعم ، أو حمله على معنى الجمع .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢) ،ولم يقل «قريبة» قال الجوهرى: ذُكِّرَت(٣) على معنى الإحسان . وذكر الفراء أن العرب تفرق بين النسب ، والقرب من المكان ، فيقولون : هذه قريبتى من النسب ، وقريبى من المكان ، فعلوا ذلك فرقاً بين قرب النسب والمكان .

قال الزجاج : وهذا غلط ؛ لأنّ كلّ ما قرُب من مكان ونسب، فهو جارٍ على ما يقتضيه من التذكير والتأنيث ؛ يُريد أنك إذا أردت القرب من المكان ، قلت : زيد قريب من عمرو ، وهند قريبة من العباس ، فكذا فى النسب .

وقال أبو عبيدة(٤) : ذكّر « قريب » لتذكير المكان ، أى مكاناً قريبا . وردّه ابن الشجرى بأنه لو صحّ لنصب « قريب » على الظرف .

وقال الأخفش : المراد بالرحمة هنا المَطر ؛ لأنه قد تقدم ما يقتضيه ، فحُمِل المذكّر عليه .

وقال الزجّاج : لأن الرحمة والغفران بمعنى واحد ؛ وقيل : لأنها والرحم سواء . ومنه : ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾(٥) ، فحملوا الخبر على المعنى ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾(٦) .

وقيل : الرحمة مصدر ، والمصادر كما لا تجمع لا تؤنث .

وقيل : « قريب » على وزن « فعيل » و « فعيل » يستوى فيها المذكر والمؤنث حقيقياً كان أو غير حقيقى . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾(٧) .

---

(١) سورة النحل ٦٦
(٢) سورة الأعراف ٥٦
(٣) الصحاح ١ : ١٩٨ ؛ بتصرف فى العبارة .
(٤) انظر مجاز القرآن لأبى عبيدة ١ : ٢١٦
(٥) سورة الكهف ٨١
(٦) سورة الكهف ٩٨
(٧) سورة يس ٧٨

وقيل : من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، مع الالتفات إلى المحذوف ، فكأنه قال : وإنّ مكان رحمة الله قريب ، ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره .

وقيل : من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، أى إنّ رحمة الله شىء قريب أو لطيف ، أو برّ أو إحسان .

وقيل : من باب إكساب المضاف حكمَ المضاف إليه ؛ إذا كان صالحا للحذف والاستغناء عنه بالثانى ، والمشهور فى هذا تأنيث المذكر لإضافته إلى مؤنث ، كقوله :

مَشَيْنَ كما اهْتَزَّتْ رِماحٌ تَسَفَّهَتْ أعَالِيَهَا مَرُّ الرِياحِ النَّوَاسِمِ[1]

فقال : « تسفهت » والفاعل مذكر ؛ لأنه اكتسب تأنيثا من الرياح ، إذ الاستغناء عنه جائز ، وإذا كانت الإضافة على هذا تعطى المضافَ تأنيثاً لم يكن له ، فَلأَنْ تعطيه تذكيراً لم يكن له — كما فى الآية الكريمة — أحقّ وأولى ؛ لأنّ التذكير أولى والرجوع إليه أسهل من الخروج عنه .

وقيل : من الاستغناء بأحد المذكورين لكون الآخر تبعاً له ، ومعنًى من معانيه . ومنه فى أحد الوجوه قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[2]، فاستغنى عن خبر الأعناق بخبر أصحابها ؛ والأصل هنا إن رحمة الله قريب ، وهو قريب من المحسنين ، فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود ، وسوغ ظهور ذلك المعنى .

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[3] ، قال البغوىّ : لم يقل « قريبة » لأن تأنيثها غير حقيقىّ ، ومجازها الوقت .

---

(١) اللسان ١٧ : ٣٩٣ ، بدون نسبة .

(٢) سورة الشعراء ٤

(٣) سورة الشورى ١٧

وقال الكسائىّ : إتيانها قريب .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾[1] ، ولم يقل : « صرصرة » كما قال : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[1] لأنّ الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها ، فأشبه باب « حائض » ونحوه ؛ بخلاف « عاتية » فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به .

وأما قوله تعالى : ﴿ ٱلسَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾[2] ، ففى تذكير « منفطر » خمسة أقوال :

أحدها : للفراء ، أن السماء تذكر وتؤنث ، فجاء « منفطر » على التذكير .

والثانى : لأبى على أنّه من باب اسم الجنس الذى بينه وبين واحده التاء ، مفرده سماءة ؛ واسم الجنس يذكر ويؤنث ، نحو : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴾[3] .

والثالث : للكسائىّ ، أنه ذكّر حملا على معنى السقف .

والرابع : لأبى علىّ أيضاً على معنى النسب ؛ أى ذات انفطار ؛ كقولهم : امرأة مرضع ، أى ذات رضاع .

والخامس : للزمخشرىّ ، أنه صفة لخبر محذوف مذكّر ، أى شىء منفطر .

وسأل أبو عثمان المازنىّ بحضرة المتوكل قوماً من النحويّين ؛ منهم ابن السّكيت وأبو بكر بن قادم عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[4] : كيف جاء بغير هاء . ونحن نقول : امرأة كريمة ، إذا كانت هى الفاعل وليست بمنزلة « القتيل » التى هى بمعنى « المفعول » ؟ فأجاب ابن قادم وخلّط ، فقال له المتوكّل : أخطأت ، قل يا بكر ـ للمازنى ، قال : « بغىّ » ليس لـ « فعيل » وإنما هو « فعول » والأصل فيه « بغوى » ، فلما التقت واو وياء ، وسبقت إحدهما بالسكون أدغمت الواو فى الياء ، فقيل : « بغىّ » كما تقول : امرأة

---

(١) سورة الحاقة ٦
(٢) سورة المزمل ١٨
(٣) سورة القمر ٢٠
(٤) سورة مريم ٢٨

صبور ، بغير هاء ؛ لأنها بمعنى صابرة ؛ فهذا حكم « فعول » إذا عدل عن فاعله ، فإن عدل عن مفعوله جاء بالهاء ، كما قال :

* منها اثنتان وأربعون حَلُوبة[1] *

بمعنى « محلوبة » حكاه التوحيدى فى « البصائر » .

وقال البغوىّ فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[2] ، ولم يقل « رميمة » ، لأنه معدول عن فاعلة ، وكلما كان معدولا عن جهته ووزنه كان مصروفا عن فاعلة ، كقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[3] ، أسقط الهاء ؛ لأنها مصروفة عن « باغية » .

وقال الشريف المرتضى[4] فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[5] إن الضمير فى ذلك يعود للرحمة ، وإنما لم يقل و « لتلك »[6] ؛ لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقى ، كقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾[7] ولم يقل « هذه » ؛ على أنّ قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾[5] ، كما يدلّ على الرحمة يدل على « أن يرحم » ويجوز رجوع الكناية إلى قوله إلا أن يرحم ، والتذكير فى موضعه .

قال : ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ كناية عن اجتماعهم على الإيمان ، وكونهم فيه أمة واحدة ، ولا محالة أنه لهذا خلقهم .

ويطابق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[8] ، قال : فأما قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فمعناه الاختلاف فى الدين والذهاب عن الحق فيه

---

(٢) لعنترة من المعلقة ؛ وعجزه :

* سُودًا كخافيةِ الغرابِ الأسحَمِ *

(٢) سورة يس ٧٨ . (٣) سورة مريم ٢٨

(٤) أمالى المرتضى ١ : ٧٠ ؛ مع تصرف واختصار .

(٥) سورة هود ١١٨ ، ١١٩ (٦) فى الأصول : « وتلك » ، وصوابه من الأمالى

(٧) سورة الكهف ٩٨ (٨) سورة الذاريات ٥٦

بالهوى والشبهات . وذكر أبو مُسلم[1] بن بحر فيه معنى غريباً، فقال : معناه أنّ خاف هؤلاء الكفار يخلف سلفَهم في الكفر ، لأنه سواء قولك : خلف بعضهم بعضا ، وقولك[2] اختلفوا كما سواء قولك : قتل بعضهم بعضا ، وقولهم : اقتتلوا . ومنه قولهم : لا أفعله ما اختلف العصران ، [والجديدان][3] ، أى جاء كل واحد منهم بعد الآخر .

. واختلف في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾[4] ، فقال الكسائىّ ، أى من بطون ما ذكرنا .

وقال الفراء : ذَكّر لأنه ذهب إلى المعنى ؛ يعنى معنى النّعم ، وقيل : الأنعام تذكر وتؤنث .

وقال أبو عبيدة : أراد البعض ، أى من بطونِ أيها كان ذا لبن[5] .

وأنكر أبو حاتم تذكير الأنعام ، لكنه أراد معنى النعم .

---

(١) هو أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهانى ، أحد المفسرين على مذهب المعتزلة ؛ توفى سنة ٢٧٠
(٢) الأصول : « قوله » ، وصوابه من الأمالى . (٣) من الأمالى .
(٤) سورة النحل ٦٦ (٥) انظر مجاز القرآن لأبى عبيدة ١ : ٣٦٢

تأنيث المذكر

كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا ﴾[1]؛ فأنث «الفردوس»،وهو مذكّر ، حملا على معنى الجنة .

وقوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[2] ؛ فأنّث «عشر» حيث جرّدت من الهاء مع إضافته إلى الأمثال ، وواحدها مذكر ، وفيه أوجه :

أحدها : أنّث لإضافة الأمثال إلى مؤنث ؛ وهو ضمير الحسنات ، والمضاف يكتسب أحكام المضاف إليه ، فتكون كقوله : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾[3] .

والثانى : هو من باب مراعاة المعنى ؛ لأنّ الأمثال فى المعنى مؤنثة ؛ لأن مثل الحسنة حسنة لا محالة ، فلما أريد توكيد الإحسان إلى المطيع ، وأنه لا يضيع شىء من عمله ؛ كأنّ الحسنة المنتظرة واقعة ، جعل التأنيث فى أمثالها مَنْبِهةً على ذلك الوضع ، وإشارة إليه ، كما جعلت الهاء فى قولهم : راوية وعلامة، تنبيهاً على المعنى المؤنث المراد فى أنفسهم، وهوالغاية والنهاية ؛ ولذلك أنث المثل هنا توكيدا لتصوير الحسنة فى نفس المطيع؛ ليكون ذلك أدعى له إلى الطاعة ، حتى كأنه قال :«فله عشر حسنات أمثالها» حذف وأقيمت صفته مقامه، وروعى ذلك المحذوف الذى هو المضاف إليه ، كما يراعى المضاف فى نحو قوله : ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾[4]، أى « أو كذى ظلمات » ، وراعاه فى قوله : ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾،وهذا الوجه هو الذى عوّل عليه الزمخشرى ، ولم يذكر سواه .

وأما ابن جنى فذكر فى « المحتسب » الوجه الأول ، وقال : فإن قلت : فهلا حملته

---

(1) سورة المؤمنين ١١
(2) سورة الأنعام ١٦
(3) سورة يوسف ١٠
(4) سورة النور ٤٠

على حذف الموصوف ، فكأنه قال : « فله عشر حسنات وأمثالها » ؟ قيل : حَذْف وإقامة الموصوف مقامه ليس بمستحسن فى القياس ؛ وأ كثر ما أتى فى الشعر ،ولذلك حمل ﴿ دانية ﴾ من قوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾[١] ؛ على أنه وصف جنة أو « وجنّة دانية » عطف على « جنة » من قولهم : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً ﴾[٢] ؛ لما قدّر حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، حتى عطف على قوله :﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾[٣] فكانت حالا معطوفة على حال .

وفى « كشف المشكلات »[٤] للأصبهانى . حَذْف الموصوف هو اختيار سيبويه ، وإن كان لا يرى حُسْن « ثلاثة مسلمين » ، بحذف الموصوف .

وقوله تعالى حكاية عن لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾[٥] فأنث الفعل المسند لـ « مثقـال » وهو مذكّر ، ولـكن لمـا أضيف إلى « حبّة » اكتسب منه التأنيث ، فساغ تأنيث فعله .

وذكر أبو البقـاء فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[٦] أنّ التأنيث فى « ذائقة » باعتبار معنى « كلّ » لأنّ معناها التأنيث ، قال : لأن كلّ نفس نفوس ، ولو ذكّر على لفظ « كلّ » جاز[٧] ـ يعنى أنه لو قيل : كلّ نفس ذائق ، جاز .

وهو مردود ؛ لأنه يجب اعتبار ما يضاف إليه « كلّ » إذا كانت نكرة،ولا يجوز أن يعتبر كلّ .

---

(١) سورة الدهر ١٤
(٢) سورة الدهر ١٢
(٣) سورة الدهر ١٣
(٤) ذكره صاحب كشف الظنون ١٤٩٥
(٥) سورة لقمان ١٦
(٦) سورة آل عمران ١٨٥
(٧) إملاء مامن به الرحمن ١ : ٩٤

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾[1] ؛ فإنّ الظاهر عَوْد الضمير إلى الإبداء ؛ بدليل قوله : ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾[1] ، فذكّر الضمير العائد على الإخفاء ، ولو قصد الصدقات لقال : « فهى » ؛ وإنما أنّث « هى » والذى عاد إليه مذكّر ؛ على حذف مضاف ، أى وإبداؤها نعم ما هى ، كقوله : القرية اسألها .

ومنه ﴿ سَعِيراً ﴾[2] وهو مذكر ، ثم قال : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ لحمله على النار .

وأما قوله : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾[3] ، فقيل : الضمير عائد على الآيات المتقدمة فى اللفظ .

وقال البغوىّ : إنما قال : ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ ، بالتأنيث ، لأنه أجرى على طريق جمع التكسير ، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث ؛ لأنه فيما لا يعقل .

وقيل فى قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[3] : إنّ المراد آدم فأنّثه ردًّا إلى النفس . وقد قرئ شاذًّا « من نفس واحد » .

وحكى الثعلبى فى تفسيره[4] فى سورة « اقترب » بإسناده إلى المبرّد ؛ سئل عن ألف مسألة ، منها : ماالفرق بين قوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾[5] وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾[6] وقوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[7] و ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ

---

(١) سورة البقرة ٢٧١

(٢) سورة الفرقان ١١ ، ١٢ ، والآيتان : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ .

(٣) سورة فصلت ٣٧

(٤) فى تفسيره المسمى الكشف والبيان .

(٥) سورة يونس ٢٢

(٦) سورة الأنبياء ٨١

(٧) سورة الحاقة ٧

نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[1] ، فقال : كلّ ما ورد عليك من هذا الباب ، فلك أن تردّه إلى اللفظ تذكيرا، ولك أن تردّه إلى المعنى تأنيثا ؛ وهذا من قاعدة أن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقى، فتارة يلحظ معنى الجنس فيذكّر ، وتارة معنى الجماعة فيؤنث ؛ قال تعالى فى قصة شعيب : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾[2] ، وفى قصة صالح : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾[3] . وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾[4] ، وقرئ : « تشابهت » .

وأبدى السُّهيلى للحذف والإثبات معنى حسنا فقال: إنما حذفت منه؛ لأن «الصيحة» فيها بمعنى العذاب والخزى ، إذ كانت منتظمة بقوله : ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾[5] ، فقوىَ التذكير ؛ بخلاف قصة شعيب ، فإنّه لم يذكر فيها ذلك .

وأجاب غيره : بأنّ الصيحة يراد بها المصدر بمعنى الصياح، فيجىء فيها التذكير، فيطلق ويراد بها الوحدة من المصدر ، فيكون التأنيث أحسن .

وقد أخبر سبحانه عن العذاب الذى أصاب به قوم شعيب بثلاثة أمور ، كلّها مفردة اللفظ :

أحدها : الرجفة ، فى قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾[6] .

والثانى : الظّلّة ، فى قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾[7] .

والثالث : الصيحة ، وجمع لهم الثلاثة ؛ لأن الرجفة بدأت بهم فأصحروا فى الفضاء ، خوفا من سقوط الأبنية عليهم ، فضربتهم الشمس بحرّها، ورفعت لهم الظّلة ، فهرعوا إليها يستظلون بها من الشمس ، فنزل عليهم العذاب وفيه الصيحة ؛ فكان ذكر الصيحة مع الرجفة والظلّة أحسن من ذكر الصياح ، فكان ذكر التاء أحسن .

(١) سورة القمر ٢٠
(٢) سورة هود ٩٤
(٣) سورة هود ٦٧
(٤) سورة البقرة ٧٠
(٥) سورة هود ٦٦
(٦) سورة العنكبوت ٣٧
(٧) سورة الشعراء ١٨٩

فإن قلت : ما الفرق بين قوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾(١) ، وبين قوله : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾(٢) .

قيل : الفرق بينهما من وجهين :

لفظى ومعنوىّ :

أما اللفظى ، فهو أن الفصل بين الفعل والفاعل فى قوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾(٢) ، أكثر منها فى قوله : ﴿ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾(١) ، والحذف مع كثرة الحواجز أحسن .

وأما المعنوىّ فهو أنّ « مَن » فى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾(١) ، راجعة على الجماعة ، وهى مؤنثة لفظا ؛ بدليل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾(٣) ، ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾(١) ، أى من تلك الأمم ، ولو قال «ضلت» لتعينت التاء ـ والكلامان واحد وإن كان معناهما واحدا ـ فكان إثبات التاء أحسن من تركها ، لأنها ثابتة فيما هو من معنى الكلام المتأخر .

وأما ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾(٢) ، فالفريق مذكر ، ولو قال : « ضَلُّوا » لكان بغير تاء ، وقوله : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾(٢) فى معناه ، فجاء بغير تاء ، وهذا أسلوب لطيف من أساليب العرب ، أن يَدَعوا حكم اللفظ الواجب فى قياس لغتهم ، إذا كان فى مركّبه كلمة لا يجب لها حكم ذلك الحكم .

تنبيه

جاء عن ابن مسعود : ذكّروا القرآن . ففهم منه ثعلب أنّ ما احتمل تأنيثه وتذكيره كان تذكيرُه أجودَ .

---

(١) سورة النحل ٣٦ (٢) سورة الأعراف ٣٠

(٣) سورة النحل ٣٦

ورُدّ بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيقى التأنيث ، لكثرة ما فى القرآن منه بالتأنيث . ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ ﴾(١) . ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾(٢) . ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾(٣) . وإذا امتنع إرادة غير الحقيقى ، فالحقيقىّ أولى .

قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غُلِّب فيه التذكير ، لقوله تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾(٤) . ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾(٥) ، فأنث مع جواز التذكير ، قال تعالى : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾(٦) ، ﴿ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ﴾(٧) : قال: فليس المراد ما فُهِم ، بل المراد الموعظة والدعاء ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ .. ﴾(٨) إلا أنه حذف الجارّ ، والمقصود ذكّروا الناس بالقرآن ، أى ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه .

وقال الواحدىّ : إنّ قول ابن مسعود على ما ذهب إليه ثعلب ، والمراد أنه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج فى التذكير إلى مخالفة المصحف ذُكِّر ، نحو : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾(٩) .

قال : ويدلّ على إرادته هذا أن أصحاب عبدالله من قراء الكوفة كحمزة والكسائى ذهبوا إلى هذا فقرءوا ما كان من هذا القبيل بالتذكير ، نحو : ﴿ يَوْمَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾(١٠) . وهذا فى غير الحقيقى .

[ضابط التأنيث](١١)

ضابط التأنيث ضربان :

حقيقىّ وغيره ، فالحقيقى لا يحذف التأنيث من فعله غالبا إلا أن يقع فصل ، نحو

---

(١) سورة الحج ٧٢
(٢) سورة القيامة ٢٩
(٣) سورة إبراهيم ١١
(٤) سورة ق ١٠
(٥) سورة الحاقة ٧
(٦) سورة القمر ٢٠
(٧) سورة يس : ٨٠
(٨) سورة ق ٤٥
(٩) سورة البقرة ٤٨
(١٠) سورة النور ٢٤
(١١) هذا الفصل ساقط من ت .

قام اليوم هند ، وكلما كثر الفصل حَسُن الحذف ، والإثبات مع الحقيقى أولى مالم يكن جمعا.
وأمّا غير الحقيقى فالحذف فيه مع الفصل حَسَن ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾[١]،
فإن كثُر الفصل ازداد حسنا، ومنه:﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ﴾[٢] ويحسن الإثبات
أيضا ؛ نحو : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾[٣] فجمع بينهما فى سورة هود .

وأشار بعضهم إلى ترجيح الحذف ، واستدلّ عليه بأن الله تعالى قدّمه عليه حيث جمع
بينهما فى سورة واحدة . وفيما قاله نظر .

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥ (٢) سورة هود ٦٧
(٣) سورة هود ٩٤

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه

قد سبق منه كثير في نوع الالتفات ؛ ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهدّدة المتوعّد بها ، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريراً وتحقيقاً لوقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾(١) .

وقوله في الزمر : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾(٤) ؛ أي نحشرهم .

وقوله : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾(٥) . ثم تارة يُجعل المتوقع فيه كالواقع ، فيؤتَى بصيغة الماضي مراداً به المضيّ ، تنزيلا للمتوقّع منزلة ما وقع ، فلا يكون تعبيراً عن المستقبل بلفظ الماضي ، بل جُعِل المستقبل ماضياً مبالغة .

ومنه : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(٦) . ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾(٧) ونحوه .

* * *

وقد يعبّر عن المستقبل بالماضي مراداً به المستقبل ؛ فهو مجاز لفظي ، كقوله تعالى :

---

(١) سورة النمل ٨٧
(٢) سورة الزمر ٦٨
(٣) سورة إبراهيم ٢١
(٤) سورة الكهف ٤٧
(٥) سورة الأعراف ٤٨
(٦) سورة النحل ١
(٧) سورة الأعراف ٤٤

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ﴾(١)؛ فإنه لا يمكن أن يراد به المضى ، لمنافاة ﴿ يُنْفَخُ ﴾ الذى هو مستقبل فى الواقع . وفائدة التعبير عنه بالماضى الإشارة إلى استحضار التحقق، وإنه من شأنه لتحققه أن يعبّر عنه بالماضى وإن لم يرد معناه . والفرق بينهما أنّ الأول مجاز ، والثانى لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط.

* * *

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَىٰ ﴾(٢) ؛ أى يقول ، عكسه لأن المضارع يراد به الديمومة والاستمرار ، كقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾(٤) ، أى فكان استحضاراً لصورة تكوّنه.

وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾(٥) أى ما تلت .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾(٦) ، أى علمنا .

فإن قيل : كيف يتصور التقليل(٧) فى علم الله ؟

قيل : المراد أنهم أقل معلوماته ؛ ولأن المضارع هنا بمعنى الماضى ف «قد» فيه للتحقيق لا التقليل .

وقوله : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ ﴾(٨) ، أى فلم قتلتم !

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾(٩) أى لم يتعارفوا حتى تأتيهم .

وقوله : ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾(١٠) ، قال مجاهد : « منتهين » وقيل : زائلين من الدنيا .

---

(١) سورة النمل ٨٧
(٢) سورة المائدة ١١٦
(٣) سورة البقرة ٤٤
(٤) سورة آل عمران ٥٩
(٥) سورة البقرة ١٠٢
(٦) سورة الحجر ٩٧
(٧) أى التقليل المراد من كلمة « قد » .
(٨) سورة البقرة ٩١
(٩) سورة البينة ١
(١٠) سورة البينة ١

وقال الأزهرى : ليس هو من باب « ما انفك » و « مازال » إنما هو من انفكاك الشىء إذا انفصل عنه .

وقوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ ﴾(١) ، المعنى : فلم عذّب آباءكم بالمسخ والقتل ؟ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يحتجّ عليهم بشىء لم يكن بعدُ ؛ لأن الجاحد يقول : إنى لا أُعذَّب ، لكن احتجّ عليهم بما قد كان .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾(٢) . فعدَل عن لفظ « أصبحت » إلى « تصبح » ، قصدا للمبالغة فى تحقيق اخضرار الأرض لأهميته ؛ إذ هو المقصود بالإنزال .

فإن قلت : كيف قال النحاة : إنه يجب نصبُ الفعل المقرون بالفاء إذا وقع فى جواب الاستفهام ، كقوله : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾(٣) و « فتصبحُ » هنا مرفوع ؟

قلت : لوجوه :

أحدها : أنّ شرط الفاء المقتضية للنصب أن تكون سببية ، وهنا ليست كذلك ، بل هى للاستئناف ؛ لأن الرؤية ليست سببا للإصباح .

الثانى : أن شرط النصب أن ينسبك من الفاء وما قبلها شرط وجزاء ، وهنا ليس كذلك ؛ لأنه لو قيل : إن تر أن الله أنزل ماء تصبح ؛ لم يصح ؛ لأن إصباح الأرض حاصل ؛ سواء رُئىَ أم لا .

فإن قيل : شاع فى كلامهم إلغاء فعل الرؤية ، كما فى قوله : « ولا تزال ـ تراها ـ ظالمة »

---

(١) سورة المائدة ١٨ (٢) سورة الحج ٦٣

(٣) سورة الأعراف ٥٣

أى ولا تزال ظالة ؛ وحينئذ فالمعنى منصبّ إلى الإنزال لا إلى الرؤية ؛ ولا شك أنّه يصحّ أن يقال : « إنْ أنزل تُصبح » ، فقد انعقد الشرط والجزاء .

قلت : إلغاء فعل الرؤية فى كلامهم جائز لا واجب ، فمن أين لنا مايقتضى تعيينَ حمل الآية عليه ؟

الثالث : إن همزة الاستفهام إذا دخلت على موجب تقلبه إلى النفى ، كقوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾[1] ، وإذا دخلت على نفى تقلبه إلى الإيجاب ؛ فالهمزة فى الآية للتقرير ، فلما انتقل الكلام من النفى إلى الإيجاب لم ينتصب الفعـــل ، لأن شرط النفى كون السابق منفيًّا محضا : ذكره العزيزى[2] فى « البرهان » .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾[3] .

الرابع : أنه لو نصب لأعطَى ما هو عكس الغرض لأن معناه إثبات الاخضرار ، فكان ينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار ، مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنى أنعمت فتشكر ! إن نصبت فأنت نافٍ لشكره ، شاكٍ تفريطَه ، وإن رفعت فأنت مثبت لشكره . ذكر هذا الزمخشرى فى الكشاف ، قال: وهذا ومثاله مما يجب أن يَرغب له من اتّسم بالعلم فى علم الإعراب وتوقير أهله .

وقال ابن الخباز : النصب يفسد المعنى ؛ لأنّ رؤيةَ المخاطب الماء الذى أنزله الله ليس سببًا للاخضرار ؛ وإنما الماء نفسه هو سبب الاخضرار .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾[4] ،

---

(١) سورة المائدة ١١٦

(٢) العزيزى بن عبد الملك ، المعروف بشيذلة ؛ ذكره صاحب كشف الظنون .

(٣) سورة السجدة ٢٧ (٤) سورة فاطر ٩

فقال : « تثير » مضارعا ، وما قبله وما بعده ماضياً ، مبالغة فى تحقيق إثارة الرياح السحاب للسامعين وتقدير تصوّره فى أذهانهم .

فإن قيل : أهمّ الأفعال المذكورة فى الآية إحياء الموتى ، وقد ذكر بلفظ الماضى ، وما ذكرتَه يقتضى أولويّة ذكره بلفظ المضارع ، إذ هو أهمّ ، وإثارة السحاب سبب أعيد على قريب .

قيل : لا نسلم بأهمّية إحياء الأرض بعد موتها ؛ فالمقدّمات المذكورة أهمّها وأدلّها على القدرة أعجبُها وأبعدُها عن قدرة البشر ، وإثارة السحاب أعجبها ؛ فكان أولى بالتخصيص بالمضارع ؛ وإنما قال : إن إثارة السحاب أعجب لأن سببها أخفى ؛ من حيث إنّا نعلم بالفعل أن نزول الماء سبب فى اخضرار الأرض ، وإثارة السحاب وسوقه سبب نزول الماء . فلو خُلّينا وظاهر العقل لم نقل : إن الرياح سببها ؛ لعدم إحساسنا بمادّة السحاب وجهته .

ومن لواحق ذلك العدول عن المستقبل إلى اسم المفعول ، لتضمّنه معنى الماضى ، كقوله : ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾(١) ، تقريرا للجمع فيه ، وأنّه لا بد أن يكون معاداً للناس ، مضروبا لجميعهم ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾(٢) ، لتعرف صحة هذا المعنى .

فإن قلت : الماضى أدلّ على المقصود من اسم المفعول ؛ فلم عدلَ عنه إلى ما دلالته أضعف ؟ قلت : لتحصل المناسبة بين « مجموع » و « مشهور » فى استواء شأنيهما طلبا للتعديل فى العبارة .

ومنه العدول عن المستقبل إلى اسم الفاعل ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾(٣) فإن اسم الفاعل ليس حقيقة فى الاستقبال ، بل فى الحال .

---

(١) سورة هود ١٠٣
(٢) سورة التغابن ٩
(٣) سورة الذاريات ٦

مشاكلة اللفظ للفظ

هى قسمان : أحدهما ـ وهو الأكثر ـ المشاكلة بالثانى للأول ؛ نحو «أخذه ما قَدُمَ وما حدث» . وقوله تعالى : ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾[1] ؛ على مذهب الجمهور وأن الجرّ للجوار : ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾[2] .

وقد تقع المشاكلة بالأول للثانى كما فى قراءة إبراهيم بن أبى عبلة : ﴿الحمدِ لِلهِ﴾ بكسر الدال ، وهى أفصح من ضم اللام للدال .

---

(١) سورة المائدة ٦

(٢) سورة الرحمن ٧ ، ٨

مشاكلة اللفظ للمعنى

ومتى كان اللفظ جَزْلا كان المعنى كذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾(١) ، ولم يقل من « طين » كما أخبر به سبحانه فى غير موضع : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾(٢) إنما عَدَل عن الطين الذى هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرّد التراب لمعنى لطيف ؛ وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثفهما، لما كان المقصودُ مقابلةَ من ادّعى فى المسيح الإلٰهية أتَى بما يصغّر أمر خلقه عند من ادعى ذلك ؛ فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمسّ فى المعنى من غيره من العناصر ؛ ولما أراد سبحانه الامتنانَ على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير ، تعظيما لأمر ما يخلقه بإذنه : إذ كان المطلوب الاعتدادَ عليهم بخلقه ليعظّموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾(٣) فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر ؛ لأنه أتى بصيغة الاستغراق ، وليس فى العناصر الأربع ما يعمّ جميعَ المخلوقات إلا الماء ، ليدخل الحيوان البحرىّ فيها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾(٤) ؛ فإنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القَسَم بالنسبة إلى أخواتها ؛ فإنّ « والله » و « بالله » أكثر استعمالا وأعرف من « تالله » لما كان الفعل الذى جاور القسم أغرب الصيغ التى فى بابه ؛ فإنّ « كان » وأخواتها أكثر استعمالا من « تفتأ » وأعرف عند العامة ؛ ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك بالنسبة ، وهى لفظة « حَرَض » :

---

(١) سورة آل عمران ٥٩
(٢) سورة ص ٧١
(٣) سورة النور ٤٥
(٤) سورة يوسف ٨٥

ولما أراد غير ذلك قال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾[1] ، لما كانت جميع الألفاظ مستعملة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[2] ؛ فإنه سبحانه لما نهى عن الركون إلى الظالمين ، وهو الميل إليهم والاعتماد عليهم ، وكان دون ذلك مشاركتهم فى الظلم ، أخبر أنّ العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم ؛ وهو مسُّ النار الذى هو دون الإحراق والاضطرام ؛ وإن كان المسّ قد يُطلق ويراد به الإشمار بالعذاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾[3] ؛ فإنه نشأ فى الآية سؤال ، وهو أن الترتيب فى الجمل الفعلية تقديم الفعل وتعقيبه بالفاعل ، ثم بالمفعول ، فإن كان فى الكلام مفعولان : أحدهما يعدّى وصول الفعل إليه بالحرف ، والآخر بنفسه ، قدم ما تعدّى إليه الفعل بنفسه ؛ وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ﴾[4] .

إذا ثبت هذا ، فقد يقال : كيف توخّى حسنَ الترتيب فى عَجُز الآية دون صدرها ؟ والجواب أنّ حسن الترتيب منع منه فى صدر الآية مانع أقوى ، وهو مخافة أن يتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخرج ؛ فيثقل الكلام بسبب ذلك ؛ فإنه لو قيل « لئن بسطت يدك إلىّ » والطاء والتاء متقاربة المخرج ؛ فلذلك حسن تقديم المفعول الذى تعدّى الفعل إليه بالحرف على الفعل الذى تعدى إليه بنفسه ؛ ولمّا أمن هذا المحذور فى عَجُز الآية لما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع الجملة الفعلية ، لتضمّنه معنى الفعل الذى تصحّ به المقابلة ، جاء الكلام على ترتيبه : من تقديم المفعول الذى تعدّى الفعل إليه بنفسه ، على

---

(١) سورة فاطر ٤٢
(٢) سورة هود ١١٣
(٣) سورة المائدة ٢٨
(٤) سورة الفتح ٢٤

المفعول الذى يعدى إليه بحرف الجرّ . وهذا أمر يرجع إلى تحسين اللفظ ؛ وأما المعنى فعلى نظم الآية ؛ لأنه لما كان الأول حريصاً على التعدّى على الغير قدّم المتعدى على الآلة ، فقال : إلىّ يدكَ ، ولما كان الثانى غير حريص على ذلك ، لأنه نفاه عنه ، قدّم الآلة فقال: « يدىَ إليك » ؛ ويدل لهذا أنه عبّر عن الأول بالفعل وفى الثانى بالاسم .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله فى سورة الممتحنة : ﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾[١] ؛ لأنه لمّا نسبهم للتعدى الزائد قدّم ذكر المبسوط إليهم على الآلة ؛ وذلك الجواب السابق لا يمكن فى هذه الآية .

ومثله قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[٢] ؛ مقتضى الصناعة أن يُؤتى بالتجنيس للازدواج فى صدر الآية ، كما أتى به فى عجزها ، لكن منعه توخّى الأدب والتهذيب فى نظم الكلام ؛ وذلك أنه لما كان الضمير الذى فى « يجزى » عائدا على الله سبحانه ، وجب أن يعدل عن لفظ المعنى الخاصّ إلى رديفه ، حتى لا تنسب السيئة إليه سبحانه، فقال فى موضع السيئة : بما « عملوا » ، فعوض عن تجنيس المزاوجة بالإرداف لما فيه من الأدب مع الله بخلاف قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[٣] ، فإن هذا المحذور منه مفقود ، فجرى الكلام على مقتضى الصناعة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾[٤]؛ فإنّه سبحانه خصّ الشِّعْرَى بالذكر دون غيرها من النجوم ؛ وهو ربّ كلّ شىء ، لأن العرب ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبى كَبْشة عَبَدَ الشِّعرى ، ودعا خلْقا إلى عبادتها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[٥] ، ولم يقل : « لا تعلمون » لما فى الفقه من الزيادة على العلم .

(١) سورة الممتحنة ٢ — (٢) سورة النجم ٣١
(٣) سورة الشورى ٤٠ — (٤) سورة النجم ٤٩
(٥) سورة الإسراء ٤٤

وقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾(١) فإنه لم يخلُ هذا الكلام من حسن الأدب مع أبيه، حيث لم يصرّح فيه بأن العذاب لاحق له ، ولكنه قال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾(١) فذكر الخوف والمسّ ، وذكر العذاب ونكّره ولم يصفْه بأنه يقصد التهويل بل قصد استعطافه؛ ولهذا ذكر «الرحمن» ولم يذكر «المنتقم» ولا « الجبار » على ، حد قوله :

فما يوجِع الحرمان من كَفِّ حازمٍ كما يوجع الحرمانُ مِنْ كَفِّ رازقِ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾(٢) فإنه قد يقال : ما الحكمة في التعبير بالسخرية دون الاستهزاء ؟ وهلّا قيل : « فحاق بالذين استهزءوا بهم » ليطابق ماقبله ؟

والجواب أن الاستهزاء هو إسماع الإساءة ، والسخرية قد تكون في النفس ولهذا يقولون : سخِرت منه كما يقولون : عجِبت منه ؛ ولا يقال : تجنّب ذلك لما في ذلك من تكرار الاستهزاء ثلاث مرات ؛ لأنه قد كرر السخرية ثلاثا في قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾(٣) ، وإنما لم يقل: « نستهزئ بكم » لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء .

وأما قوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(٤) فالعرب تسمى الجزاء على الفعل باسم الفعل ، كقوله : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٥) ؛ وهو مجاز حسن ؛ وأما الاستهزاء الذي نحن بصدده فهو استهزاء حقيقة ، لا يرضى به إلا جاهل .

ثم قال سبحانه : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾(٦) ، أي حاق بهم من الله الوعيد

---

(١) سورة مريم ٤٥
(٢) سورة الأنعام ١٠
(٣) سورة هود ٣٨
(٤) سورة البقرة ١٥
(٥) سورة التوبة ٦٧
(٦) سورة الأنعام ١٠

البالغ لهم على ألسنة الرسل ما كانوا به يستهزئون بألسنتهم ، فنزّلت كلّ كلمة منزلتها .

وقوله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾(١) ولم يذكر الكعبة ، لأن البعيد يكفيه مراعاة الجهة ، فإن استقبال عينها حرج عليه ، بخلاف القريب ؛ ولما خصّ الرسول بالخطاب تعظيما وإيجابا لشرعته عمّم تصريحا بعموم الحكم، وتأكيداً لأمر القبلة .

قاعدة

إذا اجتمع الحمْل على اللفظ والمعنى، بدئ باللفظ ثم بالمعنى ، هذا هو الجادّة فى القرآن، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ﴾(٢) ، أفرد أوّلا باعتبار اللفظ ، ثم جمع ثانيا باعتبار المعنى ، فقال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) فعاد الضمير مجموعا ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾(٣) ، فعاد الضمير من « يدخله » مفردا على لفظ « من » ، ثم قال : « خالدين » وهو حال من الضمير .

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ . . . ﴾(٦) إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾(٦) .

وقد يجرى الكلام على أوله فى الإفراد ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ

---

(١) سورة البقرة ١٤٩ ، ١٥٠
(٢) سورة البقرة ٨
(٣) سورة الطلاق ١١
(٤) سورة الأنعام ٢٥
(٥) سورة التوبة ٤٩
(٦) سورة التوبة ٧٥ ، ٧٦

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . . .﴾[1] الآيتين ، فكرر فيها ثمانية ضمائر ، كلّها عائد على لفظ « من » ، ولم يرجع منها شيء على معناها ، مع أن المعنى على الكثرة .

وقد يقتصر على معناها في الجميع ، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[2] . وما ذكرنا من البداءة باللفظ عند الاجتماع هو الكثير ، قال الشيخ علم الدين العراقي : ولم يجيء في القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا في موضع واحد ؛ وهو قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾[3] ، فأنث « خالصة » حملا على معنى « ما » ، ثم راعى اللفظ فذكّر ؛ وقال : ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ .

واعترض بعض الفضلاء وقال : إنما يتمّ ماقاله من البداءة بالحمل على المعنى في ذلك ؛ إذا كان الضمير الذي في الصِّلَة التي في بطون هذه الأنعام يقدر مؤنثا ؛ أما إذا قدر مذكّرا فالبداءة إنما هو بالحمل على اللفظ .

وأجيب بأنّ اعتبار اللفظ والمعنى أمر يرجع إلى الأمور التقديرية ؛ لأن اعتبار الأمرين أو أحدهما إنما يظهر في اللفظ ؛ وإذا كان كذلك صدق أنّه إنما بدئ في الآية بالحمل على المعنى ؛ فيتمّ كلام العراقيّ .

ونقل الشيخ أبو حيان في تفسيره عن ابن عصفور : أن الكوفيّين لا يجيزون الجمع بين الجملتين إلا بفاصل بينهما ؛ ولم يعتبر البصريون الفاصل ، قال : ولم يرد السماع إلا بالفاصل ، كما ذهب إليه الكوفيون . ونازعه الشيخ أثير الدين بقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ

(١) سورة البقرة ٢٠٤ — (٢) سورة يونس ٤٢

(٣) سورة الأنعام ١٣٩

ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[1] ، وقال : ألا تراه كيف جمع بين الجلتين دون فصل ! انتهى .

والذى ذكره ابن عصفور فى شرح « المقرب » : شَرَطَ الكوفيون فى جواز اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى الفصل ؛ فيجوّزون : مَنْ يقومون اليوم وينظر فى أمرنا إخوتنا ، ولا يجوّزون : مَنْ يقومون وينظر فى أمرنا إخوتنا ؛ لعدم الفصل ، وإنما ورد السماع بالفصل . انتهى .

وهذا يقتضى أنّ الكوفيين لا يشترطون الفصل عند اجتماع الجلتين ؛ إلا أن يقدّم اعتبارُ المعنى ويؤخّر اعتبارُ اللفظ كما فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[1] إنما بدئ فيه بالحمل على اللفظ .

وقال ابن الحاجب : إذا حُمِل على اللفظ جاز الحمل بعده على المعنى ؛ وإذا حمِل على المعنى ضَعُف الحمل بعده على اللفظ ؛ لأن المعنى أقوى ، فلا يبعد الرجوع إليه بعد اعتبار اللفظ ، ويضعف بعد اعتبار المعنى القوىّ الرجوعُ إلى الأضعف .

وهذا معترَض بأن الاستقراء دلّ على أن اعتبار اللفظ أكثر من اعتبار المعنى ، وكثرة موارده تدل على قوته ؛ وأما العوْد إلى اللفظ بعد اعتبار المعنى فقد ورد به التنزيل ، كما ورد باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ ، فثبت أنه يجوز الحمل على كل واحد منهما ، بعد الآخر من غير ضعف .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا ﴾[2] فقرأه الجماعة بتذكير « يقنُت » حملا على لفظ « مَنْ » فى التذكير « وتعمل » بالتأنيث ، حملا على معناها ؛ لأنها للمؤنث . وقرأ حمزة والكسائى « يعمل » بالتذكير فيهما حملا على لفظها

---

(١) سورة البقرة ١١١ (٢) سورة الاحزاب ٣١

رعاية للمناسبة فى المتعاطفين . وتوجيهُ الجماعة أنّه لما تقدم على الثانى صريح التأنيث فى « منكنّ » حسنُ الحمل على المعنى .

وقال أبو الفتح فى «المحتسب» : لا يجوز مراجعة اللفظ بعد انصرافه عنه إلى المعنى . وقد يورَد عليه قوله : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1] ثم قال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾[1] ، فقد راجع اللفظ بعد الانصراف عنه إلى المعنى ؛ إلا أن يقال : إن الضمير فى «جاء» يرجع إلى الكافر لدلالة السياق عليه ؛ لا إلى « مَنْ » .

ومنه الفرق بين «أسقى» و «سقى» بغير همز ؛ لما لا كلفةمعه فى السقيا ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[2] فأخبر أن السقيا فى الآخرة لا يقع فيها كلفة، بل جميع ما يقع فيها من الملاذّ يقع فرصة وعفواً ، بخلاف « أسقى » بالهمزة ، فإنه لا بُدّ فيه من الكلفة بالنسبة للمخاطبين ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾[3] ، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾[4] ، لأن الإسقاء فى الدنيا لا يخلو من الكلفة أبداً .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾[5] ، قال أبو سلمة محمد بن بحر الأصبهانى فى تفسيره : إنما خصّ الموزون بالذكر دون المكيل ، لأمرين :

أحدهما : أن غاية المكيل ينتهى إلى الموزون ، لأن سائر المكيلات إذا صارت قطعا دخلت فى باب الموزون وخرجت عن المكيل ، فكان الوزن أعمّ من المكيل .

والثانى : أن فى الموزون معنى المكيل ؛ لأن الوزن هو طلب مساواة الشىء بالشىء

(١) سورة الزخرف ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨
(٢) سورة الدهر ٢١
(٣) سورة المرسلات ٢٧
(٤) سورة الجن ١٦
(٥) سورة الحجر ١٩

ومقايسته وتعديله به ، وهـذا المعنى ثابت فى المكيل ، فخصّ الوزن بالذكر لاشماله على معنى المكيل .

وقال الشريف المرتضى فى « الغرر »[1] : هذا خلاف المقصود ؛ بل المراد بالموزون القدر الواقع بحسب الحاجة ، فلا يكون ناقصا عنها ولا زائداً عليها زيادة مضرّة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾[2] ، فذكر فى مدة اللّبث السنة ، وفى الانفصال العام ؛ للإشارة إلى أنه كان فى شدائد فى مدته كلّها، إلا خمسين عاما قد جاءه الفرج والغوث ؛ فإن السّنة تستعمل غالبا فى موضع الجدْب ؛ ولهذا سمّوْا شدة القَحْط سنة .

قال السُّهيليّ : ويجوز أن يكون الله سبحانه قد علم أن عمره كان ألفا ؛ إلا أن الخمسين منها كانت أعواما ، فيكون عمره ألف سنة ينقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية فى الخمسين خاصة ؛ لأن الخمسين عاما بحسب الأهلّة أقل من خمسين سنة شمسيـة ، بنحو عام ونصف .

وابْنِ على هذا المعنى قوله : ﴿ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[3] وقوله : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ؛ فإنه كلام وردَ فى موضع التكثير والتتميم بمدّة ذلك اليوم ، والسنة أطول من العام .

---

(١) الغرر ١ : ١٣ ؛ وعبارته : «ووجه الآية ومايشهد لظاهر لفظها غير ماسلكه أبو مسلم ؛ وإنما أراد تعالى بالموزون المقدر الواقع بحسب الحاجة . . . » .

(٢) سورة العنكبوت ١٤ (٣) سورة المعارج ٤

النَّحتُ

نحو الحوقلة والبسملة ، جعله ابن الزملكاني من[1] نظوم القرآن ، ومثّله بقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾[2] ، قال : وكفى ، من كفيته الشيء ؛ ولم يجيء للعرب كفيته بالشيء ، فجعل بين الفعلين الفعل المذكور ؛ وهو متعدّ ، وخصّ من الفعل اللازم وهو اكتفيت به ، بالباء ، وكذلك انتصب « شهيداً » على التمييز أو الحال ؛ كأنه قيل : كفى بالله فاكتف به ، فاجتمع فيه الخبر والأمر .

---

(١) ت : « في » .

(٢) سورة النساء ٧٩

الإبدال

من كلامهم إبدالُ الحروف ، وإقامةُ بعضِها مقامَ بعض ؛ يقولون : مدحه ومدهَه ، وهو كثير ، ألّف فيه المصنفون ، وجعل منه ابن فارس[1] قوله تعالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾[2] ، فقال : فالراء واللام متعاقبان ، كما تقول العرب : فَلَق الصبح وفرَقه . قال : وذُكِر عن الخليل ـ ولم أسمعه سماعا ـ أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾[3] ، إنما أراد « فحاسوا » فقامت الجيم مقام الحاء .

قال ابن فارس : وما أحسب الخليلَ قال هذا ، ولا أُحُقّه عنه .

قلت : ذكر ابن جنى فى « المحتسب » : أنها قراءة أبو السَّمال ، وقال : قال أبو زيد ـ أو غيره : قلت له : إنما هو « فجاسوا » ، فقال : حاسوا وجاسوا واحد . وهذا يدل على أنّ بعض القراء يتخير بلا رواية ، ولذلك[4] نظائر . انتهى .

وهذا الذى قاله ابن جنى غير مستقيم ، ولا يحلُّ لأحد أن يقرأ إلا بالرواية . وقوله : « إنهما بمعنى واحد » لا يوجب القراءة بغير الرواية كما ظنه أبو الفتح وقائل ذلك ، والقارئ به هو أبو السوّار الغَنوىّ لا أبو السمال فاعلم ذلك . كذلك أسنده الحافظ أبو عمرو الدانى ، فقال : حدثنا المازنىّ ، قال : سألت أبا السوّار الغنوى ، فقرأ : « فحاسوا » بالحاء غير الجيم ، فقلت : إنما هو « فجاسوا » قال : حاسوا وجاسوا واحد ، يعنى أن اللفظين بمعنى واحد ؛ وإن كان أراد أن القراءة بذلك تجوز فى الصلاة ، والغرض كما جازت بالأولى ، فقد غلط فى ذلك وأساء .

---

(١) فى فقه اللغة ١٧٣

(٢) سورة الشعراء ٦٣

(٣) سورة الإسراء ٥

(٤) انظر المحتسب الورقة ٩١ ، البحر المحيط لأبى حيان ٦ : ١٠

وزعم الفارسيّ في تذكرته في قوله : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ ﴾(١) ، أنه بمعنى حبّ الخيل ؛ وسميت الخيل خيرا لما يحصل بها من العز والمَنَعة، كما روى : « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وحينئذ فالمصدر مُضاف إلى المفعول به .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾(٢) : إن أصله « ملاقح » ، لأنه يقال : ألقحت الريح السحاب ، أى جمعته ، وكل هذا تفسير معنى ، وإلا فالواجب صون القرآن أن يقال فيه مثل ذلك .

وذكر أبو عبيدة في قوله : ﴿ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾(٣) ، معناه « تصددة » ، فأخرج الدال الثانية ياء لكسرة الدال الأولى ، كما حكاه صاحب « الترقيص »(٤) .

وحكى عن أبى رياش فى قول امرئ القيس(٥) :

* فَسُلِّي ثيابى مِنْ ثيابِكِ تَنْسَلِي *

معناه « تَنْسَلِل » فأخرج اللام الثانية [ياء] لكسرة اللام الأولى،ومثله قول الآخر :

وإنِّى لَأستنعى وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خيالًا مِنْكِ يلقَى خياليا(٦)

أراد أستنعس ؛ فأخرج السين ياء .

وقال الفارسيّ فى « التذكرة »(٧) : قرأ أبو الحسن ـ أو من قرأ له ـ قوله تعالى فيما حكى عن يعقوب فى القلب والإبدال : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾(٨)، « غير

(١) ص ٣٢ (٢) سورة الحجر ٢٢

(٣) سورة الأنفال ٣٥

(٤) لمحمد بن على الأزدى ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ، وينقل عنه السيوطى فى المزهر .

(٥) ديوانه ١٣ ؛ وصدره :

* وإنْ تَكُ سَاءَتْكِ مِنِّى خليقةٌ *

(٦) لمجنون بنى عامر ، تزيين الأسواق ٧٠ (٧) هى المعروفة بتذكرة أبى على ؛ ذكره صاحب كشف الظنون ص ٣٨٤ ، وقال : « وهو كبير فى مجلدات ، لخصه أبو الفتح عثمان بن جنى » .

(٨) سورة الأنعام ١٤٥

عائد » ، واستحسنه الفارسى ألّا يعود إليه كما يعود فى حال السعة من العشاء إلى الغداء .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾[1] : إنّ خرقه واخترقه ، وخلقه ، واختلقه بمعنى ؛ هو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير ، وقول قريش فى الملائكة .

وجوّز الزمخشرى كونه[2] من خرق الثوب ؛ إذا شقّه ، أى أنهم اشتقوا له بنين وبنات .

---

(١) سورة الأنعام ١٠٠

(٢) الكشاف ١ : ٤١

المحاذاة

ذكره ابن فارس[1] ، وحقيقته أن يؤتى باللفظ على وزن الآخر لأجل انضمامه إليه ؛ وإن كان لا يجوز فيه ذلك لو استعمل منفردا ؛ كقولهم : أتيته الغدايا والعشايا ، فقالوا : الغدايا لانضمامها إلى العشايا .

قيل : ومن هذا كتابة المصحف ، كتبوا : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[2] بالياء ؛ وهو من ذوات الواو ؛ لما قرن بغيره مما يكتب بالياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَسَلَّطَهُمْ ﴾[3] فاللام التى فى ﴿ لسلطهم ﴾ جواب ﴿ لَوْ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ فهذه حوذيت بتلك اللام ؛ وإلا فالمعنى : لسلطهم عَلَيْكُمْ فقاتلوكم .

ومثله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾[4] فهما لاما قسم ـ ثم قال : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى ﴾ ، فليس ذا موضع قسم ؛ لأنه عذر[5] للهدهد ؛ فلم يكن ليقسم على الهدهد أن يأتى بعذر ، لكنه لما جاء به على أثر ما يجوز فيه القسم أجراه مُجراه[6] .

---

(١) فقه اللغة ١٥ (٢) سورة الضحى ٢

(٣) من قوله تعالى فى سورة النساء ٩٠ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾.

(٤) سورة النمل ٢١

(٥) فى الأصول : « حذر الهدهد » ، وما أثبته عن فقه اللغة .

(٦) بعده فى فقه اللغة : «ومن الباب : وزنته فاتزن، وكلته فاكتال، أى استوفاه كيلا ووزنا؛ ومنه قوله جل ثناؤه : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ ؛ تستوفونها ؛ لأنها حق للأزواج على النساء » .

ومنه[1] الجزاء عن الفعل بمثل لفظه نحو : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[2] أى يجازيهم جزاء الاستهزاء .

وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾[3] ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾[4] : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[5] .

---

(١) فى فقه اللغة « ومن هذا الباب الجزاء على الفعل بمثل لفظه » .

(٢) سورة البقرة ١٤ ، ١٥

(٣) سورة آل عمران ٥٤

(٤) سورة التوبة ٧٩

(٥) سورة الشورى ٤٠

قواعد في النفي

قد تقدّم في شرح معانى الكلام جمل من قواعده ؛ ونذكر هاهنا زيادات .

اعلم أنّ نفيَ الذات الموصوفة قد يكون نفيا للصفة دون الذات ، وقد يكون نفيا للذات . وانتفاء النهى عن الذات الموصوفة قد يكون نهيا عن الذات ، وقد يكون نهيا عن الصفة دون الذوات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾(١) ، فإنه نَهَى عن القتل بغير الحق . وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾(٢) .

ومن الثانى قوله : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾(٣) ، ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(٤) ، أى فلا يكون موتكم إلا على حال كونكم ميّتين على الإسلام ، فالنهى فى الحقيقة على خلاف حال الإسلام ؛ كقول القائل : لا تصلّ إلا وأنت خاشع ، فإنه ليس نهيا عن الصلاة ، بل عن ترك الخشوع .

وقوله : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . . . ﴾(٥) الآية .

وقد ذكروا أن النفى بحسب ما يتسلّط عليه يكون أربعة أقسام :

الأول : بنفى المسنَد نحو ، ما قام زيد بل قعد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾(٦) فالمراد نفيُ السؤال من أصله ؛ لأنهم متعففون ؛ ويلزم من نفيه نفيُ الإلحاف .

---

(١) سورة الإسراء ٣٣
(٢) سورة الأنعام ١٥١
(٣) سورة المائدة ٩٥
(٤) سورة آل عمران ١٠٢
(٥) سورة النساء ٤٣
(٦) سورة البقرة ٢٧٣

الثانى : أن ينفى المسنَد إليـه ، فينتفى المسنَد ، نحو ما قام زيد إذا كان زيد غير موجود ؛ لأنه يلزم من عدم زيد نفى القيام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ ﴾(١) ، أى لا شافعين لهم فتنفعهم شفاعتهم .

ومنه قول الشاعر(٢) :

* عَلَى لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَى لِمَنَارِهِ *

أى : على طريق لا منار له ، فيهتدى به ؛ ولم يكن مراده أن يثبت المنار فينتفى الاهتداء به .

الثالث : أن يُنْفَى المتعلق دون المسند والمسند إليه ، نحو ما ضربت زيداً بل عَمْراً .

الرابع : أن ينفى قيد المسند إليـه أو المتعلق ؛ نحو ما جاءنى رجل كاتب بل شاعر ، وما رأيت رجلا كاتبا بل شاعراً ؛ فلما كان النفىُ قد ينصبّ على المسند وقد ينصبّ على المسنَد إليه أو المتعلق ، وقد ينصبّ على القيد احتمل فى قولنا : ما رأيت رجلا كاتبا أن يكون المنفىّ هو القيـد ؛ فيفيد الـكلام رؤية غير الـكاتب ؛ وهو احتمال مرجوح ؛ ولا يكون المنفىّ المسند ؛ أى الفعل ، بمعنى أنه لم يقع منه رؤية عليه ؛ لا على رجل ولا على غيره ؛ وهو فى المرجوحية كالذى قبله .

---

(١) سورة المدثر ٤٨

(٢) هو امرؤ القيس ، ديوانه ٦٦ ، وبقيته:

* إِذَا سَافَهُ ٱلْعَوْدُ ٱلنُّبَاطِىُّ جَرْجَرَا *

نفي الشيء رأساً

لأنه عدم كمال وَصْفه أو لانتفاء ثمرته ، كقوله تعالى فى صفة أهل النار: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾(١) فنفى عنه الموت، لأنه ليس بموت صريح ، ونفى عنه الحياة ، لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾(٢) أى ما هم بسكارَى مشروب ، ولكن سُكارَى فزع .

وقوله : ﴿ لَا يَنطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾(٣) ، وهم قد نطقوا بقولهم : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾(٤) ، ولكنهم لما نطقوا بما لم ينفع فكأنهم لم ينطقوا .

وقوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾(٥) .

وقوله : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٦) .

ومنه قوله : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(٧) ، فإنّ المعتزلة احتجوا به على نفى الرؤية ، لأنّ النظر لا يستلزم الإبصارَ ، ولا يلزم من قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٨) إبصار .

وهـذا وهم ، لأن الرؤية تقال على أمرين : أحدهما الحسبان والثانى العلم ، والآية من المعنى الأول ، أى تحسبهم ينظرون إليك ؛ لأنّ لهم أعينا مصنوعة بأجفانها وسوادها يحسب الإنسان أنها تنظر إليه بإقبالها عليه ، وليست تبصر شيئاً .

(١) سورة طه ٧٤
(٢) سورة الحج ٢
(٣) سورة المرسلات ٣٥، ٣٦
(٤) سورة الأنعام ٢٧
(٥) سورة الأعراف ١٧٩
(٦) سورة الملك ١٠
(٧) سورة الأعراف ١٩٨
(٨) سورة القيامة ٢٣

ومنه : ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ؛ فإنّه وَصَفهم أولا بالعلم على سبيل التوكيد القَسَمىّ ، ثم نفاه أخيراً عنهم لعدم جَرْيهم على موجب العلم ؛ كذا قاله السكاكى وغيره.

وقد يقال : لم يتوارد النفى والإثبات على محلّ واحد ، لأنّ المثبت أولا نفس العلم ، والمنفى إجراء العمل بمقتضاه . ويحتمل حذف المفعولين أو اختلاف أصحاب الضميرين .

قال : ونظيره فى النفى والإثبات قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾[3] .

قلت : المنفىّ أولا التأثير ، والمثبَت ثانيا نفس الفعل .

ومن هذه القاعدة يزول الإشكال فى قوله : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[4] والمعنى : إن لم تفعل بمقتضى ما بلغت فأنت فى حُكْمِ غير المبلِّغ ، كقولك لطالب العلم : إن لم تعمل بما علمت فأنت لم تعلم شيئا ، أى فى حُكْمِ من لم يعلم .

* * *

ومنه نفى الشىء مقيداً والمراد نفيه مطلقا؛ وهذا من أساليب العرب يقصدون به المبالغة فى النفى وتأكيده ، كقولهم : فلان لا يرجى خيره ، ليس المراد أن فيه خيراً لا يُرجَى ، غرضهم أنه لا خير فيه على وجه من الوجوه .

ومنه : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[5] ، فإنه يدلّ [على] أنّ قتلهم لا يكون إلا بغير حقّ ، ثم وصف القتل بما لا بدّ أن يكون من الصفة ، وهى وقوعه على خلاف الحق .

---

(١) سورة التوبة ١٢ (٢) سورة البقرة ١٠٢
(٣) سورة الأنفال ١٧ (٤) سورة المائدة ٦٧
(٥) سورة آل عمران ٢١

وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾(١)، إنها وصف لهذا الدعاء، وأنه لا يكون إلا عن غير برهان.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾(٢)، تغليظ وتأكيد فى تحذيرهم الكفر.

وقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٢)؛ لأنّ كلّ ثمن لها لا يكون إلا قليلا، فصار نفىُ الثمن القليل نفيا لكل ثمن.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾(٣)، فإنّ ظاهرَه نفى الإلحاف فى المسألة، والحقيقة نفى المسألة البتّة؛ وعليه أكثرُ المفسرين، بدليل قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾(٤)، ومن لا يسأل لا يُلحِف قطعاً؛ ضرورةَ أنّ نفىَ الأعمّ يستلزم نفىَ الأخصّ.

ومثله قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٥)، ليس المرادُ نفىَ الشفيع بقيد الطاعة؛ بل نفيُه مطلقا؛ وإنما قيّده بذلك لوجوه:

أحدها: أنه تنكيل بالكفار؛ لأنّ أحداً لا يشفع إلا بإذنه؛ وإذا شفّع يشفَّع، لكن الشفاعة مختصّة بالمؤمنين، فكان نفىُ الشفيع المطاع تنبيها على حصوله لأضدادهم؛ كقولك لمن يناظر شخصا ذا صديق نافع: لقد حدّثتَ صديقا نافعا، وإنما تريد التنويه بما حصل لغيره، لأنّ له صديقا ولم ينفَع.

الثانى: أنّ الوصف اللازم للموصوف ليس بلازم أن يكون للتقييد؛ بل يدلّ لأغراض من تحسينه أو تقبيحه، نحو: له مال يتمتع به، وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾(٦) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٧)

(١) سورة المؤمنين ١١٧
(٢) سورة البقرة ٤١
(٣) سورة البقرة ٢٧٣
(٤) سورة البقرة ٢٧٣
(٥) سورة غافر ١٨
(٦) سورة سبأ ٤٤
(٧) سورة البقرة ١٧٤

الثالث : قد يكون الشفيع غيرَ مطاع فى بعض الشفاعات، وقد ورد فى بعض الحديث ما يوهم صورة الشفاعة من غير إجابة ، كحديث الخليل مع والده يوم القيامة ؛ وإنما دلّ على التلازم دليلُ الشرع .

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾(١) أى من خوف الذلّ ، فنفى الولىّ لانتفاء خوف الذلّ ؛ فإن اتخاذ الولىّ فرع عن خوف الذل وسبب عنه .

وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٢)،نفى الغلبة ؛ والمراد نفىُ أصلِ النوم والسِّنة عن ذاته ؛ ففى الآية التصريح بنفى النوم وقوعا وجوازا ، أمّا وقوعا فبقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٢) ، وأما جوازا فبقوله : ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وقد جمعهما قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام » .

وقوله : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾(٣) ؛ أى بما لا وجود له ، لأنه لو وُجِد لعلمه بوجود الوجوب ، بتعلق علم الله تعالى بكل معلوم .

وقوله تعالى : ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾(٤) ، على قول مَنْ نفى القبول لانتفاء سببه ، وهو التوبة ، لا يوجد توبة فيوجد قبول .

وعكسه : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾(٥)،فإنّه نفىٌ لوجدان العهد ؛ لانتفاء سببه ، وهو الوفاء بالعهد .

وقوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾(٦) ، أى من حجّة ، أى لا حجّة عليها ، فيستحيل إذن أن ينزل بها حجة.

---

(١) سورة الإسراء ١١١

(٢) سورة البقرة ٢٥٥

(٣) سورة يونس ١٨

(٤) سورة آل عمران ٩٠

(٥) سورة الأعراف ١٠٢

(٦) سورة يوسف ٤٠

ونظيره من السنة قوله صلى الله عليه وسلم : «الدجّال أعور والله ليس بأعور» ، أى بذى جوارح كوامل بتخيل جوارح له نواقص .

ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى﴾(١) ليس المراد أن كلمات الله تنفد بعد نفاد البحر ؛ بل لا تنفدُ أبدا ، لا قبلَ نفادِ البحر ولا بعده . وحاصل الكلام : لنفِد البحر ولا تنفد كلمات ربى .

ووقع فى شعر جرير قوله :

فَيَالَكَ يوماً خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ   تَغَيَّبَ وَاشِيهِ وَأَقْصَرَ عَاذِلُه(٢)

قال الأصمعىّ : أنشدته كذلك لخلف الأحمر ، فقال : أَصْلِحْه :

* فَيَالَكَ يوماً خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ *

فإنه لا خيرَ لخيرٍ بعده شر ، وما زال العلماء يصلحون أشعار العرب ، قال الأصمعىّ : فقلت : والله لا أرويه أبدا إلا كما أوصيتنى(٣) .

---

(١) سورة الكهف ١٠٩

(٢) ديوانه ٤٨٠ ، وروايته : « وذلك يوم » .

(٣) الخبر كما رواه المرزبانى بسنده فى الموشح عن عيسى بن إسماعيل ص ١٢٥ : سمعت الأصمعى يقول: قرأت على خلف شعر جرير ؛ فلما بلغت قوله:

وَيومٍ كَإبْهَامِ القَطَاةِ مُحَبَّبٍ   إِلَىَّ هَوَاهُ غالبٍ لِىَ بَاطِلُهْ
رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الغزيرَ ولم نَكُنْ   كَمن نبلُهُ محرومةٌ وحبَائِلُهْ !
فيالَكَ يوماً خَيْرُهُ قَبْـلَ شَرِّهِ   تَغَيَّبَ واشِيهِ وَأَقْصَرَ عَاذِلُهْ !

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يئول إلى شر ! قلت له : هكذا قرأت على أبى عمرو ، فقال له : صدقت ، وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ ؛ وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، فقلت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال :

* فَيَالَكَ يَوْمًا خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ *

فاروه هكذا ، فقد كانت الرواة قديما تصلح من أشعار القدماء . فقلت: والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا !

نقل ابن رشيق هذه الحكاية فى « العمدة » وصوّبها[١] .

قال ابن المنيِّر : ووقع لى أن الأصمعىّ وخلف الأحمر وابن رشيق أخطئوا جميعا وأصاب جرير وحده ؛ لأنه لم يُرد إلا «فيالك يوم خير لا شرفيه» ، وأطلق «قبل» للنفى كما قلناها ، فى قوله تعالى : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[٣] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾[٤] ؛ فإنّ ظاهره نفى هذه الجوارح ، والحقيقة توجب نفىَ الآية عمّن يكون له فضلا عمّن لا يكون له .

وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[٥] ، فالمراد لا ذاك ولا علمك به ؛ أى كلاهما غير ثابت .

وقوله: ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾[٦] ؛ أى شركاء لا ثبوت لها أصلا ، ولا أنزل الله بإشراكها حجة ، وإنزال الحجة كلاهما منتفٍ .

وقوله : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾[٧] ، أى مالا ثبوت له ولا علمُ الله متعلقا به ؛ نفيا للملزوم وهو النيابة بنفى لازمه ، وهو وجوب كونه معلوما للعالم بالذات، لو كان له ثبوت ، بأى اعتبار كان .

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾[٨]

---

(١) العمدة ٢ : ١٩٣ ؛ قال ابن رشيق بعد أن أورد الخبر : « قلت أنا : أما هذا الإصلاح فليح الظاهر ، غير أنه خلاف الظاهر ؛ وذلك أن الشاعر أراد أنه كان فى ليلة وصال ؛ ثم فارق حبيبه نهارا ؛ وذلك هو الشر الذى ذكر ، والرواية جعله لم يفارق ؛ فغير عليه المعنى ؛ إلا أن تكون الرواية: « ويوم كإبهام الحبارى » ، فحينئذ ؛ على أن « دون » تحتمل ما قصد ، وتحتمل معنى « قبل » ، فهى لفظة مشتركة ، ويكون أيضا بمعنى « بعد » ، لأنها من الأضداد ، ولكن فى غير هذا الموضع » .

(٢) سورة الكهف ١٠٩ (٣) سورة الرعد ٢

(٤) سورة الأعراف ١٩٥ (٥) سورة لقمان ١٥

(٦) سورة آل عمران ١٥١ (٧) سورة يونس ١٨

(٧) سورة آل عمران ٩٠

أصله لن يتوبوا فلن يكون لهم قبول توبة ، فأوثر الإلحاق ذهابا إلى انتفاء اللزوم بانتفاء اللازم ؛ وهو قبول التوبة الواجب فى حكمه تعالى وتقدّس .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾[١] ، معلوم أنه لا إكراه على الفاحشة لمن لا يريد تحصنا ؛ لأنها نزلت فيمن يفعل ذلك .

ونظيره : ﴿ لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾[٢] ، وأكل الربا منهىّ عنه قليلا وكثيرا ؛ لكنها نزلت على سبب ؛ وهو فعلهم ذلك ؛ ولأنه مقام تشنيع عليهم ، وهو بالكثير أليق .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . . . ﴾[٣] الآية ، المعنى آمنا بالله دون الأصنام وسائر ما يدعى إليه دونها ، إلا أنّهم نفوا الإيمان بالملائكة والرسل والكتب المنزّلة والدار الآخرة والأحكام الشرعية، ولهذا أنه لمّا ردّ بقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[٣] ، بعد إثباته إيمانهم ، لأنّه ضرورى لا اختيارى ، أوجب ألّا يكون الكلام مسوقاً لنفى أمور يُراعى فيها الحصر والتقييد ، كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[٤] ، فإنه لم يقدّم المفعول فى « آمنا » حيث لم يرد ذلك المعنى، فركّب تركيبا يوهم إفراد الإيمان بالرحمن عن سائر ما يلزم من الإيمان .

وقوله : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[٥] ، فقيل من هذا الباب ، فهى صفة لازمة ، وقيل التكبّر قد يكون بحق، وهو التنزه عن الفواحش والدنايا والتباعد من فعلها.

وأما قوله : ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[٦] ، فإن أريد بالبغى الظلم كان قوله : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تأكيدا ، وإن أريد به الطلب كان قيدا .

---

(١) سورة النور ٣٣
(٢) سورة آل عمران ١٣٠
(٣) سورة المؤمن ٨٤ ، ٨٥
(٤) سورة الملك ٢٩
(٥) سورة الأعراف ١٤٦
(٦) سورة الأعراف ٣٣

قاعدة

اعلم أن نفى العام يدلّ على نفى الخاص ، وثبوته لايدل على ثبوته ، وثبوت الخاص يدلّ على ثبوت العام ، ولايدل نفيه على نفيه ؛ ولاشكّ أن زيادة المفهوم من اللفظ توجب الالتذاذ به ، فلذلك كان نفىُ العام أحسن من نفى الخاص ،وإثبات الخاص أحسن من إثبات العام .

***

فالأول : كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ ﴾[1] ، ولم يقل: « بضوئهم » بعـد قوله : ﴿ أضاءت ﴾ لأن النور أعم من الضوء ؛ إذ يقال على القليل والكثير ؛ وإنما يقال الضوء على النور الكثير ولذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً ﴾[2] ففى الضوء دلالة على الزيادة ، فهو أخصُّ من النور ، وعدمه لا يوجب عدم الضوء، لاستلزام عدم العام عدم الخاص ، فهو أبلغ من الأول ، والغرض إزالةُ النور عنهم أصلا ، ألا ترى ذكره بعده : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ ﴾[3] .

وهاهنا دقيقة ، وهى أنه قال : ﴿ ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ ﴾[3] ،ولم يقل:«أذهب نورهم» لأن الإذهاب بالشىء إشعار له بمنع عودته ، بخـلاف الذهاب ؛ إذ يفهم من الكثير استصحابه فى الذهاب ، ومقتضى منعه من الرجوع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ ﴾[4] ، ولم يقل : «ضلال» ؛ كما قالوا:

---

(١) سورة البقرة ١٧ (٢) سورة يونس ٥
(٣) سورة البقرة ١٧ (٤) سورة الأعراف ٦١

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ ﴾[1] ، لأنّ نفى الواحد يلزم منه نفى الجنس البتة .

وقال الزمخشرى[2] : لأن الضلالة أخصّ من الضلال ، فكان أبلغَ فى نفى الضلال عنه[3] ، فكأنّه قال : ليس بى شىء من الضلال ، كما لو قيل : [لك][4] لك تمرة فقلت : مالى تمرة .

ونازعه ابن المنيّر[5] وقال : تعليله نفيها أبلغ [من نفى الضلال][6] لأنها أخص [منه][6] وهذا غير مستقيم ، فإنّ نفى الأعم أخصّ من نفى الأخص ، ونفى الأخص أعم من نفى الأعمّ ، فلا يستلزمه لأن[7] الأعم لا يستلزم الأخصّ . فإذا قلت:هذا ليس بإنسان لم يلزمْ سلب الحيوانية عنه ، وإذا قلت : هـذا ليس بحيوان ، لم يـكن إنسانا ، والحق أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال [وأقل][8] ، لأنهـــا لا تطلَق إلا على الفعلة [الواحدة][8] منه ، والضلال يصلح للقليل والـكثير ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى لا من جهة كونه أخصّ ، بل من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

***

والثانى : كقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾[9] ، ولم يقل « طولها » ، لأن العَرْض أخصّ ، إذ كل ماله عَرْض فله طول ، ولا ينعـكس . وأيضاً إذا كان للشىء صفة يغنى ذكرها عن ذكر صفة أخرى ، تدلّ عليها كان الاقتصار عليها أولى من ذكرها ؛ لأن ذكرها كالتـكرار ، وهو مملّ ؛ وإذا ذكرت فالأولى تأخير الدلالة على الأخرى؛ حتى لا تـكون المؤخرة قد تقدمت الدلالة عليها .

---

(١) سورة الأعراف ٦٠ (٢) الـكشاف ٢ : ٨٩

(٣) الـكشاف : « عن نفسه » . (٤) من الـكشاف .

(٥) فى حاشيته على الـكشاف المعروفة بالانتصاف (٢ : ٨٩) .

(٦) من حاشية ابن المنير.

(٧) حاشية ابن المنير : « ضرورة أن الأعم » .

(٨) من حاشية ابن المنير . (٩) سورة آل عمران ١٣٣

وقد يخلّ بذلك مقصود آخر كما فى قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾(١) لأجل السجع وإذا كان ثبوت شيء أو نفيه يدل على ثبوت آخر أو نفيه ، كان الأولى الاقتصار على الدالّ على الآخر ، فإن ذكرت فالأولى تأخير الدال .

وقد يخلّ بذلك لمقصود آخر ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾(٢) وعلى قياس ما قلنا ينبغى الاقتصار على صغيرة ، وإن ذكرت الكبيرة منها فلتذكر أولا .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾(٣) وعلى ذلك القياس يكفى « لها أف » أو يقول « ولا تنهرها »، « فلا تقل لها أف » ؛ وإنما عدل عن ذلك للاهتمام بالنهى عن التأفيف ، والعناية بالنهى ؛ حتى كأنه قال : نهى عنه مرتين : مرة بالمفهوم ، وأخرى بالمنطوق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾(٤) فإنّ النوم غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه معرفة الأشياء ، والسِّنة مما يتقدمه من النعاس، فلم يكتف بقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ﴾(٤) ؛ دون ذكر النوم ؛ لئلا يُتوهم أن السِّنة إنما لم تأخذه لضعفها ، ويتوهم أن النوم قد يأخذه لقوته ؛ فجمع بينهما لنفى التوهمين، أو السِّنة فى الرأس ، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب ؛ تلخيصه هو منزه عن جميع المفترات، ثم أكد نفى السنة والنوم بقوله: ﴿ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾(٤) لأنه خلقهما بما فيهما، والمشاركة إنما تقع فيما فيهما، ومن يكن له ما فيهما ؛ فمحال نومه ومشاركته؛ إذ لو وجد شيء من ذلك لفسدتا بما فيهما.

وأيضاً فإنه يلزم من نفى السِّنة نفيُ النوم أنه لم يقل: لا ينام ؛ وإنما قال: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ ﴾(٤)

(١) سورة مريم ٥١
(٢) سورة الكهف ٤٩
(٣) سورة الإسراء ٢٣
(٤) سورة البقرة ٢٥٥

يعنى لا تغلبه ؛ فكأنه يقول : لا يغلبه القليل ولا الكثير من النوم . والأخذ فى اللغة بمعنى القهر والغلبة ؛ ومنه سُمِّىَ الأسير: مأخوذا وأخيذا . وزيدت «لا» فى قوله : ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾(١) لنفيهما عنه بكل حال ، ولولاها لاحتمل أن يقال : لا تأخذه سِنة ولا نوم فى حال واحدة، وإذا ذكرت صفات فإن كانت للمدح فالأولى الانتقال فيهما من الأدنى إلى الأعلى ؛ ليكون المدح متزايدا بتزايد الكلام ؛ فيقولون : فقيه عالم ، وشجاع باسل ، وجواد فياض ، ولا يعكسون هذا لفساد المعنى ؛ لأنه لو تقدم الأبلغ لكان الثانى داخلا تحته ، فلم يكن لذكره معنى ؛ ولا يوصف بالعالم بعد الوصف بالعَلّام .

وقد اختلف الأدباء فى الوصف بالفاضل والكامل : أيهما أبلغ على ثلاثة أقوال : ثالثهما أنهما سواء .

قال الأُقليشى(٢) : والحق أنك مهما نظرت إلى شخص ، فوجدته مع شرف العقل والنفس كريمَ الأخلاق والسجايا ، معتدل الأفعال وصفته بالكمال ، وإن وجدته وَصَل إلى هذه الرتب بالكسب والمجاهدة وإماطة الرذائل وصفته بالفضل ؛ وهذا يقتضى أنهما متضادان ؛ فلا يُوصفُ الشخص الواحد بهما إلّا بتجوّز .

وقال ابن عبد السلام فى قوله تعالى : ﴿ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ﴾(٣) إنما قَدّم الغيب مع أنّ علمَ المغيّبات أشرف من المشاهدات ، والتمدّح به أعظم ، وعلم البيان يقتضى تأخير الأمدح . وأجاب بأن المشاهدات له أكثرُ من الغائب عَنّا ، والعلم يشرف بكثرة متعلّقاته؛ فكان تأخير الشهادة أولى .

وقول الشيخ : إن المشاهدات له أكثر، فيه نظر ؛ بل فى غيبه ما لا يحصى ﴿ وَيَخْلُقُ

(١) سورة البقرة ٢٥٥

(٢) الأقليشى: منسوب إلى أقليش، بضم الهمزة وسكون القاف، إحدى مدن الأندلس. ولعله عبد الله ابن يحيى التجيبى الأقليشى ؛ شرح الشهاب ، واختصر كتاب مشكل القرآن لابن فورك؛ وتوفى سنة ٥٠٢ وانظر معجم البلدان ١ : ٣١٣

(٣) سورة المؤمنون ٩٢

مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] ؛ وإنما الجواب أن الانتقال للأمدح ترقٍّ ؛ فالمقصود هنا بيان أن الغيب والشهادة فى علمه سواء ، فنزل الترقى فى اللفظ منزلة ترقٍّ فى المعنى، لإفادة استوائهما فى علمه تعالى . ويوضحه قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾[٢] فصرح بالاستواء .

هذا كلّه فى الصفات ، وأما الموصوفات فعلى العكس من ذلك ؛ فإنك تبدأ بالأفضل ، فتقول : قام الأمير ونائبه وكاتبه ؛ قال تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا . . . ﴾[٣] الآية، فقدّم الخيل لأنها أحمد وأفضل من البغال ، وقدّم البغال على الحمير لذلك أيضاً .

فإن قلت : قاعدة الصفات منقوضة بالقاعدة الأخرى ؛ وهى أنهم يقدّمون الأهم فالأهم فى كلامهم كما نصّ عليه سيبويه وغيره .

وقال الشاعر :

أبى دَهْرُنا إسعافَنَا فى نفُوسِنَا ... وأَسْعَفَنَا فِيمَنْ نُحِبُّ وَنُكْرِمُ
فقلتُ له نُعماكَ فيهم أَتِمَّها ... ودعْ أمرَنا إن المهمّ المقدَّمُ

قلت : المراد بقوله : « فقدم الأهم فالأهم » فيما إذا كانا شيئين متغايرين مقصودين، وأحدهما أهمّ من الآخر ؛ فإنه يقدّم ، وأما تأخر الأمدح فى الصفات فذلك فيما إذا كانتا صفتين لشىء واحد ؛ فلو أخرنا الأمدح لكان تقديم الأول نوعاً من العبث .

هذا كلّه فى صفات المدح ؛ فإن كانت للذم فقد قالوا : ينبغى الابتداء بالأشدّ ذمًّا ، كقوله تعالى : ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[٤] ؛ قال ابن النفيس[٥] : فى كتاب

(١) سورة النحل ٨ — (٢) سورة الرعد ١٠
(٣) سورة النحل ٨ — (٤) سورة النحل ٩٨
(٥) هو على بن أبى الحزم القرشى علاء الدين ، المعروف بابن النفيس ؛ أعلم أهل عصره بالطب ؛ سكن مصر وتوفى بها سنة ٦٩٨ ؛ ذكره السبكى فى الطبقات ٥ : ١٢٩ ؛ وكتابه طريق الفصاحة ، ذكره صاحب كشف الظنون ص ١١١٤

« طريق الفصاحة » : وهو عندى مشكل ؛ ولم يذكر توجيهه .

وقال حازم فى « منهاجه » : يُبْدَأ فى الحسن بما ظهور الحسن فيه أوضح ، وما النفس بتقديمه أعنى ، ويبدأ فى الذّم بما ظهور القبح فيه أوْضح ، والنفس بالالتفات إليه أعنى ؛ ويَتَنَقَّل فى الشىء إلى ما يليه من المزية فى ذلك ، ويكون بمنزلة المصوّر الذى يُصور أوّلا ما جلّ من رسوم تخطيط الشىء ، ثم ينتقل إلى الأدقّ فالأدق .

فائدة

نفيُ الاستطاعة قَدْ يُراد به نفى الامتناع ، أو عدم إمكان وقوع الفعل مع إمكانه ؛ نحو هل تستطيعُ أن تكلِّمنى ؟ بمعنى هل تفعل ذلك وأنت تعلم أنه قادر على الفعل ؟

وقد حمل قوله تعالى حكاية عن الحواريين : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾[1] على المعنى الأول ؛ أى هل يجيبنا إليه ؟ أو هل يفعل ربك ؟ وقد علموا أن الله قادر على الإنزال ، وأن عيسى قادر على السؤال ، وإنما استفهموا هل هنا صارف أو مانع ؟

وقوله : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾[2] . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾[3] . ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[4] .

وقد يراد به الوقوع بمشقة وكُلْفة كقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[5] .

---

(١) سورة المائدة ١١٢
(٢) سورة يس ٥٠
(٣) سورة الأنبياء ٤٠
(٤) سورة الكهف ٧٣
(٥) سورة الكهف ٦٧

فائدة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[1]، قالوا: المجاز يصح نفيه بخلاف الحقيقة ، لا يقال للأسد : ليس بشجاع .

وأجيب بأن المراد بالرَّمْيِ هنا المرتب عليه ، وهو وصوله إلى الكفّار ؛ فالوارد عليه السلب هنا مجاز لا حقيقة ؛ والتقدير : وما رميتَ خَلْقًا إذ رميت كسبا ، أو ما رميت انتهاء إذ رميت ابتداء ؛ وما رميت مجازا إذ رميت حقيقة .

---

(١) سورة الأنفال ١٧

إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ
دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد

كقوله : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١) ؛ وهو يعلم أنه على هـدى ، وأنهم على الضلال ، لـكنه أخرج الـكلام مخرج الشك ، تقاضيا ومسامحة ، ولا شك عنده ولا ارتياب .

وقوله : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(٢) .

ونحوه : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٣) أورده على طريق الاستفهام ؛ والمعنى : هل يتوقع منـكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين لـكم من المشاهد ولاح منكم فى المخايل : ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾(٣) تهالـكا على الدنيا ؟

وإنما أورد الـكلام فى الآية على طريق سَوْق غيرِ المعلوم سياقَ غيره ، ليؤديهم التأمل فى التوقع عمّن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسبباً عنه من أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، فيلزمهم به على ألطف وجه ؛ إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم ، ولذلك التفت عن الخطاب إلى الغيبة ، تفاديا عن مواجهتهم بذلك .

وقد يخرج الواجب فى صورة الممكن ، كقوله تعالى : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾(٤) .

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾(٥) .

---

(١) سورة سبأ ٢٤
(٢) سورة الزخرف ٨١
(٣) سورة القتال ٢٢
(٤) سورة الإسراء ٧٩
(٥) سورة المائدة ٥٢

و ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾[1] .

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[2] .

وقد يخرج الإطلاق فى صورة التقييد كقوله : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[3] .

ومنه قوله تعالى حاكيا عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾[4] فالمعنى لا يكون أبدا من حيث علقه بمشيئة الله ؛ لما كان معلوماً أنه يشاؤه؛ إذ يستحيل ذلك على الأنبياء ، وكلّ أمر قد علّق بما لا يكون فقد نفى كونه على أبعد الوجوه .

وقال قطرب : فى الكلام تقديمٌ وتأخير ، والاستثناء من الكفار لا من شعيب، والمعنى : لَنُخْرِجَنَّك يا شعيب ، والذين آمنوا معك من قريتنا ؛ إلا أن يشاء الله أن تعودوا فى ملّتهم . ثم قال تعالى حاكيا عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾[4] ، على كل حال .

وقيل: الهاء عائدة إلى القرية ، لا إلى الله.

---

(١) سورة الإسراء ٨
(٢) سورة البقرة ٢١٦
(٣) سورة الأعراف ٤٠
(٤) سورة الأعراف ٨٩

الإعراض عن صريح الحكم

كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللهِ ﴾(١) ، أعرض عن ذكر مقدار الجزاء والثواب ، وذكر ماهو معلوم مشترك بين جميع أعمال البشر ، تفخيما لمقدار الجزاء ، لما فيه من إبهام المقدار ، وتنزيلا له منزلة ماهو غير محتاج إلى بيانه، على حدّ « فَمَنْ كانَتْ هجرته إلى الله ورسوله »، أعرض عن ذكر الجزاء إلى إعادة الشرط ، تنبيها على عِظَم ماينال، وتفخيما لبيان ماأتى به من العمل ، فصار السكوت عن مرتبة الثواب أبلغ من ذكرها .

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾(٢) ، وهذه الآية تتضمن الرجوع والبقاء والجمع ، ألا تراه كيف رجع بعد ذكره المبتدأ الذى هو الذين عن ذكر خبره إلى الشروع فى كلام آخر ، فبنى مبتدأ على مبتدأ وجمع ، والمعنى قوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ ﴾(٢) من خبر المبتدأ الأول ، وتقديره : إنّا لانضيع أجرَهم ، لأنا لانضيع أجر من أحسن عملا .

---

(١) سورة النساء ١٠٠

(٢) سورة الكهف ٣٠

الهدم

وهو أن يأتي الغير بكلام يتضمن معنًى ، فتأتي بضده ؛ فإنك قد هدمت ما بناه المتكلم الأول ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾(1) هدمه بقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾(2) ، وبقوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ﴾(3) ، وبقوله : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾(4) ؛ تقديره إن كنتم صادقين في دعواكم .

ومنه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾(5) هدمه بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾(5) ، وقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾(6) .

ومنه : ﴿ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾(7) هدمه بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾(7) ، أي في دعواهم الشهادة .

---

(1) سورة المائدة ١٨
(2) سورة المؤمنون ٩١
(3) سورة آل عمران ٥٧
(4) سورة المائدة ١٨
(5) سورة التوبة ٣٠
(6) سورة المؤمنون ٩١
(7) سورة المنافقون ١

التوسّع

منه الاستدلال بالنظر فى الملكوت ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

ويكثر ذلك فى تقديرات العقائد الإلهية : لتتمكن فى النفوس ، كقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[2] ؛ وذلك بعد ذكر النطفة وتقلبها فى مراتب الوجود، وتطورات الخلقة .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

ومنه التوسّع فى ترادف الصفات ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[4] ، فإنه لو أريد اختصاره لكان : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾[4] مظلم .

ومنه التوسع فى الذم كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾[5] إلى قوله : ﴿ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾[6] .

---

(١) سورة البقرة ١٦٤ — (٢) سورة القيامة ٤٠
(٣) سورة الزمر ٦٧ — (٤) سورة النور ٤٠
(٥) سورة القلم ١٠ ، ١١ — (٦) سورة القلم ١٦

التَّشْبِيهُ

اتفق الأدباء على شرفه فى أنواع البلاغة ، وأنّه إذا جاء فى أعقاب المعانى أفادها كمالا ، وكساها حلّة وجمالا ، قال المبرّد فى « الكامل » : هو جارٍ فى كلام العرب حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد .

وقد صنّف فيه أبو القاسم[1] بن البندارى البغدادى كتاب « الجمان فى تشبيهات القرآن » .

[مباحث التشبيه]

وفيه مباحث :

الأول

فى تعريفه

وهو إلحاق شىء بذى وصف فى وصفه .

وقيل : أن تثبت للمشبّه حكما من أحكام المشبّه به .

وقيل : الدلالة على اشتراك شيئين فى وصف هو من أوصاف الشىء الواحد؛ كالطّيب فى المسك ، والضياء فى الشمس والنور فى القمر . وهو حكم إضافىّ لا يرد إلا بين الشيئين بخلاف الاستعارة .

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا ، الأديب الشاعر اللغوى ، المتوفى سنة ٤١٠؛ ويوجد من كتابه الجمان نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ؛ عن نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال .

الثانى

فى الغرض منه

وهو تأنيس النفس بإخراجها من خفىّ إلى جلىّ ؛ وإدنائه البعيد من القريب ؛ ليفيد بيَـانا .

وقيل : الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار ؛ فإنك إذا قلت : زيد أسد ، كان الغرضُ بيان حال زيد ، وأنه متصف بقوة البطش والشجاعة وغير ذلك ؛ إلا أنا لم نجـد شيئا يدل عليـه سوى جعلنا إيّاه شبيها بالأسد ، حيث كانت هـذه الصفات مختصة به ، فصار هذا أبين وأبلغ من قولنا : زيد شهم شجاع قوىّ البطش ونحوه .

الثالث

فى أنه حقيقة أو مجاز

والمحققون على أنه حقيقة ، قال الزنجانى[1] فى « المعيار » : التشبيه ليس بمجاز ؛ لأنه معنى من المعانى ؛ وله ألفاظ تدل عليه وضعاً ؛ فليس فيـه نقل اللفظ عن موضوعه ؛ وإنما هو توطئة لمن سلك سبيل الاستعارة والتمثيل ؛ لأنه كالأصل لهما ، وهما كالفرع له .

والذى يقع منه فى حَيّز المجاز عند البيانيين هو الذى يجىء على حد الاستعارة .

وتوسط الشيخ عز الدين ، فقال : إن كان بحرف فهو حقيقة ، أو بحذفه فمجاز ، بناء على أن الحذف من باب المجاز .

---

(١) هو عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجى الزنجانى ؛ أحد علماء العربية ؛ توفى سنة ٦٥٥ ذكره الزركلى فى الأعلام ٢ : ٦٠٨ (المطبعة العربية) ، وصاحب كشف الظنون ١٧٤٣ .

الرابع

في أدواته

وهي أسماء، وأفعال ، وحروف.

فالأسماء : مثل ، وشبه ، ونحوها ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾(١) . ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى ﴾ (٢) . ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾(٣) ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾(٤) .

والأفعال كقوله : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾(٥) . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾(٦) .

والحروف إما بسيطة كالكاف؛ نحو: ﴿ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾(٧) ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾(٨) وإما مركبة ، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ ﴾(٩) .

الخامس

في أقسامه

وهو ينقسم باعتبارات :

الأول

أنه إما أن يشبه بحرف ، أولا .

* * *

وتشبيه الحرف ضربان :

أحدهما : يدخل عليه حرف التشبيه فقط ، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾(١٠).
وقوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ ﴾(١١) .

---

(١) سورة آل عمران ١١٧
(٢) سورة هود ٢٤
(٣) سورة البقرة ٢٥
(٤) سورة البقرة ٧٠
(٥) سورة النور ٣٩
(٦) سورة طه ٦٦
(٧) سورة إبراهيم ١٨
(٨) سورة آل عمران ١١
(٩) سورة الصافات ٦٥
(١٠) سورة النور ٣٥
(١١) سورة الرحمن ٢٤

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾(١) .

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾(٢) .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾(٣) .

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٤) .

وثانيها : أن يضاف إلى حرف التشبيه حرف مؤكد ، ليكون ذلك علماً على قوة التشبيه وتأكيده ، وكقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾(٥) .

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾(٦) .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾(٧) .

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾(٨) .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾(٩) .

فإن قيل : كيف استرسل أهل الجنة وقوله : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾(١٠) ، ولا شك أنه ليس به ، واحترزت بلقيس فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾(١١) ، ولم تقل : هو هو ؟

قيل : أهل الجنة وثقوا بأن الغرض مفهوم ؛ وأن أحداً لا يعتقد فى الحاضر أنه عين المستهلك الماضى ؛ وأما بلقيس فالتبس عليها الأمر ، وظنّت أنه يشبهه ،

(١) سورة الرحمن ٣٧
(٢) سورة الرحمن ١٤
(٣) سورة الواقعة ٢٢ ، ٢٣
(٤) سورة الحديد ٢١
(٥) سورة الرحمن ٥٨
(٦) سورة الصافات ٤٩
(٧) سورة الأعراف ١٧١
(٨) سورة القمر ٢٠
(٩) سورة الحاقة ٧
(١٠) سورة البقرة ٢٥
(١١) سورة النمل ٤٢

لأنها بَنَتْ على العادة ، وهو أن السرير لا ينتقل من إقليم إلى آخر فى طرفة عين .

* * *

وأما التشبيه بغير حرف، فيُقصَد به المبالغة، تنزيلا للثانى منزلة الأول تجوّزا ، كقوله: ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾(١) .

وقوله : ﴿ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾(٣) .

وكذلك : ﴿ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾(٤) .

وجعل الفارسىّ منه قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ ﴾(٥) ، أى كأنها فى بياضها من فضة ، فهو على التشبيه ، لا على أن القوارير من فضة ، بدليل قوله: ﴿ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ ﴾(٦) ، فقوله : ﴿ بيضاء ﴾ مثل قوله : ﴿ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ .

تنبيهان

الأول : هذا القسم يشبه الاستعارة فى بعض المواضع ، والفرق بينهما ــ كما قاله حازم وغيره ــ أنّ الاستعارة ، وإن كان فيها معنى التشبيه ، فتقدير حرف التشبيه لا يجوز فيها، والتشبيه بغير حرف على خلاف ذلك ؛ لأنّ تقديرَ حرف التشبيه واجب فيه .

وقال الرّمانى فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾(٧) ، أى تبصره ، لأنه لا يجوز تقدير حرف التشبيه فيها .

---

(١) سورة الأحزاب ٦
(٢) سورة الأحزاب ٤٦
(٣) سورة آل عمران ١٣٣
(٤) سورة النمل ٨٨
(٥) سورة الدهر ١٥ ، ١٦
(٦) سورة الصافات ٤٥ ، ٤٦
(٧) سورة الإسراء ٥٩

وقد اختلف البيانيون فى نحو قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[1] ، إنه تشبيه بليغ أو استعارة ؟ والمحققون ـ كما قاله الزمخشرىّ ـ على الأول ، قال:[2] لأنّ المستعار له مذكور ـ وهم المنافقون ـ ، أى مذكور فى تقدير الآية ، والاستعارة لا يذكر فيها المستعار له[2] ، ويجعل الكلامُ خلْواً عنه ، بحيث يصلح[3] لأن يراد به المنقول عنه و [المنقول][4] إليه لولا القرينة[5] ، ومن ثَمّ ترى المفلقين السحرة [منهم، كأنهم][4] يتناسوْن التشبيه ويضربون عنه[6] صفحا .

وقال السكاكىّ : لأن من شرط الاستعارة إمكان حملِ الكلام على الحقيقة فى الظاهر ، وتناسى التشبيه ، وزيد أسد لا يمكن كونه حقيقة ، فلا يجوز أن يكون استعارة .

* * *

الثانى : قد يترَك التشبيه لفظا ويراد معنًى ؛ إذ لو لم يُرَدْ معنى ولم يكن منويّا ، كان استعارة .

مثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[7] ، فهذا تشبيه لا استعارة ، لذكر الطرفين : الخيط الأسود ، وهو ما يمتدّ معه من غسق الليل شبههما بخيط أسود وأبيض ، وبُيِّنا بقوله : ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ والفجرُ ـ وإن كان بيانا للخيط الأبيضِ ـ لكن لما كان أحدهما بياناً للآخر لدلالته عليه ، اكتُفِى به عنه، ولولا البيانُ كان من باب الاستعارة ؛ كما أن قولك : رأيت أسدا ، استعارة ، فإذا زدت « من فلان » صار تشبيها، وأمّا أنه لِمَ زيد ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ حتى صار تشبيها ؟ وهلا اقتصر به

(١) سورة البقرة ١٨ (٢) الكشاف ١ : ٨٥

(٢) عبارة الكشاف : « والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له .

(٣) الكشاف: « صالحا لأن يراد بالمنقول عنه » . (٤) من الكشاف .

(٥) الكشاف : « لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ؛ كقول زهير :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِى السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

(٦) الكشاف : « عن توهمه » . (٧) سورة البقرة ١٨٧

على الاستعارة التى هى أبلغ ! فلأن شرط الاستعارة أن يدلّ عليه الحال ، ولو لم يذكر ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ لم يعلم أن الخيطين مستعاران من « بدا الفجر » ، فصار تشبيها .

التقسيم الثانى

ينقسم باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام ، لأنهما :

إما حسّيان ، كقوله تعالى :﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾(١)، وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾(٢) .

أو عقليان ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾(٣) .

وإما تشبيه المعقول بالمحسوس ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ﴾(٤) ؛ وقوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾(٦) ، لأن حملهم التوراة ليس كالحمل على العاتق ، إنما هو القيام بمافيها .

وأما عكسه فمنعه الإمام ، ، لأن العقل مستفاد من الحس ، ولذلك قيل : مَنْ فقد حِسًّا فقد فَقَدَ علما ؛ وإذا كان المحسوس أصلا للمعقول فتشبيهه به، يستلزم جعلَ الأصل فرعا والفرع أصلا ، وهو غير جائز .

---

(١) سورة يس ٣٩

(٢) سورة القمر ٢٠

(٣) سورة البقرة ٧٤

(٤) سورة العنكبوت ٤١

(٥) سورة إبراهيم ١٨

(٦) سورة الجمعة ٥

وأجازه غيره كقوله :

وكأنّ النجومَ بين دُجاه سُنَن لاحَ بينهنّ ابتداعُ(١)

* * *

وينقسم باعتبارٍ آخر إلى خمسة أقسام :

الأول : قد يشبَّه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع ، اعتمادا على معرفة النقيض والضدّ ، فإنّ إدراكهما أبلغُ من إدراك الحاسة، كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ ﴾(٢) ، فشبَّه بما لا نشكّ أنه منكر قبيح ، لِمَا حَصَل فى نفوس الناس من بشاعة صور الشياطين، وإن لم تَرها عيانا .

الثانى : عكسه، كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾(٣) ، أخرج ما لا يُحَسّ ـ وهو الإيمان ـ إلى ما يحسّ ـ وهو السراب ـ والمعنى الجامع بُطْلان التوهم بين شدة الحاجة وعِظَم الفاقة .

الثالث : إخرج ما لم تجرِ العادة به إلى ما جرَت به ، نحو : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾(٤) ، والجامع بينهما الانتفاع بالصورة . وكذا قوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ﴾(٥) ، والجامع البهجة والزينة ، ثم الهلاك ، وفيه العبرة .

الرابع : إخراج ما لا يُعرف بالبديهة ، إلى ما يُعرف بها ، كقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾(٦) ، الجامع العِظَم ، وفائدته التشويق إلى الجنّة بحسن الصفة .

---

(١) البيت للقاضى التنوخى ؛ وهو من شواهد المفتاح ١٤٦ ، وانظر اليتيمة ٢ : ٣١٠ ، وأسرار البلاغة ٢٠٧

(٢) سورة الصافات ٦٥

(٣) سورة النور ٣٩

(٤) سورة الأعراف ١٧١

(٥) سورة يونس ٢٤

(٦) سورة آل عمران ١٣٢

الخامس : إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فيها ، كقوله : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾(١) ، والجامع فيهما العِظَم ، والفائدة البيان عن القدرة على تسخير الأجسام العظام فى أعظم مايكون من الماء .

وعلى هذه الأوجه تجرى تشبيهات القرآن .

التقسيم الثالث

ينقسم إلى مفرد ومركب :

والمركَّب أن يُنْتَزَع من أمور مجموع بعضها إلى بعض ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾(٢) ، فالتشبيه مُركّب من أحوال الحمار ؛ وذلك هو حَمْل الأسفار التى هى أوعية العلم ، وخزائن ثمرة العقول ، ثم لا يُحْسن ما فيها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التى ليست من العلم فى شىء ، فليس له مما يحمل حظّ سوى أنه يثقل عليه ويتعبه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾(٣) .

وقوله : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾(٤) ، قال بعضهم : شبّه الدنيا بالماء، ووجْه الشبه أمران : أحدهُما أنّ الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت ، وإن أخذت قدر الحاجة انتفعت به ، فكذلك الدنيا . وثانيهما أنّ الماء إذا أطبقت كفَّك عليه لتحفظه لم يحصل فيه شىء ، فكذلك الدنيا، وليس المراد تشبيهَها بالماء وحده ؛ بل المراد تشبيه بهجة الدنيا فى قلة البقاء والدوام بأنيق النبات الذى يصير بعد تلك البهجة والغضاضة والطراوة إلى ما ذكر .

---

(١) سورة الرحمن ٢٤ (٢) سورة الجمعة ٥

(٣) سورة العنكبوت ٤١ (٤) سورة الكهف ٤٥

ومن تشبيه المفرد بالمركب قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾(١) ، فإنه سبحانه أراد تشبيهَ نوره الذى يلقيه فى قلب المؤمن ، ثم مَثَّلَه بمصباح ؛ ثم لم يقنع بكلّ مصباح ؛ بل بمصباحٍ اجتمعت فيه أسباب الإضاءة ؛ بوضعه فى مشكاة ؛ وهى الطاقة غير النافذة ؛ وكونها لا تنفذ ؛ لتكون أجمعَ للتبصّر ، وقد جعل فيها مصباح فى داخل زجاجة ، فيه الكوكب الدّرىّ فى صفائها ، ودُهْن المصباح من أصفى الأدهان وأقواها وقودا ، لأنه من زيت شجر فى أوسط الزّجاج لا شرقية ولا غربية ، فلا تصيبها الشمس فى أحد طرفى النّهار بل تصيبها أعدل إصابة .

وهذا مثل ضرَبه الله للمؤمن ، ثم ضرب للكافر مثلين : أحدهما : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾(٢) ، والثانى : ﴿ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ ﴾(٣) ،شبّه فى الأول مايعمله مَنْ لا يقدّر الإيمان المعتبر بالأعمال التى يحسبها بقيعة ، ثم يخيب أمله ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيجيئه فلا يجده ماء ، ويجد زبانية الله عنده ، فيأخذونه فيلقونه إلى جهنم .

البحث السادس

ينتظم قواعد تتعلق بالتشبيه

الأولى : قد تُشبَّه أشياء بأشياء ، ثم تارة يصرح بذكر المشبّهات ، كقوله تعالى :

(١) سورة النور ٣٥

(٢) من قوله تعالى فى سورة النور ٣٩ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ .

(٣) من قوله تعالى فى سورة النور ٤٠ ، فى الآية : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ ﴾[1]، وتارة لا يصرّح به بل يجئ مطويًا على سنن الاستعارة ، كقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾[2]، ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . ﴾[3] الآية .

قال الزمخشري[4] : والذى عليه علماء البيان أنّ التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركّبة[5] لا المفردة ؛ بيانُه أن العرب تأخذ أشياء فرادى [معزولا بعضها من بعض ، لم يأخذ هذا بحُجْزة ذاك][6] فتشبِّهها بنظائرها كما ذكرنا[7] ، وتشبه كيفيةً حاصلةً من مجموع أشياء تضامّت حتى صارت شيئًا واحدا بأخرى، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ . . . ﴾[8] الآية .

ونظائره من حيث اجتمعت تشبيهات؛ كما فى تمثيل الله حال المنافقين أول سورة البقرة، قال الزمخشرى : وأبلغه الثانى ؛ لأنه أدلّ على فرط الحيرة، وشدة الأمر وفظاعته ؛ ولذلك أُخِّرَ ، قال : وهم يتدرّجون فى نحو هذا ، من الأهون إلى الأغلظ .

* * *

الثانية : أعلى مراتب التشبيه فى الأبلغية تَرْكُ وَجْهِ الشبه وأداته ، نحو زيد أسد ؛ أما تَرْك وجهه وحدَه ، فكقوله : زيد كالأسد ؛ وأما ترك أداته وحدها؛ فكقوله: زيد الأسد شدة .

وفى كلام صاحب « المفتاح » إشارة إلى أن تَرْك وجه الشبه أبلغ من ترك أداته ؛ قال : لعموم وجه الشبه .

---

(١) سورة غافر ٥٨
(٢) سورة فاطر ١٢
(٣) سورة الزمر ٢٩
(٤) الكشاف ١ : ٦١
(٥) الكشاف : « دون المفرقة » .
(٦) من الكشاف
(٧) عبارة الكشاف : « كما فعل امرؤ القيس وجاء فى القرآن » .
(٨) سورة الجمعة ٥

وخالفه صاحب « ضوء المصباح »[1] لأنه إذا عمّ واحتمل التعدد ، ولم تبق دلالته على ما به الاشتراك دلالة منطوق بل دلالة مفهوم ؛ فيحتمل أن يكون ما به الاشتراك صفة ذمّ لا مدح ، وهو غير لازم فى ترك الأداة ؛ إلا أن يقال : يلزم مثله من تركها، لأن قرينة ترك الأداة ، تصرف إرادة المدح دون الذم

وذكرها كقولك : زيد كالأسد شدة .

* * *

الثالثة : قد تدخل الأداة على شئ وليس هو عين المشبَّه ، ولكنه ملتبس به ،واعتمد على فهم المخاطب ، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ...﴾[2] الآية ، المراد : كونوا أنصارا لله خالصين فى الانقياد ؛ كشأن مخاطبى عيسى إذ قالوا .

ومما دل على السياق قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾[3] ، وفيه زيادة ، وهو تشبيه الخارق بالمعتاد .

* * *

الرابعة : إذا كانت فائدته ، إنما هى تقريب الشّبه فى فهم السامع وإيضاحه له ، فحقه أن يكون وجه الشبه فى المشبّـه به أتم ، والقصد التنبيه بالأدنى على الأعلى ، مثل قياس النحوى ؛ ولاسيما إذا كان الدنوّ جدا أو العلوّ جدا ، وعليه بنى المعرّى قوله :

ظلمناك فى تشبيه صدغيك بالمسك   وقاعدةُ التشبيهِ نقصانُ ما يحكى

وقول آخر :

كالبحر والكاف أنّى صِفتَ زائدة   فيه فلا تَظُنَّنْهَا كافَ تشبيه

---

(١) اختصر ابن مالك كتاب المفتاح وسماه المصباح فى تلخيص المفتاح ؛ ونظمه أبو عبد الله محمد بن عبدالرحمن المراكشى للضرير، ثم شرحه وسماه ضوء الصباح على ترجيز المصباح. كشف الظنون: ١٠٨٩

(٢) سورة الصف ١٤

(٣) سورة الأعراف ١٧١

وأما قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾[1] فيمكن أن يكون المشبّه به أقوى لكونه فى الذهن أوضح ؛ إذ الإحاطة به أتمّ .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾[2] ؛ فهو من تشبيه الغريب بالأغرب ؛ لأن خلْق آدم من خلْق عيسى ليكون أقطع للخصم ، وأوقع فى النفس . وفيه دليل على جواز القياس ، وهو ردّ فرع إلى أصل لشَبَه ما ؛ لأن عيسى رُدّ إلى آدم لشبهٍ بينهما ؛ والمعنى أن آدم خلق من تراب ولم يكن له أب ولا أم ، فكذلك خُلق عيسى من غير أب .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾[3] شبّههم بالخشب ، لأنه لا روح فيها ، وبالمسنّدة لأنه لا انتفاع بالخشب فى حال تسنيده .

* * *

الخامسة : الأصل دخول أداة التشبيه على المشبّه به ، وهو الكامل ، كقولك : ليس الفضة كالذهب ، وليس العبد كالحرّ ؛ وقد تدخل على المشبه لأسباب :

منها وضوح الحال ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[4] ؛ فإنّ الأصل وليس الأنثى كالذكر ؛ وإنما عَدَل عن الأصل ؛ لأن معنى : ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذى طلبت ﴿ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ التى وهبت لها ، لأن الأنثى أفضل منه . وقيل : لمراعاة الفواصل ، لأنّ قبله : ﴿ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾[4] .

ووهم ابن الزملكانى فى « البرهان » حيث زعم أنّ هذا من التشبيه المقلوب ، وليس كذلك لما ذكرنا من المعنى .

---

(١) سورة النور ٣٥
(٢) سورة آل عمران ٥٩
(٣) سورة المنافقين ٤
(٤) سورة آل عمران ٣٦

وقيل : لما كان جَعْلُ الفرع أصلا والأصل فرعا فى التشبيه فى حالة الإثبات يقتضى المبالغة فى التشبيه ؛ كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفيه ، كان جعل الأصل فرعا والفرح أصلا فى كاله الذى يقتضى نفىَ المبالغة فى المشابهة ؛ لانفى المشابهة ، وذلك هو المقصود هنا ، لأن المشابهةَ واقعة بين الذكر والأنثى فى أعمّ الأوصاف وأغلبها ، ولهذا يُقاد أحدهما بالآخر .

ومنها قصد المبالغة ، فيقلب التشبيه، ويُجعل المشبه هو الأصل ويسمى تشبيه العكس؛ لاشتماله على جعل المشبّه مشبّهًا به ، والمشبَّه به مشبّها ؛ كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾(١)، كان الأصل أن يقولوا : إنما الربا مثل البيع ؛ لأنّ الكلام فى الربا لا فى البيع، لكن عدلوا عن ذلك وتجرءوا ، إذ جعلوا الربا أصلا ملحقا به البيع فى الجواز ، وأنه الخليق بالحلّ .

ويحتمل أن يكون المراد إلزام الإسلام ، فيحرّم البيع قياسا على الربا ، لاشتماله على الفضلِ طردا لأصلهم ؛ وهو فى المعنى نقضٌ على علة التحريم ؛ ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا ﴾(٢) ، وفيه إشارة إلى أنّ الواجبَ اتباع أحكام الله واقتفاؤها من غير تعرّض لإجرائها على قانون واحد، وأنّ الأسرار الإلهية كثيرا ماتخفى ؛ وهو أعلم بمصالح عباده فيسلّم له عنان الانقياد ؛ وأنهم جعلوا ذلك من باب إلزام الجدلىّ، وجاء الجواب بفكّ الملازمة ، وأن الحكمة فرقت بينهما . وفيه إبطال القياس فى مقابلة النصّ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾(٣) ؛ فإن الظاهر العكس ، لأن

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥ (٢) سورة البقرة ٢٧٥

(٣) سورة النحل ١٧

الخطاب لعبدة الأوثان ؛ وسمّوها آلهة ، تشبيها بالله سبحانه ، وقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، نخولف فى خطابهم ؛ لأنهم بالغوا فى عبادتهم وغلَوْا ، حتى صارت عندهم أصلا فى العبادة ، والخالق سبحانه فرعاً ، فجاء الإشكال على وفق ذلك .

والظاهر أنهم لما قاسوا غير الخالق خوطبوا بأشد الإلزامين ؛ وهو تنقيص المقدّس لا تقديس الناقص .

قال السكاكىّ : وعندى أن المراد بـ « من لا يخلق » الحىّ القادر من الخلق تعريضا بإنكار تشبيه الأصنام بالله تعالى من طريق الأوْلى . وجعل منه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾(١) بدل « هواه إلهه » فإنه جعل المفعول الأول ثانيا والثانى أولا ؛ للتنبيه على أن الهوى أقوى وأوثق عنده من إلاهه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾(٣) ، فإنّ بعضهم أورد أنّ أصل التشبيه يشبّه الأدنى بالأعلى فيقال : « أفنجعل المجرمين كالمسلمين ، والفجار كالمتقين » ، فلمَ خولفت القاعدة !

ويقال : فيه وجهان :

أحدها : أنّ الكفار كانوا يقولون : نحن نسود فى الآخرة ، كما نسود فى الدنيا ويكونون أتباعا لنا ، فكما أعزنا الله فى هذه الدار يعز نا فى الآخرة ، فجاء الجواب على معتقدهم أنهم أعلى ، وغيرهم أدنى .

الثانى : لما قيل قبل الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ

---

(١) سورة الجاثية ٢٢ (٢) سورة القلم ٣٥

(٣) سورة ص ٢٨

ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا ﴾[1] ؛ أى يظنون أن الأمر يهمل، وأن لا حشر ولا نشر، أم لم يظنوا ذلك ، ولكن يظنون أنا نجعل المؤمنين كالمجرمين ، والمتقين كالفجار .

* * *

السادسة : أن التشبيه فى الذمّ يشبّه الأعلى بالأدنى ، لأن الذمّ مقام الأدنى ، والأعلى ظاهر عليه فيشبه به فى السلب ، ومنه قوله : ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[2] ، أى فى النزول لا فى العلوّ .

ومنه : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[3] أى فى سوء الحال ؛ وإذا كان فى المدح يشبّه الأدنى بالأعلى فيقال : تراب كالمسك، وحصى كالياقوت ، وفى الذمّ: مسك كالتراب وياقوت كالزجاج .

* * *

السابعة : قد يدخل التشبيه على لفظ وهو محذوف لامتناع ذلك ،لأنه بسبب المحذوف كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾[4] .
فإنّ التقدير : ومثل واعظ الذين كفروا ، فالمشبه الواعظ ، والمقصود تشبيه حال الواعظ منهم بالناعق للأغنام ، وهى لا تعقل معنى دعائه وإنما تسمع صوته ولا تفهم غرضه ، وإنما وقع التشبيه على الغنم التى ينعق بها الراعى ، ويمدّ صوته إليها ، وفيه وجوه :

أحدها : أن المعنى : مثل الذين كفروا كمثل الغنم لا تفهم نداء الناعق، فأضاف المثل إلى الناعق ، وهو فى المعنى للمنعوق به ، على القلب .

ثانيها : ومثل الذين كفروا ومثلنا ومثلك ، كمثل الذى ينعق، أى مَثَلهم فى الإعراض

(١) سورة ص ٢٧
(٢) سورة الأحزاب ٣٢
(٣) سورة ص ٢٨
(٤) سورة البقرة ١٧١

ومَثلنا فى الدعاء والإرشاد ، كمثل الناعق بالغنم ، فحذف المثل الثانى اكتفاء بالأول، كقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾[1] .

وثالثها : أن المعنى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام ـ وهى لا تعقل ولا تسمع ـ كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ، وعلى هذا فالنداء والدعاء منتصبان بـ « ينعق » و« لا » توكيدٌ للكلام ، ومعناها الإلغاء .

رابعها : أن المعنى ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام وعبادتهم لها واسترزاقهم إياها ، كمثال الراعى الذى ينعق بغنمة ويناديها ، فهى تسمع نداء ولا تفهم معنى كلامه ، فيشبِّه مَنْ يدعوه الكفار من المعبودات من دون الله بالغنم من حيث لا تعقل الخطاب .

وهـذا قريب من الذى قبله ، ويفترقان فى أن الأول يقتضى ضرب المثل بما لا يسمع الدعاء والنداء جملة ، ويجب صرفه إلى غير الغنم ، وهذا يقتضى ضرب المثل بما لا يسمع الدعاء والنداء جملة ، وإن لم يفهمهما ، والأصنام ـ من حيث كانت لا تسمع الدعاء جملة ـ يجب أن يكون داعيها وناديها أسوأ حالا من منادى الغنم . ذكر ذلك الشريف المرتضى فى كتاب « غرر الفوائد »[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ . . . ﴾[3] الآية ، وإنما وقع التشبيه على الحرث الذى أهلكته الريح ، قيل فيه إضمار ، أى مثل إهلاك ماينفقون كمثل إهلاك ريح .

قال ثعلب : فيه تقديم وتأخير ، أى كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صرّ فأهلكته .

---

(١) سورة النحل ٨١

(٢) وهو الكتاب المعروف بأمالى المرتضى ١ : ٢١٧ ـ ٢١٨

(٣) سورة آل عمران ١١٧

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ ﴾[1] ، فإنّ التقدير : كما يحب المؤمنون الله، قال : وحُذِف الفاعل، لأنه غير ملتبس.

واعترض عليه بأنه لا حاجة لذلك ، فإن المعنى حاصل بتقديره مبنيا للفاعل .

وأجيب بأنه تقدير معنى ، لكن محافظةً على اللفظ فلا يقدّر الفاعل ، إذ الفاعل فى باب المصدر فضلة ، فلذلك جعله كذلك فى التقدير .

---

(١) سورة البقرة ١٦٥

الاستعارة

هى من أنواع البلاغة ، وهى كثيرة فى القرآن ، ومنهم من أنكره؛ بناءعلى إنكار المجاز فى القرآن ، والاستعارة مجاز ، وقد سبق تقديره . ومنع القاضى عبدالوهاب المالكى إطلاقَ لفظ الاستعارة فيه ، لأن فيها إيهاما للحاجة ، وهذا كما منع بعضهم لفظ: القرآن مخلوق ، وهو لا ينكر وقوع المجاز ، والاستعارة فيه إنما توقف على إذن الشرع .

ولا شك أن المجوّزين للإطلاق شرطوا عدم الإبهام ؛ وقد يمنعون الإبهام المذكور لأنه فى الاصطلاح اسم لأعلى مراتب الفصاحة .

وقال الطرطوسى[1] : إن أطلق المسلمون الاستعارة فيه أطلقناها وإن امتنعوا امتنعنا ؛ ويكون هذا من قَبيل أن الله تعالى عالم ، والعلم هو العقل ، ثم لا نَصِفه به لعدم التوقيف . انتهى .

والمشهور تجويز الإطلاق .

[مباحث الاستعارة]

ثم فيها مباحث :

الأول

وهى « استفعال » ، من العارية ، ثم نقلت إلى نوع من التخييل[2] لقصد المبالغة

(١) هو القاضى نجم الدين إبراهيم بن على الطرطوسى المتوفى سنة ٧٥٨ ، صاحب كتاب عمدة الحكام فيما لا ينفذ من الأحكام ؛ ذكره صاحب كشف الظنون . (٢) ت : « التخيل » .

فى التخييل والتشبيه مع الإيجاز ؛ نحو لقيت أسدا ، وتَعنى به الشجاع .

وحقيقتها أن تستعار الكلمة من شىء معروف بها إلى شىء لم يعرف بها ، وحكمة ذلك إظهار الخفىّ، وإيضاح الظاهر الذى ليس بجلى ، أو بحصول المبالغة أو للمجموع .

فمثال إظهار الخفىّ قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ ﴾[1] ، فإنّ حقيقته أنه فى أصل الكتاب ؛ فاستعير لفظ « الأمّ » للأصل ؛ لأن الأولاد تنشأ من الأمّ ، كما تنشأ الفروع من الأصول . وحكمة ذلك تمثيل ما ليس بمرئىّ حتى يصير مرئيا ، فينتقل السامع من حدّ السماع إلى حدّ العيان ؛ وذلك أبلغ فى البيان.

ومثال إيضاح ما ليس بجلىّ ليصير جليّا ، قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾[2] ؛ لأن المراد أمر الولَد بالذلّ لوالديه رحمة ؛ فاستعير للولد أولّا جانب ، ثم للجانب جناح ؛ وتقدير الاستعارة القريبة : « وَٱخْفِضْ لَهُمَا جانب الذل » ، أى اخفض جانبك ذلا .

وحكمة الاستعارة فى هذا جَعْلُ ما ليس بمرئىّ مرئيا ؛ لأجل حسن البيان ، ولما كان المرادُ خفضَ جانبِ الولد للوالدين ؛ بحيث لا يُبْقِى الولدُ من الذلّ لهما والاستكانة مركبا؛ احتيج من الاستعارة إلى ماهو أبلغ من الأولى؛ فاستعير الجناح، لما فيه من المعانى التى لا تحصل من خَفْضِ الجناح ؛ لأنّ مَنْ مَيَّل جانبَه إلى جهة السفل أدْنَى ميل ، صدق عليه أنه خفض جانبه ؛ والمراد خَفْضٌ يلصِق الجنبَ بالإبط ؛ ولا يحصل ذلك إلا بخفض الجناح كالطائر؛ وأما قول أبى تمام :

لا تسقِنى ماءَ الملام فإنّنى صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائى[3]

فيقال : إنه أرسل إليه قارورة ، وقال : ابعث إلىّ فيها شيئا من ماء الملام ؛ فأرسل

(١) سورة الزخرف ٤
(٢) سورة الإسراء ٢٤
(٣) ديوانه ١ : ٢٥

أبو تمام : أن ابعث لِي ريشة من جناح الذّلّ أبعث إليك من ماء الملام .

وهذا لا يصحّ له تعلّق به ، والفرق بين التشبيهين ظاهر؛ لأنه ليس جعْل الجناح للذلّ كجعْل الماء للملام ، فإن الجناح للذلّ مناسب ؛ فإن الطائر إذا وَهَى وتعب بسط جناحه وألقى نفسه إلى الأرض . وللإنسان أيضاً جناح ؛ فإنّ يديه جناحاه ، وإذا خضع واستكان يطأطئُ من رأسه ، وخفض من بين يديه ، فحسُن عند ذلك جعل الجناح للذّل ، وصار شبها مناسبا ، وأما ماء الملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه فلذلك استهجن منه . على أنه قد يقال : إنّ الاستعارة التخييلية فيه تابعة للاستعارة بالكناية ؛ فإن تشبيه الملام بظرف الشراب لاشتماله على ما يكرهه الشارب لمرارته، ثم استعار الملام له كأنه ، ثم يخرج منه شىء يشبَّه بالماء ؛ فالاستعارة فى اسم الماء .

الثانى

فى أنّها قِسْم من أقسام المجاز ؛ لاستعمال اللفظ فى غير ما وضع له .

وقال الإمام فخر الدين : ليس بمجاز لعدم النقل . وفى الحقيقة هى تشبيهٌ محذوف الأداة لفظا وتقديراً ؛ ولهذا حدّها بعضهم بادعاء معنى الحقيقة فى الشىء ، مبالغة فى التشبيه . كقولهم : انشقت عصاهم ؛ إذا تفرقوا ، وذلك للعصا لا للقوم ، ويقولون : كشفت الحربُ عن ساق .

ويفترقان فى أن التشبيه إذا ذكرت معه الأداة فلا خفاء أنه تشبيه ؛ وإن حُذفت فهذا يَلْتبس بالاستعارة ؛ فإذا ذكرت المشبه كقولك : زيد الأسد ، فهذا تشبيه بليغ ، كقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾[1] ، وإن لم يذكر المشبه به فهو استعارة ، كقوله :

لَدَى أَسَدٍ شاكِى السّلاح مقذَّفٍ . له لِبدٌ أظفاره لم تقلَّمِ[2]

---

(١) سورة البقرة ١٨ (٢) البيت لزهير من المعلقة ؛ ديوانه ٢٣ . شاكى السلاح ؛ أى سلاحه ذو شوكة ، أى شائك . والمقذف : الغليظ اللحم . واللبد : الشعر المتراكم فوق عنق الأسد .

فهذه استعارة نقلت لها وصف الشجاع ؛ إلى عبارة صالحة للأسد ، لولا قرينة السلاح لشككت : هل أراد الرجل الشجاع أو الأسد الضارى ؟

الثـالث

لا بدّ فيها من ثلاثة أشياء أصول : مستعار ، ومستعار منه ، وهو اللفظ ؛ ومستعار له وهو المعنى ؛ ففى قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً ﴾[1] المستعار الاشتعال ،والمستعار منه النار ، والمستعار له الشيب ، والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب .

وفائدة ذلك وحكمته وصفُ ما هو أخفى بالنسبة إلى ما هو أظهر . وأصل الكلام أن يقال : واشتعل شيب الرأس ؛ وإنما قلِب للمبالغة ؛ لأنه يستفاد منه عموم الشيب لجميع الرأس ؛ ولو جاء الكلام على وجهه لم يُفد ذلك العموم. ولا يخفى أنه أبلغ من قولك: كثر الشيب فى الرأس ؛ وإن كان ذلك حقيقة المعنى؛ والحقّ أن المعنى يعار ؛ أولا ثم بواسطته يعار اللفظ ، ولا تحسن الاستعارة إلا حيث كان الشبه مقرّراً بينهما ظاهرا ؛وإلّا فلا بدّ من التصريح بالشبَه ؛ فلو قلت : رأيت نخلة أو خامة وأنت تريد مؤمنا إشارة إلى قوله : «مثل المؤمن كمثل النخلة » أو « الخامة » لكنتَ كالملغز[2] .

ومن أحسن الاستعارة قوله تعالى : ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[3] ؛ وحقيقته « بدأ انتشاره » و « تنفس » أبلغ ؛ فإن ظهور الأنوار فى المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا ، بينه و بين إخراج النَّفَس مشاركة شديدة .

---

(١) سورة مريم ٤

(٢) هما حديثان نقلهما السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٢٦٢ ؛ أحدهما عن أبى هريرة: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا سكنت اعتدلت؛ وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء، ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة ؛ حتى يقصمها الله تعالى إذا شاء » . وثانيهما عن ابن عمرو : « مثل المؤمن مثل النخلة ، إن أكلت أكلت طيبا ؛ وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن وقعت على عدد نخر لم تكسره ، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب إن نفخت عليها احمرت ، وإن وزنت لم تنقص » .

(٣) سورة التكوير ١٨

وقوله: ﴿ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾[١]، لأن انسلاخ الشيء عن الشيء أن يبرأ منه، ويزول عنه حالا فحالا ، كذلك انفصال الليل عن النهار ؛ والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان .

وقوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[٢] .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾[٤] ، ويقولون للرجل المذموم : إنما هو حمار .

وقوله : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾[٥] .

﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾[٦] ، أى فى الخلق الجديد .

﴿ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[٧] .

﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[٨] .

﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾[٩] .

﴿ وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾[١٠] .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾[١١] .

﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[١٢] .

---

(١) سورة يس ٣٧
(٢) سورة الكهف ٢٩
(٣) سورة نون ١٦
(٤) سورة المدثر ٥٠
(٥) سورة القيامة ٢٩
(٦) سورة النازعات ١٠
(٧) سورة المطففين ١٤
(٨) سورة البلد ٤
(٩) سورة العلق ١٥
(١٠) سورة المسد ٤
(١١) سورة الدخان ٢٩
(١٢) سورة العنكبوت ٦٧

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[1] .

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾[2] ، والمراد حفظهم وما يحصل لهم .

وقوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[3] ، أى أتمها كما أمرت .

﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾[4] ، أى عصمك منهم ، رواه شعبة عن أبى وجاء عن الحسن .

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾[5] .

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[6] .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾[7] .

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[8] .

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[9] ، فالدمغ والقذف مستعار .

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾[10] ، يريد لا إحساس بها ، من غير صمم .

وقوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[11] ، فإنه أبلغ من « بَلِّغ » ، وإن كان بمعناه ، لأن تأثير الصَّدع أبلغ من تأثير التبليغ ؛ فقد لا يؤثِّر التبليغ ، والصدع يؤثِّر جزما .

---

(١) سورة الشعراء ٢٢٥
(٢) سورة الأعراف ١٣١
(٣) سورة الإسراء ٧٨
(٤) سورة الإسراء ٦٠
(٥) سورة الزخرف ٤
(٦) سورة الأنعام ٥٩
(٧) سورة الأعراف ١٥٤
(٨) سورة الإسراء ١٢
(٩) سورة الأنبياء ١٨
(١٠) سورة الكهف ١١
(١١) سورة الحجر ٩٤

الرابع

تنقسم إلى مرشّحة ـ وهى أحسنها ـ وهى أن تنظر إلى جانب المستعار وتراعيه، كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾(١)، فإن المستعار منه الذى هو الشراء هو المراعَى هنا، وهو الذى رشّح لفظتى الربح والتجارة للاستعارة لما بينهما من الملاءمة.

وإلى تجريدية؛ وهى أن تنظر إلى جانب المستعار له، ثم تأتى بما يناسبه ويلائمه، كقوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾(٢)، فالمستعار اللباس، والمستعار له الجوع، فجرد الاستعارة، بذكر لفظ الأداة المناسبة للمستعار له وهو الجوع، لا المستعار وهو اللباس، ولو أراد ترشيحها لقال: وكساها لباس الجوع. وفى هذه الآية مراعاةُ المستعار له؛ الذى هو المعنى، وهو الجوع والخوف؛ لأن ألمهما يُذاق ولا يلبس.

وقد تجىء ملاحظة المستعار الذى هو اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، إذا حملنا الحطب على النميمة فاعتبر اللفظ فقال: «حمالة» ولم يقل: «راوية» فيلاحظ المعنى.

وأما الاستعارة بالكناية فهى ألّا يصرّح بذكر المستعار، بل تذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه، كقوله: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، تنبيهاً على أن الشجاع أسد والعالم بحر.

ومنه المجاز العقلى كلّه عند السكاكى.

---

(١) سورة البقرة ١٦

(٢) سورة النحل ١١٢

ومن أقسامها ـ وهو دقيق ـ أن يسكتَ عن ذكر المستعار ثم يومَى إليه بذكر شىء من توابعه وروادفه ؛ تنبيها عليه ، فيقول : شجاع يفترس أقرانه ، فتبّهتَ بالافتراس على أنك قد استعرت له الأسد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾[1] ، فنبّه بالنقض الذى هو من توابع الحبل وروادفه ، على أنه قد استعار للعهد الحبْل لما فيه من باب الوصلة بين المتعاهدين .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾[2] ، لأن حقيقته « عملنا » لكن ﴿ قَدِمْنَا ﴾ أبلغ ؛ لأنه يدلّ على أنه عاملهم معاملةَ القادم من سفره ؛ لأنه من أجل إمهالهم السابق عاملَهم ؛ كما يفعل الغائب عنهم إذا قدم فرآهم على خلاف ما أمر به . وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال

وقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[3] ، لأن حقيقة «طغى» علا ، والاستعارة أبلغ ، لأن « طغى » ، علا قاهرا .

وكذلك : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[4] ، لأن حقيقة « عاتية » شديدة ، والعتوّ أبلغ ، لأنه شدّة فيها تمرد .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ . . . ﴾[5] ، الآية ؛ وحقيقته : لا تمنع ما تملك كلَّ المنع ، والاستعارة أبلغ ، لأنّه جعل مَنع النائل بمنزلة غلّ اليدين إلى العنق ، وحال الغلول أظهر .

---

(١) سورة البقرة ٢٧
(٢) سورة الفرقان ٢٣
(٣) سورة الحاقة ١١
(٤) سورة الحاقة ٦
(٥) سورة الإسراء ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[١] ، قيل : أخرجت ما فيها من الكنوز .

وقيل : يحيى به الموتى ، وأنها أخرجت موتاها،فسمى الموتى ثقلا تشبيها بالحمل الذى يكون فى البطن ؛ لأن الحمل يسمى ثقلا ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾[٢] .

ومنها : جعل الشيء للشيء وليس له من طريق الادعاء والإحاطة به نافعة فى آيات الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[٣] .

وقوله: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[٤] . ويسمّى التخييل : قال الزّمخشرى : ولا تجد بابا فى علم البيان أدقّ ولا أعون فى تعاطى المشبهات منه ، وأما قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[٥] قال الفرّاء : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جعل طلعها رءوس الشياطين فى القبح .

والثانى : أن العرب تسمى بعض الحيات شيطانا ؛ وهو ذو القرن .

والثالث : أنّه شوك قبيح المنظر ، يسمى رءوس الشياطين .

فعلى الأول يكون تخييلا ، وعلى الثانى يكون تشبيها مختصّا .

تقسيم آخر

الاستعارة فرع التشبيه ، فأنواعها كأنواعه خمسة :

* * *

(١) سورة الزلزلة ٢
(٢) سورة الأعراف ١٨٩
(٣) سورة القمر ١٤
(٤) سورة الزمر ٦٧
(٥) سورة الصافات ٦٥

الأول : استعارة حسىّ لحسّىّ بوجه حسىّ ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً ﴾[١] ؛ فإن المستعارَ منه هو النار ، والمستعار له هو الشَّيب ، والوجه هو الانبساط ؛ فالطرفان حسّيان والوجه أيضاً حسّىّ ، وهو استعارة بالكناية ؛ لأنّه ذكر التشبيه ، وذكر المشبّه وذكر المشبه به مع لازم من لوازم المشبه به ؛ وهو الاشتعال .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ ،[٢] أصلُ الموج حركة المياه ؛ فاستعمل فى حركتهم على سبيل الاستعارة .

* * *

الثانى : حسّى لحسّىّ بوجه عقلى ، كقوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾[٣] فالمستعار له الريح. والمستعار منه المرأة ، وهما حسّيّان ، والوجه المنع من ظهور النتيجة[٤] ، والأثر وهو عقلى وهو أيضاً استعارة بالكناية .

قال فى الإيضاح [٥] : وفيه نظر ، لأن العقيم صفة للمرأة لا اسم لها ؛ ولهذا جعل صفةً للريح ، لا اسما . والحق أن المستعار منه مافى المرأة من الصفة التى تمنع من الحَبَل والمستعار له ما فى الريح من الصفة التى تمنع من إنشاء مطر وإلقاح شجر [والجامع لهما ما ذكر][٦] .

وهو مندفع بالعناية ، لأن المراد من قوله : «المستعار منه » المرأة التى عبّر عنها بالعقيم ، ذكرها السكاكى بلفظ ما صدق عليه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾[٧] ، المستعار له ظلمة النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ عند جلدته، والجامع عقلىّ وهو ترتب أحدهما على الآخر .

---

(١) سورة مريم ٤

(٢) سورة الكهف ٩٩

(٣) سورة الذاريات ٤١

(٤) ت، م: النفخة؛ وماأثبته عن الإيضاح٢: ٢٩٧

(٥) الإيضاح ٢ : ٩٧

(٦) من كتاب الإيضاح .

(٧) سورة يس ٣٧

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[1] ، أصل الحصيد النبات والجامع الهلاك ، وهو أمر عقليّ .

* * *

الثالث : معقول لمعقول ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾[2] ، فالرقاد مستعار للموت ؛ وهما أمران معقولان ، والوجه عدم ظهور الأفعال ؛ وهو عقليّ ، والاستعارة تصريحيّة لكون المشبه به مذكورا .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾[3] المستعار السكوت ، والمستعار له الغضب ، والمستعار منه الساكت ، وهذه ألطف الاستعارات ، لأنها استعارة معقول لمعقول ، لمشاركته فى أمر معقول .

* * *

الرابع : محسوس لمعقول ، كقوله تعالى : ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ﴾[4] ، أصل التماسّ فى الأجسام ، فاستعير لمقاساة الشدة ، وكون المستعار منه حسّيا ، والمستعار له عقليا ، وكونها تصريحيّة ظاهر ، والوجه اللحوق وهو عقليّ .

وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾[5] فالقذف والدمغ مستعاران.

وقوله : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾[7] .

وقوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾[7] .

---

(١) سورة يونس ٢٤ — (٢) سورة يس ٥٢

(٣) سورة الأعراف ١٥٤ — (٤) سورة البقرة ٢١٤

(٥) سورة الأنبياء ١٨ — (٦) سورة آل عمران ١١٢

(٧) سورة آل عمران ١٨٧

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[١] وكلّ خَوْضٍ ذكره الله فى القرآن فلفظه مستعار من الخَوْض فى الماء .

وقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[٢] استعارة لبيانه عما أوحى إليه ، كظهور ماء فى الزجاجة عند انصداعها .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾[٣] ، البنيان مستعار وأصله للحيطان .

وقوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[٤] العِوَج مستعار .

وقوله : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[٥] وكلُّ ما فى القرآن من لظلمات والنور مستعار .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾[٦] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[٧] ؛ الوادى مستعار ، وكذلك الهَيَمان ، وهو على غاية الإيضاح .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[٨] .

* * *

الخامس : استعارة معقول لمحسوس: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾[٩] المستعار منه التكبّر ، والمستعار له الماء ، والجامع الاستعلاء المفرط .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[١٠] ، العتوّ هاهنا مستعار .

---

(١) سورة الأنعام ٦٨
(٢) سورة الحجر ٩٤
(٣) سورة التوبة ١٠٩
(٤) سورة هود ١٩
(٥) سورة إبراهيم ١
(٦) سورة الفرقان ٢٣
(٧) سورة الشعراء ٢٢٥
(٨) سورة الإسراء ٢٩
(٩) سورة الحاقة ١١
(١٠) سورة الحاقة ٦

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾[1] فلفظ الغيظ مستعار .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2]، فهو أفصح من مضيئة.

﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[3] .

ومنها الاستعارة بلفظين ، كقوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ ﴾[4] ؛ يعنى تلك الأوانى ليس من الزجاج ، ولا من الفضة ، بل فى صفاء القارورة وبياض الفضة . وقد سبق عن الفارسىّ جعله من التشبيه .

ومثله : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[5] ، ينبى عن الدوام والسوط ينبى عن الإيلام ؛ فيكون المراد ـ والله أعلم ـ تعذيبهم عذاباً دائماً مؤلماً .

---

(١) سورة الملك ٨
(٢) سورة الإسراء ١٢
(٣) سورة محمد ٤
(٤) سورة الدهر ١٦
(٥) سورة الفجر ١٣

التَّوْرِيَة

وتسمى الإيهام والتخييل والمغالطة والتوجيه ؛ وهى أن يتكلّم المتكلمُ بلفظ مشترك بين معنيين : قريب وبعيد ، ويريد المعنى البعيد ، يوهم السامع أنه أراد القريب ؛ مثاله قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(1) ، أراد بالنجم النبات الذى لا ساق له ، والسامع يتوهم أنه أراد الكوكب ، لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر .

وقوله : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾(2) والمراد المعرفة .

وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾(3) ، أراد بها فى نعمة وكرامة ، والسامع يتوهم أنه أراد من النعومة .

وقوله : ﴿ وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾(4) أراد بالأيد القوة الخارجة .

وقوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾(5) ، أى مُقرّطون تجعل فى آذانهم القِرَطة ، والحلق الذى فى الأذن يسمى قُرْطا وخَلَدة ، والسامع يتوهم أنه من الخلود .

وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(6) ، أى علّمهم منازلهم فيها،أويوهم إرادة العَرْف ، الذى هو الطِّيب .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾(7) .

وقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ ﴾(8) فذكر « رضوان » مع « الجنات » مما يوهم إرادة خازن الجنات .

---

(1) سورة الرحمن ٦
(2) سورة آل عمران ٣٩
(3) سورة الغاشية ٨
(4) سورة الذاريات ٤٧
(5) سورة الدهر ١٩
(6) سورة القتال ٦
(7) سورة المائدة ٤
(8) سورة التوبة ٢١

وكان الأنصار يقولون: ﴿ رَاعِنَا ﴾[1] أى أرعنا سمعنا وانظر إلينا والكفار يقولونها « فاعل » من الرعونة. وقال أبو جعفر : هى بالعبرانية ، فلما عوتبوا قالوا : إنما نقول مثل ما يقول المسلمون ، فنهى المسلمون عنها .

وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِمَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[2] فقوله: ﴿ الولىّ ﴾ هو من أسماء الله ، ومعناه الولىّ لعباده بالرحمة والمغفرة، وقوله: ﴿ الحميد ﴾ يحتمل أن يكون من « حامد » لعباده المطيعين، أو « محمود » فى السراء والضراء ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه . ويحتمل أن يكون الولىّ من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع ، والحميد بمعنى المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث .

وقوله : ﴿ آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾[3] ، فإن لفظة « ربك » رشحت لفظة « ربه » ، لأن يكون تورية ؛ إذ يحتمل أنه أراد بها الإله سبحانه والملك ، فلو اقتصر على قوله : ﴿ فَأَنْسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾[3] ، ولم تدلّ لفظة « ربه » إلا على الإله فلما تقدمت لفظة « ربك » احتمل المعنيين .

تنبيه

[فى الفرق بين التورية والاستخدام]

كثيراً ماتلتبس التورية بالاستخدام ؛ والفراق بينهما أن التوريةَ استعمال المعنيين فى اللفظ وإهمال الآخر ؛ وفى الاستخدام استعمالهما معا بقرينتين .

---

(١) من قوله تعالى فى سورة البقرة ١٠٤ :
﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا ﴾ .

(٢) سورة الشورى ٢٨

(٣) سورة يوسف ٤٢

وحاصله أنّ المشترك إن استعمل فى مفهومين معا فهو الاستخدام ؛ وإن أريد أحدهما مع لمح الآخر باطنا فهو التورية .

ومثال الاستخدام قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(١) ، فإنّ لفظة « كتاب » يراد بهـا الأمد المحتوم والمكتوب ، وقد توسطت بين لفظتين ، فاستخدمت أحدمفهوميها، وهو الأمد واستخدمت « يمحو »المفهوم الآخر،وهوالمكتوب.

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾(٢) ؛ فإن الصلاة تحتمل إرادة نفس الصلاة ، وتحتمل إرادة موضعها فقوله : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا ﴾(٢) استخدمت إرادة نفس الصلاة ، وقوله : ﴿ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾(٢) ، استخدمت إرادة موضعها .

---

(١) سورة الرعد ٣٨ ، ٣٩

(٢) سورة النساء ٤٣

التجريد

وهو أن تعتقد أن فى الشىء من نفسه معنى آخر، كأنه مباين له ، فتخرج ذلك إلى ألفاظ بما اعتقدت ذلك ، كقولهم : لئن لقيت زيدا لتلقينّ معه الأسد ، ولئن سألته لتسألنّ منه البحر . فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسداً وبحراً وهو عينه هو الأسد والبحر؛ لا أنّ هناك شيئا منفصلا عنه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(١)، فظاهر هذا أن فى العالم من نفسه آيات ، وهو عينه ونفسه تلك الآيات .

وكقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) ، وإنما هذا ناب عن قوله : « وَاعْلَمْ أَنِّي عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾(٥) ، ليس المعنى أن الجنّة فيها دار خلد وغير دار خلد ، بل كلّها دار خُلد ؛ فكأنك لما قلت : فى الجنة دار الخلد اعتقدت أن الجنة منطوية على دار نعيم ودار أكل وشرب وخُلْد ، فجردت منها هذا الواحد ، كقوله :

* وفى الله إن لم تُنصفُوا حكمٌ عدلُ *

وقوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾(٦) ، على أحد

---

(١) سورة آل عمران ١٩٠
(٢) سورة البقرة ٢٦٠
(٣) سورة ق ٣٧
(٤) سورة الأحزاب ٢١
(٥) سورة فصلت ٢٨
(٦) سورة الأنعام ٩٥

التأويلات فى الآية عن ابن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل ميّتة، وهو حىّ، ويخرج الرجل منها حيّا وهى ميتة، قال ابن عطية: فى تفسيره هذه الآية: إن لفظة الإخراج فى تنقّل النطفة حتى تكون رجلا ، إنما هو عبارة عن تغيير الحال ، كما تقول فى صبىّ جيّد البنية : يخرج من هذا رجل قوىّ .

وقد يحتمل قوله : ﴿ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾[1] ، أى الحيوان كله ميتة، ثم يحييه قال : وهو معنى التجريد .

وذكر الزمخشرى أن عمرو بن عبيد قرأ فى قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةٌ كَالدِّهَانِ ﴾[2] ، بالرفع ، بمعنى حصلت منها [سماء][3] وَرْدة ، قال : وهو من التجريد .

وقرأ علىّ وابن عباس فى سورة مريم : ﴿ يَرِثُنِي وارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[4] ، قال ابن جنّى : هذا هو التجريد ، وذلك أنه يريد : وهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وليًّا يَرِثُنِي منه وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرّد منه وارثا .

---

(١) سورة الأنعام ٩٥
(٢) سورة الرحمن ٣٧، وانظر الكشاف ٤: ٣٥٨
(٣) من الكشاف .
(٤) سورة مريم ٦

التجنيس

وهو إمّا بأن تتساوى حروف الكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴾[2] ؛ وفى ذلك ردّ على من قال[3] : ليس منه فى القرآن غيرُ الآية الأولى .

وإما بزيادة فى إحدى الكلمتين ، كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾[4] .

وإما لاحق، بأن يختلف أحد الحرفين، كقوله: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[5] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[6] .

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾[7] .

﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[8] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾[9] .

وإما فى الخطّ ، وهو أن تشتبها فى الخط لا اللفظ ، كقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[10] .

---

(١) سورة الروم ٥٥ — (٢) سورة الصافات ٧٢ ، ٧٣

(٣) هو ابن الأثير صاحب المثل السائر ؛ ذكره فى الجزء الأول ص ٢٤٦

(٤) سورة القيامة ٢٩ ، ٣٠ — (٥) سورة العاديات ٧ ، ٨

(٦) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣ — (٧) سورة الأنعام ٢٦

(٨) سورة غافر ٧٥ — (٩) سورة النساء ٨٣

(١٠) سورة الكهف ١٠٤

وقوله : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[1] .

وأما فى السمع لقرب أحد المخرجين من الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2] .

تنبيهات

الأول : نازع ابن أبى الحديد فى الآية الأولى وقال : عنـدى[3] أنه ليس بتجنيس أصلا ، وأن الساعة فى الموضعين بمعنًى واحد ، والتجنيس أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، وألا تكون إحداهما حقيقة والأخرى مجازا ؛ بل تكونا حقيقتين ؛ وإنّ زمان القيامة ـ وإن طال ـ لكنّه عند الله تعالى فى حكم الساعة الواحدة ؛ لأنّ قدرته لا يعجزها أمر، ولا يطول عندها زمان ؛ فيكون إطلاق لفظة « الساعة » على أحد الموضعين حقيقة ، وعلى الآخر مجازا ؛ وذلك يُخرج الكلام من التجنيس ؛ كما لو قلت : ركبت حمارا ، ولقيت حمارا ، وأردت بالثانى البليد . وأيضاً لا يجوز أن يكون المراد بالساعة الساعة الأولى خاصّة ؛ وزمان البعث ، فيكون لفظ الساعة مستعملا فى الموضعين حقيقة بمعنى واحد ؛ فيخرج عن التجنيس .

***

الثانى : يقرب منه الاقتضاب، وهو أن تكون الكلمات يجمعها أصلٌ واحد فى اللغة، كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾[5] .

وقوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾[6] .

---

(١) سورة الشعراء ٧٩، ٨٠
(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣
(٣) انظر الفلك السائر ١٣
(٤) سورة الروم ٤٣
(٥) سورة البقرة ٢٧٦
(٦) سورة الواقعة ٨٩

. وقوله: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾(١) .

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾(٢) .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾(٣) .

﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾(٤) .

﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾(٥) .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾(٦) .

﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾(٧) .

* * *

الثالث : اعلم أن الجناس من المحاسن اللفظية لا المعنوية ، ولهذا تركوه عند قوة المعنى بتركه ؛ ولذلك مثالان :

أحدهما قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾(٨) ، فذكر الرازى فى تفسيره(٩) أن الكاتب الملقب بالرشيدى ، قال : لو قيل : « أتدْعون بعلا وتدَعون أحسن الخالقين » [أوهم أنه أحسن ، لأنه كان](١٠) تحصل به رعاية معنى التجنيس أيضاً ؛ مع كونه موازنا لـ « تذرون » .

وأجاب الرازى : بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكلفات ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ .

وقال بعضهم : مراعاة المعانى أولى من مراعاة الألفاظ ، فلو كان « أتدْعون »

---

(١) سورة فصلت ٥١
(٢) سورة الشعراء ١٦٨
(٣) سورة الرحمن ٥٤
(٤) سورة يوسف ٨٤
(٥) سورة النور ٣٧
(٦) سورة الأنعام ٧٩
(٧) سورة التوبة ٣٨
(٨) سورة الصافات ١٢٥
(٩) تفسير الفخر الرازى ٧ : ١٠٩
(١٠) من تفسير الفخر الرازى .

« وتَدّعون » كما قال هذا القائل لوقع الإلباس على القارئ فيجعلهما بمعنى واحد تصحيفا منه، وحينئذ فينخرم اللفظ ، إذا قرأ و « تَدْعون » الثانية بسكون الدال؛ لاسيما وخط المصحف الإمام لا ضبط [فيه] ولا نقط ..

قال : ومما صحّف من القرآن بسبب ذلك وليس بقراءة قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾(1) بالسين المهملة .

وقوله : ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾(2) بالباء الموحدة .

وقوله : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾(3) بالعين المهملة .

وقرأ ابن عباس « مَنْ فرعون » على الاستفهام .

قلت : وأجاب الجوينى عن هذا بما يمكن أن يتخلّص منه : أن « يذر » أخصّ من « يَدَع » وذلك لأن الأول ، بمعنى تَرْك الشيء اعتناء ، بشهادة الاشتقاق، نحو الإيداع، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها، ولهذا يُختار لها مَنْ هو مؤتمن عليها؛ ومن ذلك الدَّعة بمعنى الراحة . وأما « تذر » فمعناها الترك مطلقا، والترك مع الإعراض(4) والرفض الكلىّ ؛ ولا شكّ أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول ؛ فأريد هنا تبشيع حالهم فى الإعراض عن ربهم ، وأنهم بلغوا الغاية فى الإعراض .

قلت: ويؤيده قول الراغب(5): يقال: فلا يَذَر الشيء أى يقذفه لقلة الاعتداد به(6). وَالْوَذَرَةُ قطعة من اللحم [وتسميتها بذلك](7) لقلة الاعتداد به؛ نحو قولهم [فيم لا يعتدّ به](7): هو لحم على وَضَم ،قال تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(8). وقال تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾(9) . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(10) ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾(11)

---

(1) سورة الأعراف ١٥٦
(2) سورة التوبة ١١٤
(3) سورة عبس ٣٧
(4) ت : « الاعتراض » .
(5) فى المفردات ٥٣٩ مع تصرف فى العبارة؛ وتقديم وتأخير .
(6) المفردات : « لقلة اعتداده به » .
(7) من المفردات.
(8) سورة الأعراف ٧٠
(9) سورة الأعراف ١٢٧
(10) سورة الأنعام ١١٢
(11) سورة البقرة ٢٧٨

وإنما قال: ﴿ يَذَرون ﴾ ولم يقل « يتركون » و « يُخَلِّفون » لذلك. انتهى.

وعن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني أنه أجاب عن هذا السؤال بأن التجنيس تحسين، وإنما يستعمل فى مقام الوعد والإحسان؛ وهذا مقام تهويل، والقَصْد فيه المنى، فلم يكن لمراعاة اللفظة فائدة.

وفيه نظر، فإنه ورد فى قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾(١).

المثال الثانى: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾(٢) قال: معناه: وما أنت مصدّق لنا، فيقال: ما الحكمة فى العدول عن الجناس، وهلا قيل: « وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين »، فإنه يؤدى معنى الأول مع زيادة رعاية التجنيس اللفظى ؟

والجواب أن فى «مُؤْمِنٍ لَنَا» من المعنى ماليس فى «مصدّق»، وذلك أنك إذا قلت: « مصدّق لى » فمعناه. قال لى: صدقت، وأما « مؤمن » فمعناه مع التصديق إعطاء الأمن، ومقصودهم التصديق وزيادة، وهو طلب الأمن؛ فلهذا عَدل إليه.

فتأمل هذه اللطائف الغريبة، والأسرار العجيبة فإنه نوع من الإعجاز!

فائدة

قال الخفاجى: إذا دخل التجنيسَ نفىٌ عُدّ طباقا، كقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣)، لأن « الذين لا يعلمون » هم الجاهلون، قال: وفى هذا يختلط التجنيس بالطباق.

---

(١) سورة الجاثية ٢٧
(٢) سورة يوسف ١٧
(٣) سورة الزمر ٩

الطِّبَاق

هو أن يُجمع بين متضادّين مع مراعاة التقابل ، كالبياض ، والسواد، والليل والنهار؛ وهو قسمان : لفظىّ ومعنوىّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾(1) ، طابَق بين الضحك والبكاء ، والقليل والكثير .

ومثله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾(2) .

﴿ وأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ . وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وأَحْيَا ﴾(3) .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وهُمْ رُقُودٌ ﴾(4) .

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾(5) .

وقوله تعالى : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ . . . ﴾(6) الآية.

﴿ وما يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . ولَا الظُّلُمَاتُ ولَا النُّورُ . ولَا الظِّلُّ ولَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ ولَا الأَمْوَاتُ ﴾(7) .

ثم إذا شرط فيهما شرط وجب أن يُشترط فى ضدّيهما ضدّ ذلك الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ واتَّقَىٰ . وصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . . . ﴾(8) الآية ، لما جعل التيسير

---

(1) سورة التوبة ٨٢
(2) سورة الحديد ٢٣
(3) سورة النجم ٤٣ ، ٤٤
(4) سورة الكهف ١٨
(5) سورة الرعد ١٠
(6) سورة آل عمران ٢٦
(7) سورة فاطر ١٩ ــ ٢٢
(8) سورة الليل ٥ ، ٦

مشتركا بين الإعطاء والتقى والتصديق ، وجعل ضدّه وهو التعسير مشتركا بين أضداد تلك الأمور ، وهى المنع والاستغناء والتكذيب .

ومنه : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾(١) ، قابَل بين العلوّ والدنو .

وقوله : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾(٣) ، فذكَر الليل والنهار وهما ضدّان ، ثم قابلهما بضدّين وهما الحركة والسكون، على الترتيب ، ثم عبّر عن الحركة بلفظ « الإرداف » فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المبالغة ، وعَدَل عن لفظ الحركة إلى لفظ « ابتغاء الفضل » لكون الحركة تكون للمصلحة دون المفسدة ؛ وهى تسير إلى الإعانة بالقوة وحسن الاختيار الدالّ على رجاحة العقل ، وسلامة الحسّ ، وإضافةُ الظرف إلى تلك الحركة المخصوصة واقمة فيه، ليهتدى المتحرّك إلى بلوغ المأرب .

* * *

ومن الطباق المعنوىّ قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾(٤) ، معناه : ربنا يعلم إنا لصادقون .

وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾(٥) ، قال أبو علىّ فى « الحجة »: لمّا كان البناء رفعا للمبنىّ قوبل بالفراش الذى هو على خلاف البناء ، ومن ثَمّ وقع البناء على ما فيه ارتفاع فى نصبيه إن لم يكن مَدَرا .

* * *

(١) سورة الحاقة ٢٢ و ٢٣
(٢) سورة الغاشية ١٣ ، ١٤
(٣) سورة القصص ٧٣
(٤) سورة يس ١٥ ، ١٦
(٥) سورة البقرة ٢٢

ومنه نوع يسمى الطباق الخفيّ ؛ كقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾[١] ، لأن الغرق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء في النار والنار ، قال ابن منقذ[٢] : وهي أخفى مطابقة في القرآن .

قلت : ومنه قوله تعالى : ﴿ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾[٣] ؛ فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر ، وهذا أيضاً فيه تدبيج بديعي .

ومنه : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[٤] ، لأن معنى القصاص القتل ، فصار القتل سبب الحياة .

قال ابن المعتز[٥] ؛ وهذا من أملح الطباق وأخفاه .

وقوله تعالى في الزخرف : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾[٦] ؛ لأن « ظلّ » لا تستعمل إلا نهاراً ، فإذا لمح مع ذكر السواد كأنه طباق يُذكر البياض مع السواد .

وقوله : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾[٧] .

---

(١) سورة نوح ٢٥

(٢) هو الأمير أسامة بن منقذ ؛ أحد أبطال الإسلام وأدبائهم وشعرائهم ؛ وصاحب كتاب لباب الآداب ، والبديع في نقد الشعر . توفي سنة ٥٨٤ .

(٣) سورة يس ٨٠

(٤) سورة البقرة ١٧٩

(٥) هو عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي ، وصاحب كتاب البديع ؛ توفي سنة ٢٩٦

(٦) سورة النحل ٥٨

(٧) سورة غافر ٤١

المقـــابلة

—

[مباحث المقابلة]

وفيها مباحث :

الأول : فى حقيقتها

وهى ذكر الشىء مع ما يوازيه فى بعض صفاته ، ويخالفه فى بعضها ، وهى من باب « المفاعلة » ، كالمقابلة والمضاربة ، وهى قريبة من الطباق ؛ والفرق بينهما من وجهين :

الأول : أن الطّباق لا يكون إلا بين الضدّين غالبا ، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبا .

والثانى : لا يكون الطباق إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وغيرها ؛ ولهذا جعل ابن الأثير الطّباق أحد أنواع المقابلة .

الثانى : فى أنواعها

وهى ثلاثة : نظيرىّ ، ونقيضىّ ، وخلافىّ . والخلافىّ أتمها فى التشكيك ، وألزمها بالتأويل ، والنقيضىّ ثانيها ، والنظيرىّ ثالثها .

وذكر الشيخ أبو الفضل يوسف بن محمد النحوى القلعىّ : أن القرآن كلّه وارد عليها بظهور نكته الحكمية العلمية ، من الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الإلهيات ؛ حيث اتّحدت من حيث تعددت ، واتصلت من حيث انفصلت ؛ وأنها قد ترد على شكل المربع تارة ، وشكل المسدس أخرى ، وعلى شكل

المثلث ، إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة ، والترتيبات البديعة ، ثم أورد أمثلة من ذلك .

مثال مقابلة النظيرين ، مقابلة السِّنة والنوم فى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[١]؛ لأنهما جميعا من باب الرقاد المقابَل باليقظة.

وقوله : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[٢] ، وهذه هى مقابلة النقيضين أيضاً ، ثم السِّنة والنوم بانفرادهما متقابلان فى باب النظيرين ومجموعهما يقابلان النقيض الذى هو اليقظة.

ومثال مقابلة الخلافين ، مقابلة الشرّ بالرشد فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾[٣]،فقابل الشرّ بالرشد؛ وهما خلافيان، وضد الرشد الغىّ ، وضد الشر الخير ، والخير الذى يخرجه لفظ الشر ضمنا نظير الرشد قطعا ، والغى الذى يخرجه لفظ الرشد ضمنا نظير الشر قطعا حصل من هذا الشكل أربعة ألفاظ : نطقان وضمنان ؛ فكان بهما رباعيّان .

وهذا الشكل الرباعى يقع فى تفسيره على وجوه ، فقد يرد وبعضه مفسّر ، مثل ما ذكرناه ، وقد يرد وكله مفسّر ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَـٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[٤] فقابل « صدّق » بـ « كذّب » «وصلى» الذى هو أقبل بـ « تولّى».

قوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيماً . إِلَّا قِيلًا سَلَاماً سَلَاماً ﴾[٥] ، اللغو فى الحيثية المنكرة والتأثيم فى الحيثية الناكرة، واللغو منشأ المنكر ومبدأ درجاته،والتأثيم منشأ التّكبر ومبدأ درجاته ، فلا نكيرَ إلا بعد منكر،ولا اعتقاد إنكار إلا بعد اعتقاد تأثيم ، ومنشأ اللغو فى أول طرف المكروهات وآخره فى طرف المحظورات ومبدأ التأثيم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[٦] فقابَل الإفساد بالتسبيح والحمد ، وسفك الدماء بالتقديس،

(١) سورة البقرة ٢٥٥
(٢) سورة الكهف ١٨
(٣) سورة الجن ١٠
(٤) سورة القيامة ٣١، ٣٢
(٥) سورة الواقعة ٢٥ ، ٢٦
(٦) سورة البقرة ٣٠

فالتسبيح بالحمد إذن ينفى الفساد، والتقديس ينفى سفك الدماء ؛ والتسبيح شريعة للإصلاح ، والتقديس شريعة حقن الدماء ، وشريعة التقديس أشرف من شريعة التسبيح ؛ فإن التسبيح بالحمد للإصلاح لا للفساد ، وسفك الدماء للتسبيح لا للتقديس ؛ وهذا شكل مربّع ، من أرضىّ وهو الإفساد وسفك الدماء ، وسمائى وهو التسبيح والتقديس ، والأرضىّ ذو فصلين ، والسمائىّ ذو فصلين، ووقع النفس من الطرفين المتوسطين؛ فالطرفان الإفساد فى الطرف الأول ، والتقديس فى الطرف الآخر ، والوسطان آخر الأرض ، وأول السماء ، فالأول متشرف على الآتى والآخر ملفت إلى الماضى :

وكَمْ فى كتابِ اللهِ مِنْ كُلِّ مُوجَزٍ ... يَدُورُ على المعنى وعنه يُمَاصِعُ[1]

لَقَدْ جَمَعَ الإِسْمُ الجَامِدَ كلَّهَا ... مقاسيمها مجموعة والشايعُ

وهذا القدر الذى ذكره هذا الحَبْر مرمى عظيم ، يوصِّل إلى أمور غير متجاسَر عليها ، كما فى آية الكرسىّ وغيرها .

* * *

وقسم بعضهم المقابلة إلى أربع :

أحدها : أن يأتى بكل واحد من المقدمات مع قرينة من الثوانى ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً ﴾[2] .

والثانية : أن يأتى بجميع الثوانى مرتّبة من أولها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾[3] .

وكذلك : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[4] .

---

(١) يماصع : يدافع .
(٢) سورة النبأ ١٠ ، ١١
(٣) سورة القصص ٧٣
(٤) سورة البقرة ٢١٧

الثالث : أن يأتى بجميع المقدمات ثم بجميع الثوانى مرتبة من آخرها، ويسمى ردَّ العجز على الصدر ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

الرابع : أن يأتى بجميع المقدمات ثم بجميع الثوانى مختلطة غير مرتبة، ويُسمى اللفّ، كقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللهِ قَرِيبٌ ﴾[2] فنسبة قوله : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللهِ ﴾[2] إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾، كنسبة قوله : ﴿ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ ﴾ إلى: ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللهِ قَرِيبٌ ﴾، لأن القولين المتباينين يصدران عن متباينين .

وكما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[3] فنسبة قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[3] إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[3] كنسبة قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ ﴾[3] إلى قوله: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾[3] فجمع المقدّمين التاليين بالالتفات .

* * *

وجعل بعضهم من أقسام التقابل مقابلة الشيء بمثله وهو ضربان :

مقابل فى اللفظ دون المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧
(٢) سورة البقرة ٢١٤
(٣) سورة الأنعام ٥٢
(٤) سورة النمل ٥٠

ومقابل فى المعنى دون اللفظ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى ﴾(١)؛ فإنه لو كان التقابل هنا من جهة اللفظ، لكان التقدير : « وإن اهتديت ، فإنما اهتديت لها » .

وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى، أنّ النفسَ كلّ ماهو عليها لها، فهو أعنى أن كلّ ماهو وبالٌ عليها وصار لها فهو بسببها ومنها؛ لأنها أمّارة بالسوء، وكلّ ماهو مماينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها ، وهذا حكم لكلّ مكلف ، وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسند إلى نفسه ، لأنه إذا دخل تحته مع علو محلّه كان غيره أولى به .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) ، فإنه لم يدع التقابل فى قوله : ﴿ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ ، لأن القياس يقتضى أن يكون « والنهار لتبصروا فيه » ، وإنما هو مراعًى من جهة المعنى لامن جهة اللفظ، لأنّ معنى « مبصراً » تبصرون فيه طرق التقلب فى الحاجات .

* * *

واعلم أنّ فى تقابل المعانى باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمّل، وهو يتصل غالبا بالفواصل، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾(٣) إلى قوله ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٣) .

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾(٤) إلى قوله: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

فانظر فاصلة الثانية ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ والتى قبلها ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين : يجتمعون وهم مطيعون يحتاج إلى نظر واستدلال ، حتى يكسب الناظر

---

(١) سورة سبأ ٥٠

(٢) سورة النمل ٨٦

(٣) سورة البقرة ١١ ، ١٢

(٤) سورة البقرة ١٣

المعرفة والعلم ؛ وإنما النفاق ـ وما فيه من الفتنة والفساد ـ أمر دنيوى مبنىٌ على العادات معلوم عند الناس، فلذلك قال فيه ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأيضاً فإنّه لما ذكر السّفه[1] فى الآية الأخرى ـ وهو جهل ـ كان ذكر العلم طباقا وعلى هذا تجىء فواصل القرآن ، وقد سبق فى بابه .

* * *

ومن المقابلة قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾[2] ، فتقدم اقتران الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قُوبل بشىء واحد وهو الوعد ، فأوْهم الإخلال بالثانى ، وليس كذلك ؛ وإنما لما كان الفضل مقابلا للفقر ، والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ؛ لأن الفحشاء توجب العقوبة ، والمغفرة تقابل العقوبة ، استغنى بذكر المقابل عن ذكر مقابله ، لأن ذكر أحدهما ملزوم ذكر الآخر .

---

(١) من قوله فى الآية : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ ٱلسُّفَهَاءُ ﴾ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٨

تقسيم

من مقابلة اثنين باثنين : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾[(1)] .

ومن مقابلة أربعة بأربعة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . . . ﴾[(2)] الآية .

ومن مقابلة خمس بخمس قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[(3)] ، للدلالة على الحقير والكبير ؛ وهو من الطباق الخفيّ ، الثانى:﴿فأما الذين آمنوا ﴾ و ﴿ أما الذين كفروا ﴾ ، الثالث : ﴿ يضلّ ﴾ و ﴿ يهدى ﴾ به ، والرابع ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ ، الخامس ﴿ يقطعون ﴾ و ﴿ أن يوصل ﴾ .

ومن مقابلة ست بستّ :قوله تعالى:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[(4)] ، ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

---

(١) سورة التوبة ٨٢ (٢) سورة الليل ٥ ـ ١٠ ، والآيات بتكملتها: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾.

(٣) سورة البقرة ٢٦ ، وبعدها :﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ .

(٤) سورة آل عمران ١٤

وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] ، قابَل الجنات والأنهار والخلد والأزواج والتطهير والرضوان بإزاء النساء فى الدنيا ، وختَم بالحرْث ، وهما طرفان متشابهان ، وفيهما الشهوة والمعاش الدنياوىّ ، وأخّر ذكْرَ الأزواج كما يجب فى الترتيب الأخروىّ ، وختم بالرضوان .

فائدة

قد يجىء نظمُ الكلام على غير صورة المقابلة فى الظاهر ؛ وإذا تؤمل كان من أكمل المقابلات ؛ ولذلك أمثلة :

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾[2] فقابل الجوع بالعُرْى ؛ والظمأ بالضَّحى[3] ؛ والواقف مع الظاهر ربّما يُخيلُ أنّ الجوع يقابل بالظمأ ، والعرْىَ بالضَّحَى .

والمدقِّق يرى هذا الكلام فى أعلى مراتب الفصاحة؛ لأن الجوع ألم الباطن والضَّحَى موجِب لحرارة الظاهر ، فاقتضت الآية جميع نفى الآفات ظاهرا وباطنا؛ وقابل الخلو بالخلوّ، والاحتراق بالاحتراق . وهاهنا موضع الحكاية المشهورة بين المتنبى وسيف الدولة ؛ لما أنشده :

وَقَفْتَ وَمَا فِى ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

(١) سورة آل عمران ١٤ ، ١٥ (٢) سورة طه ١١٨ ، ١١٩

(٣) فى اللسان عن الليث : « ضحى الرجل يضحى ضحا ، إذا أصابه حر الشمس » .

(٤) ديوانه ٣ : ٣٨٦ ، وبعده :

تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

ونقل العكبرى عن الواحدى : لما أنشد المتنبى هذا البيت والذى بعده ، أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزى البيتين على صدريهما ، وقال له : ينبغى أن تطبق عجز الأول على الثانى ، وعجز الثانى على الأول ؛ ثم قال له : وأنت فى هذا مثل امرئ القيس فى قوله :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَأِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِىَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ =

ومنها قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾(١) ؛ فإنه يتبادر فيه سؤال ؛ وهو أنه لم لا قيل : « مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع » ، لتكون المقابلة فى لفظ « الأعمى » وضده بالبصير ، وفى لفظ « الأصم » وضده السميع .

والجواب أنه يقال : لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضدّ ذلك لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ؛ فما تضمّنته الآية الكريمة هو الأنسب فى المقابلة والأتمّ فى الإعجاز .

= قال : ووجه الكلام فى البيتين على ماقاله أهل العلم بالشعر ، أن يكون عجز الأول على الثانى ، والثانى على الأول ؛ ليستقيم الكلام ، فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر ، وسبء الخمر مع تبطن الكاعب. فقال له أبو الطيب: أدام الله عز مولانا ! إن صح أن الذى استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك ؛ لأن البزاز يعرف جملته وتفصيله ؛ لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ؛ وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ؛ وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه . ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : « وجهك وضاح » ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى . فأعجب سيف الدولة ووصله بخمسمائة دينار .

(١) سورة هود ٢٤

رد العجز على الصدر وعكسه

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾(1) .

﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا ﴾(2) .

العَكْس

وهو أن يقدّم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، كقوله تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾(3) وقدره الزمخشرى(4) ، أى لا حلّ بين المؤمن والمشرك ، والآية صرّحت بنفى الحلّ من الجهتين، فقد يستدلّ بهامن قال : إن الكفار مخاطبون بالفروع .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾(5) أى ذبائحكم ، وهذه رخصة للمسلمين .

---

(1) سورة الأنبياء ٣٧
(2) سورة المائدة ٩٦
(3) سورة الممتحنة ١٠
(4) الكشاف : ٤١٣
(5) سورة المائدة ٥

إلجام الخصم بالحجة

وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية ، تقطع المعاند له فيه . والعجب من ابن المعتز فى بديعه ، حيث أنكر وجود هذا النوع فى القرآن ، وهو من أساليبه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(1) ثم قال النحاة : إنّ الثانىَ امتنع لأجل امتناع الأول ، وخالفهم ابن الحاجب وقال : المتنع الأول لأجل الثانى ؛ فالتعدّد منتف لأجل امتناع الفساد .

وقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(2) .

وقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾(2)

وقوله حكاية عن الخليل : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾(3) إلى قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾(3) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(4) ؛ المعنى أنّ الأهونَ أدخلُ فى الإمكان من غيره ؛ وقد أمكن هو ، فالإعادة أدخل فى الإمكان من بدء الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ . . . ﴾(5) الآية ، وهذه حجة عقلية ، تقديرها أنه لو كان خالقان لاستبدّ كل منهما بخلقه ، فكان الذى يقدر عليه أحدهما لا يقدر عليه الآخر ، ويؤدّى إلى تناهى

---

(1) سورة الأنبياء ٢٢
(2) سورة يس ٧٩ ، ٨١
(3) سورة الأنعام ٣٠ ، ٨٣
(4) سورة الروم ٢٧
(5) سورة المؤمنون ٩١

مقدوراتهما[١] ؛ وذلك يبطل الإلهية ، فوجب أن يكون الإله واحدا ثم زاد فى الحجاج فقال : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[٢] ، أى ولغلب بعضهم بعضا فى المراد ، ولو أراد أحدهما إحياء جسم والآخر إماتته لم يصحّ[٣] ارتفاع مرادهما ؛ لأن رفع النقيضين محال ، ولا وقوعهما للتضادّ ، فنفى وقوع أحدها دون الآخر ؛ وهو المغلوب وهذه تسمى دلالة التمانع ، وهى كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[٦] فبيّن أنّا لم نخلق المنىّ لتعذّره علينا ، فوجب أن يكون الخالق غيرنا .

* * *

ومنه نوع منطقىّ وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين ، وذلك من أول سورة الحج إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[٧] ، فنطق على خمس نتائج من عشر مقدمات ؛ فالمقدمات من أول السورة : ﴿ وَأَنْبَتَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٨] ، والنتائج من قوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾[٩] إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾[٧] .

وتفصيل ترتيب المقدمات والنتائج أن يقول : أخبر الله أنّ زلزلة الساعة شىء عظيم ، وخبرُه هو الحق ، ومَنْ أخبرَ عن الغيب بالحق فهو حق بأنه هو الحق ، وأنه يأتى بالساعة

(١) ت : « مقدوريهما » .
(٢) سورة المؤمنون ٩١
(٣) ت : « رفع » .
(٤) سورة الإسراء ٤٢
(٥) سورة الأنفال ٢٣
(٦) سورة الواقعة ٥٨ ، ٥٩
(٧) سورة الحج ٧
(٨) سورة الحج ٥
(٩) سورة الحج ٦

على تلك الصفات ولا يُعلم صدقُ الخبر إلا بإحياء الموتى ،ليدركوا ذلك ،ومَنْ يأتى بالساعة يحيي الموتى ؛ فهو يحيي الموتى . وأخبر أنه يجعل الناس من هول الساعة سُكارى لشدة العذاب، ولا يقدر على عموم الناس لشدة العذاب إلا مَنْ هو على كل شيء قدير؛ فإنه على كل شيء قدير . وأخبر أنّ الساعة يُجازى فيها من يجادل فى الله بغير علم ، ولا بُدّ من مجازاته ، ولا يجازى حتى تكون الساعة آتية، ولا تأتى الساعة حتى يبعث مَنْ فى القبور ، فهو يبعث مَنْ فى القبور . والله ينزّل الماء على الأرض الهامدة فتنبت من كل زوج بهيج ، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها يبعث من القبور .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1] مقدّمتان ونتيجة ، لأن اتباع الهوى يوجب الضلال ، والضلال يوجب سوء العذاب ؛ فأنتج أنّ اتباع الهوى يوجب سوء العذاب .

وقوله : ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[2] ، أى القمر أفل ، وربى فليس بآفل ، فالقمر ليس بربّى ، أثبته بقياس اقترانى جلىّ من الشكل الثانى ، واحتج بالتعبير على الحدوث ، والحدوث على المحدِث .

---

(١) سورة ص ٢٦ (٢) سورة الأنعام ٧٦

التقسيم

وليس المراد به القسمة العقلية التي يتكلم عليها المتكلم ؛ لأنها قد تقتضي أشياء مستحيلة كقولهم : الجواهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو متفرقة، أو لا مفترقة ولا مجتمعة، أو مجتمعة ومفترقة معا ، أو بعضها مجتمع وبعضها مفترق ، فإن هذه القسمة صحيحة عقلا، لكن بعضها يستحيل وجوده ، وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء ؛ بحيث لا يغادر شيئاً وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء ، كقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] فإنه لا يخلو العالم جميعاً من هذه الأقسام الثلاثة ؛ إما ظالم نفسه، وإما سابق مبادر إلى الخيرات ، وإما مقتصد فيها ، وهذا من أوضح التقسيمات وأكملها.

ومثله قوله : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾[2]، وهذه الآية مماثلة في المعنى للتي قبلها ، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

كذلك قوله تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[3] الآية ، فاستوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[4] إلى قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾[4] ، وهو في القرآن كثير ، وخصوصاً في سورة براءة .

ومنه قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[5] ، وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهما .

---

(١) سورة فاطر ٣٢ (٢) سورة الواقعة ٧ ـ ١٠

(٣) سورة مريم ٦٤ ، وبعدها : ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ .

(٤) سورة النور ٤٥ (٥) سورة الرعد ١٢

وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[1] ، فاستوفت أقسام الأوقات ، من طرَفَىْ كل يوم ووسطه مع المطابقة والمقابلة .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[2] ، فلم يترك سبحانه قسما من أقسام الهيئات .

ومثله آية يونس : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾[3] .

لكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها المبالغة ، وذلك أنّ المراد بالذِّكْر فى الأولى الصلاة فيجب فيها تقديم الاضطجاع ، وإذا زال بعض الضرّ قعد المضطجع ، وإذا زال كل الضرّ قام القاعد ، فدعا لتتم الصحة ، وتكمل القوّة .

فإن قلت : هذا التأويل لا يتم إلا إذا كانت الواو عاطفة ، فإنها تحصل فى الكلام حسن اتّساق ، وائتلاف الألفاظ مع المعانى ، وقد عدل عنها إلى « أو » التى سقط معها ذلك .

قلت : يأتى التضرّع على أقسام ، فإنّ منه ما يتضرّع المضرور عند وروده ، ومنه مايقعده ، ومنه ما يأتى وصاحبه قائم لا يبلغ به شيئاً ، والدعاء عنده أولى من التضرّع ، فإن الصّبْر والجزع عند الصدمة الأولى ، فوجب العدول عن الواو ، لتوخّى الصدق فى الخبر ، والكلام بالائتلاف ، ويحصل النّسق ، والخبر بذلك التأويل الأول عن شخص واحد ، وبالثانى عن أشخاص فغلّب الكثرة ، فوجب الإتيان بـ « أوْ » وابتدئ بالشخص الذى تضرع لأن خبره أشدّ فهو أشدّ تضرعا ، فوجب تقديم ذكره ، ثم القاعد ، ثم القائم ، فحصل حسن الترتيب وائتلاف الألفاظ ومعانيها .

---

(١) سورة الروم ١٧ ، ١٨
(٢) سورة آل عمران ١٩١
(٣) سورة يونس ١٢

وقوله : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾(١)،قسّم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ، لأنه سبحانه إمّا أن يُفرد العبد بهبَة الإناث ، أو بهبَة الذكور ، أو يجمعهما له، أو لا يهبُ شيئاً . وقد جاءت الأقسام في هذه الآية لينتقل منها إلى أعلى منها، وهي هبة الذكور فيه ، ثم انتقل إلى أعلى منها وهي وهبتهما جميعاً، وجاءت(٢) كل أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخير ، وقال فيه ﴿ يجعل ﴾ فعدلَ عن لفظ الهبة للتغاير بين المعانى، كقوله:﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾(٣) ، فذكر امتداد إنمائه بلفظ الزرع ، ومعنى الحرمان بلفظ الحطم .

وقيل : إنما بدأ سبحانه بالإناث لوجوه غير ما سبق .

أحدها : جبراً لهنّ ، لأجل استثقال الأبوين لمكانهنّ .

الثانى : أنّ سياق الكلام أنّه فاعل لما يشاء ، لا ما يشاء الأبوان ، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبا وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء ؛ فبدأ بذكر الصنف الذى يشاؤه ولا يريده الأبوان غالبا .

الثالث : أنّه قدم ذِكر ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهنّ؛ أى هذا النوع الحقير عندكم مقدّم عندى فى الذِّكر .

الرابع : قدّمهنّ لضعفهنّ ، وعند العجز والضعف تكون العناية أتم .

وقيل : لينقله من الغمّ إلى الفرج .

وتأمّل كيف عرّف سبحانه الذكور بعد تنكير، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر نقص المتأخر بالتعريف، فإنّ التعريفَ تنويه .

(١) سورة الشورى ٤٩ ، ٥٠

(٢) ت : « وجاء فيه كل أقسام العطية » .

(٣) سورة الواقعة ٦٣ ـ ٦٥

وهذا أحسن مما ذكره الواحدى أنه عرّف الذكور لأجل الفاصلة .

ولمّا ذكر الصنفين معا قدّم الذكور ، فأعطى لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير . والله أعلم بما أراد .

بقى سؤال آخر ؛ وهو أنه عطف الثانى والرابع بالواو ، والثالث بـ « أو » ولعلّه ، لأنّ هِبة كلّ من الإناث والذكور قد لا يقترن بها ، فكأنه وهب لهذا الصنف وحده أو مع غيره فلذلك تعينت « أو » . فتأمل لطائف القرآن وبدائعه !

ومن هذا التقسيم أخذ بعض العلماء أن الخنثى لا وجود له ؛ لأنه ليس واحدا من المذكورين ، ولا حجّة فيه ، لأنه مقام امتنان ؛ والمنة بغير الخنثى أحسن وأعظم . أو لأنه باعتبار ما فى نفس الأمر ؛ والخنثى لا يَخرج عن أحدهما .

التعديد

هى إيقاع الألفاظ المبدّدة على سياق واحد؛ وأكثر ما يؤخذ فى الصفات؛ ومقتضاها ألّا يعطف بعضها على بعض لاتحاد محلها، ويجريها مجرى الوصف فى الصدق على ماصدق؛ ولذلك يقلّ عطف بعض صفات الله على بعض فى التنزيل، وذلك كقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(1).

وقوله: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾(2).

وقوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ﴾(3).

وإنما عطف قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(4)؛ لأنها أسماء متضادّة المعانى فى موضوعها، فوقع الوهم بالعطف عمن يستبعد ذلك فى ذات واحدة؛ لأن الشىء الواحد لا يكون ظاهرا باطنا من وجه، وكان العطف فيه أحسن. ولذلك عطف «الناهون» على «الآمرون»، «وأبكارا» على «ثيبات» من قوله: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾(5).

وقوله: ﴿ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(6)، فجاء العطف لأنه لا يمكن اجتماعهما فى محل واحد بخلاف ما قبله.

وقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾(7)، إنما عطف

---

(1) سورة البقرة ٢٥٥
(2) سورة الحشر ٢٥
(3) سورة الحشر ٢٣
(4) سورة الحديد ٣
(5) سورة التوبة ١١٢
(6) سورة التحريم ٥
(7) سورة غافر ٣

فيه بعضا ولم يعطف بعضا ، لأن « غافرا » و« قابلا » يشعران بحدوث المغفرة والقبول ، وهما من صفات الأفعال وفعله فى غيره لا فى نفسه ، فدخل العطف للمغايرة لتنزلهما منزلة الجملتين، تنبيها على أنه سبحانه يفعل هذا ويفعل هذا . وأما شديد العقاب فصفة مشبّهة ، وهى تشعر بالدوام والاستمرار ؛ فتدلّ على القوة ، ويشبه ذلك صفات الذات .

وقوله : ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾[1] ، المراد به ذاته ، فترك العطف لاتّحاد المعنى .

وقد جاء قليلا فى غير الصفات، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ . . . ﴾[2] الآية ، قال الزمخشرى[3] : العطف الأول كقوله : ﴿ ثيّبات وأبكارا ﴾ ، فى أنهما جنسان مختلفان ، إذا اشتركا فى حكم لم يكن بدّ من توسيط العاطف بينهما ، وأمّا العطف الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ؛ فكان معناه : أن الجامعين والجامعات لهذه الصفات[4] أعدّ لهم مغفرة . انتهى .

وقال بعضهم : الصفات المتعاطفة إن علم أن موصوفها واحد من كل وجه ، كقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾[5] ، فإن الموصوف « الله » ، وإما فى النوع كقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾[6] فإن الموصوف الأزواج ، وقوله : ﴿ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ﴾[7] ؛ فإنّ الموصوف النوع الجامع للصفات المتقدّمة . وإن لم يعلم أن موصوفها واحد من جهة وضع اللفظ . فإن دلّ دليل على أنه من عطف الصفات اتبع كهذه الآية ، فإنّ هذه الأعداد لمن جمع الطاعات العشر ، لا لمن انفرد بواحدة منها ؛ إذ الإسلام والإيمان كلٌّ منهما شرطه فى الآخر ، وكلاهما شرْط فى حصول الأجر على البواقى ، ومن كان مسلما مؤمنا فله أجره ، ولكن ليس هذا الأجر العظيم الذى أعده الله فى هذه الآية

---

(١) سورة غافر ٣
(٢) سورة الأحزاب ٣٥
(٣) الكشاف ٣ : ٤٢٦
(٤) الكشاف : « لهذه الطاعات » .
(٥) سورة غافر ٣
(٦) سورة التحريم ٥
(٧) سورة التوبة ١١٢

الكريمة، وقرن به إعداد المغفرة زائدا على المغفرة ؛ فلخصوص هذه الآية جعل الزمخشرىّ ذلك من عطف الصفات ، والموصوف واحد ؛فلو لم يكن كذلك واحتمل تقدير موصوف مع كل صفة وعدمه حُمِل على التقدير ؛ فإن ظاهر العطف التغاير . ولا يقال : الأصل عدم التقدير ؛ لأن الظاهر يقدم على رعاية ذلك الأصل .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ . . . ﴾[1] الآية، ولو كان من عطف الصفات لم يستحقّ الصدقة إلا من جميع الصفات الثمان ، ولذلك إذا وقف على الفقهاء والنحاة والفقراء استحق مَنْ فيه إحدى الصفات .

تم بعون الله وجميل توفيقه الجزء الثالث من كتاب البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشىّ

ويليه الجزء الرابع وأوله : مقابلة الجمع بالجمع ؛ وهو أحد أساليب القرآن المندرجة تحت النوع السادس والأربعين

(١) سورة التوبة ٦٠

فهرس الموضوعات

(*) تابع أقسام التوكيد ، وهو الأسلوب الأول من أساليب القرآن المندرجة تحت النوع السادس والأربعين ، وأوله فى الجزء الثانى ص ٢٨٢

أوجه الكلام على الحذف

حذف الاسم

التغليب وهو أنواع :

الالتفات

(وفيه مباحث)

صفحة

الاستعارة

(وفيها مباحث)

المقابلة

(وفيها مباحث)

أقسامها

